

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(٠٣٢)
كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية
قسم التفسير وعلوم القرآن

التفسير المحمدي

تأليف

الإمام جلال الدين محمد بن أحمد بن نصير الدين
المشهور بحسن محمد ابن نصير (ت ٩٨٢ هـ)

(من أول تفسير سورة يس إلى نهاية تفسير سورة الذاريات)

دراسةً وتحقيقاً

رسالة علمية مقدّمة للحصول على درجة العالمية (الماجستير)

إعداد الطّالب

علي بن محمد بن عبدالله آل صالح الخثعمي

الرقم الجامعي (٣٤١٠٠١٤٣٦)

إشراف

د. علي بن عبدالله السكاكر

الأستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن

العام الجامعيّ ١٤٣٨-١٤٣٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مستخلص البحث

الحمد لله والصلاة و السلام على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فهذه رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من كلية القرآن الكريم- قسم التفسير وعلوم القرآن- وهي بعنوان: التفسير المحمدي، لجلال الدين محمد بن أحمد بن نصير الدين، المشهور بحسن ابن نصير، المتوفى سنة ٩٨٢هـ، من أول تفسير سورة يس إلى نهاية تفسير سورة الذاريات، دراسة وتحقيقا.

والرسالة تتضمن مقدمة، وقسمين، وخاتمة.

المقدمة: وتتضمن أهمية الموضوع، وأسباب اختياري للموضوع، وتوثيق نسبة المخطوط، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ثم منهجي في التحقيق.

وأما القسم الأول فهو قسم الدراسة: وفيه فصلان.

الأول: يتعلق بالتعريف بالمؤلف رحمه الله، وينقسم إلى ستة مباحث، الأول: اسمه ولقبه وكنيته ونسبه، الثاني : مولده ونشأته ووفاته، الثالث: شيوخه وتلاميذه، الرابع: مذهبه الفقهي والعقدي، الخامس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه، السادس: مؤلفاته.

وأما الفصل الثاني: فهو في دراسة الكتاب، وينقسم إلى أربعة مباحث: الأول: وصف النسخة الخطية المعتمدة للكتاب ونماذج منها وقد وجدت للكتاب نسختين خطيتين، هما:

الأولى: نسخة بشير آغا: المحفوظة في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة، برقم (٥٣/٣١٤).

الثانية: نسخة المكتب الهندي بالمتحف البريطاني: المحفوظة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم (٣٥٦٤-٣٥٥٥).

الثاني: تحقيق اسم المخطوط وإثبات نسبته إلى المؤلف، الثالث: منهج المؤلف في الكتاب من خلال القسم المحقق، الرابع: القيمة العلمية للكتاب، وختمت الفصل بتنبيهات عامة على التفسير المحمدي.

وأخيرا خاتمة البحث، وقد ذكرت فيها ملخص البحث، ثم ألحقت الرسالة بتسعة فهارس متنوعة.



Abstract

All praise be to Allah, and peace and blessings be upon His Messenger Mohammed and upon his family and companions.

This is a Thesis submitted in fulfillment of the requirements of the Master's Degree from Faculty of Holy Quran – Department of Quran's Interpretation and Sciences.

Thesis Title: al-tafsir al-mohammadi for Jalaluddin Mohammed Ibn Ahmed Ibn Nasiruddin, known as Hassan Ibn Nassir (D. 982H), from the interpretation of Surat Yassin to the end of Surat Al-dhariat. (Study and Revision).

The study plan includes an introduction, two divisions and a conclusion.

The introduction explained the importance of subject, reasons of selecting the subject, authenticating the attribution of this manuscript, literature reviews, study plan and methodology of revision.

The first division: (The Study: includes two chapters).

First chapter: includes a biographical overview of the author. It is divided into six topics: first topic: author's name, surname, cognomen and nickname, second topic: his birth, education and death, third topic: his Sheikhs and students, fourth topic: his juristic and creedal school, fifth topic: his scientific position and praise of scholars to him and the sixth topic: his writings.

Second Chapter: the study of the book. It includes four topics: first topic: the description of the certified written version of the manuscript and certain examples. There were found two written versions of this manuscript:

The first: Bashir Agha Version: conserved at King Abdulaziz Library in Medina Munawarah under No. (53/314).

The second: Indian Office Version at British Museum: conserved at King Faisal Center for Research and Islamic Studies under No. (3555-3564).

Second topic: the authentication of the manuscript and attribution to the author. Third topic: The methodology of the author in this manuscript through the revised division. Fourth Topic: the scientific value of the manuscript.

I concluded the chapter with general comments on al-tafsir al-mohammadi.

The Conclusion: I mentioned the research summary followed by nine different indexes.



المقدمة

وتحتوي على:

- أهمية الموضوع.
- أسباب اختيار الموضوع.
- توثيق نسبة المخطوط.
- الدراسات السابقة.
- خطة البحث.
- منهج التحقيق.
- وقفة شكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على خير خلقه، وأفضل رسله، الأسوة الحسنة، والبشير النذير، وسيد ولد آدم أجمعين، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى صحابته الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ مِن أشرف العلوم علم التفسير؛ لارتباطه بخير الكلام، الذي هو القرآن العظيم، والمعجزة الكبرى لرسولنا ﷺ، وهو كتاب الله الذي أنزله على رسوله ليكون للعالمين نذيراً، وهو الهدى والنور، وهو المنهج الأسمى للحياة، والصراط المستقيم للسالكين، والمصدر الأول لشريعة الإسلام، وهو الشفاء لما في الصدور، والنور لظلمة القبور، والحجة لأهله يوم النشور.

ومِن المعلوم أنَّ علم التفسير بدأ في عهد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهو أعلمُ الناسِ بكلام ربِّه، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩]، فتلقَّى النبيُّ القرآنَ عن الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُم بلّغه أحسن تبليغ، وفسَّره أفضل تفسير، وقام به خير قيام، وبيّن ما إليه الناس يحتاجون.

ثم تلقَّى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ التفسيرَ عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وحرصوا على سماعه وحفظه، وسألوا عن بعض معانيه مِمَّا أشكل عليهم، فتعلَّموه، وفهموه، وعمِلوا به، ومِن أبرزهم الخلفاء الراشدون: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان ذو النورين، وعلي أبو السبطين، ومنهم عبد الله بن عباس ترجمان القرآن، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم -رضوان الله عليهم أجمعين-.

ثم تلاهم في ذلك التابعون -رضوان الله عليهم-، فتلقوا عن الصحابة القرآنَ

وتفسيره، ونقلوه عنهم إلى غيرهم مِن تابعي التابعين -رحمهم الله-، ونقلوه إلى مَن بعدهم رحمة الله عليهم أجمعين.

واستمرت عناية السلف بهذا العلم حيث ألَّف في التفسيرِ جمعٌ مِن العلماء على مَرِّ الأزمان والعصور بدءًا مِن القرن الثاني الهجري إلى عصرنا هذا، ومِن مختلف البلدان مِن شرقها إلى غربها.

وكان من هؤلاء العلماء محمد بن أحمد بن نصير الدين الكَجْراتي، والمشهور بابن نصير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو مِن علماء الهند، وعاش في القرن العاشر الهجري، فألَّف كتاباً في التفسير، وسماه: (التفسير المحمدي) تيمناً وتبركاً باسم نبينا محمد ﷺ، كما ذكر ذلك في مقدمة تفسيره(١) حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَمَّا كان جميع ذلك بالفيض النبويِّ(٢) سمّيته بالتفسير المحمدي». حيث فسَّر القرآن الكريم تفسيراً إجمالياً بأسلوب سهل، وكان متوسط الحجم؛ ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل.

ولما كان البحث حول موضوع معين مِن متطلبات الحصول على الدرجة العالمية الماجستير، وقع اختياري على هذا المخطوط، فاستخرت الله تعالى في تحقيق جزء منه

---

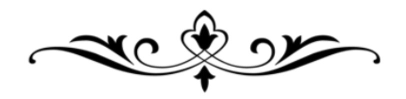
(١) انظر اللوح رقم (١) من المخطوط.

(٢) الفيض في اللغة من: (فَاضَ) الْخَبَرُ يَفِيضُ وَ (اسْتَفَاضَ) أَيْ شَاعَ وَهُوَ حَدِيثٌ (مُسْتَفِيضٌ) أَيْ مُنْتَشِرٌ فِي النَّاسِ. وَيُقَالُ: (أَفَاضَ) إِنَاءَهُ أَيْ مَلَأَهُ حَتَّى (فَاضَ) وَ (أَفَاضَ) دُمُوعَهُ. وَأَفَاضَ الْمَاءَ عَلَى نَفْسِهِ أَيْ أَفْرَغَهُ. وَأَفَاضَ النَّاسُ مِنْ عَرَفَاتٍ إِلَى مِنًى أَيْ دَفَعُوا. وَكُلُّ دَفْعَةٍ (إِفَاضَةٌ). وَ (أَفَاضُوا) فِي الْحَدِيثِ انْدَفَعُوا فِيهِ. وَ(الْفَيْضُ) نِيلُ مِصْرَ وَنَهْرُ الْبَصْرَةِ أَيْضًا. وَنَهْرٌ (فَيَّاضٌ) بِالتَّشْدِيدِ أَيْ كَثِيرُ الْمَاءِ. وَرَجُلٌ فَيَّاضٌ أَيْضًا أَيْ وَهَّابٌ جَوَادٌ. انظر مختار الصحاح (ص: ٢٤٥).

والفيض مصطلح فلسفي صوفي انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٢٧٩).

قال شيخ الإسلام في مختصر الصواعق المرسلة (ص ٤٩٥): الْمَذْهَبُ الثَّانِي: مَذْهَبُ الْفَلَاسِفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ أَتْبَاعِ أَرِسْطُو، وَهُمُ الَّذِينَ يَحْكِي ابْنُ سِينَا وَالْفَارَابِيُّ وَالطُّوسِيُّ قَوْلَهُمْ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ فَيْضٌ فَاضَ مِنَ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عَلَى النُّفُوسِ الْفَاضِلَةِ الزَّكِيَّةِ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا، فَأَوْجَبَ لَهَا ذَلِكَ الْفَيْضُ تَصَوُّرَاتٍ وَتَصْدِيقَاتٍ بِحَسَبِ مَا قَبِلَتْهُ مِنْهُ.

(من أول تفسير سورة يس إلى نهاية تفسير سورة الذاريات)، وهو في (٦٤) لوحاً مِن نسخة بشير آغا المحفوظة بمكتبة الملك عبدالعزيز برقم (٥٣/٣١٤)، ويوجد نسخة منها مصورة في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهي نسخة كاملة تتكون من (٥١٤) لوحاً، وعدد أسطرها (٢٧ سطراً).



۞ أهمية الموضوع:

إنَّ هذا الكتاب يتعلق بتفسير كلام الله تعالى، الذي هو الحُجَّة البالغة، والصراط المستقيم، والنور المبين الذي أشرقت له الظلمات، والرحمة المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، فخدمته أجلُّ ما تصرف فيه الأعمار، وأعظم ما يتقرب به العبد إلى مولاه.

وتبرز أهمية هذا التفسير في عدة جوانب:

١- أنَّ مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربط بين الآيات ربطاً بديعاً بأوجز عبارةٍ وأتمِّ معنى؛ لذا فإنَّ الكتاب الذي بين أيدينا سيُلَبِّي حاجة المكتبة الإسلامية، ويشبع شيئاً مِن نهم طلاب العلم، ويسد ثغرة مهمةً في هذا المجال.

٢- أنه حوى كثيراً مِن الفوائد والاستنباطات والدرر، مما يجدر بطالب العلم الاطلاع عليها، والإفادة منها، وبذل الجهد في ذلك.

٣- أن هذا المخطوط رغم الأهمية التي يتمتع بها إلا أنه ما زال حبيس خزائن كتب التراث، ونرجو من هذه الدراسة أن تظهره وتقربه إلى من ينتفع به -بإذن الله-.

٤- أن فيه إظهار تراث وعلم أحد أعلام الأمة الإسلامية، الذين بذلوا جهودهم في التصنيف والتأليف خدمةً للعلوم الإسلامية عامة، وكتاب الله خاصة.

۞ أسباب اختيار الموضوع:

لقد دفعني لاختيار هذا الموضوع ليكون بحثاً لي في مرحلة الماجستير أسبابٌ عديدة، منها:

١- جِدّة هذا الموضوع، ففيما أعلم لم يتعرض أحدٌ مِن طلاب العلم له بالتحقيق.

٢- الرغبة في خدمة كتاب الله تعالى مِن خلال تحقيق المخطوط المسمى: (التفسير المحمدي)، والذي يعين على فهم كلام الله تعالى، ويبين معانيه.

٣- حاجة مجتمعنا اليوم إلى مثل هذا الكتاب الشامل السهل المعين على فهم كتاب الله تعالى، وتحقيق مراده.

٤- قِلَّة التراث الفكري القادم إلينا مِن القارة الهندية، وخاصة في علم التفسير، مقارنة بما يروج بيننا من تراث المشارقة والمغاربة.

٥- الإحساس بقيمة التراث الإسلامي الذي يمثل ذاكرة الأمة، ودوره في تغيير واقعنا المعاصر؛ يدفعنا إلى توثيق الصلة به، وإخراجه من غياهب وخزائن المكتبات إلى حَيِّز الوجود، بنشره محققاً مقرباً إلى الأذهان، جامعاً بين الأصالة والإبداع.

٦- أردتُ أن يكون لي شرفُ المشاركة بجهد المقِلِّ في إحياء التراث الإسلامي، ونفض الغبار عن تراث علمائنا الأجلاء لإثراء المكتبة الإسلامية، واكتساب الخبرة في تحقيق هذا المخطوط، وإظهاره بما يليق بمكانته العلمية.

۞ توثيق نسبة المخطوط:

يُطمئن الباحثَ إلى صحة نسبة هذا الكتاب إلى ابن نصير رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأمورُ التاليةُ:

١- اتفاق نُسَخِ المخطوط على نسبتها للمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- تصريحُ ابن نصير نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتأليف هذا الكتاب في مقدمته[1]، حيث قال -رحمه الله تعالى-: (أمَّا بعد: فيقول العبد الفقير محمد بن أحمد بن نصير المعروف بحسن محمد....) إلى أن قال رحمه الله : (ولَمَّا كان جميع ذلك بالفيض النبويِّ سمّيته بالتفسير المحمدي فأقول وبالله التوفيق سورة فاتحة الكتاب).

٣- نَسَب هذا التفسير لابن نصير، عبدُ الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي، المتوفى سنة ١٣٤١هـ، في كتابه: «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» «الإعلام بمن في تاريخ الهند مِن الأعلام» في قوله: (وله مصنفات عديدة،

(١) انظر اللوح رقم (١) من المخطوط.

منها تفسير القرآن الكريم، اجتهدُ فيه في رَبط الآيات بعضِها ببَعض)[1].

۞ الدراسات السابقة:

حسَب اطّلاعي، وعِلمي، لم أقِف على دراسة حول هذا الكتاب إلا ما تقدمني به زملائي الذين شاركوني في الموضوع وهم:

١- عبدالحميد بن عبيدالله رباح الجابري العمري. من أول الكتاب إلى آخر تفسير سورة آل عمران، وقد تمت مناقشة بحثه.

٢- المختار محمد أحمد الشيخ. من أول تفسير سورة النساءإلى آخر تفسير سورة الأنعام، وقد تمت مناقشة بحثه.

٣- محمد عبدالمجيد عبدالقيوم. من أول تفسير سورة الأعراف إلى آخر تفسير سورة يونس، وقد تمت مناقشة بحثه.

٤- فواز سعود الصليمي الهذلي. من أول تفسير سورة هود إلى آخر تفسير سورة النحل، وقد تمت مناقشة بحثه.

٥- حمزة بن محمد بدوي. من أول تفسير سورة الإسراء إلى آخر تفسير سورة المؤمنون، وقد تمت مناقشة بحثه.

٦- إبراهيم مبارك لافي الوسيدي الحربي. من أول تفسير سورة النور إلى آخر تفسير سورة فاطر، وقد تمت مناقشة بحثه.

۞ خطة البحث:

تتكون خطة البحث من: مقدمة، وقسمين، وخاتمة، وفهارس:

المقدمة: وتشتمل على:

١- أهمية الموضوع.

---

(١) نزهة الخواطر (٤/٣٣٠).

٢- أسباب اختياره.

٣- توثيق نسبة المخطوط.

٤- الدراسات السابقة.

٥- خطة البحث.

٦- منهج التحقيق.

القسم الأول: **الدراسة النظرية**: وفيه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالمؤلف رحمه الله تعالى، وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ولقبه وكنيته ونسبه.

المبحث الثاني: مولده ونشأته ووفاته.

المبحث الثالث: شيوخه وتلاميذه.

المبحث الرابع: مذهبه الفقهي والعقدي.

المبحث الخامس: مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه.

المبحث السادس: مؤلفاته.

الفصل الثاني: التعريف بالكتاب، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: وصف النسخة الخطية المعتمدة للكتاب، ونماذج منها.

المبحث الثاني: تحقيق اسم المخطوط وإثبات نسبته إلى المؤلف.

المبحث الثالث: منهج المؤلف في المخطوط من خلال القسم المحقق.

المبحث الرابع: القيمة العلمية للكتاب.

- تنبيهات عامة على التفسير المحمدي.

القسم الثاني: النص المحقق:

من أول تفسير سورة يس إلى آخر تفسير سورة الذاريات.

الخاتمة، وتشتمل على ملخص البحث، وأهم النتائج.

الفهارس، وتشمل التالي:

١- فهرس الآيات القرآنية المستشهد بها.

٢- فهرس الأحاديث النبوية.

٣- فهرس الآثار.

٤- فهرس الأشعار.

٥- فهرس الأعلام المترجم لهم.

٦- فهرس الكلمات الغريبة.

٧- فهرس الأماكن والبلدان.

٨- فهرس المصادر والمراجع.

٩- فهرس الموضوعات.

۞ منهج التحقيق:

يتلخص المنهج الذي اتبعته في ما يلي:

١- اختيار النسخة الأم من بين النسخ المتوافرة، واعتمادها أصلاً لبقية النسخ.

٢- نسخ القسم المراد تحقيقه حسب القواعد الإملائية الحديثة.

٣- إثبات الفروق بين الأصل وبين النسخة الأخرى في الهامش، ولا أتصرف في الأصل، إلا إذا كان فيه خطأ ظاهرٌ، فإني أثبت ما أراه صواباً مما في النسخة الأخرى، وأشير إلى ذلك في الهامش.

٤- كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها بذكر اسم السورة ورقم الآية

داخل النص، وعقب الآية مباشرة.

٥- عزو القراءات المتواترة والشاذة إلى مصادرها الأصلية.

٦- عزو الأحاديث إلى مصادرها، فإن كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك، وإلا عزوته إلى كتب الحديث كالسنن، والمسانيد، والمعاجم، مع ذكر كلام أهل العلم في بيان درجة الحديث قدر الإمكان.

٧- عزو الآثار إلى مصادرها.

٨- توثيق الشواهد الشعرية من مصادرها، ونسبتها إلى قائليها.

٩- توثيق ما ينقله عن أهل العلم من كتبهم المطبوعة، فإن لم يكن للمنقول عنه كتاب فمن الكتب المعتمدة في ذلك الفن أو ممن نقل عنهم.

١٠- بيان معنى الغريب من المصادر المعتمدة.

١١- التعريف الموجز بالأعلام والأماكن والبقاع والبلدان والقبائل غير المشهورة.

١٢- الالتزام بعلامات الترقيم، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

١٣- تذييل البحث بالفهارس العلمية على النحو المبين في الخطة.

١٤- التعليق العلمي على ما يحتاج إلى تعليق.

وما توفيقي إلا بالله، هو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



وقفة شكر

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّه الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، أما بعد:

فأشكر الله ربي سبحانه الكريم المنان -أولاً وآخراً- على أن مَنَّ عليّ بنعمه الكثيرة التي لا تُحصى، ومنها أن يسّر لي كتابة هذا البحث، الذي أسأل الله أن ينفعني به في حياتي وبعد مماتي، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ثم أُثنّي بالشكر لوالديّ العزيزين، اللَّذَين هما سبب وجودي في هذه الحياة، فلقد قدَّما لي الكثير مِن البذل والتضحية والنصح والتربية والصبر والدعاء؛ فجزاهما الله خيراً كثيراً، وأحسن الله لهما كما أحسنا إِلَيَّ، ورحم الله أبي رحمةً واسعة، وجمعنا به في الفردوس الأعلى، وشفى الله أمي، ومتَّعها بالعافية، وأطال الله عمرها على الطاعة.

وأتقدَّم بالشكر للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة على أن أتاحت لي فرصة القبول في الدراسات العليا في كلية القرآن الكريم – قسم التفسير وعلوم القرآن، وأن أكون أحد طلابها، وألتحق بركب أهل العلم فيها، فلقد استفدتُ كثيراً مِن أعضاء هيئة التدريس المشايخ الفضلاء خلال دراستي في مرحلة الماجستير، فكتب الله أجرهم، ورفع قدرهم، وبارك لهم في علمهم وأهليهم وذريّاتهم، وجمعنا بهم في الدنيا على طاعته، وفي الآخرة في مُسْتَقَرِّ رحمته.

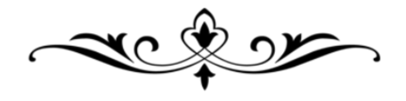
وأَخُصُّ بالشكر شيخنا سعادة الدكتور/ علي بن عبد الله السكاكر، الذي أشرف على بحثي، حيث كان له الأثر الكبير في كتابة البحث، فقام بمراجعته وتصويبه، وتوجيهي التوجيه العلمي، وأرشدني إلى فوائد كثيرة في التخريج وطرقه، وتصحيح النص، وقراءة المخطوط، ومقابلة النسخ، والتعليق العلمي، إلى آخر ما يتعلق بالبحث، فجزاه الله خير الجزاء، فلقد كان نِعْمَ المشرف والموجه لإكمال البحث، ويكفي من ذلك كله أنَّه كان يتابعني خلال الإجازات، وفي مختلف الأوقات من ليل ونهار، مِن بداية كتابة البحث إلى وقت تسليمه، فكتب الله أجره، ورفع ذكره، وأجزل الله له المثوبة.

ولا أنسى زملائي الذين شاركوني في مشروع تحقيق التفسير المحمدي؛ فأشكرهم على ما بذلوه معي في البحث عن المخطوط، وتقديم الخطة، وتداول الفوائد، وكان في مقدمتهم الأخ الفاضل الزميل/ عبد الحميد بن عبيد الله الجابري، فأشكره على جهوده الفعالة في الحصول على مخطوط التفسير المحمدي، وتحقيق الجزء الأول منه، فجزاه الله خير الجزاء.

وممن كان أقرب الناس مني خلال دراستي في مرحلة البكالوريوس والماجستير هي زوجتي الحبيبة، فكانت لي سَنَداً كبيراً، ودَعْماً بالغاً في بدء واستمرار مسيرتي الأكاديمية والعملية، فجزاها الله خيراً على حسن صبرها، وطيب معشرها.

وأخيراً أشكر كل من شاركني بقليلٍ أو كثيرٍ في هذا البحث، وكتابته، وتسليمه، ومناقشته، وجزى الله مَن أعانني فيه خير الجزاء مِن قريبٍ أو بعيد، ومِمَّن أعرف ومِمَّن لا أعرف.

والحمد لله رب العالمين



القسم الأول

الدراسة النظرية

ويشتمل على فصلين:

- الفصل الأول: **التعريف بالمؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الفصل الثاني: **التعريف بالكتاب**.

الفصل الأول

التعريف بالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وفيه ستة مباحث:

- المبحث الأول: **اسمه ولقبه وكنيته ونسبه.**
- المبحث الثاني: **مولده ونشأته ووفاته.**
- المبحث الثالث: **شيوخه وتلاميذه.**
- المبحث الرابع: **مذهبه الفقهي والعقدي.**
- المبحث الخامس: **مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.**
- المبحث السادس: **مؤلفاته.**

۞ المبحث الأول: اسمه، ولقبه، وكنيته، ونسبه

هو محمد بن أحمد بن نَصِير الدِّين العمري أبو صالح حسن محمد الكَجْراتي[1].

۞ المبحث الثاني: مولده ونشأته ووفاته

ولد سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة بأحمد آباد[2].

وقرأ العلم على مَن بها من العلماء، وأخذ عن والده وعمه الشيخ جمال الدين[3].

توفي لليلتين بقيتا مِن ذي القعدة، سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وله تسع وخمسون سنة، كما في أنوار العارفين[4].

۞ المبحث الثالث: شيوخه وتلاميذه

مِن أبرز شيوخه الذين قرأ عليهم وسمع منهم: والده، وعمه جمال الدين، وعلى علماء بلدته في أحمد آباد[5].

أما تلاميذه فلم أقف على أيِّ أحدٍ منهم بعد النظر في ترجمته.

۞ المبحث الرابع: مذهبه الفقهي والعقدي

❐ أولاً: مذهبه الفقهي:

لم يتبين لي مذهب المؤلف الفقهي؛ لندرة المسائل التي تعرض لها خلال الجزء المحقق، فكان عدد السور ١٦ سورة، منها ١٣ سورة مكية و٣ سور مدنية فقط، وهي

---

(١) انظر: مقدمة المخطوط اللوح رقم (١)، ونزهة الخواطر (٤/٣٢٩).

(٢) نزهة الخواطر (٤/٣٢٩)، وبلدة أحمد أباد: قرية من قرى ريوند من نواحى نيسابور. انظر مراصد الاطلاع (١/ ٣٨). وهي من المدن المعروفة اليوم في الهند.

(٣) المصدر السابق (٤/٣٢٩).

(٤) المصدر السابق (٤/٣٢٩)، ولم أقف على كتاب أنوار العارفين ولكن ذكره صاحب نزهة الخواطر.

(٥) المصدر السابق (٤/٣٢٩).

سورة القتال وسورة الفتح وسورة الحجرت، ومعلومٌ أنَّ السور المكية تحوي مسائل وأحكاماً فقهية أقل مما في السورة المدنية، وقد أورد مسائل فقهية قليلة أثناء تفسير الآيات، ويذكر بعض أقوال الفقهاء في ذلك، وأحياناً ينسبها إلى قائليها من أئمة المذاهب الأربعة.

وعند الرجوع إلى الإخوة الزملاء الذين شاركوني في تحقيق هذا الكتاب تبين لي أن مذهبه حنفي؛ حيث قال في تفسير سورة النساء في مسألة المسافة التي تبيح القصر: (وأقل سفر يقصر فيه ستة بُرُد عندنا)[(١)] يعني بذلك: عند الأحناف.

❑ ثانياً: مذهبه العقدي:

لم تتبين لي عقيدته من خلال التراجم، ولكن مِن خلال قراءتي لنماذج متفرقة من تفسيره تبين لي ما يلي:

١- سلامة أصول معتقده في توحيد الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وتنْزيه الله عما لا يليق به، ومن أمثلة ذلك:

أ- قال في تفسيره للآية رقم (١٥٩) من سورة الصافات: (فإذا علم أوصافه سبحانه ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ مِمَّا لا يليق به سبحانه. ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ المنزِّهون عما لا يليق به، ومَن يسبّح وينَزّه ويُطيع دائماً كيف يرضى عمّن يُشبه ويَنسب إليه ما لا يليق، وما ذلك إلا لجهلهم غاية الجهل)[(٢)].

ب- وقال في موضع آخر: (وهم إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴿ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ [الصافات:١٤٩]، ففي كلٍّ مِن ذلك شناعةٌ عظيمةٌ، [وأشنع في][(٣)] جميع ذلك إثبات ما يكرهون له سبحانه، ثم يُثبتون للملائكة الأنوثة)[(١)].

---

(١) انظر المجموع شرح المهذب (٤/ ٣٢٣)، وقد رجعت في ذلك إلى النص المحقق من التفسير المحمدي والذي قام بتحقيقه زميلي الطالب/ المختار محمد أحمد الشيخ.

(٢) انظر تفسير سورة الصافات (ص٩٦) في القسم المحقق.

(٣) كذا في المخطوط، ولعل صوابها : [وأشنع ما في].

٢- تعظيمه لقدر الأنبياء، والدفاع عنهم، والاعتذار لهم، وحسن الظن بهم:

حيث قال عند ذكره لبعض روايات قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: (رُوِي عن علي رضي الله تعالى عنه قال: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدته مائة وستين» فلعلَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنَّما عين ذلك العدد لأنَّ جلد القذف ثمانون، فغلظ في ذلك حتى جعل ذلك بمنْزلة القذف، ثم جعل حده ضعف حد القذف؛ **تعظيماً للأنبياء** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)[٢].

٣- موافقته لمذهب أهل السنة والجماعة في القول بعدم عصمة الأنبياء مِن الزلات كما هو قول أكثر العلماء القائلين بوقوع صغائر الذنوب منهم، بعد اتفاقهم على عصمتهم من الكبائر وتبليغ الرسالة:

وقد أشار إلى شيء من ذلك عند تفسيره للآية رقم (١٩) مِن سورة القتال، قال: (فإنك إذا علمت ذلك ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ مِن الزَّلات؛ فإنَّ البشر لا يخلو مِن ذلك، وإنما قيل: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ هضماً للنفس، وللتنبيه على أنَّ القليل مِن الشريف كثير، والصغير عظيم، واستغفر أيضاً للمؤمنين والمؤمنات)[٣].

٤- عقيدته في الصحابة -رضوان الله عليهم- توافق عقيدة أهل السنة والجماعة:

فإنَّه عندما يذكر اسماً مِن أسماء الصحابة أو أمهات المؤمنين يترضَّى عنهم، ويُكثر مِن النقل عنهم في غالب الروايات التي يُورِدُها.

ومِن أمثلة ذلك: إثباته لإمامة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي سورة الفتح قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الفتح:١٦] إن تبتم من تخلفكم فلا تقبل توبتكم، إلا أنكم ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو حنيفة أو غيرهم ممن

=

(١) انظر تفسير سورة الصافات (ص٩٥) في القسم المحقق.

(٢) انظر تفسير سورة ص (ص١١٠) في القسم المحقق.

(٣) انظر تفسير سورة القتال (ص٢٥٨) في القسم المحقق.

ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، فأنتم ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ فلا بُدَّ مِن المقاتلة أو إسلامهم؛ إذ لا جزية عليهم، وذا يدُلُّ على إمامة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، فإنَّه لم تتفق هذه الدعوة لغير أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ)[1].

وكذلك ثناؤه على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، فقال في موضع آخر من سورة الفتح: (فبعث ﷺ عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، فحبسوه، فأرجف بقتله، فدعا رسول الله ﷺ أصحابَه، وكانوا ألفاً وثلاثمئة أو أربعمئة أو خمسمئة، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا عنهم، وكان ﷺ جالساً تحت سمرة أو سدرة، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [الفتح:١٨] من الإخلاص ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ ببركة إخلاصهم، ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾)[2].

وكذلك تَرَضِّيه عن الخلفاء الراشدين أبي بكر[3]، وعمر[4]، وعثمان[5]، وعلي[6]، وترضيه عن ابن عباس وأبيه[7]، وعن حمزة[8]، وعن أم هانئ[9]، وعن سائر الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين–.

كما أنه يترضّى عن أئمّة المسلمين؛ كالإمام أبي حنيفة والشافعي[10].

٤– عقيدته في الأسماء والصفات:

مما تبين لي أنه يؤول بعض الأسماء والصفات، ومن ذلك مثلاً:

---

(١) انظر تفسير سورة الفتح (ص٢٦٩) في القسم المحقق.

(٢) انظر تفسير سورة الفتح (ص٢٧٠) في القسم المحقق.

(٣) انظر تفسير سورة الشورى (ص١٩٨) في القسم المحقق.

(٤) انظر تفسير سورة ص (ص١٠٢) في القسم المحقق.

(٥) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٤٥) في القسم المحقق.

(٦) انظر تفسير سورة الفتح (ص٢٧٤) في القسم المحقق.

(٧) انظر تفسير سورة القتال (ص٢٦١) في القسم المحقق.

(٨) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٤٣) في القسم المحقق.

(٩) انظر تفسير سورة ص (ص١٠٧) في القسم المحقق.

(١٠) انظر تفسير سورة القتال (ص٢٥٤) في القسم المحقق.

عند تفسيره للآية رقم (٦٧) من سورة الزمر وهو قول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، قال: (وكيف يُشْرِكون به سبحانه، وهو القادر الذي لا تُتصور قدرته لأحد؛ إذ الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، والمراد بهذا الكلام: تمثيل لعظمته)[1].

فقد تأوَّل المؤلفُ قبضة الله للأرض وطي السماوات بيمينه فصرف اللفظ عن ظاهره، وعن الحقيقة إلى المجاز، وأَوَّلها بالعَظَمة، على عادة الأشاعرة في تأويل صفات الله سبحانه، وهذا مخالف لظاهر نصوص الكتاب والسنة؛ لأنَّ هذه الصفات ثابته لله سبحانه حقيقةً على ما يليق به سبحانه، ولا يعرف كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩] قال: (وفي ذلك اليوم أشرقت الأرض بنور ربها، بما أقام فيها مِن العدل؛ إذ به يزين)[2].

وهذا أيضاً مِن التأويل الذي وقع فيه المؤلف، حيث أوّل نورَ الله إلى العدل، ولا شكَّ في أنه مخالف لظواهر نصوص القرآن والسنة.

قال صاحب كتاب توضيح المقاصد: (قال النَّاظِم في الصَّواعِق الْمُرْسلَة: قد ورد النَّصُّ بتسمية الربِّ نوراً، وبأنَّ له نوراً مُضَافاً إليه، وبأَنَّهُ نورُ السَّماواتِ والأَرْضِ، وبِأَنَّ حجابه نوره؛ فهذِهِ أربَعَة أَنوَاعٍ)[3].

وفي الجملة عقيدته لا تخرج عن عقيدة بعض مَن سبقه وخلفه مِن المفسرين الذين لا تخلو عقائدُهم مِن شيءِ مِن تأويل الأشعرية، والتي لا تصل أحياناً إلى درجة الغلوّ، ومع ذلك طُبعت كتبهم، واعتنى بها طلابُ العلم على مرِّ الدهور، ينتفع بعلمهم الصافي طالبُ العلم المتخصص المميّز بين الغثّ والسمين.

وتجدر الإشارةُ هنا إلى أنيِّ قد لَحَظتُ في موضع واحد ذِكْرَه (لقطب الأولياء) وهو من

---

(١) انظر تفسير سورة ص (ص١٤٦) في القسم المحقق.

(٢) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٤٧) في القسم المحقق.

(٣) انظر: شرح الكافية الشافية (٢/٢٤٠).

ألفاظ الصوفية؛ قال أحمد الفزاري[1]: (القطب: من ألقاب الصّوفية وأهل الصّلاح، وقلّ أن يستعمله الكُتّاب، ولم يستعملوه مضافاً إلى ياء النسب فيما وقفت عليه. و(قطب الأولياء) مِن ألقابهم أيضاً، والأولياء جمع وليّ، وهو خلاف العدوّ، والمراد أولياء الله تعالى). ولا أعلم مَن قصد المؤلفُ بقطب الأولياء، وربما يكون أحد مشايخه، أو مَن اشتهر في ذلك الزمن، فقد نقل صاحب «نزهة الخواطر» أخذه عن بعض طرائق الصوفية[2]، والله أعلم.

۞ المبحث الخامس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

قال صاحب نزهة الخواطر: (كان ابنُ نصيرٍ عالماً كبيراً، بارعاً في الفقه والأصول والعربية والتصوف والتفسير، تولى الشياخة إحدى وأربعين سنة)[3]، وتتضح مكانة المؤلف العلمية -رحمه الله تعالى- مِن خلال قيمة كتابه العلمية، والتي سأتحدث عنها عند الكلام على قيمة الكتاب العلمية.

۞ المبحث السادس: مؤلفاته

١- تعليقات شريفة على تفسير البيضاوي. (لم أجد عنها شيئاً إلا مِن خلال كتاب الإعلام بمن في تاريخ الهند مِن الأعلام، المسمى: بنُزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، عند الترجمة للمؤلف -رحمه الله تعالى-)[4].

٢- حاشية لطيفة على نزهة الأرواح (لم أجد عنها شيئاً إلا من خلال كتاب الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بنُزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر عند الترجمة للمؤلف -رحمه الله تعالى-)[5].

---

(١) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا (٦/٢٤)، وقد بينت ذلك في تفسير سورة غافر (ص١٨٢) في القسم المحقق.
(٢) انظر: نزهة الخواطر (٤/٣٢٩).
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: نزهة الخواطر (٤/٣٣٠).
(٥) انظر: المصدر السابق.

الفصل الثاني

التعريف بالكتاب

وفيه أربعة مباحث:

- ❑ المبحث الأول: **وصف النسخة الخطية المعتمدة للكتاب ونماذج منها.**
- ❑ المبحث الثاني: **تحقيق اسم المخطوط وإثبات نسبته إلى المؤلف.**
- ❑ المبحث الثالث: **منهج المؤلف في الكتاب من خلال القسم المحقق.**
- ❑ المبحث الرابع: **القيمة العلمية للكتاب.**
- ❑ **تنبيهات عامة على التفسير المحمدي.**

۞ المبحث الأول: وصف النسخ الخطية للمخطوط، ونماذج منها

وجدت للكتاب نسختين خطيتين، وهما:

١- نسخة بشير آغا (٥٣/٣١٤)، وهي نسخة كاملة، تتكون من (٥١٤) لوحاً، مقاس الصفحة (١٧×٢٦) سم، وعدد أسطرها (٢٧) سطراً، والنسخة متأثرة قليلاً في مقدمة المخطوط بما لا يزيد عن ثلاث ورقات بالأَرَضَة والرطوبة، وضعت خطوط حمراء فوق الآيات المفسرة، وعليها حواشٍ قليلة، جاء على طُرَّة المخطوط اسم المؤلف، انتهى من نسخها ناسخُها عام ٩٨٢هـ. وقد رمزت لها أثناء التحقيق في الحاشية بالرمز: [ع] نسبةً إلى مكان حفظها في (مكتبة الملك **عبدالعزيز** بالمدينة المنورة). وهي النسخة الأم التي اعتمدها لهذا المخطوط. وذلك لأنها الأقرب إلى عهد المؤلف فقد نسخت في حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبينها وبين نسخة [ف] ما يقرب من ٣١ سنة، ولأنها كاملة وليس فيها نقص كما في نسخة [ف].

٢- نسخة المكتب الهندي بالمتحف البريطاني، المحفوظة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم (٣٥٥٥-٣٥٦٤)، وهي نسخة ناقصة، تبدأ مِن أول الكتاب إلى نهاية سورة المنافقون، تتكون من (٤٥٨) لوحاً، وعدد أسطرها (٢٥ سطراً)، متأثرة قليلاً في بعض صفحاتها بالأَرَضَة والرطوبة. انتهى من نسخها ناسخُها عام ١٠١٣هـ. وقد رمزتُ لها أثناء التحقيق في الحاشية بالرمز: [ف] نسبةً إلى مكان حفظها في (مركز الملك **فيصل** للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض). وفيما يلي نماذج من كلتا النسختين:



اللوح الأول في نسخة [ع]



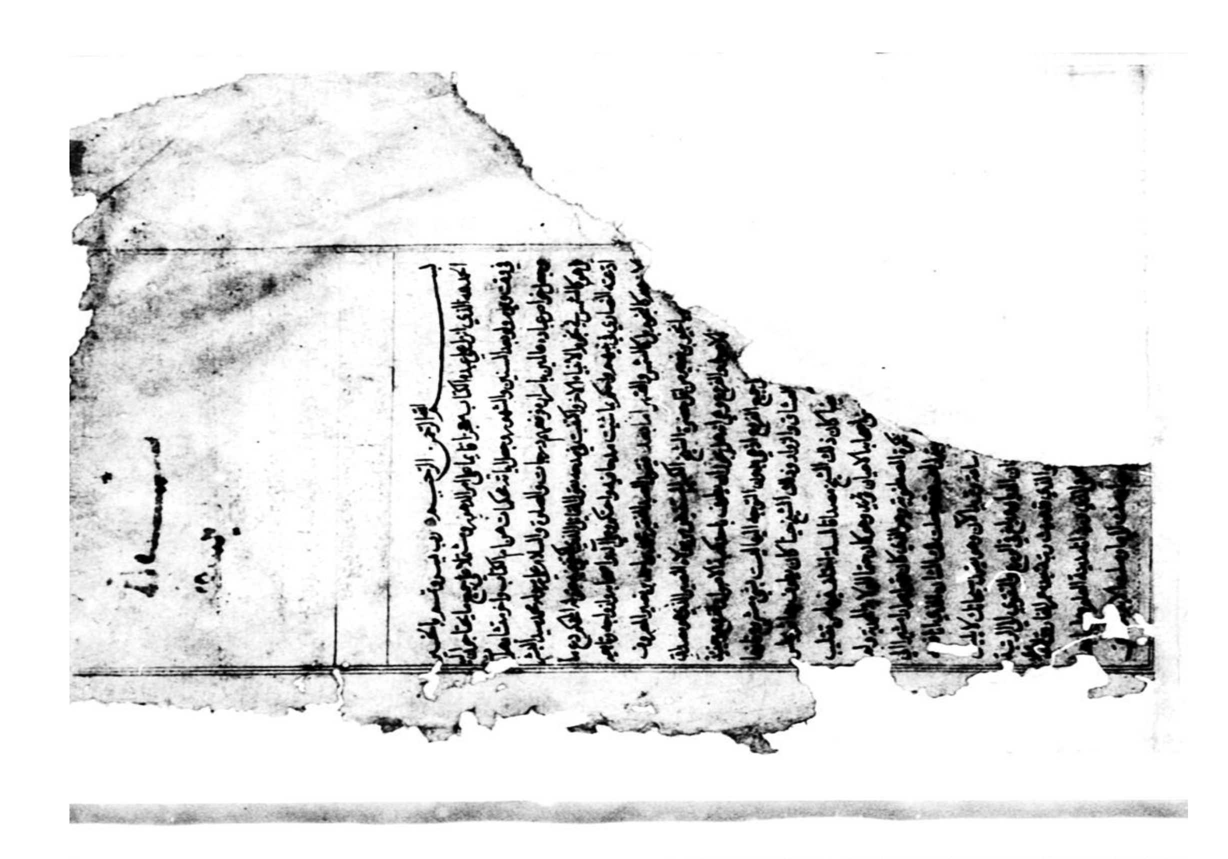
اللوح الأخير في نسخة [ع]

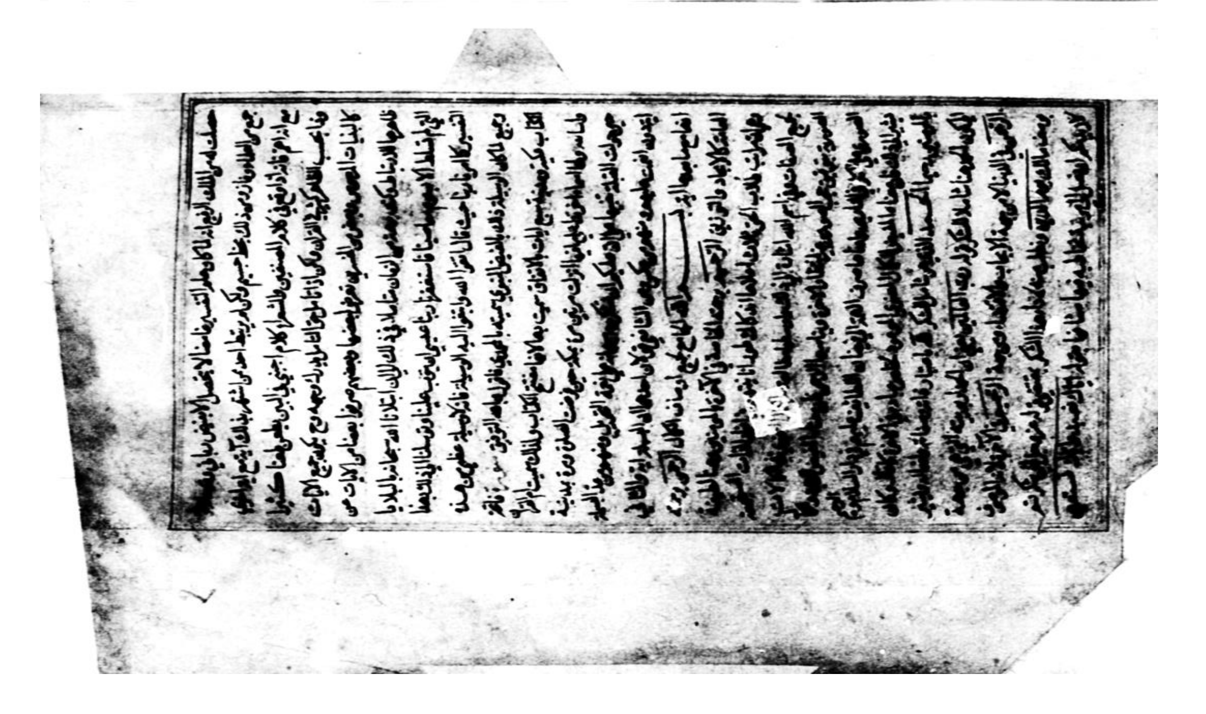


اللوح الأول من تفسير سورة يس في نسخة [ع]

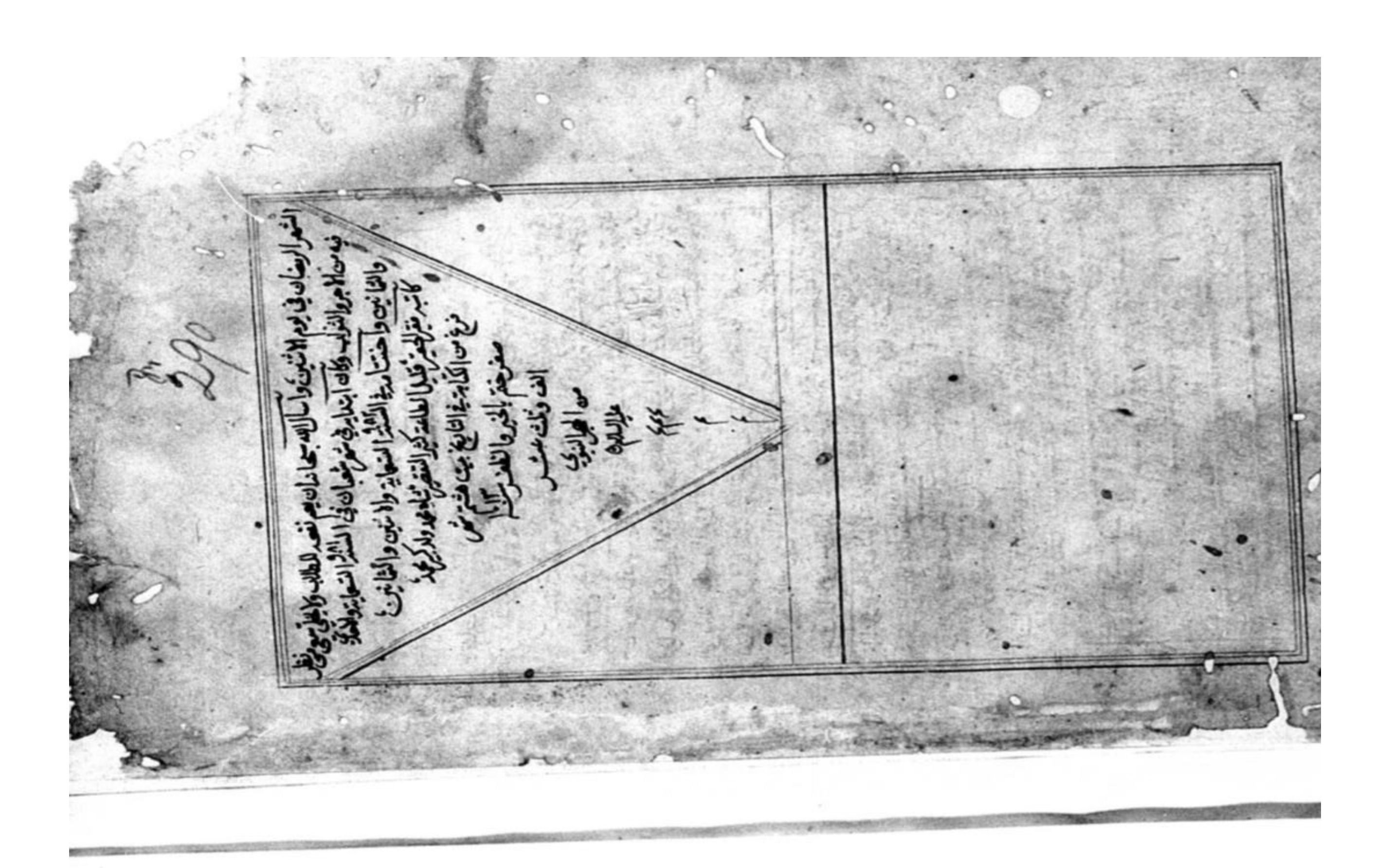


اللوح الأخير من تفسير سورة الذاريات في نسخة [ع]

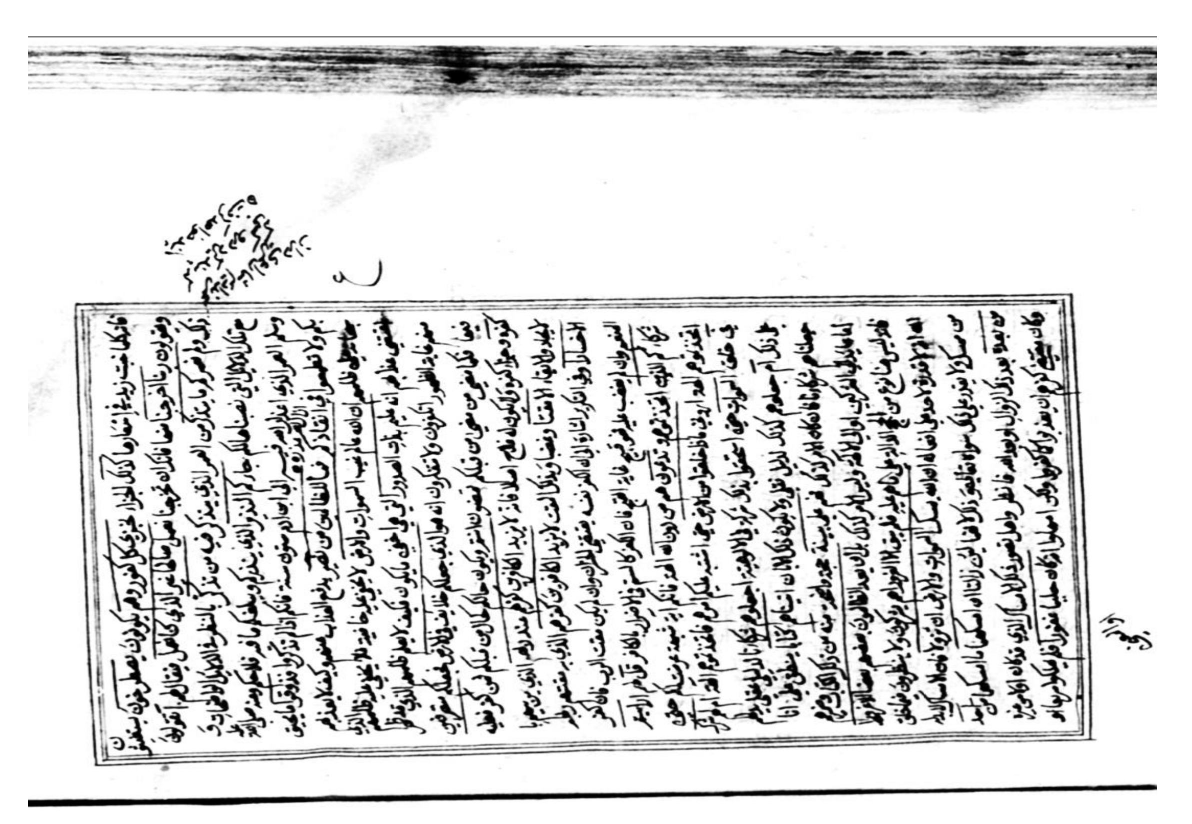


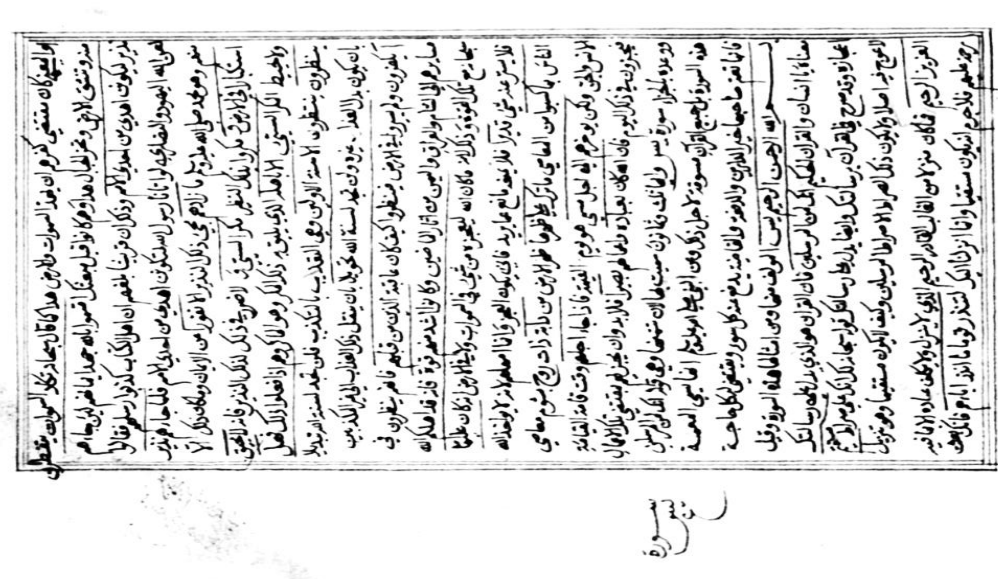


اللوح الأول في نسخة [ف]

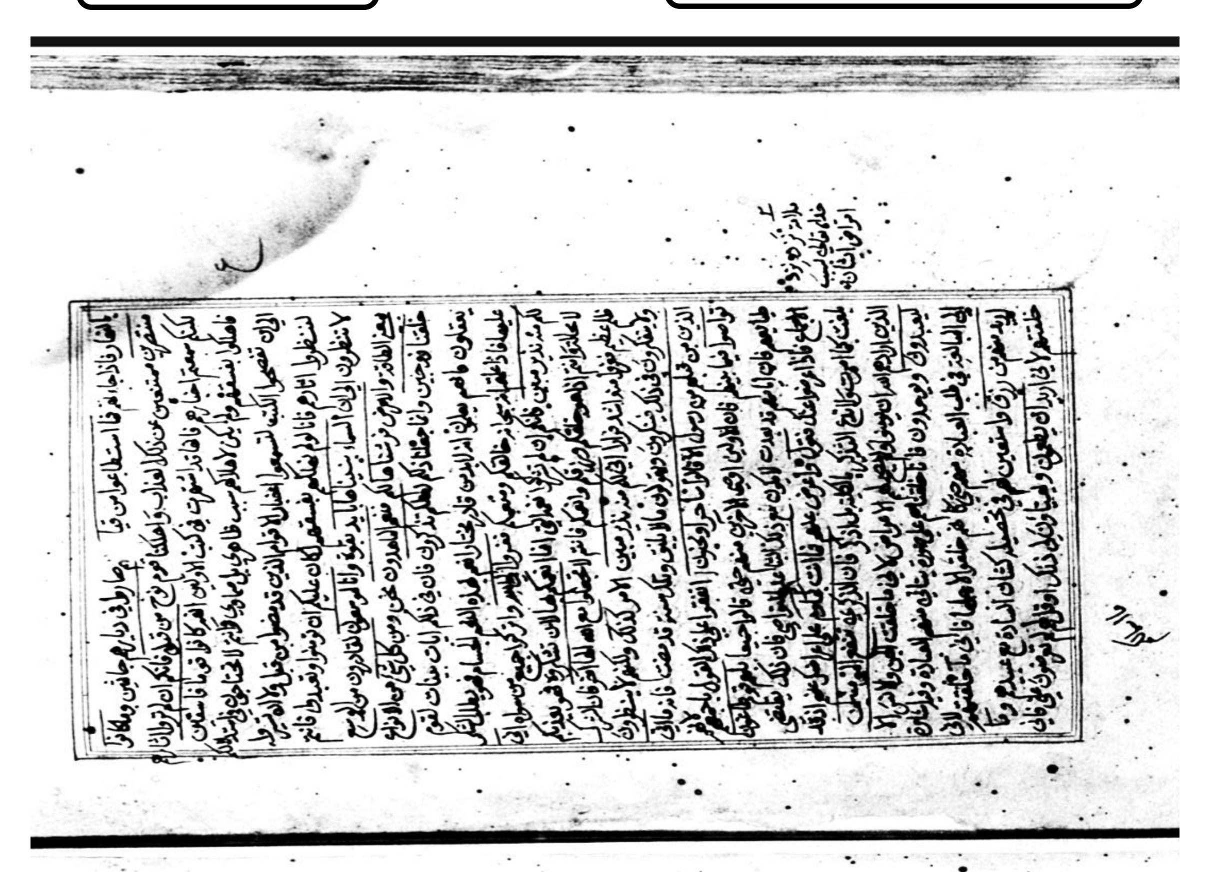


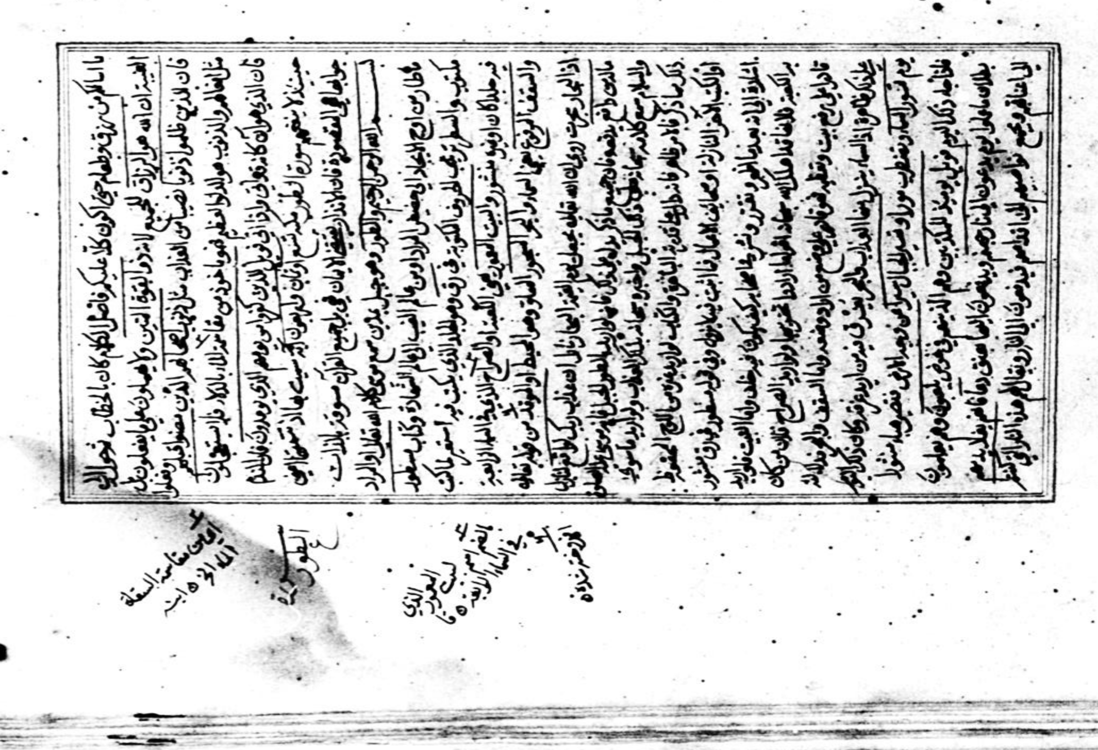
اللوح الأخير في نسخة [ف]





اللوح الأول من تفسير سورة يس في نسخة [ف]





اللوح الأخير في تفسير سورة الذاريات في نسخة [ف]

۞ المبحث الثاني: تحقيق اسم المخطوط وإثبات نسبته إلى المؤلف

قد نصّ ابن نصير رَحِمَهُ ٱللَّهُ على اسم الكتاب في أول المخطوط وفي آخره.

فقال في بدايته: (ولما كان جميع ذلك بالفيض النبوي سميته بالمحمدي)[1].

وقال في خاتمته: (وقد اتفق على إتمام هذا التفسير المشتمل على ربط كل آية بآية أخرى ربطاً تاماً الموسوم بالتفسير المحمدي)[2].

ومما يدلُّ على صحة نسبة هذا الكتاب للمؤلف اتفاق النسختين مثبتاً عليها اسم المؤلف واسم الكتاب، حيث قال في مقدمته: (أما بعد، فيقول العبد الفقير محمد بن أحمد بن نصير، المعروف بحسن محمد ......)[3].

وكذلك نسب هذا التفسير لابن نصير صاحب كتاب «نزهة الخواطر» كما ذكرت ذلك في المقدمة[4].

۞ المبحث الثالث: منهج المؤلف في الكتاب من خلال القسم المحقق

أولاً: يستهلُّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيرَ كلِّ سورةٍ بذكرِ اسم السورة، فيقول مثلاً: (سورة يس).

ويلاحظ على تسميته للسور ما يلي:

١- يذكر المؤلف اسماً واحداً للسورة، دون أن يذكر الأسماء الأخرى[5] التي سُميت

---

(١) انظر: اللوح الأول من المخطوط.

(٢) انظر: اللوح الأخير من المخطوط.

(٣) انظر: اللوح الأول من المخطوط.

(٤) انظر: ص:١٠.

(٥) ذكرتُ أسماء كل سورة في بداية تفسيرها، ونقلتُ ذلك من كتاب: أسماء سور القرآن الكريم، للدكتور محمد الشايع.

بها، باستثناء سورة يس؛ فقد ذكر ثلاثة أسماء، وهي: الْمُعِمّة، والدافعة، والقاضية، كما ورد في بعض الأحاديث، إلا أن تلك الأحاديث ليست ثابتة، كما بينت ذلك في موضعه[1].

٢- يذكر اسم السورة الذي اشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير [2].

٣- قد يأتي باسمٍ أقل شهرةً من الاسم الذي اشتهرت به، فعند تفسير سورة فُصلت ذكرها باسم: (سورة السجدة).

٤- قد يأتي المؤلفُ باسم مستوٍ في الشهرة مع غيره من الأسماء الأخرى، ومثاله: ذكر سورة غافر باسم: (سورة المؤمن)، وذكر سورة محمد باسم: (سورة القتال).

ثانياً: يذكر المؤلف نزول السورة إذا كانت مكية أو مدنية[3]، مع ملاحظة ما يلي:

١- ذكر المؤلف الخلاف في سورة القتال، فقال: (سورة القتال مدنية، وقيل: مكية).

٢- ذكر بعض الأقوال في الآيات المدنية التي وردت في بعض السور المكية، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- عند تفسيره لسورة الزمر قال: (سورة الزمر مكية، إلا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ [الزمر:٥٣]).

- عند تفسيره لسورة الزخرف قال: (سورة الزخرف مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ [الزخرف:٤٥]).

- عند تفسيره لسورة الدخان قال: (سورة الدخان مكية، إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [الدخان:١٥]).

---

(١) انظر ص:٥٢.

(٢) اشتهار السورة باسم ما قد يختلف من مكان لآخر، ومن زمان لآخر.

(٣) قد بينتُ عند ذكر اسم السورة الخلاف في مكية السورة أو مدنيتها، مستعيناً في ذلك بكتاب: المكي والمدني من السور والآيات، للدكتور محمد الفالح.

٣- عند تفسيره لسورة يس لم يذكر هل السورة مكية أم مدنية، وقد بينتُ في الحاشية أنها سورة مكية، وذكرت الخلاف في ذلك[١].

٤- عند تفسيره لسورة ق ذكَر مكان نزولها بعد ذكره لعدد آياتها، بخلاف منهجه الذي درج عليه مِن أنه يبدأ بذكر مكان نزولها، ثم يُتبعه بعدد الآيات.

ثالثاً: يذكر المؤلف عدد آيات السورة عقِب ذكره لمكان نزولها مباشرةً، مع ملاحظة ما يلي:

١- يكتفي بذكر قولين فقط عند الخلاف في عدد الآيات، دون استيعاب الأقوال الأخرى في ذلك[٢]. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- عند تفسير سورة الصافات قال: (وآيها مئة وإحدى أو اثنان وثمانون).
- عند تفسير سورة ص قال: (ست أو ثمان وثمانون آية).
- عند تفسير سورة الزمر قال: (وآيها خمس وسبعون أو اثنا وسبعون آية).

٢- يوجد بعض السور ورد فيها خلافٌ في عدد الآيات، ولم يذكره المؤلف.

ومن أمثلة ذلك عدد الآيات في سورة يس، وسورة الشورى، وسورة الزخرف.

رابعاً: يذكر المؤلف سبب تسمية السورة عقِب إيراده لعدد آيات السورة، مع ملاحظة ما يلي:

١- يذكر المؤلف اسم السورة، ثم يذكر سبب التسمية لذلك الاسم.

٢- يربط المؤلفُ سبب تسمية السورة بأحد مقاصد القرآن الكريم. ومن أمثلة ذلك:

- رسالة محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما في سورة يس، حيث كان جواب القَسَم قوله

---

(١) انظر: ص٥٢.

(٢) قد نقلتُ في بداية كل سورة الخلاف في عدد الآيات، ورجعت في ذلك إلى كتاب (البيان في عد آي القرآن) لأبي عمرو الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٣].

• عبادة الله تعالى، كما في سورة الصافات، حيث إن معنى الصافات: الملائكة التي تَصُفُّ وتعبد الله سبحانه.

• المجازاة بالجنة أو النار، كما في سورة الزمر، حيث يُساق الناس زمراً إلى الجنة والنار بحسب ما عملوه في الدنيا.

٣- بعد أن يربط سبب التسمية بمقاصد وهدايات القرآن يُتبع ذلك بعبارة: (وجميع القرآن مسوق لذلك)، أو نحوها من العبارات.

وفي مطلع تفسير سورة القتال والحجرات قال: (وهي مسوقة لذلك)، وفي باقي السور يقول: (بل **جميع** القرآن مسوق لذلك)، فكأنه يجعل للقرآن هدايات عامة وهدايات خاصة.

٤- في بعض الأحيان يذكر سبب تسمية السور التي تبدأ بالحروف المقطعة. ومثال ذلك:

• في سورة يس قال: (﴿ يسٓ ﴾ [يس:١] المؤلف منها ومن أمثالها هذه السورة، وقيل: معناه: يا إنسان).

• في سورة ص قال: (سُميت بها لأنَّ التي تدل عليها كلمة ﴿ صٓ ﴾ [ص:١] على المعارضة والتحدي).

• في سورة الشورى قال: (وقيل: سُميت السور التي هي مشاركة في مبدئها من بيان حال الكتاب باسم واحد، فحينئذ إمَّا أن يُقال إن هذه السورة سميت ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ كما يدل عليه كتابتها منفصلة، أو يقال: إنها سميت بالمجموع إذ ذكر فيها حالُ ما قبل القرآن أيضاً، ويوجه بذا تسميتها بذينك الاسمين دون ما سواها مِن السور المشاركة لها في المبدأ. وقيل: إن المجموع اسم واحد، فيوجه الانفصال في الكتابة بالتطابق بين الحواميم الأخر).

مع ملاحظة أنه عند ذكر الحروف المقطعة يُكرر عبارة: (المؤلَّف منها ومن أمثالها

هذه السورة) ويعني بذلك أنّ هذه الحروف المقطعة ومن غيرها من باقي الحروف هي التي يُركب منها ألفاظ القرآن.

خامساً: سَلَك المؤلفُ عند تفسيره لآيات السور منهجاً خاصّاً، يمكن تلخيصه فيما يلي[(١)]:

١- يفسر الآيات تفسيراً إجمالياً ويربط بين معاني الآيات.

٢- يذكر أسباب نزول الآيات إن وجد لها سبب. ومن أمثلة ذلك:

أ- في تفسير سورة يس قال: (﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس:٩] والالتفات إنما يكون بعد أن يبصروا الحق ودلائله وينظروا فيها. روي: أن الآيتين نزلتا في بني مخزوم[(٢)]، فإنَّه حلف أبو جهل أن يرضخَ رأسَ النبيِّ ﷺ، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدفعه، فلمَّا رفع يده انثنت إلى عنقِه، ولزق الحجر بيده، حتى فكوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزوميٌّ آخرُ: أنا أقتله بهذا الحجر. فذهب، فأعماه الله تعالى. فالمعنى: أنهم إن لم يؤمنوا بك ولم يصدقوك فأنت أنذِرهم، فإنما عليك البلاغ، ولا تخف منهم؛ لأنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ... إلى آخر ما ذكر)[(٣)].

ب- وفي سورة الزمر قال في تفسير الآية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٢٢]: (والآية نزلت في حمزة وعليٍّ وأبي لهب وولده)[(٤)].

---

(١) قد بينت الأمثلة في المبحث الرابع وهو القيمة العلمية للكتاب.

(٢) بنو مخزوم: هم بنو مخزوم بن يَقْظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وكان لمخزوم من الولد: عمرو، وعامر، وعمران. ومنهم: خالد بن الوليد: صاحب رسول الله ﷺ، وهو خالد ابن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ومنهم أيضاً: أبو جهل بن هشام، عدو رسول الله ﷺ. انظر قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (ص: ١٤٤)

(٣) انظر تفسير سورة يس (ص٥٤) في القسم المحقق.

(٤) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٣٤) في القسم المحقق.

ت- وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣] قال: (وهو القرآن. روي: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملّوا مَلّةً، فقالوا: حدِّثنا. فنزَلت)[١].

٣- يذكر أقوال المفسرين مِن السلف وغيرهم في معاني الآيات، ولا يسند الأقوال. ويكتفي بقول: (قيل)، على طريقة ومنهج التفسير الإجمالي، الذي لا يلزم فيه ذكر قائل القول، ولا الاستطراد في المعنى، والاكتفاء بالمعنى الراجح في الغالب، وينقل بعض الأحاديث الواردة عن الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- عن رسول الله ﷺ، وما جاء عن الأئمة كأبي حنيفة والشافعي مِن قول واستدلال، ويعزو ذلك القول إليهم بأسمائهم، ومِن الأمثلة على ذلك:

أ- قوله عند تفسيره للآية رقم (٢٠) من سورة يس: (عن ابن عبَّاس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾، قال: هو حبيب النَّجَّار)[٢].

ب- يأخذ باختيارات ابن جرير أحياناً، كما في سورة ص، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره للآية رقم (٣٣) من سورة ص: (أو يكون المراد: فجعل يمسح بيده سوقها وأعناقها ليزيل الغبار عنها حباً لها، كما روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، واختاره ابن جرير، وقال: لِئَلا يلزم تعذيب الحيوان، وإضاعة المال)[٣].

ت- يستشهد ببعض الأحاديث في معاني الآيات، فمثلاً في سورة ص قال: (وأما الشروق فهو الطلوع، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت. وعن أم هانئ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، أنَّ النبي ﷺ صلَّى صلاة الضحى، وقال: «هذه صلاة الإشراق». وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا أنَّه قال: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية)[٤].

ث- يذكر الحديث بالمعنى، ففي سورة يس قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي الحديث أنهم

---

(١) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٣٤) في القسم المحقق.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣١٩٢/١٠)، وإلى ذلك ذهب أكثر المفسرين، انظر: تفسير السمعاني (٣٧٢/٤). وقد بينت ذلك في تفسير سورة يس (ص٥٦) في القسم المحقق.

(٣) انظر تفسير سورة ص (ص١١٣) في القسم المحقق.

(٤) انظر تفسير سورة ص (ص١٠٧) في القسم المحقق.

يجحدون ويخاصمون، فيختم على أفواههم ويكلم أيديهم وأرجلهم).

رواه مسلم في صحيحه عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول: بعدا لكن وسحقا، فعنكن كنت أناضل)[1].

ج- نقله عن الصحيحين في بعض ما يذكر مِن أحاديث، ومِن أمثلة ذلك:

١- قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير سورة الصافات: (فلذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «رحم الله أخي لوطاً؛ فإنَّه كان يأوي إلى ركن شديد»[2]).

٢- قوله في تفسير سورة ص: (﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [ص:٣٤] وراء ذلك فتنة أخرى، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ ﴾ لتلك الفتنة ﴿جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ إليّ. وفي هذه الفتنة روايات، أظهرها ما روي مرفوعاً أنه قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تأتي لي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله سبحانه. ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهنَّ، ولم تحمل إلا امرأةٌ، جاءت بشق رجل. فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله؛

---

(١) انظر تفسير سورة يس (ص٦٦) في القسم المحقق. وقد روى الحديث مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٠).

(٢) أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠] ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف، لأجبت الداعي» (٤/ ١٤٧)، ومسلم (١/١٣٣). وقد بينت ذلك في تفسير سورة الصافات (ص٩٢) في القسم المحقق.

لجاهدوا فرساناً»[1]).

٤- نادراً ما ينفرد بذكر بعض المعاني التي لم أجدها في أقوال المفسرين. ومن أمثلة ذلك:

أ- نقل عن الحسن قولاً لم أجده عند المفسرين، فقال: (فلما قتلوه ﴿ قِيلَ ﴾ له: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقيل: إنهم لما هموا بقتله قيل له ذلك، فرفعه الله سبحانه إلى الجنة حيّاً، كما قاله الحسن، فلمَّا رفع إليها ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. فإنَّه تَمَنَّى أن يعلموا قومَه حاله؛ ليحملهم على الإيمان، كما هو دأب الأولياء في كظم الغيظ)[2].

ب-روي عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: «مَن حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدته مائة وستين»[3].

فلم أجد هذا الأثر في كتب الحديث، ولكن أورده بعض المفسرين في تفاسيرهم عن سعيد بن المسيب[4].

٥- يختار مِن بين الأقوال المختلف فيها، ففي سورة يس قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَٱضْرِبْ﴾ يعني: بَيِّن ﴿لَهُم مَّثَلًا﴾ يتَّضِح به عندهم ما هم عليه، وما إليه مرجعهم، أعني: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ومثلهم وما فعل بهم، وما وقع منهم ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الذين أرسلهم عيسى إلى أهل تلك القرية. وكان ذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ أولاً ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، فإنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنَّما أرسل بأمرنا، وهما يحيى ويونس، أو غيرهما، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ ولم يؤمنوا بهما، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ وقوَّينا ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون،

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور: باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (١٣٠/٨)، وصحيح مسلم كتاب الأيمان: باب الاستثناء (١٢٧٦/٣). وقد بينت ذلك في تفسير سورة ص (ص١١٤) في القسم المحقق.

(٢) انظر تفسير سورة يس (ص٥٨) في القسم المحقق.

(٣) انظر تفسير سورة ص (ص١١٠) في القسم المحقق.

(٤) انظر: تفسير الثعلبي (١٩٠/٨)، وتفسير الزمخشري (٨١/٤)، وتفسير النسفي (١٥٠/٣).

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ [يس:١٣-١٤]، فلم يؤمنوا بهم)[١].

٦- يذكر أوجه الإعراب في بعض ألفاظ الآيات. والاستدلال بها على المعنى المراد من الآية، وما تحمله وجوه اللغة في ذلك، ومن الأمثلة:

أ- قوله عند تفسيره للآية رقم (٦) من سورة يس: (وإنَّما أنزلناه إليك ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾، فإنك بُعِثت في فترةٍ مِن الرسل، فتكون ﴿مَّآ﴾ نافية، أو تكون موصولة، أو موصوفة، أي: شيئاً أنذر به آباؤهم الأبعدون، أو مصدرية، أي: مثل إنذار آبائهم)[٢].

ب-قوله عند تفسيره للآية رقم (٢) من سورة ص: (والواو للقسم، والجواب محذوف، وهو الذي دل عليه قوله ﴿صٓ﴾ على كلا الوجهين، يعني: إنه لمعجز)[٣].

ت- قوله عند تفسيره للآية رقم (١) من سورة الزمر: (﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، أو قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، يعني: هذا. فحينئذ في الظاهر أنَّ المراد بالكتاب هو هذه السورة، وإن كان يحتمل أن يكون المراد هو القرآن، وإن كان قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ فالظاهر أنَّ المراد بالكتاب القرآن، ويحتمل أن يكون المراد هو السورة)[٤].

٧- يذكر بعض المسائل الفقهية المتعلقة ببعض الآيات، ووجه الاستدلال منها، ويذكر قائلها، ومن الأمثلة:

أ – في مسألة أخذ الفداء في الحرب قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأنتم إذا علمتم أنَّ الكافرين اتبعوا الباطل ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سورة محمد:٤] في المحاربة ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أصله: فاضربوا ضرب الرقاب، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ وأكثرتُم قتلَهم وأغلظتم في ذلكم ﴿فَشُدُّواْ

(١) انظر تفسير سورة يس (ص٥٥) في القسم المحقق.
(٢) انظر تفسير سورة يس (ص٥٣) في القسم المحقق.
(٣) انظر تفسير سورة ص (ص١٠١) في القسم المحقق.
(٤) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٢٥) في القسم المحقق.

﴿ٱلْوَثَاقَ﴾ والوثاق -بالفتح، والكسر-: ما يوثق به، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فإنكم خُيرتم بعد الأسر في المن بالإطلاق، وفي أخذ الفداء، وأسر العرب ثابت عند الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومنسوخ عند أبي حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أو مخصوص ببدر، ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وآلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها؛ كالسلاح وغيرها، يعني: تنقضي الحرب بأن لا يبقى إلا مسلمٌ أو مُعاهِدٌ، وقيل: بنُزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ)[1].

ب- وفي مسألة مكان ذبح المحصر قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح:٢٥] الذي يُذبح فيه، أعني: الحرم. وقال الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: المراد: المكان المعهود الذي يذبحون الهدي فيه، وهو المنى، فإنَّه يذبح الْمُحْصَرُ الهديَ في مكان أحصر فيه، وأما الحنفيون فيقولون: مكان الذبح هو الحرم، لا يجوز في غيره)[2].

٨- لا يتعرض لذكر أوجه القراءات في الآية إلا قليلًا، وقد أشار في موضع واحد لوجهين للقراءة في آية رقم ٧٠ من سورة يس. حيث قال: (﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآنُ أو الرسولُ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠] عاقلاً؛ فإنَّ الغافل كالميت)[3].

فقرأ نافع وابن عامر: (لتنذر) بالتاء على معنى المخاطبة. يقول: لتنذر يا محمد. وقرأ الباقون: بالياء على معنى الخبر عنه. يعني: لتنذر يا محمد. ويقال: يعني: لتنذر بالقرآن من كان مهتدياً في علم الله تعالى الأزلي[4]. فتعدد القراءات بمنْزلة تعدد الآيات.

٩- يذكر بعض الروايات الإسرائيلية في التفسير. ومن الأمثلة:

أ- إيراده لقصة أصحاب القرية، فهذه القصة ذكرها كثير من المفسرين عن وهب بن منبه[5].

---

(١) انظر تفسير سورة القتال (ص٢٥٤) في القسم المحقق.

(٢) انظر تفسير سورة الفتح (ص٢٧٢) في القسم المحقق.

(٣) انظر تفسير سورة يس (ص٦٨) في القسم المحقق.

(٤) تفسير السمرقندي (١٣١/٣). وقد بينت ذلك في تفسير سورة يس (ص٦٨) في القسم المحقق.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي (١٢٤/٨)، وتفسير البغوي (٩/٤)، وتفسير القرطبي (١٥/١٥)، وتفسير الخازن (٥/٤).

ب- ومنها قصة سليمان في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ الآية [ص:٣٤].

ت- وأحياناً يورد الروايات الإسرائلية في بعض قصص الأنبياء، ويختار الراجح مِن السنة، حيث ذكر الحديث الذي ورد فيها عند البخاري ومسلم، ثم ذكر روايات القصة في ذلك، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ وراء ذلك فتنة أخرى ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ ﴾ لتلك الفتنة ﴿ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص:٣٤] إِلَيَّ. وفي هذه الفتنة روايات، أظهرها ما روي مرفوعاً أنه قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تأتي لي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله سبحانه، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، ولم تحمل إلا امرأةٌ، جاءت بشق رجل. فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا فرساناً»)[١].

١٠- لم أره استشهد بالشعر في تفسيره في الجزء الذي حققته.

۞ المبحث الرابع: القيمة العلمية للكتاب

سبقت الإشارة إلى شيء مِن ذلك في المقدمة، وهناك نقاط أخرى كثيرة تُبين أهميته، ومن أبرزها:

(١) أنَّ اهتمام ابن نصير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالربط بين الآيات في تفسيره جاء بعد جهودِ عددٍ مِن العلماء المتقدمين في هذا المجال، مِمَّا جعَلَه متميِّزًا فيه، ومَكَّنه مِن الاستفادة مِن جهودهم السابقة، وقد أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتابه إلى ذلك حين قال: (وبعض من المفسرين تعرَّض لبعضها، وبعضهم صرفوا بعضاً مِن الآيات عن ظاهرها للارتباط ... الخ).

(٢) أنَّ استخلاص ما ورد مِن ربط بين الآيات القرآنية من خلال التفسير المحمدي يُعتبر عملاً ذا أهمية بالغة، كونه يستخلص عِلماً جليلاً ويجمعه، وهو علم المناسبات، بعد أن كان منثورًا بين ثنايا الكتبً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن نصير كان يكثر من ذكر مناسبة الآية لما بعدها في السورة الواحدة وكذلك مناسبة معاني الآية الواحدة. أما

---

(١) انظر تفسير سورة ص (ص١١٤) في القسم المحقق.

النوع الثالث وهو ذكر مناسبة السورة لما بعدها فلم أره قد تعرض لذلك.

ومن أمثلة النوع الأول – وهو ربط معنى الآية بالآية التي تليها- عند تفسيره للآيتين رقم (٢٦،٢٧) من سورة فصلت قال: (﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَ ﴾ إذا سمعتموه فأنتم ﴿ ٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ وعارضوه بالخرافات، وارفعوا أصواتكم بها، ليُشَوِّشُوه على القارئ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ عليه، وإذا فعلوا ذلك فلا يغلبون بذلك، وإن غلبوا ظاهراً فلا يأس. ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وإن غلبوا ذا الحين ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ على مقابلة ذلك الفرح بالغلبة، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾)[١].

ومن أمثلة ربط بعض معاني الآية الواحدة ببعض: عند تفسير الآية رقم (٣) من سورة الزمر وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنَّما يختلفون معَ كونِ الأمر كالضروري؛ لكثرة البراهينِ، لعدم اهتدائهم إلى الحقِّ، فإنَّ الاهتداء بيده سبحانه؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ فإن الكذب وكفران المنعم يُعمِي البصيرة. فأشركوا، ولم يسمعوا قول الناصحين، ولم ينظروا في الدلائل معَ كثرتها وظهورها)[٢].

ومما سبق يتبين أنَّ نوع التفسير الذي سار عليه المؤلف -رحمه الله تعالى- تفسيرٌ إشاريٌّ استنباطيٌّ، ويُحسب له، إذ إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ سار على هذا النوع من التفسير متقيِّداً بشروطه التي ذكرها الزرقاني[٣] -رحمه الله تعالى-، وهي:

أ- ألا يتنافى مع ما يظهر مع النظم القرآني الكريم.

ب- ألا يُدَّعى أنه المراد وحده دون الظاهر.

ت- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

(٣) أنه يذكر بعض الفوائد والاستنباطات في ثنايا تفسيره، ومن ذلك:

---

(١) انظر: تفسير سورة فصلت (ص١٨٢) من القسم المحقق.

(٢) انظر: تفسير سورة الزمر (ص١٨٢) من القسم المحقق.

(٣) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٨١/٢).

أ- قوله في تفسير الآية رقم (٣٤) من سورة يس: (ومع ذلك (جعلنا) لهم ﴿فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ مِن أصناف النخل والعنب. وإنما جُمعا ليدل على الأصناف دون الحب الدالِّ على الجنس المختلفة الأنواع. وخص النخيل والأعناب بالذِّكر لاختصاصهما بمزيد النفع من سائر الأثمار، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ شيئاً ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾)[1].

ب- قوله في تفسير الآية رقم (٦٥) من سورة يس: (﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ وأسند التكلم إلى الأيدي والشهادة إلى الأرجل؛ إذ أكثر الأفعال بالأيدي، فهي تُقر بما فعلت، وأما الأرجل فشاهدة)[2].

ت- قوله في تفسير الآية رقم (٥٢) من سورة يس: (﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فإنَّهم يظنُّون أنَّهم كانوا نياماً، فيُقال لهم: ليس الأمر كما زعمتم، بل ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فيما أخبروكم بالحشر والبعث. فيكون فيه إيماءٌ إلى أنَّهم تركوا ما يهمهم، وسألوا عمَّا لا يهمهم، حيث سألوا عن الذي بعثهم، ولم يسألوا عن أيِّ شيء وقعوا فيه)[3].

(**٤**) يستخدم ألفاظاً تدل على سعة ثروته اللغوية، ومن أمثلة ذلك:

أ- لفظ (راط) في سورة ص، قال: (فتسور عليه ملائكة على صورة الإنسان في يوم الخلوة، فلما رَاطَ فَزْعَةً)[4].

ورَاطَ الوَحْشِيُّ بالأَكَمَةِ يَروطُ ويَرِيط: كأَنَّهُ يَلُوذُ بها[5].

ب- لفظ (يُكتنه)، قال في سورة الزمر: (مثل: فأُكرموا إكراماً لا يُكتنه)[6]. قال

---

(١) انظر تفسير سورة يس (ص٦٠) في القسم المحقق.

(٢) انظر تفسير سورة يس (ص٦٦) في القسم المحقق.

(٣) انظر تفسير سورة يس (ص٦٤) في القسم المحقق.

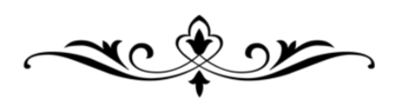
(٤) انظر تفسير سورة ص (ص١٠٨) في القسم المحقق.

(٥) القاموس المحيط (ص٦٦٨).

(٦) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٤٨) في القسم المحقق.

صاحب الصحاح[1]: (كنه الشئ: نهايته. يقال: أَعْرِفُهُ كُنْهَ المعرفة. ووقتُ الأمرِ: كُنْهُهُ أيضاً، ولا يُشتقُّ منه فعلٌ. وقولهم: لا يَكْتَنِهُهُ الوصفُ، بمعنى لا يَبلغ كُنْهَهُ، أي قدره وغايته. كلام مولد).

ت- لفظ (دَرَقَة)، قال في سورة الزمر: (﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ويجعل وجهه دَرَقَة يقي به العذاب أن يكون مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يقدر إلا أن يتقي بوجهه)[2]. قال صاحب العين[3]: (الدَّرقةُ: ترس من جلود، ويجمع على درقٍ وأدراق ودِراق). وقال ابن دريد[4]: (الدَّرَق: ضرب من التِّراس، يُتّخذ من جُلُود دوابَّ تكون فِي بِلاد الْحَبَش، الْوَاحِدَة دَرَقَة، وَالْجمع دَرَق وأدراق ودِراق).



(١) (٦/٢٢٤٧).
(٢) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٣٥) في القسم المحقق.
(٣) (٥/١١٥).
(٤) جمهرة اللغة (٢/٦٣٥).

۞ بعض المآخذ على التفسير المحمدي.

لا يخفى على عاقل أن الكمال عزير، وأن العمل البشري معرض للنقص، ومن المآخذ على تفسير ابن نصير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يلي:

(**١**) أن لديه اجتهادات في بعض المسائل المتعلقة بالآيات الكونية، لم يرد في ذلك دليل شرعي، فعند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الصافات:٦] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنَّ الكواكب للسماء الدنيا زينة، وإن كانت مركوزة في غيرها مِن السماوات العلى، فإنها تُرى فيها كجواهر مشرقة متلألأة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة)[١].

(**٢**) أنه يذكر بعض أقوال أهل الكلام التي ليس لها دليل. ومثاله: عند قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ [الصافات:١٠] قال: (وما ذكره الحكماء من أنَّ ذكر ذلك بخارٌ يصعد إلى كرة الأثير، فيشتعل، فإنَّه لا ينافي ذلك؛ إذ يمكن ذلك وهذا أيضاً، إلا أن هذا مختص برجم الشياطين)[٢].

(**٣**) أنه يورد بعض مصطلحات الفلاسفة والمتصوفة، ومن أمثلة ذلك:

أ- مصطلح (الفيض) حيث قال في مقدمة الكتاب: (ولما كان جميع ذلك بالفيض النبوي سميته بالمحمدي)[٣]. وقد أشرت إلى معنى الفيض في الصفحة رقم (٧).

ب- مصطلح (العالم الجسماني) فقال في تفسير سورة ص: (﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني: العالَم الجِسماني الذي هو مَظْهَرُ الرحمةِ)[٤] ويقصد بذلك آيات الله الكونية.

(**٤**) أنه متأثر ببعض الأمور الفلسفية العقلية، مثل: القول بأن أجسام الشياطين شفافة، فقال: (﴿ وَءَاخَرِينَ ﴾ منهم من المردة ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص:٣٨] مُقَرَّن بعضهم مع بعض ليكفّوا عن الشر. والمراد بالصفد: ما يمنع به عن

---

(١) انظر تفسير سورة الصافات (ص٧٣) في القسم المحقق.

(٢) انظر تفسير سورة الصافات (ص٧٣) في القسم المحقق.

(٣) انظر: اللوح الأول من المخطوط.

(٤) انظر (ص١٠٤) في القسم المحقق.

الشر، وهو في اللغة في القيد، وهو لا يكون إلا في الأجسام الصلبة، والشياطين هم الأجسام الشفافة، فلا يقيدون، فالمراد هو: المنع عن الشر)[1].

وهنا ربط المؤلف معنى القيد بمعنى المنع من الشر؛ لأنَّه اعتبر أنَّ الشياطين أجسامٌ شفافة، ولا منافاة في ذلك. قال صاحب كتاب «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن»[2]: (والحق أن يُقال: إنَّا لا نعلم حقيقة تلك القيود، ولا كيف تكون العقوبة، كما لا نعلم كيف يشتغل الشياطين، وكيف يبنون أو يغوصون، فكل ذلك في عالَمٍ لا نُدرك شيئاً مِن أحواله، فعلينا أن نؤمن بأنَّ سليمان لِعِظَم مُلكه لم يكتف بتسخير الإنس في أعماله، بل سخَّر معهم الجن فيما يصعب عليهم، ونتقبل هذا كما قصّه القرآن، دون دخول في التفاصيل خوفًا من الزلل الذي لا تُؤمن مغبته، ولا نصل أخيرًا إلى معرفة الحق فيه، ولنكتف بذلك، فالعبرة به ماثلة ولا نتزيد فيه).

(**٥**) وجود بعض الأخطاء اللغوية أو الإملائية، ومن ذلك:

أ- قوله: (فلا يشك في أنها نار أخرجت من الشجر الأخضر، مع ما فيه من الماء المضادة للنار)[3]. والصحيح أن يقال: (**المضاد**) وليس المضادة.

(**٦**) ويلاحظ عليه بعض الركاكة والعجمة في بعض الجمل، وخصوصًا ما يتعلق بوضع حروف الجر في غير مواضعها ومن أمثلته:

أ- قوله: (وذا إنما ينفع بكم)[4]. والصحيح أن يقال: (أنفع لكم).

ب- قوله: (لا تتعرضوا لما يوجب سخطي، واجتنبوا من ذلك)[5]. والصحيح أن يقال: (اجتنبوا ذلك).

ت-قوله: (أنَّ أهل خيبر لم (يُقاتِلوا معكم)[6].والصواب أن يُقال: (يتقاتلوا معكم).

---

(١) انظر تفسير سورة ص (ص١١٦) في القسم المحقق.

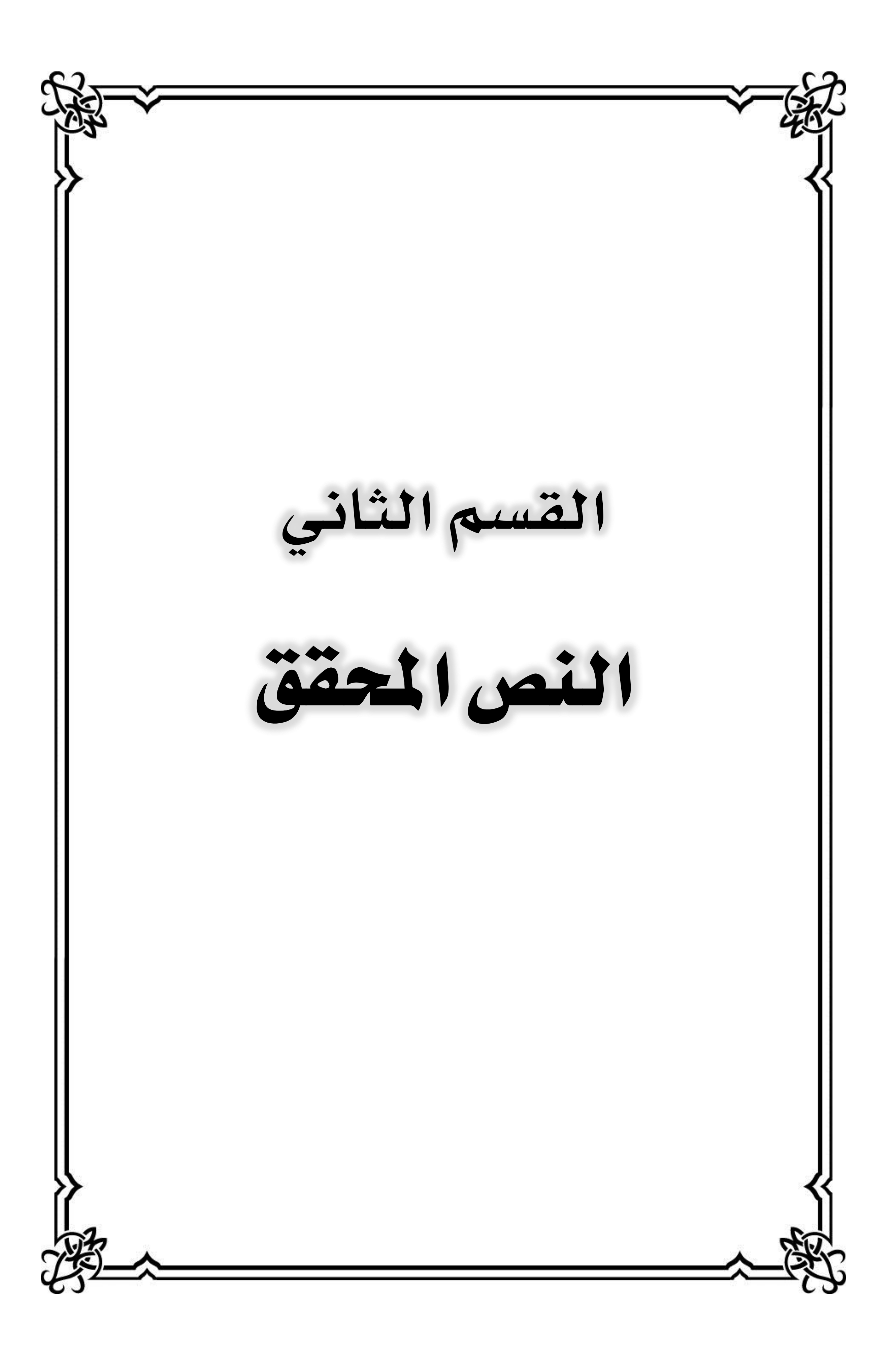
(٢) حدائق الروح والريحان (٣٩١/٢٤).

(٣) انظر تفسير سورة يس (ص٦٩) في القسم المحقق.

(٤) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٣١) في القسم المحقق.

(٥) انظر تفسير سورة الزمر (ص١٣٢) في القسم المحقق.

(٥) انظر تفسير سورة الفتح (ص٢٧٠) في القسم المحقق.



القسم الثاني

النص المحقق

(سورة يس)[1]

وآيُها ثلاثٌ وثمانون[2].

سمّيت بها لأن تتمتَها وهي قوله[3]: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، هذه السورة -بل جميع القرآن- مسوقة لأجل ذلك.

وعن النبي ﷺ أنَّها [تُسمى][4] الْمُعِمّة؛ فإنها تَعُمُّ صاحبها خير الدارين، والدافعة، والقاضية؛ يدفع عنه كل سوء، ويقتضى له كل حاجة[5].

---

(١) مِن عادة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يذكر نوع السورة هل هي مكية أم مدنية، ولكن لم أجد في النسختين ذكر ذلك. (وسورة يس مِن السور المتفق على مكيتها، وحُكي عن الضحاك أنَّها مدنية، ولو صحَّ هذا النقل فهو مخالف لقول غيره من المفسرين، حتى إن بعضهم حكى الإجماع على مكية السورة. ومن الآيات المختلف فيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ... ﴾ [الآية:١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ... ﴾ [الآية:٤٧]. والصحيح أنهما مكية). انظر: المكي والمدني (ص٢٤٢).

(٢) قال أبو عمرو الداني في البيان (١/٢١١): (وهي ثمانون وثلاث آيات في الكوفي، وآيتان في عدد الباقين، اختلافها: آية ﴿يسٓ﴾ عدَّها الكوفيُّ، ولم يعدها الباقون، وكلهم لم يعد (ن)، وليس فيها مما يشبه الفواصل شيء).

(٣) يشير المؤلف إلى بعض ما ورد في معنى ﴿يسٓ﴾ أنها نداء للنبي محمد ﷺ، كما ذكر ذلك الأخفش في معاني القرآن (٢/٤٨٨)، ووجه تسميتها بها افتتاحها بهذين الحرفين.

(٤) في [ف] بلفظ [سُميت].

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩٦) عن أبي بكر: (سورة يس تدعى في التوراة الْمُعِمة، تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة، تكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة، وتدفع عنه أهاويل الآخرة، وتدعى الدافعة والقاضية، تدفع عن صاحبها كل سوء، وتقضي له كل حاجة، من قرأها عدلت عشرين حجة، ومن سمعها عدلت له ألف دينار في سبيل الله، ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء، وألف نور، وألف يقين، وألف بركة، وألف رحمة، ونزعت عنه كل غل وداء) قال البيهقي: (تفرد به محمد بن عبد الرحمن عن سليمان، وهو منكر) وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/٤١١): (ولا يبعد أن يكون موضوعاً، فهذه الألفاظ كلها منكرة، =

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يسٓ ﴾ المؤلَّف منها ومن أمثالها هذه السورة. وقيل: معناه: يا إنسان[1].

﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ فإنَّ القرآن هو الذي يدلُّ على رسالتك لإعجازه؛ وقد صرَّح في القرآن برسالتك.

وأيضاً يدلُّ على رسالتك قوله سبحانه لك: إنك ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ لا عِوَج فيه أصلاً، ولا يكون ذلك الصراط إلا صراط المرسلين.

وكيف لا يكون مستقيماً وهو ﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾! فما كان منَزلاً مِن الغالب القادر الرحيم الذي لا يُنْزِل ولا يكلف عبادَه إلا بما فيه رحمة عليهم؛ فلا جرم أن يكون مستقيماً.

وإنما أنزلناه إليك ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ ﴾ فإنَّك بُعِثت في فترةٍ مِن الرسل،

=

بعيدة من كلام مَن أوتي جوامع الكلم).

ومن أسمائها: قلب القرآن، وسورة حبيب النجار، والمعمة، والدافعة، والقاضية، والعظيمة عند الله تعالى، والعزيزة. ذكر ذلك الدكتور محمد الشايع في كتابه أسماء سور القرآن الكريم (ص١١٧).

(١) الخلاف في معنى الحروف المقطعة كبير بين العلماء، فمنهم مَن عدها من المتشابه الحقيقي الذي لا يعلمه إلا الله، ومنهم مَن توسع وجعلها من المتشابه النسبي، وقد لخص الأقوال فيها الشيخ ابن عثيمين في أربعة أقوال: (الأول: أن لها معنى، واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه، هل هو اسم لله ﷻ، أو اسم للسورة، إلى آخر هذه الأقوال، وهنا أورد المؤلف هذا القول بقوله : قيل: إن معناه: يا إنسان. والثاني: أنها حروف هجائية ليس لها معنى، واختار الشيخ ابن عثيمين هذا القول. والثالث: أن لها معنىً الله أعلم به. والرابع: التوقف). بتصرف من تفسير سورة الفاتحة والبقرة (٢٢/١).

واختلف العلماء بعد ذلك في الحكمة منها، ومِن أبرزها ما رجحه الشيخ ابن عثيمين أنها جاءت للإشارة إلى بيان إعجاز القرآن العظيم.

/ فتكون ﴿مَآ﴾ نافية، أو تكون موصولة، أو موصوفة، أي: شيئاً أُنذِر به آباؤهم [٣٩٢/أ] الأبعدون، أو مصدرية، أي: مثل إنذار آبائهم[١]. وإذا أنذروا ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

وذلك لأنه ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾، فإنَّه قد قيل في حقهم: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وهم كيف يؤمنون؟

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ﴾ أي: تلك الأغلال واصلة ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ رافِعون رؤوسهم، غاضُّون أبصارهم. المقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره[٢]. يعني: أنهم لا يمكن لهم أن يلتفتوا إلى الحقِّ، فهم لا يُطَأْطِئون رؤوسهم، وكيف يطأطئون ويلتفتون!

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ والالتفات إنما يكون بعد أن يبصروا الحق ودلائله وينظروا فيها.

روي: أنَّ الآيتين نزلتا في بني مخزوم، فإنَّه حلف أبو جهل أن يرضخ رأسَ النبي ﷺ، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدفعه، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، حتى فكوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر. فذهب، فأعماه الله تعالى[٣]. فالمعنى: أنهم إن لم يؤمنوا بك ولم يصدقوك فأنت أنذرهم، فإنما عليك البلاغ، ولا تخف منهم لأنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ... إلى

---

(١) قال النسفي في تفسيره (٣/ ٩٦): (ما نافية عند الجمهور أي قوماً غير منذر آباؤهم بدليل قوله لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نذير من قبلك وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني أي العذاب الذي أنذره آباؤهم كقوله إنَّا أنذرناكم عذابا قريبا أو مصدرية أي لتنذر قوماً إنذار آبائهم أي مثل إنذار آبائهم).

(٢) قال الخليل في العين (٣/ ٥٥): (والقامِح والمقامِحُ من الإبِلِ: الذي اشتدَّ عَطَشُه فَفَتَر فُتُوراً شديداً. وبَعير مُقْمَحٌ، وقَمَحَ يَقْمَحُ قُمُوحاً وأقمَحَه العَطَش والذليل مُقمَح: لا يكادُ يرفَعُ بصَره. وقال الأزهري في تهذيب اللغة (٤/ ٥١): (وَأَرَادَ جلّ وعزّ أنَّ أيديَهم لما غُلَّت عِنْد أعناقِهِم رَفَعَتِ الأغلالُ أذقانَهم ورؤوسهم صُعُداً كَالْإِبِلِ الرافعةِ رؤوسها).

(٣) رواه ابن اسحاق في السير والمغازي (ص: ١٩٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/٥٦٥)، والبحر المحيط (٧/٣٢٤).

آخر ما ذُكر، فهم لا يطيقون أن يضروك.

وهم لا ينتفعون بإنذارك ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ إنذاراً يترتب عليه البغيةُ المطلوبة ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ الذي أُنزِل إليك، وتأمَّل فيه، ﴿وَ﴾إنَّما يتأمل فيه مَن ﴿خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وخاف عقابه. مَن اتبعه ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾.

فأنت قُل لهم: اتبعوا الذكر الذي أنزل إليك، ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ لأنِّي أُسأل عن اتباع ذلك الذكر؛ ﴿وَ﴾ذلك لأنَّا ﴿نَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ وأسلفوا مِن الأعمال الصالحة والطالحة، ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ الَّتي خلَّفوها بعد أن ذهبوا وماتوا مِن الحسنات والسيئات، كعلمٍ علَّموه الناس ووقف وقفوه، وكإشاعة باطل وتأسيس ظلم. ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ هو اللوح[1]، يعني أنّا كنا قدرنا ذلك قبل أن يصدر منهم.

﴿وَٱضۡرِبۡ ﴾ يعني: بيِّن ﴿لَهُم مَّثَلًا ﴾ يتَّضح به عندَهم ما هم عليه، وما إليه مرجعهم -أعني: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾- ومثلهم وما فعل بهم، وما وقع منهم ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ الذين أرسلهم عيسى[2] إلى أهل تلك القرية.

وكان ذلك ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ﴾ أولاً ﴿ٱثۡنَيۡنِ ﴾، فإنَّ عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ إنَّما أُرسِل بأمرنا، وهما: يحيى ويونس أو غيرهما، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ ولم يؤمنوا بهما، ﴿فَعَزَّزۡنَا ﴾ وقوَّينا ﴿بِثَالِثٖ ﴾ وهو شمعون[3]، / ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾، فلم يؤمنوا بهم. [٣٩٢/ب]

(١) يعني بذلك: اللوح المحفوظ. انظر تفسير مقاتل (٣/ ٥٧٥) ولم أجد قولا غيره عند المفسرين.

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥٢٠/٣): (واختلف المفسرون فيمن أرسل هؤلاء الرسل على قولين: أحدهما: أنَّ الله تعالى أرسلهم، وهو ظاهر القرآن، وهو مروي عن ابن عباس، وكعب، ووهب. والثاني: أنَّ عيسى أرسلهم، وجاز أن يضاف ذلك إلى الله تعالى لأنهم رسل رسوله، قاله قتادة، وابن جريج).

(٣) قد اختلف في تسمية الرسل الثلاثة على أقوال كثيرة، وقد أورد كثيرٌ من المفسرين أنَّ اسم الثالث شمعون، كما ذكر المؤلف. انظر: تفسير السمرقندي (١١٨/٣)، وتفسير الثعلبي (١٢٥/٨)، =

بل ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ ﴾ يعنون: أنَّ مَن أرسلكم إلينا -وهو عيسى- بشرٌ، فكيف يكون رسولاً مِن الله إلينا! ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾.

﴿وَ﴾تكذيبُكم لا يضُرُّنا؛ فإنا ﴿مَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الظاهر الذي أُثبِت بالمعجزات الباهرات، وليس بلاغنا بمجرد دعوى، وليس قولُنا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ كما هو شأن العاجز، فإنَّه إذا عجز أحدٌ عن إقامةِ ما ادَّعاه يقول: الله يعلم ما أقول، بل معجزاتٌ دالَّةٌ على صدقنا.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا ﴾ وتشاءَمنا ﴿بِكُمْ ﴾، فإنَّه يقرُب أن ينْزِل علينا سوءٌ بشُؤمِكم، فإنكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ عن مقالتِكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ فإنَّ سببَ شؤمكم معكم، وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم؛ فإنَّكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ ووُعِظْتُم فتطيّرْتُم وتوعّدتم بالرّجم والتعذيب! وليس فينا ما به تطيَّرْتُم، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ فإنَّ عادتَكم الإسرافُ في العصيان، فمِن ثَمَّ جاءَكم الشُّؤمُ.

﴿وَ﴾هُم في مجادلتِهم إذْ ﴿جَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ وهو حبيبُ النجار[1]، وكان ينحت أصنامَهم، وهو مِمَّن آمن بمحمد ﷺ[2]، وبينهما ستمائة

=

وتفسير السمعاني (٣٧١/٤)، وتفسير البغوي (١٠/٤)، وتفسير ابن الجوزي (٥٢٠/٣).

(١) عن ابن عباس: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ قال: هو حَبِيبٌ النَّجَّار. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣١٩٢/١٠)، وإلى ذلك ذهب أكثر المفسرين. انظر: تفسير السمعاني (٣٧٢/٤). قال الماتريدي (٨/ ٥١١): (قال عامة أهل التأويل: إن هذا الرجل يسمى: حبيب النجار، وهو من بني إسرائيل، كان في غارٍ يعبُد اللَّه، فلما سمع بالرسل، نزل وجاء، فقال ذلك ما قال، لكن لا ندري من كان؟ وليس لنا إلى معرفة اسمه حاجة).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٦٣/٢٦).

سنة[١]. وقيل: كان في غارٍ يعبد الله تعالى، فلَّما بلغه خبر الرسل أظهر دينه[٢]. وإنَّما قدِم مِن أقصى المدينة؛ لأنَّه ذكر أولاً ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ فبيَّن خباثةَ تلك القرية، ثم ذكر أن أقصى المدينة كانت ظاهرةً فكان ذكرها أهمُّ، فقُدِّمت، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ على النصح والتبليغ، فإن عدم السؤال دليل بين على صدقهم؛ ﴿وَ﴾بِذا تبين أنَّهم ﴿هُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إلى أَخْيَرِ الدارين.

ثُمَّ تلطَّف في الإرشاد ﴿وَ﴾قال: ﴿مَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، فإن عبادة الخالق لا تترك بحال، ﴿وَ﴾مع ذلك ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فهو يسألكم.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ وأعبدُهم، مع أنَّه ليس بيدِهم نفعٌ ولا ضُرٌّ؛ فإنَّه ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ مِن النَّفع، ﴿وَ﴾إذا لم تُقبَل شفاعتُهم فهم ﴿لَا يُنقِذُونِ﴾ بالنصر والمظاهرة.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ إذ إيثارُ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ على القادر القويِّ بتلك القوة لا ضلال أبين مِن ذلك، ولا يخفى ذلك على أحدٍ مِمَّن له أدنى عقلٍ.

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي فطركم ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ فاسمعوا أنتم إيماني[٣]،

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٢٦٦/٤). وأخرج البخاري في صحيحه (١٦٧/٤) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} [مريم: ١٦] " أنَّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد عِلات، ليس بيني وبينه نبي». قال ابن حجر الباري في الفتح (٤٨٩/٦): (واستُدِلَّ به على أنه لم يُبعث بعد عيسى أحدٌ إلا نبينا ﷺ، وفيه نظر؛ لأنه ورد أنَّ الرسل الثلاثة الذين أُرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا مِن أتباع عيسى، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين، وكانا بعد عيسى. والجواب: أن هذا الحديث يُضعّف ما ورد من ذلك؛ فإنَّه صحيحٌ بِلا تردُّدٍ، وفي غيره مقال، أو المراد: أنه لم يبعث بعد عيسى نبيٌّ بشريعة مستقلة، وإنما بُعِثَ بعده مَن بُعِث بتقرير شريعة عيسى).

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٥٧٧/٣).

(٣) يقصد المؤلف بقوله: (إيماني) هو قول مؤمن آل يس: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾.

فهموا بقتله.

فلمَّا قتلوه ﴿ قِيلَ ﴾ له: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقيل: إنَّهم لَمَّا همُّوا بقتله قيل له ذلك[1]، فرفعه الله سبحانه إلى الجنة حيّاً، كما قاله الحسن[2]. فلما رفع إليها ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ فإنَّه تمَنَّى أن يعلموا / [٣٩٣/أ] قومه حاله؛ ليحملهم على الإيمان، كما هو دأب الأولياء في كظم الغيظ.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ مِن بعد ما فعلوا به ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لإهلاكهم، فإنَّ ذلك مخصوص برسولنا ﷺ، حيث أُرسِلَت الملائكة يوم بدر والخندق، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ على قومٍ سِوى قومِك[3].

﴿ إِن كَانَتْ ﴾ ما كانت أخْذَتُهم إلا صيحة واحدة صاح بها جبريل، ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ ميِّتون، شُبِّهوا بالنارِ إشارةً إلى أنَّهم كانت حياتهم كالنار، وبعد موتهم صاروا كالرماد، إذ الحيُّ كالنارِ الساطعِ والميتُ كالرمادِ.

وقصتُهم أنَّهم كانوا عبدةَ أصنامٍ، فأرسل إليهم عيسى اثنين، فلمَّا قدِما إلى المدينة رأيا حبيباً النجار يرعى غنماً، فسألهما، فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (١٢٦/٨).

(٢) لم أجد روايةً للحسن في ذلك، وروى الطبري (٥٠٩/٢٠) عن ابن حميد أنَّ عبد الله بن مسعود كان يقول: قال الله له: ادخل الجنة، فدخلها حيًّا يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، فلمَّا أفضى إلى رحمة الله وجنته وكرامته ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾.
وقال مكيٌّ في تفسيره (٦٠٢٢/٩): (وقد قيل: إنَّه إخبارٌ مِن الله عمَّا يُقال له يوم القيامة، وما يقول).
ومعلومٌ أنه لا يدخل العبدُ الجنةَ حياً إلا في الآخرة، وإنَّما الروح تنعم وتعذب في البرزخ بعد حياتها الدنيا.

(٣) ذكر المؤلفُ أنَّ سبب عدم إنزال جندٍ لإهلاك أصحاب القرية: هو أن ذلك مختصٌّ بالنبي ﷺ، وذلك يحتاجُ إلى دليل، وإنما ذكرت الآية أنَّ الهلاك كان بصيحة واحدة، يعني: كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر.

المريض، ونُبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولدٌ مريضٌ، فمسحاه، فبرئ، فآمن بهم حبيبٌ، وفشا الخبرُ، فشُفي على أيديهما خلقٌ، وبلغ حديثُهما إلى الملكِ، وقال لهما: ألنا إلهٌ سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، مَن أوجدك وآلهتك؟ فقال: قُومَا حتى أنظرَ في أمركما. فحبسهما، ثم بعث عيسى شمعونَ، فدخل مستنكراً، وعاشر أصحاب الملك، فأنس به، فقال له يوماً: سمعت أنَّك حبست رجلين. فقال: هل سمعت ما يقولانه؟ قال: لا. فدعاهما، فقال: مَن أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء، وليس له شريك. فقال: صِفاه، وأوْجِزا. قال: يفعل ما يشاءُ، ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملكُ. فدعا بغلامٍ مطموسِ العينين، فدعوَا الله تعالى حتى انشَقَّ له بصرٌ، وأخذا بندقتين، فوضعاهما في حدَقَتيه، فصارتا مُقلتين ينظر بهما. فقال له شمعون: أرأيت لو سألت آلهتك[1] حتى يصنع مثل ذلك حتى يكون لك وله الشرف. قال: ليس لي عنك سِرٌّ[2]، إنَّ إلهنا لا يُبصِر، ولا يسمع، ولا ينفع. ثم قال: إن قَدِر إلاهُكُما على إحياء ميِّتٍ آمنَّا به. فدعَوَا بغلامٍ مات منذ سبعة أيام، فدعوَا، فقام. وقال: إنِّي أُدخلت النارَ سبعة أودية منها، وأنا أحذركم ما آمنتم فيه، فآمنوا. وقال: فتحت السماءَ، فرأيتُ شاباً حسناً يشفع لهؤلاء الثلاثة. قال الملك: ومنهم شمعون وهذان، فلما رأى شمعون أنَّ قوله قد أثَّر فيه نصحه، فآمن في [جَمْعٍ][3]، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهلكوا[4].

فإنهم ﴿ يَٰحَسْرَةً ﴾ مِن الله ﴿ عَلَى ﴾ هؤلاء مِن ﴿ ٱلْعِبَادِ ﴾ الذين أعطاهم سبحانه مِن القوة العاقلة[5] التي بها يمكنهم أن يُدرِكوا ما به صلاحُهم ونجاتُهم، وقد

---

(١) والصحيح أن يقال: (إلهك) لتستقيم الجملة.

(٢) يعني بذلك: أنه لم يعد سِرّاً أنَّ إلهنا -الذي هو الصنم- لا يبصر ولا يسمع ولا ينفع.

(٣) في [ف] بلفظ: [جميع].

(٤) هذه القصة ذكرها كثيرٌ من المفسرين عن وهب بن منبه. انظر: تفسير الثعلبي (١٢٤/٨)، وتفسير البغوي (٩/٤)، وتفسير القرطبي (١٥/١٥)، وتفسير الخازن (٥/٤).

(٥) يعني المؤلف بالقوة العاقلة: ما في الإنسان مِن القدرات العقلية التي بها يتأمل ويتفكر ويعرف ويميز بين مختلف الأشياء. وهذا العبارة ترِد كثيراً عند أهل المنطق والفلاسفة.

شرَّفهم ربُّهم على كثيرٍ مِن المخلوقات، وجعل منهم مِن فضله على جميعها، ونصب لهم دلائلَ ليتأمَّلوا فيها، فيُوصِلُهم إلى كمالِهم، ويرفع بذلك درجاتهم / مِن[1] أعلى عليين، [٣٩٣/ب] وهم صاروا أسفل السافلين؛ لأنهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ مِن ربِّهم لِيُنَبِّهَهم على ذلك ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أو المراد: تحسُّر الملائكة والمؤمنين مِن الثقلين عليهم، أو تحسرهم على أنفسهم في ذلك اليوم[2].

﴿أَ﴾ كفروا هؤلاء و ﴿لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بعد [هلاكِهم][3]؛ لينتبهوا بعد رجوعِهم، فأوانُ الانتباهِ هو هذا الأوان.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وكلمة (إن) نافية، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى: إلاَّ، يعني: وما كلٌّ منهم إلا محضرٌ عندنا يوم القيامة، فنجزيه في ذلك اليومَ على ما فعل.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ على كونهم محضرين لدينا بالحشر ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾؛ فإنَّا ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بعد موتِها ويُبْسِها، ﴿وَ﴾ ذلك بأن ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحب ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وبِه قوامُهم، وذا مِثالُ حشرِهم.

﴿وَ﴾مع ذلك ﴿جَعَلْنَا﴾ لهم ﴿فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ مِن أصناف النخل والعِنَب، وإنَّما جُمِعا لِيَدُلَّ على الأصناف دون الحبِّ الدالِّ على الجنس المختلفة الأنواع. وخصَّ النخيلَ والأعناب بالذِّكْرِ لاختصاصهما بمزيد النفع مِن سائر الأثمار. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ شيئاً ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي: ثمر ما ذُكِر مِن الجنات ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن تلك الثمر كالعصير والدبس. ويمكن أن تكون كلمة (ما) نافيةً، يعني: لم تكن تلك

---

(١) الصحيح أن يقال: (في) أعلى عليين.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (١٢٧/٨)، وتفسير السمعاني (٣٧٥/٤)، وتفسير البغوي (١٢/٤)، وتفسير الزمخشري (١٣/٤)، وتفسير الرازي (٢٧٠/٢٦)، والبحر المحيط في التفسير (٦١/٩).

(٣) في [ف] بلفظ: [إهلاكهم].

الجناتُ وتلك الثمرُ مِن كسبِهم، بل مِن خلق الله سبحانه، وإنما فعلنا ذلك ليشكروا ويعبدوا، ﴿أَ﴾يكفرون ويأكلون تلك المذكورات ﴿فَلَا يَشْكُرُونَ﴾!

ولا يضُرُّه كفرُهم، فإنَّه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ مِن جميع الأنواع ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ مِن الشجر والنبات، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الذَّكر والأنثى، ﴿وَ﴾أزواجاً ﴿مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ممَّا لم يُطْلِعْهُمُ الله عليه، ولم يجعل طريقاً إلى معرفته. وكلٌّ مِن المخلوقات في طاعته سبحانه طوعاً أو كرهاً، وجميع ما ذكر آيةٌ على قدرته ووحدته وحشره مِن العالم السفلي.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ على ذلك مِن العالم العُلْوِيِّ ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نُزيله ونكشف عن مكانه، ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخِلُون في الظلام بجميعهم، فهو مثالٌ للقيامة، فهم يموتون في ذلك اليوم بجميعهم[1].

﴿وَ﴾لا تظنوا أنَّ هذا العالم كذلك يدُوم لِقِدَمِه، إذ ﴿الشَّمْسُ تَجْرِي﴾ كما ترون ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أعني: الأجل الذي أُجِّل لها، وذا يوم القيامة[2]، أو المراد بالمستقر: الحدُّ الذي ينتهي بالوصول إليه دورتها[3]. فشبهه / بمستقر المسافر إذا قطع مسيرَه، أو لكبد السماء فإنَّ حركتها فيه توجدُ أبطأ بحيث يُظَنُّ أنَّ لها هناك وقفة[4]، أو الاستقرار لها على نهجٍ مخصوصٍ، أو لِما عين له مِن مشرقٍ ومغربٍ فإنَّه لكل يوم [٣٩٤/أ]

---

(١) يشير المؤلف إلى تشبيه القيامة الكبرى بالقيامة الصغرى، التي هي (النوم)، حيث يكون وقت الليل والظلمة.

(٢) وقد ورد في صحيح البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] (١٢٣/٦): عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت معَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: (يا أبا ذرٍّ، أتدري أين تغرب الشمس؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

(٣) رواه الطبري (٥١٦/٢٠) عن قتادة: (وقت واحد لا تعدوه). وانظر: تفسير ابن الجوزي (٥٢٣/٣)، وتفسير ابن كثير (٥١٣/٦).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٢٦٨/٤).

مشرقٌ ومغربٌ، فلها ثلاثمائة وستون مشرقاً ومغرباً، تطلع كلَّ يومٍ مِن مشرق وتغربُ في مغربٍ، ثم لا تعود إليهما إلى القابل[1]. فله سبحانه في كل ذلك آيةٌ عظيمةٌ على قدرته الباهرة، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالِبِ على ما يريد، ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ الذي علِم ما يليقُ بكلِّ شيءٍ، فقَدَّر على حسب ذلك.

﴿وَ﴾جعلنا ﴿ٱلۡقَمَرَ﴾ على نهجٍ آخرَ يُخالِفُ نهجَ الشمسِ لمصلحةٍ تعلَّقت بذلك النهج، وهو أنَّا ﴿قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ وجعلنا مسيرَهُ في منازل، وهي ثمانية وعشرون[2]، في كل منْزل -بل في كل جزء منه- على هيئة أخرى لم تكن الهيئة فيما قبل ذلك، ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ وصارَ ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ كالشِّمراخِ[3] المعْوَجِّ ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ الذي مضى عليه زمانٌ. قيل: ما مَرَّ عليه حَوْلٌ. فليس حالُهُ كحال الشمس على نهجٍ واحد، وتبدُّله أيضاً ليس على نهج واحد؛ فإنَّ كونه كالعرجون ليس في منْزل مُعَيَّنٍ، بل ذلك أيضا متبدل.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي﴾ ويَصِحُّ لها ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ فيجتمعانِ في غيرِ وقتِ الاجتماعِ، ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ولكن يُعاقِبُه، ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ يسيرون فيه، وارتبطت بذلك منافعُهم وبقاؤهم، فإنَّه لولا ذلك لخربت الدنيا وما فيها.

﴿وَءَايَةٞ﴾ أُخرى ﴿لَّهُمۡ أَنَّا﴾ جعلناهم كالكواكبِ، في أفلاكها، فإنَّا ﴿حَمَلۡنَا﴾ هُم و﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ المملوءِ الذي يسبح في البحرِ مع ثِقَله ذلك الثِّقل، فكانت سباحةٌ أعجبَ مِن سباحة الكواكب في الأفلاك؛ إذ الكواكبُ خفيفةٌ كأفلاكها.

---

(١) المصدر السابق (٢٦٨/٤). ويمكن تلخيص هذه الأقوال إلى قولين رئيسين: الأول: المستقر الزماني، وهو يوم القيامة، كما ورد في حديث أبي ذرٍّ. والقول الثاني: المستقر المكاني، كما ذكر في بعض الأقوال آنفاً.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (١٠٤/٢)، وتفسير السمعاني (٣٧٨/٤).

(٣) الشِّمْرَاخ: وهو ما عليه البُسْرُ مِن عيدان الكباسَةِ، وهو في النخل بمنْزلة العنقود في الكرم. الصحاح (١٧٥٨/٥). وقال النحاس (٤٩٥/٥): (قال قتادة: أي: كالعذق؛ هذا اليابس المنحني من النخلة).

وآية لهم أخرى ﴿وَ﴾هي أنَّا ﴿خَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ مِن مِثل الفُلْك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ مِن الإبلِ، فإنَّها معَ قُوَّتها وعِظَمِها سُخِّرَت للركوب وحمل الأثقال، ولم تمتنع عن ذلك، فهي آيةٌ أغربُ مِن آية الفُلْكِ، إذ هو جماد [لا][1] يُمْكِنُ له الامتناعُ عمَّا يُحْمَل عليه.

﴿وَ﴾ليس حملُ الفُلك وسِباحتُه في الماء بمقتضى ذاته، فإنا ﴿إِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ﴾ ولا مغيث ﴿لَهُمْ﴾ يحرسهم عن الغرقِ، ﴿وَلَاهُمْ يُنقَذُونَ﴾ مِن الهلاكِ.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فإنَّها تُغيثُهم وتُنقذُهم، ﴿وَ﴾لا يكون ذلك إلى الأبد بل ﴿مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ قُدِّر لهم.

﴿وَ﴾مع تلك الآيات ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ مِن الوقائع التي خلت[2] والعذاب المعد في الآخرة، أو نوازل السماء ونوائب الأرض[3]، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، / أو عكسه[4]، أو ما تقدَّم مِن الذُّنوب وما تأخر[5]، فإن تتقوا [٣٩٤/ب] فإنَّكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[6].

﴿وَ﴾ذلك لأنَّهم اعتادوا على الإعراض؛ لأنَّهم ﴿مَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، فقد كثُرت عليهم المعجزاتُ معَ تلك الدلائل المنصوبة في أنفسهم وفي الآفاق.

﴿وَ﴾لإعراضهم عن الآيات جميعها ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على

---

(١) في [ف] بزيادة: [و].

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٣١٩٧/١٠) عن قتادة. وانظر: تفسير الزمخشري (١٩/٤).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٢٦٩/٤).

(٤) تفسير يحيى بن سلام (٨١١/٢) عن الحسن. وانظر: تفسير السمعاني (٣٨٠١/٤).

(٥) تفسير مجاهد (ص٥٦٠).

(٦) وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا. ويدُلُّ على هذا المحذوفِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: مِن دلالة تدُلُّ على صدق الرسول. تفسير ابن الجوزي (٥٢٥/٣).

الفقراء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بصانعهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تهكُّماً بهم ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾!، فإنَّكم تزعمون أنَّه قادرٌ على جميع الممكنات، فيلزم على هذا أن يكون قادراً على أن يطعمهم، وأنتم تقولون: إنَّ الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه مصلحة. فهو سبحانه إنَّما يطعمهم لأنه رأى في ذلك مصلحة، فإنكم ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حيثُ أمرتُمُونا ما لم يكن فيه مصلحةٌ.

﴿وَ﴾ لم يكن فيهِ مشيئةٌ، وهم إنما يكفرون بآيات الله لأنهم ﴿يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ الذي وُعِدتُم؟ إنَّ الجزاء يكون إذ ذاك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فأنتم عيِّنوا وقتَه.

وهم ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ وما ينتظرون في الإيمان بذلك الوعد ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، وهي النفخة الأولى ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ يتخاصَمُون في متاجرِهم ومُعاملاتهم، لا يخطر ببالٍ أمرُها، فإنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، فهم يؤمنون بها إذا عاينوها.

فإذا جاءتهم ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ في شيءٍ مِن أمورهم، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ فهم يموتون حيث تبعَثْهُم الصيحةُ.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ بعد ذلك مرةً ثانيةً ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ وقبورِهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ يُسرِعون.

وحينئذ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ فإنَّهم يظنون أنَّهم كانوا نياماً، فيُقال لهم: ليس الأمرُ كما زعمتم، بل ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فيما أخبروكم بالحشر والبعث، فيكون فيه إيماءٌ إلى أنَّهم تركوا ما يهمهم وسألوا عمَّا لا يهمهم، حيث سألوا عن الذي بعثهم، ولم يسألوا عن أيِّ شيء وقعوا فيه. أو يكون هذا مِن كلامهم، فإنهم قالوا أوَّل وهلةٍ ما ذُكِر عنهم أولاً، ثم لَمَّا تفطنوا علِموا أنَّ ذلك ما وعدهم ربُّهم على ألسنة رسلهم، فقالوا ذلك[1]. ويمكن أن يكون قوله: ﴿هَٰذَا﴾

---

(١) ذكر ابن الجوزي (٥٢٧/٣) في تفسير هذه الآية ثلاثة أقوال: (أحدها: أنه قول المؤمنين، قاله مجاهد، وقتادة، وابن أبي ليلى، قال قتادة: أول الآية للكافرين، وآخرها للمؤمنين. والثاني: أنه قول الملائكة لهم، قاله الحسن. والثالث: أنه قول الكافرين، يقول بعضهم لبعض: هذا الذي =

وصفاً لقوله: ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾، فيكون قولُه: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبرَ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف[1]. وفي قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ تنبيهٌ على أنَّ ذلك الوعد كان لرحمته علينا، ولكنا لم نتنبه.

والبعث ليس بعسيرٍ؛ لأنه / ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وهي النفخة الأخيرة، ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ بِمُجرَّد تلك الصيحة. [٣٩٥/أ]

فإذا بُعِثوا ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فإذا كانت أعمالُكم قبائح فأنتم في جهنَّم مُعَذَّبون.

و﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الذين كانت أعمالُهم خيراً فهم ﴿ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ مُتَلَذِّذون في النِّعمة، مِن الفكاهة.

إذ ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظِلٍّ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ والسُّرُر ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾.

ومع ذلك ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ فأيُّ تَلَذُّذٍ أعلى من ذلك.

ولهم فيها ﴿سَلَٰمٞ﴾، وكان ذلك السلام ﴿قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ رحمَهم بذلك.

﴿وَ﴾قيل في ذلك: [﴿ٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾][2] وانفردوا عن المؤمنين؛ فإنكم كنتم قد اختلطتم في الدنيا، ولم يكن بينهم وبينكم امتيازٌ، إذ لم تكن تلك الدار

=

أخبرنا به المرسلون أننا نبعث ونجازى، قاله ابن زيد).

(١) إعراب القرآن للنحاس (٢٧٠/٣)، وتفسير الزمخشري (٢٠/٤). وقال عبدالجليل شلبي في تحقيق كتاب معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٢٩٠): قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ﴾ في ﴿هَٰذَا﴾ وجهان، أظهرهما: أنه مبتدأٌ وما بعده/ خبرُه. ويكونُ الوقفُ تاماً على قوله ﴿مِن مَّرۡقَدِنَا﴾. وهذه الجملةُ حينئذٍ فيها وجهان، أحدهما: أنها مستأنفة: إمَّا من قولِ اللَّهِ تعالى، أو مِنْ قولِ الملائكةِ. والثاني: أنها من كلام الكفارِ فتكون في محلِّ نصب بالقول. والثاني من الوجهين الأولين: ﴿هَٰذَا﴾ صفةٌ ل ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾ و﴿مَا وَعَدَ﴾ منقطعٌ عَمَّا قبله. ثم في ﴿مَا﴾ وجهان، أحدُهما: أنها في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والخبرُ مقدرٌ أي: الذي وَعَدَه الرحمنُ وصَدَقَ فيه المرسلون حَقٌّ عليكم. وإليه ذهب الزجَّاج والزمخشري. والثاني: أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي: هذا وَعْدُ الرحمن.

(٢) في [ع] تقديم وتأخير: [اليوم امتازوا أيها المجرمون].

دار الجزاء، وأما هذه الدار فهي دار الجزاء، فلا بُدَّ مِن الامتياز للجزاء، وليس [لكم][(١)] في ذلكم عذر.

فإني ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فإنه قد عادى [مع أبيكم][(٢)] آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأخرجه من الجنة.

﴿وَ﴾قد كنت عهدت إليكم ﴿أَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ ووحِّدوني ولا تشركوا بي شيئاً، ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكِر لكم ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، فاسلكوا في تلك الصراطِ لِتَصلوا إلى مقصودكم.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ﴾ الشيطان ﴿مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ خَلْقاً ﴿كَثِيرًا﴾، ﴿أَ﴾تَّبَعْتُمُوه ﴿فَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ فإنَّ مَن له أدنى عقلٍ كيف يتَّبع عدُوَّه مع وضوح البرهانِ على عداوته وعلى إضلاله.

فإنَّكم إذا اتبعتموه فأنتم ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بِها.

فأنتم ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ وادخلوها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ولا يمكنهم أن يُنكِروا بكفرهم فإنّا ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بِمَنْعِها عن الكلام، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إمَّا بظهور آثار المعاصي عليها، أو بإنطاق الله تعالى إيَّاها. وفي الحديث: أنَّهم يجحدون ويُخاصِمون، فيختم على أفواههم، وتكلم أيديهم وأرجلهم[(٣)]. وأسند التكلم إلى الأيدي والشهادة إلى الأرجل إذ أكثرُ الأفعال بالأيدي، فهي تُقِرُّ بما فعلت، وأمَّا الأرجل فشاهدةٌ.

---

(١) في [ف] بلفظ: [عليكم].

(٢) كذا في المخطوط ولعل الصواب أن فعل: (عادى) يتعدى بنفسه، فيقال: عادى أباكم آدم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق برقم (٢٩٦٩) (٤/ ٢٢٨٠): عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول: بعدا لكن وسحقا، فعنكن كنت أناضل».

﴿وَ﴾ذا ليس ببعيدٍ علينا، فإنّا ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ التي بها يُبصِرُون ما كان بعيداً منهم، ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ الذي اعتادوا سلوكَه، ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ ذلك الصراطَ وجهة السلوكِ، فلا يستبعد علينا ختم الأفواه.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ فهم / يكونون كالجماد في مكانهم، ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا﴾ ذَهاباً ﴿وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ ولا رجوعاً. فوضع الفعل موضعه للفواصل[1]، وأيضاً فيه إيماءٌ إلى أنَّ الرجوع حينئذ أهمُّ مِن الذهاب؛ فإنَّ الإنسانَ إذا كان في الطريق وعيَيَ وبلغت طاقته يهم له الرجوعُ، ولكن لا يمكن لهم ذلك، ففي نفي أصل الفعل إشارةٌ إلى ذلك. ويمكن أن يكون المعنى: ولكنهم لا يرجعون عن تكذيبهم، فكما نقدر على المسخ نقدر على الختم[2]، وكذا نقدر على تكلم الأيدي والأرجل؛ إذ ذلك تغيير وتبديل من هيئة إلى أخرى. [٣٩٥/ب]

﴿وَ﴾لا ينظرون إلى أنّا ﴿مَن نُّعَمِّرۡهُ﴾ ونُطِل عُمُرَه ﴿نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ نُقَلِّبْه، فلا يزال يتزايد ضعفُه وانتقاص بنيته وقواه، ﴿أَ﴾يُشاهِدون ذلك ﴿فَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ مَن قدر على ذلك قدر على الطمسِ والمسخِ! إذ هو مشتملٌ عليهما، ولكن بتدريجٍ.

[﴿وَ﴾][3] أنتم تقولون: إنَّ ما وُعِظْتُم به مِن القرآن شعرٌ! مع أنّا ﴿مَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ محمداً ﴿ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾؛ فإنَّه قد كان فيكُم سنين ولم يقل شِعراً قطُّ،

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٢٧٢/٤).

(٢) أورد البيضاوي (٢٧٢/٤) هذا القول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ بغير إسناد. وذكر ابن الجوزي في قوله (٥٣٠/٣): ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: فما استطاعوا أن يتقدموا ولا أن يتأخروا، قاله قتادة. والثاني: فما استطاعوا مضياً عن العذاب، ولا رجوعاً إلى الخلقة الأولى بعد المسخ، قاله الضحاك. والثالث: مضياً مِن الدنيا ولا رجوعاً إليها، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من [ع].

فكيف يصح ذلك منه! ﴿إِنۡ هُوَ﴾ ما هُو ﴿إِلَّا ذِكۡرٌ﴾ وعِظَةٌ للخَلْقِ وإرشادٌ منه سبحانه ﴿وَقُرۡءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهِرٌ أمرُه في أنَّه ليس مِن كلام البشر، بل هو مُنَزَّلٌ مِن الله سبحانه.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآنُ، أو الرسولُ[1] ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقِلاً؛ فإنَّ الغافل كالميت، ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾ كلِمَةُ العذابِ ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين علِم اللهُ أنَّهم يُصِرُّون على كفرهم، فإنَّه إذا أُنزِل القرآنُ فهم لا يؤمنون، فيلزم عليهم الحجةُ، فيعذبون.

﴿أَ﴾يكفُرون ويُشْرِكون ﴿وَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ وأَحْدَثْتها[2] ولم يقدِر على إحداثِه غيرُنا، ومِن ذلك أنَّا خلقنا ﴿أَنۡعَٰمًا﴾ فيها منافِعُ كثيرةٌ ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ بتمليكنا، ومُتَصَرِّفون فيها.

﴿وَ﴾ذلك بأنّا ﴿ذَلَّلۡنَاهَا لَهُمۡ﴾ وصيَّرْناها منقادةً لهم ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ مركوبهم ﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾.

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ غير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن، ﴿أَ﴾ينتفعون بما ذُكِر ﴿فَلَا يَشۡكُرُونَ﴾!

﴿وَ﴾ذلك بأن ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ يعبدونهم كما يُعْبَد اللهُ سبحانه، وإنما فعلوا ذلك ﴿لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾، فإنَّهم يرجون ينصرونهم فيما [يعرضهم][3] مِن الأمور.

وقد غلطوا في ذلك؛ إذ الأمرُ بالعكس، فإنهم ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَ﴾ ذلك إذ ﴿هُمۡ لَهُمۡ﴾ لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾ فإنَّهم يحفظون آلهتهم، كما أنَّ الجندَ يحفظُ

---

(١) قرأ نافع وابن عامر: ﴿لِتُنذِرَ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، يقول: لتنذر يا محمد. وقرأ الباقون: بالياء على معنى الخبر عنه، يعني: لتنذر يا محمد. ويقال: يعني: لتنذر بالقرآن مَن كان مهتدياً في علم الله تعالى الأزلي. انظر: تفسير السمرقندي (١٣١/٣). وتعدد القراءات بمنْزلة تعدد الآيات.

(٢) والأولى أن يقال : (وأحدثته)

(٣) كذا في المخطوط والصواب أن يقال: [يعرض لهم].

الأميرَ.

فإذا عرفتَ قدرته الباهرة ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ في الإلحاد والشرك وتكذيب الرسل، فإنَّا نجزيهم على قولهم، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾/ فنجازيهم على كلٍّ منهما. [٣٩٦/أ]

﴿ أَ ﴾يقولون ما يقولون ﴿ وَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ماء مهين، فإذا كمل وبلغ مبلغ الرجال ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، وكان عليه أن يتذلَّل وينظر إلى أصله، فيعلم أنَّ مَن قدر على بَدْءِ خلقه كيف لا يقدر على إعادته؟!

﴿ وَ ﴾هم لم يتفكروا في ذلك! بل ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ أمراً عجيباً؛ حيث نفى القدرة على الإعادة ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ مِن ذلك الماء المهين، وأشكل على الإعادة بأن ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾! فإنَّ كونها رميماً يمنع الإعادةَ.

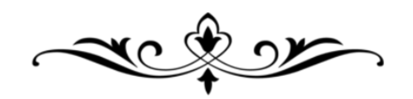
﴿ قُلْ ﴾ لهم: إنَّ ذلك ليس بمانعٍ، فإنه ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، فإنَّ قدرته على الإنشاء كما كانت لم تتغير، والمادة أيضاً كما كانت، إلا أنها اختلطت ﴿ وَ ﴾ذا ليس بمانعٍ إذ ﴿ هُوَ ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾، فيعلمُ تفاصيل جميعِ ما خلق، فيجمع بين الأضدادِ كما جمعت بينهُنَّ أول مرة، ولا يبعد في قدرته ذلك.

إذ هو ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ وإن لم يقطر منه الماء، فإنَّه في ذلك الحين ينقدح منه النارُ، ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فلا يُشَكُّ في أنها نارٌ أخرجت من الشجر الأخضر، مع ما فيه من الماء المضادة للنار. فمَن أخرج مِن الماء النارَ يقدر أن يخرج مِن الأجزاء اليابسة شخصاً حيّاً جامِعاً بين الأجزاء المتضادة كما كانت قبل، ألا يَقْدِر سبحانه على ذلك!

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الذي جميع المخلوقاتِ منهما نَشَأَتْ ﴿بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ بعد أن فَنُوا وصاروا تراباً؟ ﴿بَلَىٰ ﴾ هو قادِرٌ على ذلك. ﴿ وَ ﴾ذلك إذ ﴿ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ﴾ كثير المخلوقات ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾ يعلم كلَّ شيءٍ على التفصيل، فلا يمنعه الاختلاطُ عن التمييزِ، وأيضاً هو ليس بمحتاجٍ في الخلق إلى الآلات حتى يعسر عليه بفقد تلك الآلات.

بل ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا ﴾ مِن الأشياء صغيراً أو كبيراً، عظيماً أو حقيراً ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن ﴾ تَكَوّن ﴿فَيَكُونُ ﴾ بلا تراخٍ، وافتقارٍ إلى مزاولة عمل، وتَوَقُّفٍ على أمرٍ آخرَ.

فأنتم إذا عرفتم ذلك ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ فنَزِّهوا تنْزيهاً، ﴿وَ﴾أنتم ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فهو سبحانه يجازيكم على ما أنتم عليه مِن أحوالكم وأفعالِكُم.



[٣٩٦/ب]

(سورة الصّافات)

سورة الصَّافات مكية[١].

وآيُها مئة وإحدى أو اثنان وثمانون[٢].

وسُمِّيَت بها[٣] إذ هذه السورة بل جميع القرآن مسوقةٌ لأن يعبدوا الله وحده، وهو الذي يراد بقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أقسم سبحانه بالذين يعبدون الله سبحانه، ويصُفُّون فيها جماعاتٍ جماعاتٍ، ويُطَهِّرون نفوسَهم؛ فإنَّ الأهمَّ أولاً هو أن يطهر النفوس، ثُمَّ يَزجُرون ويَمْنَعُون مِن فِعْلِ ما لا يرضاه سبحانه، ويتلون آياتِ الله على مَن يأمرونهم وينهونهم؛ فإنَّ الأمرَ والنهيَ لا بُدَّ وأن يُقام على ذلك دليلٌ ينقاد له الذين يأمرونهم وينهونهم. أو المراد: الملائكة[٤] الذين يعبدون اللهَ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ، ومع ذلك يشتغلون بتدبير العالم، فيزجرون الأجرامَ العلويةَ والسفليةَ بالتدبيرِ المأمور منها، ويتلون آياتِ اللهِ على أنبيائه وأوليائه بالوحيِ والإلهامِ والرؤيا

---

(١) سورة الصافات مِن السور المتفق على مكيتها. انظر المكي والمدني (ص٢٥٠)

(٢) قال أبو عمرو الداني في البيان (ص٢١٢): (وهي مائة وثمانون وآية في البصري وأبي جعفر القارئ، وآيتان في عدد الباقين). وانظر جمال القراء وكمال الإقراء (ص: ٣٠٢)، والإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٣٦).

(٣) يشير المؤلف إلى معنى (الصافات)، وهم الملائكة الذين يعبدون الله تعالى، وسميت بها لافتتاحها بهذا اللفظ.

ومن أسمائها سورة الذبيح؛ لِذكر قصة الذبيح إسماعيل بن إبراهيم عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، وسورة الزينة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٢٢).

(٤) رواه الطبري (٢١/٨) عن مجاهد، في قوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ قال: الملائكة.

الصادقةِ. أو المراد: الغزاة[1] الذين يَصُفُّون في الجهادِ، ويزجرون الأعداء [و][2] الخيل، ويتلون ذِكْرَ اللهِ؛ فإنَّهم لا يشغلهم المبارزةُ عن الذِّكْرِ. فالعطفُ على جميع الوجوه باعتبار تغايُرِ الصِّفاتِ، وبالفاءِ إشارةٌ إلى تَقَدُّمِ رُتبةِ المتأخرِ على المتقدمِ؛ فإنَّ الذِّكْرَ أعلى مِن الزَّجْرِ، وهو مِن الصفِّ[3]، فإنَّ الخبرَ الْمُتَعَدِّي أعلى مِن غيره[4]، وفي القَسَم بهذه الأشياء إلى فضلها عنده سبحانه وعند غيره، وإن لم يعلموا فضلها فعليهم أن يعلموا؛ إذ بهم بقاء العالم جميعه على جميع الوجوه.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ جوابُ القسم.

وذلك -أعني: كونه واحداً- إذ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾، فإنَّ وجودَها على الانتظامِ على الوجهِ الأكملِ دليلٌ على وجودِه ووحدتِه. وأمَّا كونُه ربَّ السماوات والأرض فهُم يُقِرُّون به، فإنك لو سألتهم: مَنْ خلق السماوات؟ ليقولُنَّ: الله. أما[5] كونُه ربَّ ما بينهما فلأنه ﴿رَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ للكواكب ومغاربها، وهم ينسبون ما وقع في هذا العالم إلى الكواكب وحركتها. فإذا كان سبحانه ربَّ الحركاتِ والكواكبِ؛ فهو يكون سبحانه رب الجميع.

والمشرق والمغرب مختلف إلى تمام السنة، لكلِّ يومٍ مشرقٌ ومغربٌ، مختلف بحركتها الذاتية، وسرعتها للأوج والحضيض[6]، وحركتها إلى الجنوب والشمال، وإن كانت إبطاءً

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي (١٣٥/٣).

(٢) في [ف] بلفظ: [أو] الخيل.

(٣) ذكر المؤلف بأنَّ المتأخِّر أعلى في المرتبة مِن المتقدم، يعني: أنَّ التاليات ذِكراً أعلى مِن الصافات، بينما أشار الزمخشريُّ إلى جواز الأمرين. انظر: الكشاف (٣٤/٤).

(٤) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٨٥/٢٣) مُوَضِّحاً ذلك: (فقوله: ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ إشارةٌ إلى تأثيرها، وقوله: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ إشارةٌ إلى تأثُّرِها بما يُلْقَى إليها مِن أمرِ اللهِ فتتلوه، وتتعبدُ بالعمل به).

(٥) في [ف] بلفظ: (وأما).

(٦) يطلق الحضِيض على كلِّ سافِلٍ في الأرض، ويقابله الأوج، وهو أعلى موضع من الأرض. انظر: تاج العروس (٢٩٤/١٨).

فجميع ذلك مِنَّا.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ القُرْبَى منكم ﴿ بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾، فإنَّ الكواكب للسماء الدنيا زينةٌ، وإن كانت مركوزةً في غيرها مِن السماوات العُلَى، فإنَّها تُرَى فيها كجواهرَ مشرقة متلألئةٍ / على سطحها [الأزرق][1] بأشكالٍ مختلفةٍ. [٣٩٧/أ]

﴿ وَ ﴾جعلناها ﴿ حِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ خارجٍ مِن طاعتنا برَمْيِ الشُّهُبِ.

فإذا حفظنا السماءَ الدنيا مِنهُم فهم ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾ ولا يُمْكِن لهم أن يسمعوا ﴿ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ الملائكةِ وأشرافِهم الذين يتحدثون فيما بينهم بما يقع في هذا العالَمِ مِن الحوادث. وعُدِّيَ السماعُ بـ﴿ إِلَى ﴾ لِتَضَمُّنِه معنى الإصغاءِ، مِن التَّسَمُّعِ، وهو: طلبُ السماعِ والتَّكَلُّفُ له. ﴿ وَ ﴾ذلك لأنَّهم ﴿ يُقۡذَفُونَ ﴾ ويُرْمَوْن ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴾ مِن جوانبِ السماء.

وإذا قصدوا صعودَه فكانوا ﴿ دُحُورٗا ﴾ مدحورين، أو يُقْذَفون للدُّحُورِ، أو يُقْذَفون بالدُّحور[2]، جمعُ دَحْرٍ، وهو: ما يطرده به. ﴿ وَ ﴾هم لا يكتفون بذلك الإذلالِ، بل ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ ﴾ شديد ﴿ وَاصِبٌ ﴾ دائِمٌ، وهو عذاب الآخرةِ.

وهم لا يسمعون ﴿ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ ﴾ أيِ: الاختلاسَ القليلَ مِن كلام الملائكةِ مُسارَقةً، وهو إذا خطف ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾ مضى كأنَّه يثقُبُ ظلامَ الجوِّ.

وما ذكره الحكماءُ مِن أنَّ ذكر ذلك بخارٌ يصعدُ إلى كُرَةِ الأثيرِ، فيشتعلُ، فإنَّه لا يُنافي ذلك؛ إذ يمكن ذلك وهذا أيضاً[3]، إلا أنَّ هذا مُخْتَصٌّ برَجْمِ الشياطين، وبهذا

---

(١) في [ع] بلفظ [الأرزاق] ولعل الأصوب ما أثبته من [ف]؛ لأنه الأنسب للمعنى لأن الكواكب لا يعلم هل على ظهرها أرزاق أم لا.

(٢) قال النسفي (٣/١١٨): (﴿ دُحُورٗا ﴾ مفعول له أى يقذفون للدحور وهو الطرد أو مدحورين على الحال أو لأن القذف والطرد متقاربان في المعنى فكأنه قيل يدحرون أو قذفاً، وانظر: إعراب القرآن وبيانه (٨/ ٢٤٤).

(٣) يعني المؤلف بالحكماء: الفلاسفة. وما ذُكِر في أنَّ المراد بالشهب (بخار يصعد إلى كرة الأثير فيشتعل) فلا نستطيع الجزم بحقيقته، وكأنَّ المفسرين متفقون أنَّه يصدر مِن الكواكب، لكن هل =

اندفعَ ما يُقال على ما روي أنَّه حَدَث بعد ميلادِ النبيِّ ﷺ[1] أنَّ الشهب قد كان

=

الكواكب تسير؟ أو نار تخرج منها حتى تدرك الشيطان فتحرقه. قال الشوكاني في تفسيره (٣١٠/٥): (ووجه هذا: أنَّ المصابيح التي زيَّن اللهُ بها السماءَ الدنيا لا تزول، ولا يُرجَم بها، كذا قال أبو علي الفارسي جواباً لِمَن سأله: كيف تكون المصابيحُ زينةً وهي رجومٌ؟ قال القشيري: وأمثل مِن قولِه هذا أن نقول: هي زينة قبل أن يُرجَم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجومَ لثلاثٍ: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البرِّ والبحرِ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلَّم فيما لا يعلم، وتعدَّى وظلم).

(١) أخرج النسائيُّ في السنن الكبرى (٣١٥/١٠) عن ابن عباسٍ، قال: «كانت الجنُّ تصعد إلى السماء، يستمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمةَ زادوا فيها تسعاً، فأمَّا الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فيكون باطلاً، فلمَّا بُعِث رسولُ الله ﷺ مُنِعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجومُ يُرمَى بها قبلَ ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا لأمرٍ حدث في الأرض، فبعث جنودَه، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يُصَلِّي، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدثُ الذي حدث في الأرض». وانظر: المعجم الكبير للطبراني (٤٦/١٢)، وقال الترمذي في سننه برقم (٣٣٢٤): حديث حسن صحيح. وصححه الألباني انظر: (صحيح وضعيف سنن الترمذي) (٣٢٤/٧).

وقد اختلف العلماءُ في المسألة، واستدلَّ بهذا الحديث على الرمي بها بعد بعثته ﷺ. وقد وردت أحاديثُ تدُلُّ على أنه كان يُرمَى بها قبل مبعثه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومنها ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٥٠/٤) عن ابن عباسٍ قال: أخبرني رجلٌ مِن أصحاب النبي ﷺ مِن الأنصار أنَّهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رُمِي بنجمٍ، فاستنار، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: (ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمِي بمثلِ هذا؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: وُلِد الليلة رجلٌ عظيم، ومات رجلٌ عظيم. فقال رسول الله ﷺ: (فإنَّها لا يُرمَى بها لِمَوت أحدٍ، ولا لِحَياته، ولكن ربنا -تبارك وتعالى اسمه- إذا قضى أمراً سبَّح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهلَ هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربُّكم؟ فيخبرونهم ماذا قال) قال: (فيستخبر بعضُ أهل السماوات بعضاً، حتى يبلغ الخبرُ هذه السماءَ الدنيا، فتخطف الجن السمعَ، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حقٌّ، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون).

قال القرطبيُّ (٦٦/١٥): واختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث، أو بعده لأجل المبعث، على قولين. وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي مِن ذكرها في سورة الجنِّ عن ابن عباس. وقد يمكن الجمع بينهما أن يُقال: إن الذين قالوا: لم تكن الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث

=

متقدماً على عهده عَلَيْهِ السَّلَامُ. واختُلف في أنَّ المرجوم يتأذَّى به فيرجع أو يحترق به، لكن قد يُصيب الصاعدَ مرةً، وقد لا يصيب، كالموج لراكب السفينة، ولذلك لا يرتَدِعون عنه رأساً. ولا يشكل بأنَّ الشيطان مِن النارِ، فكيف يحترق! إذ ليس من النار الصرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الصرف. فإذا أنكروك ولم يؤمنوا بك مع ما شهدوا من الدلائل الواضحات، وأيضاً قد تبين لهم مِن عدم إخبارهم الكهنة عن الوقائع كما كانوا يخبرونهم قبل ذلك.

إنَّ شأنك عجيبٌ! ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ واستخبِرْهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ لا نستطيع أن نُعيدَهم بعد فنائهم ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِمَّا ذُكِر مِن الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والمغارب والكواكب والشهب! و ﴿مَّنْ﴾ لتغليب العقلاء، وليس فيهم ما يمنعنا [الإعادة][1]. ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبِۭ﴾ فإنَّه الفارقُ بين الإنسانِ وبين الخَلْقِ الآخر. والطينُ اللازبُ: الذي اختلط به الماءُ، لا يمتنع عن الإعادة، فإنَّ ذلك كما يكون قابلاً للإبداء يكون قابلاً للإنشاء، وإنَّما استدل عليهم بذلك إذ قد اشتهرت قصة آدم فيما بينهم، وأيضاً قد شاهدوا تَوَلُّد كثيرٍ مِن الحيوانات من الأرض، بلا توسط شيء آخر، فكما هو خالق [لتلك][2] الحيوانات يكون خالقاً لهم أيضاً، فلا يستبعد خلقهم / مِن ذلك الطين، ولا يتعجب من ذلك. [٣٩٧/ب]

﴿بَلْ﴾ إنَّك إذا ﴿عَجِبْتَ﴾ مِن إنكارهم البعثَ معَ قدرةِ الله تعالى على تلك الأشياء العظيمةِ، فعجبُك قد أصابَ الْمَحَزَّ[3]، ﴿وَ﴾هُم لكمال جهلهم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ مِن تعجُّبِك.

=

النبي ﷺ ثم رميت؛ أي: لم تكن تُرمى رمياً يقطعها عن السمع، ولكنها كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمى وقتاً، وتُرْمَى مِن جانبٍ ولا تُرمى مِن جانب.

(١) في [ف] بزيادة لفظ: [عن].

(٢) في [ف] بلفظ: [تلك].

(٣) الْمَحَزُّ: مَوضِع الحَزِّ، أي القطع، ويُقال: تكلم فَأصَاب المحزَّ: تكلم فأقنع. انظر: المعجم الوسيط (١٧٠/١).

﴿وَ﴾هُم إذا سخِروا منك فهُم ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ فلا جرمَ أنهم ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾ ولا يتَّعِظُون لكمال بلادتِهم.

﴿وَ﴾كيف يتعظون مع أنهم ﴿إِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةً﴾ معجزةً عظيمةً تدُلُّ على صِدقك فهم لا يقبلون قولَك، بل ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ يُبالِغون في السخر، معَ أنَّه كانت الآيةُ بالغةً في الإعجازِ والدلالة على الصدق.

﴿وَ﴾لَمَّا لم يكن لهم طَعْنٌ في تلك الآية، ورأوا لها تأثيراً عجيباً ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ﴾ الذي نراهُ ﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ ظاهِرٌ كونُه سِحراً، فلا نُطِيقُ أن نُعارِضَه، مع أنَّا نعلم بطلانَه ضرورةً؛ لِبُطلانِ ما ادَّعاه ذلك الذي جاء بتلك الآية.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ ولم يبقَ فينا رُوحٌ ولا حَواسٌّ ﴿وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ وصار بعضُ أجزائنا تراباً ﴿وَ﴾بعضُها ﴿عِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾! كان أصلُ الكلامِ: أنُبْعَث إذا متنا! فبدَّلوا الفعليةَ بالاسميةِ، وقدَّموا الظرفَ، وكرَّروا الهمزة مبالغة في الإنكار، وإشعاراً بأنَّ البعثَ مُستَنكَرٌ مُسْتَبْعَدٌ، أشاروا إلى وجوه الاستبعاد بأنَّ الموت يمنعه؛ إذ الإنسانيةُ والحيوانيةُ وجميعُ الحواسِّ قد فَنِيَت وعَدمت، أو المعدومُ لا يُعادُ، وبعد ذلك قد صاروا تراباً وعظاماً، فقد تبدَّلت الأجسادُ، وتفرَّقتِ الموادُّ، واختلطت، وبعض أجزاء الأجساد قد بقيت -أعني: العظامَ- فكيف يُمْكِن الإعادةَ! وإن صار جميعُ الأجزاءِ تُراباً يُمْكِن أن يتخذ منها شيئاً، بخلاف ما إذا صارت بعضُها تراباً وبعضُها بَقِيَت عِظاماً، فإنها أشدُّ امتناعاً، وذا ضروريٌّ بالقياس على ما يُشْهَد[1] مِمَّا يفعلون ويمنعون مِن الصور التي يتخذونها.

﴿أَ﴾نُبْعَث نحن ﴿وَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ الَّذين قد تقادم عهدُهم! فإنَّه إذا كان البعثُ حقّاً فإلى هذا الزمان لِمَ لَمْ يُبعَثُوا؟! وأيُّ شيءٍ منعهم مِن بعثهم إلى هذا الزمان؟! لِمَ لَمْ يُجْزَوا على ما فعلوا مِن الحسنات والسيئات المقتضية للجزاء؟.

﴿قُلۡ﴾ لهم في جوابهم: ﴿نَعَمۡ﴾ تُبعَثون أنتم وآباؤكم الأقدمون للجزاء، وما

---

(١) في [ف] بلفظ: (يشاهد)، وهو الأصوب.

ذكرتم مِن الشُّبَهِ فهي واهيةٌ لا تدفع البراهينَ القطعياتِ، فإنَّ قدرته سبحانه لا تُقاس بالنسبة إلى قدرتكم، ولا استبعاد بالنسبة إلى قدرته تعالى، فتبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغِرُون.

فإذا بُعِثْتُم ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هِي النفخةُ الثانيةُ، مِن: زجر الداعي إذا صاح، فإذا زجروا ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام ﴿يَنظُرُونَ﴾، فيقومون مِن مراقدهم أحياءً يُبصِرون أو ينظرون ما يُفعَل بهم لَمَّا رأوا ذلك اليوم، وذلك الذي ذُكِر مِمَّا يُفْعَل بهم.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ / يوم الجزاء. [٣٩٨/أ]

فيُقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ويمكن أن يكون هذا أيضاً قولُ بعضهم لبعض[1].

فيقول الله سبحانه للملائكة: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مِن موقفِهم إلى موقفٍ آخرَ، أو إلى الجحيم[2]، ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وأشباهَهم[3]، فيقرن عَبَدَةَ الصنمِ معَ عبدةِ الصنم، وعبدة الكواكب مع عبدتها، وكذلك. أو المراد: نساءهم[4] اللاتي على دينهم، أو قرناءهم[5] مِن الشياطين، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مِن آلهتهم مِن الأصنام وغيرها، فإذا حشرتموهم ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ مِن موقفهم الذي حشرتموهم فيه.

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٤/٣٨)، وتفسير البيضاوي (٥/٨).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٤/٣٩)، وتفسير البيضاوي (٥/٨).

(٣) وفي صحيح البخاري: في كتاب تفسير القرآن: باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] (٦/١٦٧): (وقال عمر: ﴿النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]: «يزوج نظيره مِن أهل الجنة والنار، ثم قرأ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾»

(٤) قال به ابنُ عباس في رواية خصيف عن مقسم: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: نساءهم. قال ابن كثير (٧/٨): «وهذا غريب، والمعروف عنه الأول» ويعني تفسير أزواجهم بـ(أشباههم). وانظر: تفسير البيضاوي (٥/٨)، وتفسير النسفي (٣/١٢٠).

(٥) قال به ابنُ عباس في رواية عن مجاهد وسعيد بن جبير. انظر: تفسير ابن كثير (٧/٨). وانظر: تفسير البيضاوي (٥/٨)، وتفسير النسفي (٣/١٢٠).

﴿ وَقِفُوهُمۡ ﴾ فاحبِسُوهم ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ عن عقائدِهم وأعمالِهم.

فيُقال لهم: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصرُ بعضُكُم بعضاً بالتخلُّص. وذلك للتوبيخِ والتقريعِ؛ فهُم لا يجيبون عن ذلك، ولا يُجادِلون كما جادلوا في الدنيا.

﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴾ مُنقادُون عاجِزُون لا حيلةَ لهم.

﴿وَ ﴾إذا رأوا أنَّه انقطعَ عنهم الحِيَلُ وعجزوا كل العجز ﴿أَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾، فالرؤساءُ والأتباعُ يتجادلون ويتخاصَمُون فيما بينهم.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي: الأتباعُ للرؤساء: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ المرادُ باليمينِ: أقوى الوجوهِ، فتُلْزِمُونا بالحُجَجِ على ما اعتقدتم. أو باليمين، فإنهم كانوا يحلفون[1] أنهم على الحقِّ.

﴿قَالُواْ ﴾ الرؤساءُ للأتباعِ: لم يكن لنا قهرٌ عليكم ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ مِن عندِ أنفسِكُم اتِّباعاً لِهَواكم.

﴿وَ ﴾ذلك لأنَّه ما ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ حُجَّةٍ قاهر تقهركم وتقسركم على أن تتبعونا، ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴾ ضالِّين في أنفسهم، مُتَّبعين لهواهم.

فإذا ضللنا ﴿ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآ ﴾ بأن نُعَذَّبَ ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ ذلك العذابَ.

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ فمَن كان في نفسِه غاوِياً فهو لا جرم أنَّه يُغوِي غيرَه؛ فإنَّه مَنِ اختار شيئاً فلا جرم أنَّه إنَّما يختاره لعلمه بحُسْنِه، فهُو يُحسِّن ذلك الشيءَ لغيره أيضاً، فيغويه كما غوي.

﴿ فَإِنَّهُمۡ ﴾ أي: الأتباعُ والرؤساء ﴿يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ كما كانوا

---

(١) ذكر ابن الجوزي في تفسيره (٣/٥٣٩) أنَّ في اليمين ثلاثةَ أقوال: أحدها: كنتم تقهروننا بقدرتكم علينا، لأنكم كنتم أعزَّ مِنَّا، رواه الضحاك. والثاني: مِن قِبَل الدِّينِ، فتُضِلُّونا عنه، قاله الضحاك، وقال الزجاج: تأتوننا مِن قِبَل الدين فتخدعونا بأقوى الأسباب. والثالث: كنتم توثقون ما كنتم تقولون بأيمانكم، فتأتوننا مِن قبل الأيمان التي تحلفونها، حكاه علي بن أحمد النيسابوري.

مشتركين في الغِوايةِ.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ الفعلِ ﴿ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين اقتضى جُرمُهم أن يُفعَل بهم ذلك العذاب.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ﴾ هو ﴿ ٱللَّهُ ﴾ الذي خلقكم لأن تُقِرُّوا بإلاهيته فهم ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يستكبرون عن تلك الكلمة.

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ فهُم تَكَبَّرُوا على الحقِّ، ونسبوا الذي دعاهم إلى الحقِّ إلى السِّحر الذي هو الغيُّ والضلالُ، وإلى الجنون الذي هو التَّذَلُّلِ، فلا جرَم أنه يحيق بهم العذاب المهين.

فإنَّه ليس الأمر كما قالوا، ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ عليهم، ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ بالبراهين / القطعيات. [٣٩٨/ب]

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ على ما فعلتم مِن الإشراك والتكذيب.

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فلا ظُلْمَ عليكم.

وجميعُ العباد مُعَذَّبون ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

فإنهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾.

فإنه ﴿ فَوَٰكِهُ ﴾ ما يُقْصَد به التَّلَذُّذُ دون القوت، ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ في نَيْلِهِ، يَصِلُ إليهم مِن غير تَعَبٍ كرزق الدنيا، فإنَّه لا يخلو عن[1] التعب.

لأنَّهم كانوا ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، والتَّعَبُ يُنافي التَّنَعُّمَ.

ولِغاية تنعمهم يكونون ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ لِئَلاَّ يكونَ لهم وحشةٌ أصلاً.

و ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ ﴾ بإناءٍ فيه خمر ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾.

فإنّ خمر الجنة تجري كالماء ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ فتكون ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

---

(١) ويجوز في اللغة أن يقال: (من) التعب، وهو الأغلب.

ليس فيها غيرُ اللذةِ؛ فإنَّها ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ كما يكون في خمرِ الدنيا، وكيف يكون فيها غولٌ[1] وذا يكون بعد السُّكْرِ! ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ مِن نَزَف الشاربُ: إذا ذهب عقلُه.

﴿ وَ ﴾مِن كمال التَّنَعُّمِ والتَّلَذُّذِ أنها ﴿ عِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ التي قصرت أبصارهم على أزواجهنَّ، ﴿ عِينٌ ﴾ جمع عَيْناء.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مَصُونٌ مِن الغُبار ونحوِه، فكُنَّ أحسنَ الألوانِ والأبدانِ.

فإذا دخلوا في الجنة على تلك الصفات المذكورة مِن التنعم والتلذذ ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فإنَّه ما بقي مِن اللذات والأحاديث.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ في الْمُكالَمَةِ: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ جليسٌ في الدنيا.

﴿ يَقُولُ ﴾ توبيخاً لي: ﴿ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ الرسلَ [إلى][2] ما يدعونك.

معَ أنَّهم يدعون إلى أمر مُحالٍ: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ لَمَجْزِيُّون.

﴿ قَالَ ﴾ ذلك القائلُ لإخوانه مِن أهل الجنة: ﴿ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ إلى أهل النارِ لأُرِيَكم ذلك القَرِينَ.

﴿ فَٱطَّلَعَ ﴾ على أهل النارِ، ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ ذلك القرين ﴿ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وَسَطِه.

﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ لتُهلِكني بإغوائي، فإنَّك اجتهدت في إغوائي.

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ كما كُنتَ في جهنم.

﴿ أَ ﴾علِمْتَ الآن أنَّا نحن مُخَلَّدون في التَّنَعُّمِ ﴿ فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾.

﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ التي لَحِقَتْ بِنا في الدُّنيا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالكُفَّار.

---

(١) روى الطبريُّ في تفسيره (٣٧/٢١) عن ابن عباس في قوله: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يقول: ليس فيها صداعٌ. وقال آخرون: ليس فيها أذىً فتشتكي منه بطونهم.

(٢) في [ف] بلفظ: [على].

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ دون غيره.

فمَن علِم ذلك فليجتهد ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا ﴾ لِيَفوز فوزاً عظيماً، وليعلم العاملون ذلك، فإنَّ مَن له أدنى نظرٌ ينبغي أن يتفكَّر فيه ليوصل فكره إلى العلم، ﴿ فَلْيَعْمَلِ ﴾ كما علِم؛ إذ ﴿ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ الذين يُريدون أن يعملوا عملاً فلهم أن يعملوا ما به يفوزون عظيماً، [و][1] لا ينبغي أن يعمل عمل الحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانعدام.

ألا يتفكرون في أنَّه ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ التي هي نُزُلٌ لأهلِ النارِ، وكيف تكون تلك / الشجرةُ خيراً؟! [٣٩٩/أ]

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ في الدنيا والآخرة.

أمَّا في الدنيا فإذا قلنا: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ مَنبَتُها في قعرِ جهنمَ، وأغصانُها ترتفع إلى دركاتها، قالوا: كيف ذلك والنار تُحْرِق الشجرةَ؟! ولم يعلموا أنَّ مَن قَدِر على أن يخلق ما يعيش في النارِ ويلْتَذُّ فيها فهو أقدرُ على خلق الشجر في النار، وحفظه من الإحراق.

ولكنَّها تكونُ مِن أخبث الأشجار، فإنها ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ في تَناهي القُبحِ والهَوْل. وهذا تشبيهٌ بالمتخيل، أو المراد بالشياطين: حيَّاتٌ هائلةٌ، قبيحة المنظر، لها أعرافٌ[2].

وأمَّا كونها فتنة في الآخرة ﴿ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا ﴾ مِن الشَّجَرِ، ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ هؤلاء الذين في جهنم.

---

(١) في [ف] بلفظ: [أو].

(٢) قال الماوردي في تفسيره (٥١/٥): (فإن قيل: فكيف شبَّهها برؤوس الشياطين وهم ما رأوها ولا عرفوها؟ قيل: عن هذا أجوبة: أحدها: أنَّ قبح صورتها مستقر في النفوس، وإن لم تُشاهد، فجاز أن ينسبها بذلك لاستقرار قبحها في نفوسهم. الثاني: أنَّه أراد رأس حيةٍ تسمى عند العرب: شيطاناً، وهي قبيحة الرأس. الثالث: أنَّه أراد شجراً يكون بين مكة واليمن يسمى: رؤوس الشياطين).

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ بعدما شبِعُوا منها، وغلبهم العطشُ، وطال [الاستسقاء][(١)] ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ لَشراباً مِن غسَّاقٍ، أو صديد مشويّاً بماءٍ حميمٍ تُقَطِّعُ أمعاءَهم.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ ومصيرَهم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ وإلى دَرَكاتها، أو إلى نفسها، فإنَّ الزقوم والحميمَ نُزلٌ يُقَدَّمُ إليهم قبل دخولها[(٢)].

وإنَّما عُذبوا لأنَّهم ليسوا بمعذورين، إنَّهم لم يعملوا تلك الأعمالَ التي أوجبت لهم دخولَ النارِ لِشُبْهَةٍ عَنَّت لهم، بل ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ﴾ وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يُسْرِعون، فهم تركوا تقليدَ العقولِ التي أَعطَيْتَهم لِئَن يتفكروا بها ويعملوا بما أدَّت إليه.

فصاروا كالبهائم بل أضلَّ منها، [ليس][(٣)] الضلال منهم بأعجب، فإنَّه ﴿لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ والمهتدون هم الأَقَلُّون.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ كما أرسلناك فيهم، فهم لم يُؤمنوا بمُنذِريهم.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ فكذا تكون عاقبةَ مَن أنذرتهم ولم يؤمنوا بك، فعُذِّبوا جميعاً.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الَّذين تنبَّهوا بالإنذار، وأخلصوا دينهم لله، فهم نجوا مِن ذلك العذاب، والذين نجوا فهم الرسل عليهم[(٤)] والذين آمنوا منهم.

﴿وَ﴾من ذلك أنَّا ﴿لَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ حين اضطر مِن قومه، حيث لم يؤمنوا به، [وآذوا به، فنادينا][(٥)] بالإنجاء منهم، فاستجبنا له، ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ نحن.

---

(١) في [ف] بلفظ: [استسقاؤهم].

(٢) وقد ذكر ذلك البيضاوي انظر تفسيره (١٢/٥)، قال ابن كثير في تفسيره (٤٨٦/٤): (فأخبر أنهم تارةً يكونون في أكلِ زقُّومٍ، وتارة في شرب حميم، وتارة يُرَدُّون إلى الجحيم).

(٣) في [ف] بلفظ: [وليس].

(٤) كذا في المخطوط، وفيه عجمة. ولعل مراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذين نجوا هم الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والذين آمنوا بهم.

(٥) كذا في النسختين ولعل الصواب : (وآذوه فنادانا).

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ بإيمانهم به ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي هُو أذى قومِه والغرقُ.

﴿ وَ ﴾لَمَّا كمل إخلاصه معنا ﴿ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ ليكون له ذِكراً في الآخِرين، فهلك مَن عداهم، وبقوا متناسلين إلى يوم الدين. وروي: أنَّه مات كلُّ مَن كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم[1].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ الثناءَ الجميلَ وإبقاءَ الذِّكْرِ ﴿ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾.

ولم نكتف بثنائهم عليه، بل معَ ذلك ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ مِن الله سبحانه ﴿ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو مخصوصٌ بذلك السلامِ في العالمين. أو: وتركنا عليه هذه القولة؛ فإنَّه كُلَّما سُمع ذِكْرُه أو ذُكِر يُقال: / عليه السلام، أو: عليه الصلاة والسلام. [٣٩٩/ب]

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ الجزاء ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لإحسانهم، فما جزيناه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذلك الجزاء إلا لإحسانه.

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولا إحسانٌ أفضلُ مِن الإيمان.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ الذين كانوا يُؤذُونه، فإغراقُهم أيضاً مِن جزائه.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ مِمَّن شايَعَهُ وتابعه ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾، وذا أيضاً جزاءٌ على الإحسان، والمراد بكونه تابعاً: إمَّا كونه مُوافِقاً له في أصول الدين، أو في الفروع أيضاً، بأن يكون متحداً في الكلِّ [و][2] في أكثر الأمور، كشرعنا وشرع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان بينهما ألفان وستمائة وأربعون سنة[3]، ولم يكن بينهما نبي سوى هود

---

(١) روى الترمذي في سُننه (٣٦٥/٥) عن سمُرة، عن النبي ﷺ، في قول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ قال: «حام، وسام، ويافث». وروى ابن جرير في تفسيره (٥٩/٢١) عن قتادة، في قوله: ﴿جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ قال: (فالناس كلهم من ذرية نوح).

(٢) في [ف] بلفظ: [أو].

(٣) روى الطبرانيُّ في المعجم الكبير (١١٨/٨) عن أبي أُمامة أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أنبِيّاً كان آدم؟ قال: «نعم». قال: كم كان بينه وبين نوح وإبراهيم؟ قال: «عشرة قرون». قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟ قال: «عشرة قرون». وانظر: مستدرك الحاكم (٢٨٨/٢)، والأسماء والصفات للبيهقي (٥١٧/١).

وصالح[1] عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ.

وكان ذلك ﴿ إِذْ جَآءَ ﴾ إبراهيمُ ﴿ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ مِن الآفات الباطنية، وكان مخلصاً مع ربِّه غاية الإخلاص، أو بقلب حزين[2]، مِن السليم بمعنى اللديغ[3]، فإنه سبحانه عند منكسرة القلوب.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ مِن آلهتكم؟!.

﴿ أَ ﴾تصنعون ﴿ إِفْكًا ﴾ كذِباً صِرفا مِن حيثُ إنكم ﴿ ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ فقَدَّم المفعولَ للعناية، ويُمكن أن يكون ﴿ ءَالِهَةً ﴾ بدلاً مِن ﴿ إِفْكًا ﴾[4]، وهو مفعول لقوله: ﴿ تُرِيدُونَ ﴾، أو يكون إفكاً، أو مفعول له لـ﴿ تُرِيدُونَ ﴾.

فإنَّكم إذا أَفِكتم ذلك الإفك ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الذي هو حقيقٌ بالعبادةِ؛ فإنَّ كونَه ربَّ العالمين يقتضي ذلكم، فأنتم تركتُموها وأشركتم به غيرَه، فمَا حملكم وبَعَثَكُم على ذلكم؟! فإنَّه ليس شيءٌ يُوقع في ظنِّ ذلكم، فضلاً عن العلمْ[5] والتحقيقِ، فبأيِّ شيء أمِنتم مِن عذابه!.

كان قومُه يَسْتَدِلُّون بالنجومِ، وكان لهم يوم عيد يخرجون فيه إلى مكانٍ مخصوصٍ لِلَّهْوِ واللَّعِبِ، فسألوه أن يَخرج معهم، ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾، ورأى مواقعَها واتِّصالاتِها.

---

(١) روى الطبري في تفسيره (٣٥٧/٩) عن ابن إسحاق: (ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم نبيٌّ إلا هود وصالح).

(٢) وقد ذكر نحوا من ذلك البيضاوي في تفسيره انظر (٢٤٧/٧)، وقال الماوردي في تفسيره (٥٤/٥): (فيه أربعة أوجه: أحدها: سليم من الشك، قاله قتادة. الثاني: سليم من الشرك، قاله الحسن. الثالث: مخلص، قاله الضحاك. الرابع: ألا يكون لعَّاناً، قاله عروة بن الزبير).

(٣) ذكر ابن الجوزي في تفسيره (٣٤٢/٣) أنَّ مِن معاني سليم: (اللديغ، فالمعنى: كاللديغ مِن خوف الله ﷻ). وقال أبو عُبَيْد (٤٣/٢): (ونرى أنه إنَّما قيل له: مطبوب لأَنَّهُ كُنِّي بالطبِّ عَن السحر، كما كنوا عن اللديغ فقالوا: سليم؛ تطَيُّراً إلى السَّلامَةِ، مِن اللَّدْغِ، وكما كنوا عن الفلاة –وهي: المهلَكَةُ التي لا ماء فيها– فقالوا: مَفازة؛ تطَيُّراً مِن الهلاكِ إلى الفوزِ).

(٤) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢٨٩/٣).

(٥) في هذه الجملة ركاكة ولعل مراده: فإنه ليس شيء من الظن يوقع في ذلك فضلاً عن العلم.

وأراهم أنه يستدل بها، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مُشارِفٌ للسَّقَم والمرض[1]. وكان أغلب أسقامهم الطاعون، وكانوا يخافون العدوى، فتركوه، ولم يجعلوه معهم. ولا مَنْع مِن النظر في النجوم واتصالاتها، وإنَّما الممنوع هو الاعتقاد بأنَّ ذلك مُؤَثِّرٌ. ويمكن أن يكون المراد بالنجوم: علم النجوم وكتابها، ويمكن أن يكون المراد بالسقم: اعتدال المزاج، فإنَّه قلَّما يخلو الإنسانُ عن الخروجِ منه خروجاً ما، أو المراد أنه بصدد الموت[2].

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ هاربين خوفاً مِن العدوى.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ الرَّوغ: هو الميل بحيلة، ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام إذ رأى الأطعمة وضعت عندهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ذلكم!.

فإن لم تكونوا فإنَّكم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بجوابي اعتذاراً لعدم الأكل. وذلك إمَّا على عادة الإنسان أنه إذا رأى شيئاً قد علم بطلانه يقول ذلك وإن لم يحضر هنا / [٤٠٠/أ] أحدٌ، وإمَّا لأنَّه قال ذلك لأجل الشياطين المتعلقة بالأصنام الذين يُغْوُون الناس بإرادة الأكل والتكلم من الأصنام، وقد قيل: إنَّه قد اشتهر ذلك في زمنه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَرَاغَ﴾ ومال ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مُستخفياً لِئَلا يراه أحدٌ، كما يدل على ذلك قوله: (راغ)، فضربهم ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ بالقُوَّة[3]، أو بسبب الحلف الذي حلفه بقوله:

---

(١) روى البخاري (٤/١٤١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «لم يكذب إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]...»، قال ابنُ حجر في فتح الباري (٦/٣٩١) مُعَلِّقاً: (وحكى النوويُّ عن بعضهم: أنَّه كان تأخذه الحُمَّى في ذلك الوقت، وهو بعيدٌ؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن كذباً لا تصريحاً ولا تعريضاً).

(٢) قال بذلك البيضاوي في تفسيره انظر (٥/١٢)، وقال ابن الجوزي في تفسيره (٣/٥٤٥): (﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ من معاريض الكلام، ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّ معناه: سأسقم، قاله الضحاك. قال ابن الأنباري: أعلمه الله عَزَّ وَجَلَّ أنَّه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجمٌ يعرفه، فلمَّا رأى النجم علم أنه سيُسقم. والثاني: إنِّي سقيم القلب عليكم إذ تكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع، ذكره ابن الأنباري. والثالث: أنه سقم لعلة عرضت له). وانظر: تفسير البيضاوي (٥/١٣).

(٣) قال الماوردي في تفسيره (٥/٥٧): (فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: يده اليمنى، قاله الضحاك،
=

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

ثم إذا رجعوا مِن مكان عيدهم، ورأوا ما فعل بأصنامِهم، فظنُّوا أنَّ الذي فعل بهم هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ يُسْرِعون.

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ وذا لا يَليق، فإنَّ العبادة التي هي غايةُ الخضوعِ لا تكون إلا لِمَن هو أشرف غاية الشرف[1].

﴿ وَ ﴾ليس ذلك إلا للهِ الذي ﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، فأصنامُكم التي حصلت مِن أعمالكم مخلوقةٌ له سبحانه، فما لكم تركتم[2] واشتغلتم بتلك!

فلمّا لم يكن لهم برهانٌ يُجادلون به غضِبوا، و ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا ﴾ عظيماً، فأوقدوا فيه ناراً شديدةً، ﴿ فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ التي هي تلك الدار لتخلصوا منه، وهو يهلك فيها، فإنَّه لا يمكن له الخلاص منها بحيلةٍ مِنَ الحِيَل، وإن كانت له حِيَلٌ كثيرة، فإنهم كانوا رأوا منه عَلَيْهِ السَّلَامُ معجزاتٍ كثيرة.

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ ﴾ بإبراهيم ﴿ كَيْدًا ﴾ كي لا يظهر للعامةِ عجزُهم مِن إقامة البراهين، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ الأذَلِّين بإبطال كيدهم، وجعله برهاناً نَيِّراً على عُلُوِّ شأنه، فإنَّه جعل النار برداً وسلاماً.

ولَمَّا أَيِسَ عن إيمانهم، ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ إلى مكانٍ أَتَجَرَّدُ فيه للعبادةِ، وأدعو الناسَ إليها، فإنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمِر أن يُهاجِر إلى الشام، فإنَّه سبحانه ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى ما فيه صلاحي. وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

=

لأنها أقوى، والضرب بها أشد. الثاني: باليمين التي حلفها حين قال: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ [الأنبياء:٥٧]، حكاه ابن عيسى. الثالث: يعني: بالقوة، وقوة النبوة أشد، قاله ثعلب). وانظر: تفسير ابن الجوزي (٣/٥٤٥).

(١) يشير المؤلف إلى أن العبادة والخضوع لا تصرف إلا لذي الشرف والعلو العظيم، وهو الله سبحانه وتعالى.

(٢) في هذه الجملة ركاكة ولعل الصواب أن يقال: (فما لكم تركتموه).

[القصص:٢٢]؛ لأنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن حينئذٍ نَبيًّا ولا مأموراً بالهِجرة إلى مدين، وأمَّا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنّه حينئذ كان نبيّاً ومأموراً بالهجرة، ويُمكن أن يكون ذلك لفرط توكله، والبناء على عادته تعالى معه.

ثُمَّ دعا ربَّه وقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وَلَدْ يُعِينُني على الدَّعوة والطَّاعة، ويُؤْنِسُنِي في الغُربة.

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ وهو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، وأيُّ حلْمٍ مثل حلمه حين عَرَض عليه أبوه الذبحَ وهو مُراهق، فقال: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. وقيل: ما وصف الله سبحانه نبيَّاً بالحلم غير إبراهيم وبنيه لِعِزَّةِ وُجُوده.

ثم وُلد له ولدٌ كما بُشِّر به، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ ﴾ وكان يسعى ﴿مَعَهُ ٱلسَّعْيَ ﴾ ويعمل معه الأعمالَ، ويُعِينُه عليها. وفي قوله: ﴿مَعَهُ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه حينئذ لم يبلغ مبلغَ الرِّجال حتى يعمل الأعمالَ بنفسه، أو مع غير أبيه لكن كان يعمل مع أبيه، فإنَّ الأب يكون أرفقَ، فلا يُكَلِّفُ ابنَه الأعمالَ الشاقَّةَ التي لا يُطِيقُها. / ورُوي أنَّه كان له يومئذٍ [٤٠٠/ب] ثلاث عشرة سنة[2] ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ ويمكن أن يكون رأى ذلك، أو رأى ما هو تعبيره[3].

---

(١) اختُلِف في الذَّبيح: هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ قال ابن القيم في زاد المعاد (٧١/١): (وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم)، وقد رجّح ابنُ حجرٍ أنَّه إسماعيل، فقال في الفتح (٣٧٩/١٢) بعد سرد الخلاف والحجج فيهما: (وما تقدم مِن كون قصة الذبيح كانت بمكة حُجَّةٌ قوية في أنَّ الذبيح إسماعيل؛ لأنَّ سارة وإسحاق لم يكونا بمكة. والله أعلم) وانظر: تفسير البغوي (٣٦/٤)، وتفسير الرازي (٣٤٦/٢٦).

(٢) انظر: تفسير ابن جزي (١٩٥/٢).

(٣) أخرج البخاري في كتاب الوضوء: باب التخفيف في الوضوء (٣٩/١): قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: رُؤيا الأنبياءِ وحيٌ، ثم قرأ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾. وظاهر الآية يدل على أنه في المنام.

وقيل: إنَّه رأى ليلةَ التروية أنَّ قائلاً يقول: إنَّ الله يأمرُك بذبحِ ابنِك، فلمَّا أصبح شكَّ أنّه مِن الله سبحانه، أو مِن الشيطان، فلمَّا أمسى رأى مثلَ ذلك، فعرف أنَّه مِن الله سبحانه، ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فهَمَّ بنحره، وقال له ذلك. ولذلك سُميت تلك الأيام بالتروية، وعرفة، والنحر[1].

رُوي: أنَّ عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إنْ سهّل اللهُ سبحانه له أن يحفر بئر زمزم، أو بلغ بنوه عشراً، فلمَّا سَهُل فخرج السهم على عبد الله، فمنعه إخوانُه، ففداه بمائة من الإبل[2].

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ مِنَ الرَّأْيِ، وإنَّما شاوره فيه وهو حَتْمٌ واجِبٌ لِيَعْلَمَ ما عنده فيما نزل مِن بلاءِ اللهِ واختيارِه، فيثبت قدمُه إن جزع، ويأمن عليه إن سلِم؛ لِيُوَطِّن نفسَه عليه، فيهون عليه ذلك، ويكتب المثوبة بالانقياد له قبل أن ينْزل. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ به، ولا تَخَفْ عَلَيَّ، إنَّك ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذَّبح.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ انقادا لأمرِ الله سبحانه، ﴿وَ﴾ذلك بأن ﴿تَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ وصرعه على شِقِّه، فوقع جبينُه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة. وقيل: كَبّه على وجهه وهو رضِيٌّ به، فحصل الانقياد مِن كلٍّ منهما. وكان ذلك عند الصخرة بمنى، أو في الموضع المشرف على مسجده، أو المنحر الذي يُنحر فيه اليوم[3].

شكرنا له ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾.

---

(١) سُمي بذلك لأنهم كانوا يتروون من الماء فيه، يعدونه ليوم عرفة. وقيل: سُمي بذلك لأنَّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رأى ليلتَئذٍ في المنام ذبحَ ابنه، فأصبح يروي في نفسه: أهو حلم أم مِن الله تعالى؟ فسُمِّي يومَ التروية، فلما كانت ليلة عرفة رأى ذلك أيضاً، فعرف أنَّه مِن الله تعالى، فسُمي يوم عرفة، والله أعلم. المغني لابن قدامة (٣/٣٦٣). وانظر: تفسير الثعلبي (٨/١٥٦)، وتفسير البغوي (٤/٣٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/٨٥).

(٣) روى عبد الرزاق (٣/٩٧) في تفسيره عن ابن جريج: (وكان ذلك بمنى منحر الناس). وانظر: تفسير الزمخشري (٤/٥٥).

إنَّك ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ بالعَزْمِ، وأتيت بالمقدماتِ، فإنَّه رُوي: أنَّهُ أَمَرَّ بالسكينِ بِقُوَّتِهِ على حلقه مراراً فلم تقطع[1]، فإنَّا جزيناك ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ الجزاءِ ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يُحْسِنون بالامتثال الأمر مسرعين في ذلك، والإسراع في مثل ذلك الأمر بالامتثال أمرٌ عظيم.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ فإنَّه يمتاز به المخلصُ عن غيره.

﴿ وَ ﴾لَمَّا أسرع في الامتثال ﴿ فَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ بما يُذبَح بدله، فيَتِمُّ به الفعلُ، وإنَّما قيل: ﴿ عَظِيمٍ ﴾ إذ هو عظيمُ الجُثَّةِ سمينٌ، أو عظيم القدر لأنَّه يفدي به اللهُ نبيّاً ابنَ نبيٍّ[2] وأتى نبيٌّ مِن نسله؛ سيدُ المرسلين. قيل: كان ذلك كَبْشاً مِن الجنة. وقيل: وَعِلاً[3] أُهْبِط عليه. ورُوي: أنَّه هرب مِنه عند الجمرة، فرماه بسبع حصياتٍ، حتى أخذ، فصارت منه[4].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قد مَرَّ بيانُه.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الجزاءِ ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. ولَمَّا كان ما وقع مِنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَعْجبَ كَرَّر قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وفَصَّل في بيانِ الجزاء.

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ ﴾ بعد ذلك الغلامِ الحليم ﴿ بِإِسْحَٰقَ ﴾[5]، وقلنا له: إنَّه يكون ﴿ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩/٥٨١).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٥/١٦).

(٣) أورده ابنُ كثيرٍ في تفسيرِه عن ابن عباس (٧/٣١). والوَعِل: تَيْس الجْبَل، أَي: ذكر الأروى، وهو جنسٌ مِن الْمعز الجبلية، لَهُ قرنان قويَّان منحنيان كسيفين أحدبين. المعجم الوسيط (٢/١٠٤٤).

(٤) رواه ابن إسحاق عن ابن عباس. انظر: تفسير ابن كثير (٧/٢٩).

(٥) هذه الآية استدل بها مَن يقول بأنَّ إسماعيل هو مَن أُمِر إبراهيمُ بذبحه؛ لأنَّها جاءت الآيةُ مُبَشِّرةً بإسحاق، وجاءت بعد ذكر قصة الفداء. انظر الحاشية (ص٨٧).

﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ على إبراهيم في أولاده، / ﴿ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ ﴾ فإنَّا أَخرَجْنا مِن [٤٠١/أ] صُلْبِه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم؛ كأيوب وشعيب عليهم الصلاة والسلام. ﴿ وَ ﴾ لم يقتصر صلاحُهما وإحسانُهما أن لا يكون ﴿ مِن ذُرِّيَّتِهِمَا ﴾ إلا كذلك، بل منها ﴿ مُحۡسِنٞ وَ ﴾ منها ﴿ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ بالكُفْر والمعاصي، ﴿ مُبِينٞ ﴾ ظاهِرٌ ظلمُه؛ إذِ النسبُ لا أثرَ له في الهُدى والضلال؛ فإنَّ الجميعَ أبناءُ آدمَ بل نوحٍ -عليهما الصلاة والسلام-.

﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا ﴾ مِن أعقابِهما وذريتِهما ﴿ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، فإنَّا أنعمنا عليهما بالنُّبُوَّةِ وغيرِها مِن المنافع الدينية والدنيوية.

﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ مِن أذى فرعون وقومِه، ومِن الغرقِ.

﴿ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ ﴾ على أعدائِهم ﴿ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾.

﴿ وَ ﴾ لَم نكتفِ بمُجَرَّدِ الغَلَبَةِ على الأعداءِ، بل ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴾ البليغَ في بيانِهِ، وهي التوراة.

﴿ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ﴾ بإلهامِ ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الْمُوصِلَ إلى الحقِّ والصوابِ.

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ ﴾ الَّذي كان جدَّ إبراهيم الأعلى، وهو إدريس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، فكما أنَّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان مِن أبنائه المرسلون؛ كذلك جدُّه الأعلى -أعني: نوحاً- كان أول مَن شرع له الأحكام، وكان جدُّ نوح الأعلى -أعني: إدريس- صاحبَ الصحف، فكان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ذي البركات العطية. أو المراد بإلياس هو إلياس بن ياسين، سِبط هارون أخي موسى -عليهم الصلاة والسلام-[1].

---

(١) قال البخاري في صحيحه (١٣٥/٤): (يُذكر عن ابن مسعود وابن عباس: أنَّ إلياس هو إدريس). قال ابن حجر في فتح الباري (٣٧٣/٦) مُعلقاً: (أما قول ابن مسعود فوصله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسناد حسن عنه، قال: إلياس هو إدريس، ويعقوب هو إسرائيل. وأمَّا
=

وكان ذلك ﴿ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذابَ الله تعالى.

﴿ أَتَدۡعُونَ ﴾ وتعبدون ﴿ بَعۡلٗا ﴾ وهو اسمُ صنمٍ كان لهم[1]، ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ وتتركون ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ حيث تركتم عبادتَه.

أعني: ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴾.

وجميعُ قومِه كذَّبوه ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾.

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ وهي لغة في إلياس، أو هو جمع إلياس؛ فأريد به هو وأتباعه جميعاً[2].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

=

قول ابن عباس فوصله جويبر في تفسيره عن الضحاك عنه، وإسناده ضعيف، ولهذا لم يجزم به البخاريُّ).

وقال الطبري في تفسيره (١١/٥٠٩): (وأمَّا أهل الأنساب فإنهم يقولون: إدريس جدُّ نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وأخنوخ هو إدريس بن يرد بن مهلائيل. وكذلك رُوي عن وهب بن منبه. والذي يقول أهل الأنساب أشبه بالصواب؛ وذلك أنَّ الله -تعالى ذِكْرُه- نَسَبَ إلياس في هذه الآية إلى نوح، وجعله مِن ذريته، ونوح ابن إدريس عند أهل العلم، فمُحال أن يكون جدُّ أبيه منسوباً إلى أنه مِن ذريته).

(١) قال البغوي (٤/ ٤٦): وهو اسم صنم لهم كانوا يعبدونه، ولذلك سميت مدينتهم بعلبك، قال قال مجاهد وعكرمة وقتادة: البعل الرب بلغة أهل اليمن.

(٢) قال الفراء في معاني القرآن (٢/٣٩١): (﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ فجعله بالنون، والعجميُّ من الأسماء قد يفعل بِهِ هَذَا العرب، تقول: مِيكالُ وميكائيل وميكائل وميكائين -بالنون-، وهي فِي بني أسد، يقولون: هَذَا إسماعين قد جاء -بالنون-، وسائر العرب باللام ... فهذا وجه لقوله: إلياسينَ. وإن شئت ذهبت بإلياسين إلى أن تجعله جمعاً، فتجعل أصحابه داخلين فِي اسمه، كما تقول للقومِ رئيسُهم الْمُهَلّب: قد جاءتكم المهالبة والمهلَّبون ... وقد يشهد عَلَى صواب هذا قولُه: ﴿ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ ﴾ [المؤمنون:٢٠]، ثُمَّ قال في موضع آخرَ: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين:٢]، وهو معنىً واحِدٌ وموضِعٌ واحدٌ. والله أعلم).

﴿ وَإِنَّ لُوطًا ﴾ الَّذي هو ابن أخي إبراهيم[1] ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ معَ أغصانه[2] ذَوُو البركات.

وذلك ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهلَ مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم ﴾ وعلى منازلِهم في مسيرِكم إلى الشامِ للتجارة ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصباح.

﴿ وَبِٱلَّيْلِ ﴾ فإنَّ منازِلَهُم الَّتي عُذِّبوا فيها وبَقِيَت آثارُها قريب مِن القرية التي ينْزِلُ فيها المسافرون، فإذا ارتحلوا منها صباحاً يَمُرُّون عليها، وإذا نزلوا فيها يَمُرُّون عليها مساءً. ﴿ أَ ﴾تَمُرُّون ﴿ فَلَا ﴾ تعتبرون؟! إذ لا ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾! ولستُم ذَوِي عقولٍ حتى تعتبروا.

ولم يقل هنا: (وتركنا عليه في الآخرين) كما / قال في الأنبياء المتقدمة، إذ هُم [٤٠١/ب] صاحب شريعة وصاحب كتاب وصحف، فبعدهم تبقى شريعتُهم وكتابهم وصحفهم، فينبغي لكل مَن يسمع ذكرَهم أو يذكرهم أن يُسَلِّم عليهم منفرداً منفرداً منفرداً، بخلاف لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّه لم يكن صاحبَ شريعة وكتاب وصحف، وأيضاً قد صدر منه عَلَيْهِ السَّلَامُ زلةٌ حيث أوى إلى ركن شديد، فلذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رحم الله أخي لوطًا؛ فإنَّه كان يأوي إلى ركن شديد»[3]. هذا إذا حُمل إلياس على إدريس؛ فإنَّه وإن لم يكن

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/٢٤٤). وانظر: البداية والنهاية لابن كثير (١/١٦١).

(٢) يقصد المؤلف بأغصانه ذويه وأقاربه؛ حيث إنَّ لوطاً كان ابن أخي إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. انظر: تاريخ الطبري (١/٢٤٤).

(٣) أخرج البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (٤/١٤٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحقُّ بالشكِّ مِن إبراهيم إذ قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠]، ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، ومسلم في كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١/١٣٣)، والنسائي (١٠/٣٧)، وغيرهم.

=

صاحبَ شريعةٍ فإنَّ نوحاً هو أولُ مَن شرع، لكنَّه صاحبُ صُحُفٍ. وأمَّا إذا حُمل على إلياس بن ياسين فالوجه الأخير، أعني: أنَّه لم يكن صاحب زلةٍ، فأُشير إلى السلام عليه وعلى يونس والأنبياء الأُخَر أجمعين بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في آخر السورة [الصافات: ١٨١].

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ﴾ فإنَّه لم يبطل رسالته في وقت الهرب مِن قومه ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

﴿فَسَاهَمَ﴾ وقارع أهلَه لَمَّا وقفت السفينةُ ولم تتحرك، فقال أهلُها: إنَّ معنا عبداً آبِقاً. فاقترعوا، فخرجت القرعةُ عليه، فقال: أنا الآبِقُ. ورمى بنفسه إلى الماء ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين في الماء.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ وابتلعه، مِنَ اللُّقْمَةِ، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ نفسَه هَربَه من قومه بغير إذن ربِّه. رُوي: أنَّه لَمَّا وُعد قومه بالعذاب خرج مِن بينهم قبل أن يأمره اللهُ سبحانه، فركب السفينة(١).

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذين يذكرون الله كثيراً بالتَّسبيح في الأيام التي مضت عليهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

=

وذكر النوويُّ في شرحه للحديث (٢/١٨٤): أنَّ المراد بالركن الشديد هو الله سبحانه وتعالى؛ فإنه أشدُّ الأركانِ وأقواها وأمنعُها. ويمكن أن يكون معنى ركن: عشيرة ومنعة يمنع بهم أضيافه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وليس في قول لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] ما ينافي التوكل؛ إذ لا يُتَصَوَّرُ مِن نبي الله أن يتوكل على غير الله؛ لأنَّ ذلك مِن الكبائر، والأنبياء معصومون من الوقوع فيها، قال ابن تيمية في الفتاوى (٤/٣١٩): (فإنَّ القول بأنَّ الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف). ومقام النبوة شريف وعظيم، إضافة إلى أنه قد ورد السلام عليهم إجمالاً في آخر السورة، وبذا يتبين أنَّ إيراد المؤلف للسبب الثاني في ترك السلام عليه في آخر القصة بكونه يأوي إلى ركن شديد مسألة فيها نظر، ولا تليق بمقام الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. والله أعلم.

(١) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١/٣٩٤). وانظر: البداية والنهاية لابن كثير (١/٢٦٧).

﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ ﴾ حيّاً أو ميّتاً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، فتسبيحُه سبحانه نَفَعَه ما لم تنفعْه الرسالةُ، فأُلْهِمَ هو التسبيح والذكر. أو المراد: تسبيحه في بطن الحوت[1]، وهو قوله سبحانه: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وإذا كان مسبحاً تسبيحاً كثيراً ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ أو بالمكان الخالي، وذلك بأن حملنا الحوت على أن يلفظه في ذلك المكان الخالي مِن الأشجار والنبات. رُوي: أنَّ الحوتَ سار مع السفينة رافِعاً رأسَه يتنفس فيه يونسُ، ويُسَبِّح حتى انتهوا إلى البرِّ، فلَفَظَهُ[2]. واختُلِف في مدة لُبثِه: ثلاثة أيام، أو سبعة، أو عشرون، أو أربعون[3]. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ رُوي: أنَّه صار بدنُه كبدن الطفل حين يُولَد[4].

﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ وهِي الدُّبَّاء، غطَّتْهُ بأوراقها عن الذُباب. رُوي أنَّه ﷺ قيل له: إنَّك لَتُحبُّ القرع! قال: «هي شجرة أخي يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»[5].

---

(١) قال ابن عطية (٤/ ٤٨٦): (واختلف الناس في ذلك فقال ابن جريج هو قوله في بطن الحوت: سبحان الله، وقالت فرقة بل التسبيح وصلاة التطوع، واختلفت هذه الفرقة، فقال قتادة وابن عباس وأبو العالية صلاته في وقت الرخاء نفعته في وقت الشدة، وقال هذا جماعة من العلماء، وقال الضحاك بن قيس على منبره: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة إن يونس كان عبدا لله ذاكرا فلما أصابته الشدة نفعه ذلك).

(٢) رُوي في كتب التفاسير بغير إسنادٍ. انظر: تفسير الزمخشري (٦٢/٤)، وتفسير البيضاوي (١٨/٥)، وتفسير النيسابوري (٥٧٦/٥).

(٣) انظر: تفسير الثعلبي (١٧٠/٨)، وتفسير الماوردي (٦٨/٥). وقال الماتريدي في تفسيره (٣٧١/٧): (وقول أهل التأويل: إنَّ يونس مكث في بطن الحوت أربعين يوماً، أو ثلاثة أيام، ونحو هذا؛ فذلك لا يعلم إلا بالوحي، فإن ثبت الوحي فهو هو، وإلا ليس بنا إلى معرفة ذلك حاجة).
وتعيين هذه المدة هو من المبهمات التي لم يرد تعيينها في القرآن، وقد جاءت في سياق أخذ العبرة والاتعاظ، وليس في تعيينها كبير فائدة؛ مثل تحديد زمن أو اسم أشخاص أو أسماء أماكن معينة وغيرها.

(٤) انظر قصة يونس في: كتاب البدء والتاريخ للمقدسي (١١٠/٣)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٣١/١).

(٥) لم أجد هذا الحديث مسندًا في كتب السنة، وقد ذكره ابن حجر في الفتح انظر (٥٢٥/٩)، =

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرب منهم، والمراد إما الإرسال الأول، أو الإرسال الثاني إليهم وإلى غيرهم، ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى النظر، فإنَّه إذا نظر إليهم بقول الناظر: هم مائة ألف أو يزيدون.

﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ / وصدّقوا ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ سُمِّي لهم، فإنه إذا جاء أجلهم فالموت لاحقٌ بهم. وقد سبق وجهُ ترك السلامِ في قصة لوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1]. [٤٠٢/أ]

فإذا عرفت التسبيح والتنْزيه حتى نفع نبيَّ الله سبحانه ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فإنهم تركوا تسبيحَه وتنْزيهَه، وأثبتوا له جسماً[2] وصاحبةً وولداً وبناتاً، وقل لهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ بعد أن أثبتوا له الجسم والصاحبة والولد، وهم إذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل

=

وقد وردت الأحاديث في حُبِّ النبي ﷺ للدبّاء. ومنها حديث أنس في الصحيحين، انظر صحيح البخاري باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٧/ ٦٨)، وصحيح مسلم في كتاب الأشربة: باب جواز أكل المرق، واستحباب أكل اليقطين، وإيثار أهل المائدة بعضهم بعضا وإن كانوا ضيفانا إذا لم يكره ذلك صاحب الطعام (٣/ ١٦١٥). وقال البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن باب قول الله تعالى: {وإن يونس لمن المرسلين} [الصافات: ١٣٩] (١٥٩/٤): (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين}: (من غير ذات أصل: الدباء ونحوه).

(١) قد سبق الكلام على ذلك في (ص٩٢).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في درءِ تعارض العقل والنقل (١٤٦/٤): (وأمَّا الكلام في الجسم والجوهر ونفيهما أو إثباتهما فبدعةٌ، ليس لها أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا تكلم أحدٌ مِن السلف والأئمة بذلك لا نفياً ولا إثباتاً). وقال في موضع آخر (٣٠٣/١٠-٣٠٩): (إذا قال السائل: هل الله جسمٌ أم ليس بجسم؟ لم نَقُل: إنَّ جواب هذا السؤال ليس في الكتاب والسنة، مع قول القائل: إنّ هذا السؤال موجود في فطر الناس بالطبع ... يُقال لِمَن سأل بلفظ الجسم: ما تعني بقولك؟ أتعني بذلك أنه مِن جنس شيء مِن المخلوقات؟ فإن عنيت ذلك فالله تعالى قد بيّن في كتابه أنه لا مثل له، ولا كفو له، ولا ند له، ... وإن عنيت بلفظ الجسم الموصوف بالصفات، القائم بنفسه، المباين لغيره، الذي يمكن أن يُشار إليه، وتُرفع إليه الأيدي؛ فلا رَيب أنَّ القرآن قد أخبر أنَّ الله له العلم والقوة والرحمة، والوجه واليدان، وغير ذلك ... وإذا سميت ما هو كذلك جسماً، وسُئلت: هل هو جسم؟ كان الجواب أنّ المعنى الذي سُئلت عنه وأردته بهذا اللفظ قد بيّنه الله وأثبته في كتابه).

وجهه مسوداً وهو كظيم؛ ﴿ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ ففي كلٍّ مِن ذلك شناعة عظيمة، [وأشنع في][1] جميع ذلك إثبات ما يكرهون له سبحانه، ثم يُثبتون للملائكة الأنوثة.

فهل أخبرهم بذلك مُخْبِرٌ ثَبَتَ صدقُهُ فيما يخبره؟ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ ذلك؟ فإنَّ أمثال ذلك لا يُعلَم إلا بالمشاهدة، أو بإخبار من شاهد.

﴿ أَلَآ ﴾ لم يخبرهم بذلك مخبرٌ، ولم يكونوا شاهدين على ذلك، بل ﴿ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وكذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾.

﴿ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ بِلا بُرهان وشبهة، ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ لَيعلمون أنهم ﴿ لَكَٰذِبُونَ ﴾ إذ ما لم يقُم عليه بُرْهَانٌ؛ فادِّعاؤُه كَذِبٌ.

فقل لهم: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾؟ وذا لا يرتضيه مَن له أدنى عقلٍ.

فأنتم ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بما لم يرتضيه أحد.

ألا تتأملون فيما معكم من الدلائل ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنَّه مُنزَّهٌ عن ذلك؟! ألكم برهان يدُلُّكُم على ما ادعيتم؟.

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ نزل عليكم.

﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فيما ادَّعَيْتُم.

﴿ وَ ﴾لِكمال بلادتهم ﴿ جَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ ﴾ سبحانه ﴿ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾، فإنَّهم جعلوا الملائكةَ نوعاً مِن الجنِّ، وقالوا: إنَّ الجن يبلغ إلى مرتبة الملائكة، فالمراد بالجن هو الملائكة. وقيل: قالوا: إنَّ الله سبحانه صاهر الجنَّ، فخرجت الملائكة. وقيل: قالوا: إنَّ الله والشيطان أخوان[2]، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ ﴾ أي: الكفرة كلّهم، مِن أيِّ نوعٍ كان

---

(١) كذا في المخطوط، ولعل صوابها : [وأشنع ما في].

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره (٣/٥٥٤): (فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا: هو وإبليس أخوان، رواه العوفي عن ابن عباس، قال الماوردي: وهو قول الزنادقة والذين يقولون: الخير من الله، والشر من إبليس. والثاني: أنَّ كفار قريش قالوا: الملائكة بنات الله، والجنة صنف من =

مِن الإنس والجن ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ في العذاب.

فإذا علم أوصافه سبحانه ﴿ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ مِمَّا لا يليق به سبحانه.

فكُلُّهم ضالُّون ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

فإذا عَلمتُم ضلالَكم ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ مِن الآلهة.

﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴾ مُفسدين الناس بالإغواء.

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وسَبَق في علمِه أنَّه يدخل النار.

﴿ وَ ﴾إنَّما نسبتم الملائكةَ إلى الله بغيرِ رضاهم؛ فإنَّهم يخافون دائماً منه سبحانه، فإنَّهم يقولون: ﴿ مَا مِنَّآ ﴾ أحدٌ ﴿ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ في القُرْبِ والعبادةِ، ليس له أن يُجاوِزَ تلك الرتبةَ.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ في أداء الطاعة والخدمة.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ الْمُنَزِّهُون عمَّا لا يليق به، ومَن يُسَبِّح ويُنَزِّه ويُطِيع دائماً كيف يرضى عمَّن يُشَبِّه ويَنسب إليه ما لا يليق، وما ذلك إلا لجهلهم غايةَ الجهل.

[٤٠٢/ب] هم كانوا تمنّوا / أن يزول جهلهم؛ فإنهم ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وأُنزِل علينا كتاباً مِن كُتُبِ الأولين.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنّا إذا عرفناه وعرفنا الوجه الذي به يُطَاع ويُعْبَد فنعبُد على ذلك الوجهِ.

فإذا نزل عليهم كتابٌ ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ما يَحِيقُ بهم جزاءً لكفرهم.

﴿ وَ ﴾هُم لا يُهْمَلون على ما يكفرون؛ فإنَّه ﴿ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ ووعدُنا ﴿ لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ بِالنَّصْرِ والظَّفَرِ فلا يُغْلَبون.

=

الملائكة يقال لهم: الجنة، قاله مجاهد. والثالث: أنَّ اليهود قالت: إن الله تعالى تزوج إلى الجن، فخرجت من بينهم الملائكة، قاله قتادة، وابن السائب) تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

بل ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾.

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا ﴾ الذين هم رسُلُنا والذين آمنوا بهم ﴿ لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ في عاقبةِ الأمرِ.

فهُم إذا لم يسمعوا قولَك ﴿ فَتَوَلَّ ﴾ فأَعْرِض ﴿ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وعد لك النصر في ذلك الحين.

﴿ وَ ﴾أنت ﴿ أَبْصِرْهُمْ ﴾ وبَيِّن لهم ما به يُبصِرُون ويعملون؛ بأن تُقِيم الدلائلَ على ذلك، فإن لم يُبْصِروا ولم يعلموا ببيانك ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ إذا حلَّ بهم ما يحلُّ بهم مِن العذابِ على ما يفعلون.

﴿ أَ ﴾لا يؤمنون ﴿ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾؟! فإنهم يقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟.

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ فهم يعلمون حينئذٍ، ولكن كان ذلك لا ينفعهم ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ حينئذٍ صباحُهم.

﴿ وَ ﴾أنت لَمَّا بَلَّغتَهم كما أُمِرْت وهم لم يَقْبَلُوا قولَك ﴿ تَوَلَّ ﴾ أعْرِض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ وعاقبتهم. أو المراد بـ ﴿ أَبْصِرْهُمْ ﴾ الأول و﴿ أَبْصِرْ ﴾ الثاني هو رؤية ما يحل بهم، إلا أن الأول في الدنيا والثاني في الآخرة، وحُذِف المفعول الثاني للتعميم؛ فإنه في الآخرة يرى أشياء كثيرة[1].

ولا يَضُرُّنا ما يقولون؛ فإنّه لا نقص يعرض لنا بقولهم؛ فإنه ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ مِمَّا لا يليق به.

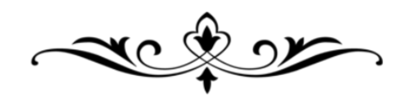
﴿ وَ ﴾لا يَضُرُّ رسلَنا أيضاً تكذيبُهم؛ فإنَّه ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ جميعاً. وفيه

---

(١) قال ابن جزي في تفسيره (٢/ ٢٠٠): (﴿ وَأَبْصِرْ ﴾: كرر الأمر بالتولي عنهم والوعد والوعيد على وجه التأكيد، وقيل: أراد بالوعيد الأول عذاب الدنيا، وبالثاني عذاب الآخرة، فإن قيل: لم قال أولا أبصرهم، وقال هنا: أبصر، فحذف الضمير المفعول؟ فالجواب من وجهين: أحدهما أنه اكتفى بذكره أولا عن ذكره ثانيا فحذفه اقتصارا، والآخر أنه حذفه ليفيد العموم فيمن تقدم وغيرهم كأنه قال: أبصر جميع الكفار بخلاف الأول، فإنه من قريش خاصة).

إيماءٌ إلى أنَّه يجوز أن يُسَلَّم على الأنبياء منفردين بأن يُسَلَّم واحداً واحداً كما سبق أولاً، ومجتمعين بأن يُسَلَّم عليهم جماعة.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما أفاض على الأنبياء وعلى تابعيهم مِن الخيرات وعلى العالمين جميعاً ما يليق بهم.



(سورة ص)

سورة ص مكية(١).

ست أو ثمان وثمانون آية(٢).

سُمّيت بها(٣) لأنّ التي [تدُلُّ](٤) عليها كلمة ﴿صٓ ﴾ -أعني- المعارضة والتحدي. هذه السورةُ بل جميع القرآن مسوقة لذلك.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿صٓ ﴾ مِن هذه الحروف وأمثالها أُلِّفت هذه السورة، أو هو أمرٌ مِن المصادّة، وهي المعارضة(٥).

---

(١) اتفق جمع من المفسرين على أنها مكية، انظر: تفسير مقاتل (٣/ ٦٣٣)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٥)، تفسير الماتريدي (٨/ ٥٩٧) ، تفسير الماوردي (٥/ ٧٥)، وقيل بمدينة هذه السورة، قال السيوطي في الإتقان (١/ ٤٩): (سورة ص: حكى الجعبري قولا أنها مدنية خلاف حكاية جماعة الإجماع على أنها مكية) وانظر المكي والمدني (ص٢٥٤).

(٢) قال الداني في البيان (٢١٤/١): (وهي ثمانون وخمس آيات في البصري، وهو عدد عاصم الجحدري، وست في عدد المدنيين والمكي والشامي وأيوب بن المتوكل، وثمان في الكوفي. اختلافها: ثلاث آيات: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص:١] عدها الكوفي ولم يعدها الباقون، ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ [ص:٣٧] لم يعدها البصري وعدها الباقون، ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص:٨٤] عدها الكوفي وأيوب بن المتوكل، ولم يعدها الباقون ولا الجحدري، وقد قيل: إنَّ الجحدري يعدها، وأيوب يسقطها، وكلهم لم يعد ﴿صٓ ﴾).

(٣) يُشير المؤلف إلى أحد معاني ﴿صٓ ﴾ أنها من المصادّة، كما ذكره بعض المفسرين، ونقله الماوردي في تفسيره النكت والعيون (٧٥/٥) عن سفيان.
ووجه التسمية: افتتاح السورة بها؛ تسميةً لها بأول كلمة منها. ومن أسمائها: سورة داود؛ لاشتمالها على قصة داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٢٤).

(٤) في كلا النسختين بلفظ: (يدل)، وهو الصواب فالمعنى: لأن التي يدل عليها كلمة ص: المعارضة والتحدي.

(٥) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٥٥٧/٣) في معنى ﴿صٓ ﴾ سبعة أقوال، وذكر منها ما ذكره المؤلف هنا أنَّ معنى ﴿صٓ ﴾ من المصادة، وهي المعارضة. وقد سبق الكلام على الأحرف =

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِی ٱلذِّكۡرِ﴾ والشَّرَف[١]، أو الذي فيه ذِكْرُ جميعِ ما يحتاجون إليه[٢]. و(الواو) للقسم، والجواب محذوفٌ، وهو الذي دل عليه ﴿صٓ﴾ على كلا الوجهين، يعني: إنَّه لَمُعجِز[٣].

ولم يكفر به مَن كَفَر لخِلافٍ فيه يُوجِب لهم الشبهةَ في ذلك، / ﴿بَلِ ٱلَّذِینَ كَفَرُوا۟﴾ [٤٠٣/أ] وعلم الله أنهم لا يؤمنون ﴿فِی عِزَّةࣲ﴾ واستكبار مِن قَبول الحقِّ مِن عند أنفسهم. والتنوين للتفريع[٤]. ﴿وَ﴾ذلك الاستكبار دعاهم إلى ﴿شِقَاقࣲ﴾ خِلافٍ مع الله سبحانه ورسوله، فكفروا به، ولم يخافوا من ذلك.

ولم ينظروا أنا ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنࣲ﴾ وأهله الذين مَضَوا قبلهم، واعلم أنَّ كلمة ﴿مِن﴾ هنا لابتداء الغاية، فلا بُدَّ لها مِن الانتهاء. وأيضاً كُلُّ جزءٍ مِن الأجزاء التي مضت مِن الزمان يُقال له: قبل، فيلزم أن يُراد به جزءٌ لم يتقدَّمه جزءٌ آخرُ دفعاً للتحكم؛ فقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ يشمل جميع الأزمنة المتقدمة، بخلاف ما لو قيل: (ما قبلهم)، بدون كلمة ﴿مِن﴾ فإنَّه لا يكون شاملاً لجميع الأجزاء، فلمَّا لم يُقيد هنا قوله: ﴿مِّن قَرۡنࣲ﴾ بقيدٍ مِن القيود مع أنَّ المقام مقام الحجة عليهم، فلمَّا كان أعمَّ كان أنسب في الاستدلال ذُكِر بكلمة ﴿مِن﴾. وإنَّما أُهلِكوا لاستكبارهم وخلافهم. وإذا أُهلكوا ﴿فَنَادَوا۟﴾ استغاثةً، أو توبةً واستغفاراً[٥]، ﴿وَ﴾لكن [لا][٦] ينفعهم ذلك؛ إذ

=

المقطعة في أوائل سورة يس (ص٥٣).

(١) انظر: تفسير سفيان الثوري (ص٢٥٦)، وتفسير الطبري (١٣٩/٢١).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٧١/٤).

(٣) اختلف المفسرون في جواب القسم على خمسة أقوال، ومنها ما ذكره المؤلف أنَّ جواب القسم محذوف، ثم اختلفوا في تقديره، فقال الحوفي: تقديرُه: لقد جاءَكم الحقُّ، ونحوُه. وقدَّره ابن عطية: ما الأمرُ كما يَزْعمون. والزمخشري: إنَّه لَمُعْجِزٌ. انظر: الدر المصون للحلبي (٣٤٤/٩).

(٤) أي ليتفرع عليها ما بعدها، أي يُبنى من الأحكام ما كان عدم قبول الحق والتكبر عنه سببا فيه.

(٥) ذكره البيضاوي في تفسيره ولم يسنده إلى أحد من المفسرين(٢٣/٥).

(٦) سقط حرف [لا] مِن كلا النسختين، وأثبتُّهُ هنا لدلالة السياق عليه.

﴿لَات﴾ ذلك الحين ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ وخَلاص. و(لا) هو المشبَّهة بـ(ليس)، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على (رُبَّ) و(ثَمَّ)، وخُصَّت بلزوم الأحيان، وحذف أحد المعمولين[1]. فكذا هؤلاء إذا أهلكوا فيستغيثون ويتوبون ولكنهم لا ينفعهم ذلك.

﴿وَ﴾ لم يكن لهم ما يدعوهم إلى استكبارهم، إلا أنَّهم ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ ورسول ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ ومِن بين نوعهم، أو مِن عِدادِهِم أُمِّيٌّ، لم يكن له فضلُ عليهم بالعلم الذي يقتضيه الإنذار، كما أثبت ذلك الرسول المنذر رسالته بالمعجزات الباهرات، ﴿وَ﴾ لم يكن لهم معارضةُ تلك المعجزات، ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الذين علِمَ اللهُ كفرَهم، وحكم عليهم به في قضائه: إنَّما لا نُطيق معارضته وردّه؛ إذ ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ﴾، ونحن لا نعلمُ السِّحْرَ، فبِسحره يغلب علينا، ولكنَّا نعلم قطعاً أنَّه فيما يدَّعيه مِن الرسالة ﴿كَذَّابٌ﴾ كثيرُ الكذب، فإنَّه كاذب فيما ينسبه إلى نفسه من الرسالة، وفيما يخبر به مِن الأحكام.

وكِذبه ضروريٌّ لا يستدعي الاستدلال؛ فإنه ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ﴾ الذين لا بُدَّ منهم في تدبير العالم؛ إذ قُوَّةُ الواحد كيف تفي بذلك! ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ بليغ في العَجَب؛ فإنَّهم قاموا بتدبير العالَم على ما رأوا مِن تدبير الْمُلَّاك والملوك للمملوكين والمملكة. رُوي: أنَّه لَمَّا أسلم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ شقَّ ذلك على قريشٍ، فأتوا أبا طالب، وقالوا: أنت شيخٌ كبيرٌ، وقد علِمْتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنّا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاستحضر رسولَ الله ﷺ، وقال: هؤلاء قومك يسألونك، فلا تَمِل كلَّ الميل عليهم. فقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ماذا يسألون؟». قالوا: ارفضنا / وارفض ذكر [٤٠٣/ب]

(١) قال الأزهري في تهذيب اللغة (١٥/٣٠٣): (التَّاء فيها صِلَةٌ، والعرب تَصِلُ هذه التاءَ في كلامِها وتنْزعها. وقال: والأَصل فيها (لا)، والمعنى فيها: (لَيْسَ). والعرب تقول: ما أستطيع، وما أسْطيع. ويقولون: (ثَمَّتَ) في مَوضِع (ثَمَّ)، و(رُبَّت) في مَوضِع (رُبَّ)، و(يَا ويلتنا) و (يَا ويلتا). أبو الهَيْثَم عن نصر الرّازي في قَوْلهم: لات هَنَّا، أَي: لَيْسَ حينَ ذلك، وإنَّما هو: لا هَنَّا، فأَنَّث (لا)، فَقيل: لاةَ، ثمَّ أُضيفَ فتحوّلت الْهَاءُ تاءً، كَمَا أَنَّثوا (رُبَّ): رُبّة، و(ثم): ثُمّة).

آلهتنا، وندعك وإلهك. فقال: «أرأيتم إن أعطيتُكم ما سألتُم؛ أمُعْطِيَّ أنتم كلمةً واحِدَةً تملكون [بها][1] العرب، ويَدِينُ لكم بها العَجَمُ؟». قالوا: نعم [وعشراً][2]. فقال: «قولوا: لا إله إلا الله». وقالوا ذلك[3].

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ ﴾ أشراف قريش ﴿ مِنْهُمْ ﴾ مِن ذلك المجلس، فقالوا: ﴿ أَنِ ٱمْشُواْ ﴾ وقد فعلتم واستطعتم، ﴿ وَ ﴾هُم لم يرجعوا عن أفعالِهم [فعليكم][4] ﴿ ٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ وعلى عبادتها، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ ما هذا الأمر إلا شيء يُراد بنا مِن نوابه[5] الزمان، فلا مَرَدَّ له، وإنَّ هذا الذي قاله مِن الرياسة والتَّرَفُّعِ يريدُه كلُّ أحدٍ ويتمنَّى ذلك، وإنَّ دينكم هذا يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه، فأنتم اصبروا عليه لِئَلا يذهب عنكم.

ومِمَّا يدُلُّ على بطلان ما يَدَّعيه ويقولُه أنه ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ الذي يقولُه ﴿ فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ التي كانت عليها آباؤنا، أو التي أدركناها مِن مِلَّةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّها آخِرُ المِلَل، والنَّصارى يُثَلِّثون. أو ما سمعنا بهذا التوحيد الذي يدَّعيه من أهل الكتاب،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٣) أخرج الترمذي في سننه عن ابن عباس قال: مرِض أبو طالب، فجاءته قريش، وجاءه النبيُّ ﷺ، وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه، قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تُرِيدُ مِن قومك؟ قال: «إنِّي أريد منهم كلمةً واحدةً تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية». قال: كلمة واحدة!. قال: «كلمة واحدة»؛ قال: «يا عم، يقولوا: لا إله إلا الله». فقالوا: إلهاً واحداً! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق. قال: فنَزل فيهم القرآن: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. (٥/٢١٩). وانظر: سنن النسائي (٨/٩٠)، ومسند الإمام أحمد (٣/٤٥٨)، وصحيح ابن حبان (١٥/٨٠). قال النسائي (ضعيف الاسناد). ضعيف سنن الترمذي (ص: ٤٠٩).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٥) لعل المؤلف يقصد: (نوائب) الزمان.

ولا الكهّان الذين كانوا يُخْبِرون بما [سيظهر][(١)] في الدُّنيا، فإنَّهم لم يُخْبِرُونا أنَّه سيظهر في زمانٍ توحيدُ الإله؛ فقد تحقَّق بما ذكرنا أنه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾.

وكيف لا يكون كذِباً ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ الذي يدَّعيه أنَّه أُنزِل عليه مِن ربه، ولم يكن فيه ما يقتضي اختصاصَه بذلك ﴿مِنۢ بَيْنِنَا ﴾، معَ أنَّه مِثْلُنا. أو المعنى: أنَّه أدْوَنُ مَن بينَنا ونحنُ أشرفُ منه، فكيف أُنزل عليه معَ كوننا حاضرين؟! وهم ليسوا على البتِّ فيما يقولون ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ مِن القرآن، فإنَّهم يَتَرَدَّدون فيقولون: إما كذا وإما كذا، ولم يقولوا إنَّه ساحر قطعاً، [أو شاعر قطعاً][(٢)]، فإنَّهم لا يزالون يتردَّدون فلا يؤمنون، ﴿بَل﴾ يكفرون لأنَّهم ﴿لَّمَّا﴾ لم ﴿يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾، وهو الذي يمنعهم عن الكفر، فإذا ذاقوا ذلك يُؤمِنُون لِزوال شكِّهم، ولكن لا ينفعهم إيمانهم.

وما قالوا فيك طعناً مِن قولهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ ألهم برهان عقليٌّ أو نقليٌّ يدل على ما قالوا!، ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ فهم يَتَصَرَّفون في تلك الخزائنِ كيف شاؤوا، فيصيبوا بها مَن شاؤوا، ويصرفوها عمَّن شاؤوا! فيتَخَيَّروا للنُّبُوَّةَ بعضَ صناديدِهم، فالنُّبُوَّةُ عَطِيَّةٌ مِن الله سبحانه، يتفضَّل بها على مَن يشاء مِن عباده، فإنَّه لا مانِعَ له عمَّا يشاء؛ إذ هو موصوفٌ بوصف ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالِب الذي لا يغلِب عليه شيء، ﴿ٱلْوَهَّابِ ﴾ الذي له أن يَهَبَ ما يشاءُ لِمَن يشاءُ.

فإن كان عندهم خزائنُ الرحمة فهل لهم تَصَرُّفٌ في عالم الغيب، [الذي][(٣)] هو مبدأٌ لِخزائن الرحمة! ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ / ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾! يعني: العالَم الجِسماني[(٤)] الذي هو مَظْهَرُ الرحمةِ، فهم يتَصَرَّفون فيه كما شاؤوا. فإن كان لهم تَصَرُّفٌ في ذلك العالم ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾ وليصعدوا ﴿فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ في المعارجِ، وليستووا على

[٤٠٤/أ]

---

(١) في [ف] بلفظ: (يظهر).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من [ع]، والصواب ما أثبته.
(٤) تبين لي من تفسير المؤلِّف في بعض المواضع أنه يقصد بالعالَم الجسماني: آيات الله الكونية في السماوات والأرض.

العرشِ، ويُدَبِّروا في هذا العالم، وذا مُحَالٌ عليهم، فليس لهم تصرُّفٌ في هذا العالَم.

فإذا لم يكن تَصَرُّفٌ فيه فيكون لهم تَصَرُّفٌ في عالم الغيب الذي هو أعلى مِن ذلك!؛ فهم ﴿جُندٌ مَّا﴾ قليل ﴿هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ الذين أُهْلِكوا، فهم سيهلكون كما أُهْلِكوا.

أمَا سمعوا الأقوامَ الذين مَضَوْا؛ فإنَّه قد ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ فإنهم كذَّبوه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع مَن كانوا مِمَّن سواهم في ذلك الزمان، فإنَّهم كانوا كُفَّاراً، ﴿وَ﴾كذا كذَّبت ﴿عَادٞ﴾ -الذين اشتهرت قُوَّتُهم- هوداً عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَ﴾كذَّب ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ -الذي هو [﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾][1] ذو الْمُلْكِ الثابتِ، أو ذو الجموع الكثيرة؛ سُمّوا بذلك لأنَّ بعضهم يَشُدُّ بعضاً، كالوَتد يُشَدُّ به الخيمة[2]. وقيل: نصب أربع سَوَارٍ، وكان يمد يدي الْمُعَذَّبِ ورِجليه إليها، ويضرب عليها أوتاداً، ويتركه حتى يموت[3]- نبيه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَ﴾كذَّبتْ ﴿قَوۡمُ لُوطٖ﴾ لوطاً عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَ﴾كذَّبت ﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ شُعَيْباً عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الَّذين تَحَزَّبوا على رُسُلِهم.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿عِقَابِ﴾، فكذا الجزاء للذين يكذبونك، يَحِقُّ عليهم العقابُ الذي استحقوه بتكذيبهم.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين يُكَذِّبونك، أو المراد: جميع مَن كذبوا رسلهم؛ فهم جُعِلُوا كالحاضرين، ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هي النفخة، وهي إذا جاءتهم فإنها ﴿مَّا لَهَا مِن

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٢) في [ف] بزيادة لفظ: (يشد به الخيمة).

(٣) ذكر ابنُ الجوزيِّ في زاد المسير (٣/٥٦١) في معنى أوتاد ستة أقوال: الأول: أنه كان يعذب الناس بأربعة أوتاد يشدهم فيها. والثاني: أنه ذو البناء المحكم. والثالث: الجنود. والرابع: أنه كان يبني مناراً يذبح عليها الناس. والخامس: أنَّه كان له أربع أسطوانات، فيأخذ الرجل، فيمد كل قائمة إلى أسطوانة، فيعذبه. والسادس: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها.

﴿فَوَاقٍ﴾ تَوَقُّف مِقدار فَوَاقٍ، وهو: ما بين الحَلْبَتين[1]، أو مِن رجوع وترداد. وإنما أريد بالفَواق ذلك إذ فيه يرجع اللبن إلى الضرع[2].

وما انتظارهم لها إلا لجَهلهم وسَفَهِهم ﴿وَ﴾لذا ﴿قَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قِسْطَنا مِنَ العذاب، فإنهم لو كانوا عالِمين بذلك لم يقولوا هذا القول. أو هم ينظرون الصيحة استهزاءً، ولذا يقولون للمؤمنين: ربَّنا عجِّل لنا ولقومنا -الذين آمنوا- قسطنا الذين آمنوا رجاءً لذلك القسط مِن الجنة ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لِنَرى ذلك فنؤمن.

فهم إذا استهزؤوا بك وفعلوا بك ما فعلوا فأنت ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، فإنَّهم سيُجْزَون على ما يفعلون، وهم إنَّما اغْتَرُّوا بما أُعْطِي لهم مِن النِّعَم الدنيوية، وهم يعدون ما يذكر لهم مِن قصة الأحزاب الذين أُهْلِكوا أنَّها مِن نوائب الزمان، بل ربما يستدلون بتلك الأحزاب، فإنَّهم كانوا أرباب التَّنَعُّم، فمَن كانوا من أرباب التنعم لم يصدقوا الأنبياء، ﴿وَ﴾ لم يكن من الأنبياء من بلغ إلى قوى تلك الأحزاب وملكهم فلو كانوا على الحق لكانوا متنعمين تنعماً بل / أعلى من ذلك، فأنت ﴿ٱذْكُرْ﴾ لهم ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ فإنَّه كان ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القُوَّة فيمَن تقدم مِن الأحزاب، فإن لم يكن لأحد منهم الحديد كالشمع، ولم يفعل مع ذلك لا يرضيه ربه[3]، بل ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رَجَّاعٌ إلى مرضاة اللهِ سبحانه؛ فإنَّه كان يصوم يوماً، ويقوم نصف الليل[4]، والذين [٤٠٤/ب]

---

(١) يعني: مقدار الوقت ما بين حَلْبِ الشاةِ مِن المرة الأولى إلى المرة التي تليها. انظر معاني القرآن للفراء (٢/٤٠٠).

(٢) قال الفراء في معاني القرآن (٢/ ٤٠٠): (وأصْله من الإفاقة فِي الرضاع إِذَا ارتضعت الْبَهْمَةُ أمَّها ثُمَّ تركتها حَتَّى تُنْزل شيئًا من اللبن، فتلك الإفاقة والفُواق بغير همزٍ)، وانظر معنى فواق في كتاب معاني القرآن للنحاس (٨٥/٦)، وغريب القرآن للسجستاني (٣٦٤/١).

(٣) في هذه الجملة بعض الغموض، ويظهر أن معناها: (لم يكن لأحد من الأحزاب كقوة داود التي تجعل الحديد كالشمع، ومع ذلك لم يكن يفعل داود ما لا يُرضي ربَّه). ويشير المؤلف إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠].

(٤) فسر جمهور المفسرين ﴿ٱلْأَيْدِ﴾ بمعنى: القوة في العبادة والطاعة. انظر: تفسير مجاهد (٥٧٣/١)، وتفسير مقاتل (٦٣٩/٣)، وتفسير الطبري (١٦٦/٢١)، وهو ما أشار إليه هنا =

تقدَّموا مِن الملوك الذين لم يؤمنوا بالأنبياء ولم يبلغ ملكُهم مثلَ ما بلغ داود.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ له ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾، فكُنَّ ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ كما كان يُسبِّح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذين الوقتين. والإشراق هو: وقت الضحى، مِن أشرقت الشمس إذا أضاءت وصَفَتْ شُعاعُها[1]. وأمَّا الشروق فهو: الطلوعُ، يقال شرقت الشمس إذا طلعت. وعن أم هانئ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى صلاة الضحى، وقال: «هذه صلاة الإشراق»[2]. وعن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية[3].

﴿وَ﴾جعلنا له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ إليه من كل جانبٍ. ولم يقل: (يُحْشَرْنَ)، مع أنَّه كان ذلك مطابقاً لقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ إذِ الحشرُ جُملةً[4]، كما دل عليه قوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ أدَلُّ على القدرة منه مدرجاً، فإنه ﴿كُلٌّ﴾ مِن الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ﴾ لأجل تسبيحه ﴿أَوَّابٌ﴾ رجَّاع.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ وقَوَّيناه بالهيبةِ والنُّصرة وكثرة الجنود، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوةَ وكمالَ العلمِ وإتقانَ العملِ، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ وفصل الخصام يتميز الحقُّ عن الباطل بذلك، وأعطيناه كلاماً مُلَخَّصاً يُنَبِّه المخاطب به المقصود مِن غير التباسٍ، فإنَّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يُراعي الفصلَ والوصلَ، والإضمارَ والحذفَ، ونحوها مِمَّا هو مقتضى

=

المؤلف بالصيام.

(١) الصحيح أن يقال: (صفا شعاعها).

(٢) رواه الطبرانيُّ في المعجم الكبير (٤٠٦/٢٤، برقم ٩٨٦) عن ابن عباس، قال: كنت أمُرُّ بهذه الآية، فما أدري ما هي؟ قوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، حتى حدثتني أم هانئ بنت أبي طالب، أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليها، فدعا بوضوءٍ في جفنة، فكأني أنظر إلى أثر العجين فيها، فتوضأ، ثم قام، فصلى الضحى، فقال: «يا أم هانئ، هذه صلاة الإشراق». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٣٨): (وفيه حجاج بن نصير ضعفه ابن المديني وجماعة ووثقه ابن معين وابن حبان).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٩٦/٤)، والحاكم في المستدرك (٥٩/٤).

(٤) قول المؤلف (جملة) يعني بها: مجموعة. انظر: تفسير مقاتل (٦٣٩/٣)، وتفسير الطبري (٣٤٩/١١)، وتفسير السمرقندي (١٦١/٣).

الحال[1]، ولم يجعل ما ذُكِر لِمَلِكٍ مِن الملوك، ومع ذلك كان خائفاً مِن ربِّه مع ذلك القرب منه سبحانه.

فإنك ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ تحاكم ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ وصعدوا المحرابَ -الغرفة التي كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعبد فيها ربَّه-، فتصَعَّدوا على الحائطِ المرتفعِ الذي كان حول الغرفة.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ فهو بدل مِن (إذ) الأولى ﴿عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ في تلك الغرفة، ﴿فَفَزِعَ﴾ وخاف ﴿مِنْهُمْ﴾، فإنَّهم نزلوا عليه مِن فوقٍ في يوم الاحْتِجابِ[2]، والحرس على الباب، لا يتركون من يدخل عليه؛ فإنَّه كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جزَّأ زمانَه يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخاصته، فتسور عليه ملائكةٌ على صورة الإنسان في يوم الخلوة، فلمَّا رَاطَ[3] فَزْعَةً ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾، نحن ﴿خَصْمَانِ﴾، إنَّما جئناك لأنه ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، إنَّما قالوا ذلك تعريضاً فلا يلزم الكذب، فإنَّا جئناك ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تَجُر في الحكومة، ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وهو العدل. ولا يشك / في بغي البعض على البعض هنا. [٤٠٥/أ]

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ في الصُّحْبَةِ ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وهي الأنثى من الضأن، وقد يُكنى بها عن المرأة[4]، ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ وملِّكْنيها، ﴿وَ﴾ لَم يقل ذلك

---

(١) ذُكر في فصل الخطاب أربعة أقوال: (أحدها: علم القضاء والعدل. والثاني: بيان الكلام. والثالث: قوله: «أما بعد»، وهو أول من تكلم بها. والرابع: تكليف المدعي البينة، والمدعى عليه اليمين). باختصار من تفسير ابن الجوزي (٥٦٤/٣).

(٢) فسر المؤلف الاحتجاب في الجملة التي تليها، وهو: اليوم الذي كان يشتغل فيه بخاصته.

(٣) راطَ الوَحْشِيُّ بالأَكَمَةِ يَروطُ ويَريط: كأَنَّهُ يَلُوذُ بها. القاموس المحيط (ص٦٦٨).

(٤) والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة، كما قال الشاعر:

فرميت غفلة عينه عن شاته   فأصبت حبة قلبها وطحالها

وفي قراءة ابن مسعود: (إن هذا أخي كان له تسع وتسعون نعجة أنثى). انظر: معاني القرآن للنحاس (٩٧/٦).

وقد أورد القاسمي في تفسيره (٣٤٩/٨) رأياً لابن حزم، وفيه: (وإنما كان ذلك الخصم قوماً مِن =

على سبيل التَّجَبُّرِ كما يقول الأخ لأخيه، بل ﴿عَزَّنِى﴾ وغلبني ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾ بحيث لم أقدر [على] ردِّه[1].

فلمَّا سمِع داودُ كُلاً منهما، وعلم البغيَ مِن أحدهما بالاعتراف، ﴿قَالَ﴾: إنَّه ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾. ويمكن أن يكون كلامُه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ذلك على التقدير، يعني: إن كنت صادقاً فيما قلتَ فأخوك قد ظلمك، ﴿وَ﴾ذا ليس بمستحيل ومُسْتَبْعَدٍ مِن أخيك؛ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشُّركاء الذين خلطوا أموالهم، جمع خليط، ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ و ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ للإبهامِ، والتعجُّبِ مِن القِلَّة. ﴿وَ﴾لَمَّا تأمل داود في شورهم[2] ودخولهم عليه في غير أوانه، وسؤالهم ما يعلم كلُّ أحدٍ أنَّه ظلم؛ ﴿ظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ امتحَنَّاه أنَّه هل يتَنبَّه أم لا؟ وإنما لم يقل: (وعلم داود) إذ الاحتمالُ باقٍ، وإن كان مرجوحاً، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لِذنبه، وإن لم يعلمه على التَّعْيِينِ[3]، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجِداً، سُمِّي السجودُ بالركوع لأنه مبدؤه، وفيه إيماءٌ إلى أن ينبغي أن يكون تواضع العبدُ لربه في ركوعه غاية التواضع حتى يكون كالسجود، فأثبت له لازمه مِن الخرور. أو المعنى: خرَّ للسجود راكعاً مصلياً، كأنه أحرم بركعة الاستغفار[4]، ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى اللهِ تعالى بالتوبةِ.

وأقصى ما في هذه القصةِ الإشعارُ بأنَّه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ودَّ أن يكون له ما لغيره،

=

بني آدم بلا شك، مختصمين في نعاج مِن الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر؛ على نصِّ الآية).

(١) ما بين المعقوفتين سقط من كلتا النسختين، والصواب ما أثبته.

(٢) شور: يقال: شور به، إذا (أخرجه مِن حدِّ الحياء وأخجله. وقال قوم: هو مِن الشوار، والشوار: الفَرْج، كأنَّه أبدى عورته فخجل لذلك، ويقولون في الشتم: أبدى الله تعالى شواره. والشوار: متاع البيت. وشرت الدابة شوراً إذا عرضتها، والمكان الذي تعرض فيه الدواب: مشوار). مجمل اللغة لابن فارس (ص٥١٥).

(٣) قال الطبريُّ (١٨١/٢١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾: (وعلِم داودُ أنما ابتليناه ... والعربُ تُوَجِّه الظنَّ إذا أدخلته على الإخبار كثيراً إلى العلم، الذي هو مِن غير وجه العيان).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٢٧/٥).

وكان له أمثاله، فنبَهَّه الله بهذه القصة، فاستغفر وأناب. ويحتمل أن يكون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد علِم ذلك على التعيين، أو لم يعلم ولكنَّه قد علم إجمالاً.

وما روي: أنَّ بصره وقع على امرأةٍ، فعشقها، وسعى حتى تزوجها، وولد منها سليمان، إن صحَّ فلعلَّه خطب مخطوبته، أو استنْزل عن زوجه، [أو][1] يكون ذلك معتاداً فيما بينهم، وما سوى ذلك فمردود[2]. رُوِي عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: «مَن حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدته مائة وستين»[3]. فلعلَّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إنَّما عيَّن ذلك العدد لأنَّ جلد القذف ثمانون، فغلَّظ في ذلك حتى جعل ذلك بمنْزلة القذف، ثم جعل حده ضعف حد القذف؛ تعظيماً للأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وإذ كانت إنابتُهُ صادقةً ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ الذي استغفر عنه، ﴿وَ﴾ لم تنقص رتبتُه، بل ﴿إِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ ليس لغيره ذلك الزُّلفى والقرب، ﴿وَ﴾ لقربه منه سبحانه غاية القرب كان له ﴿حُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع في الجنة. / [٤٠٥/ب]

وقلنا له ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ مِنَّا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما جعلنا الأنبياءَ الذين تقدموا عليك، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي علَّمك الله سبحانه، وأمرك أن تحكم به، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفس. وقيل: إنَّ المراد بالذنب هنا هو الحكم سريعاً بلا مسألةٍ مِن المدَّعى عليه، فإنَّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾، ولم يسأل أنَّك هل سألته؟ ثم تنبَّه لذلك، فاستغفر مِن ذلك، فإن قوله

---

(١) في [ف] بلفظ: [و].

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٧/٦٠): (قد ذكر المفسرون هاهنا قصةً، أكثرها مأخوذ مِن الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديثٌ يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنَّه مِن رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ عِلمُها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ القرآن حقٌّ، وما تضمن فهو حق أيضاً).

(٣) لم أجد هذا الأثر في كتب الحديث، ولكن أورده بعضُ المفسرين في تفاسيرهم عن سعيد بن المسيب. انظر: تفسير الثعلبي (٨/١٩٠)، وتفسير الزمخشري (٤/٨١)، وتفسير النسفي (٣/١٥٠).

سبحانه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ يدُلُّ على ذلك. ومَن فسَّر بغير ذلك يقول: إنَّ المراد: إنَّا لم نعزل عنك حكومتك بعد إذ أذنبت، فإنَّك خليفتي كما كنت قبل ذلك، وبعد أن فعلت ما فعلت لا تتبع هواك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي قد نَصَبَ الدلائلَ على السلوكِ فيه، والضُّلال عن سبيل الله إنَّما يضُرُّهم دون غيرِهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ وإنَّما الضلال ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ بسبب نسيهم ذلك اليوم.

﴿وَ﴾ كيفَ ينسون ذلك اليوم؟! ألا يتأمَّلُون أنَّا ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ خَلْقاً ﴿بَٰطِلٗا﴾ بحيث لا يكون فيه حكمة، فمَن دَبَّر العالم ذلك التدبير كيف يجعله مُهمَلاً؟! لا يكون على أفعالهم التي يفعلونها حسابٌ ولا جزاء، إذ ذلك سَفَهٌ ليس مِن مقتضى الحكمة. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فإنَّهم يَظُنُّون ذلك، ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لظنِّهم ذلك الظن السوء بربِّهم.

أنجزيهم على ما يعملون مِن الكفر والإيمان ﴿أَمۡ﴾ لا نجزيهم! فحينئذ ﴿نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي خلقهم فيها ليصلحوها. ثم إن لم نجزِ المفسدين لِسَعة رحمتنا هل نجزي المؤمنين الذين آمنوا بنا وبرسلنا، وأظهروا إلاهيتنا بالإقرار والقبول! فنُفَرِّق فيما بينهم بالتمييز بين العاصي والمتقي المخلص ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾؟! فإذا لزِم أن يميز بين المتقي والعاصي فيلزم أن يُبعثوا جميعاً؛ من المؤمنين والكافرين، تتميماً لأمر الجزاء. ويمكن أن يكون هذا تكريراً للأول، بمعنى: أنَّ كُلاً مِن ذلك يمنع التسوية مِن الحكيم سبحانه.

فهذا ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ فهو ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ نَفَّاعٌ؛ لأنَّه نازِلٌ مِنَّا، وإنَّما أنزلناه ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ويتفكَّروا فيها، فيعرفوا ظواهرها وبواطنها، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فإنَّهم يتَّعِظُون بها، ويستحضرون بها ما هو مركوزٌ في العقول، فإنَّه لو لم تنْزِل تلك الآياتُ لكان عليهم أن يتأمَّلوا في الآفاق وفي أنفسهم، ويستدلوا بها على الصانع الحكيم.

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ﴾ لإنابته غاية الإنابة ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾، وجعلنا مُلكَه أعظمَ مِن أبيه، ولم يتخلف بذلك الْمُلكُ عن طاعةِ ربِّه، بل هو ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ قد كمُلَت

عبوديته،/ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ إلى الله سبحانه بالتوبة، أو التسبيح مرجع له[1]. [٤٠٦/أ]

وكانت توبتُه ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾، فهو ظرف لـ﴿أَوَّابٌ﴾ أو لـ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[2]، ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ بعد الظُّهْرِ، ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾ وهي الخيول التي تقوم على أطراف سنابكِ يدٍ واحدة أو رِجْلٍ واحدة[3]، وتلك مِن الصفات المحمودةِ في الخيول، ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع جواد، وهو الذي يُسْرِع في الجَرْيِ.

روي[4] أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ غزا دمشق[5] ونصيبين [6]، وأصاب ألفَ فرسٍ كذلك. وقيل: أصابها أبوه مِن العمالقةِ، فورثها منه، فاستعرضها، فلم تزل تُعْرَض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر، أو عن وِرْدٍ كان له، فاغْتَمَّ لِما فاته، فعقرها تقرباً لله تعالى؛ ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ﴾ تلك الخيولَ، إذا كان حبها ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾؛ فإنَّ الخيرَ معقودٌ بنواصيها، إلا أنَّه لَمَّا كان ذلك الحب أعرضني ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ وأغفلني عنه ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ وغابت الشمسُ ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾، فذَهَبَ عنِّي وقتُ صلواتي أو وردي.

---

(١) قال الماتريدي (٨/ ٦١٠): (قَالَ بَعْضُهُمْ: (أَوَّابٌ) مطيع لله، مقبل على طاعته، وقَالَ بَعْضُهُمْ: (أَوَّابٌ)، أي: مسبح لله، ذكر أنه كان كثير التسبيح؛ وكذلك قال - عَزَّ وَجَلَّ -: (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ)، أي: سبحي معه، هذا محتمل.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٧/٢٢٥).

(٣) قال الفراء في معاني القرآن (٢/ ٤٠٥): (والصافناتِ- فيما ذكر الكلبي بإسناده- القائمة عَلَى ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى عَلَى طرف الحافر من يدٍ أو رجلٍ. وهي فِي قراءة عبد الله: (صَوَافِنَ فإذا وَجَبَتْ) يريد:معقولة عَلَى ثلاث. وقد رأيتُ العرب تجعل الصَّافِن القائم عَلَى ثلاث، أو عَلَى غير ثلاث. وأشعارهم تدل عَلَى أنها القيام خاصة والله أعلم.

(٤) ذكر النيسابوريُّ في تفسيره (٥/٥٩٤) نحواً مِن هذا الرواية، ولم يسندها.

(٥) دمشق: هي أكبر مدن سورية، وعاصمتها، وموقعها في أواسط سورية، وهي مدينة قديمة التاريخ، مضى على بنائها نحو ٣١٤٥ سنة، وكانت تسمّى بإرم ذات العماد، وقد وصفها بعضُهم بأنّها جنّة الدنيا. انظر: الرحلة الشامية (ص٦٣).

(٦) نَصِيبين: مدينةٌ عامِرَةٌ مِن بلاد الجزيرة، على جادّة القوافل مِن موصل إلى الشام، وبينها وبين نصيبين، من قُرى حلب. ونصيبين أيضاً: مدينة على شاطئ الفرات، كبيرة، تعرف بنصيبين الروم. انظر مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (٣/١٣٧٤).

﴿رُدُّوهَا﴾ تلك الخيولَ ﴿عَلَيَّ﴾، فردُّوها، ﴿فَطَفِقَ﴾ وشرع يمسح السيف ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾، فقطعها، مِن قولهم: (مسح علاوته) إذا قطع عنقه[1]. وفي إدخال الباءِ التي للآلة على السُّوقِ إشارةٌ إلى كثرة الفعلِ، حتى صار السيفُ مقطوعاً، فإنَّه يتأثَّر الفعل به. وخص السوق والأعناق إذ حسن الخيول وجودتها يظهر [فيها][2]. وإنَّما فعل ذلك بالخيول لأنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ اشتغل عن ذكر الله سبحانه بسببها، فأهلكها ليزول حبُّها عن القلب؛ فإنَّ الشيء الذي مال إليه القلبُ أشدَّ مَيْلٍ لا يزول إلا بزواله. ويمكن أن يكون ذلك القطعُ على طريق يكون ذبحاً، ويكون قطع السوق ليكون الذبح سهلاً، مع ما ذكر مِن ظهور الجودة فيها. ويمكن أن يكون الذبح بعد ذلك. أو يكون ذلك مباحاً في شرعه، فلا يكون ذلك إضاعةً، كما كانت القرابين تأكلها النار. أو يكون المرادُ: فجعل يمسح بيده سوقها وأعناقها ليزيل الغبار عنها[3] حُبّاً لها، كما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، واختاره ابنُ جرير[4]، وقال: لِئَلا يلزم تعذيب الحيوان وإضاعة المال. ولعلَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ فعل ذلك بعد أن أعرض عن ذكرِ الربِّ

---

(١) ومسحته بالسيف: كناية عن الضرب، كما يقال: مسست، قال تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾. انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٧٦٧)، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (١٣٧/٢).

(٢) في [ف] بلفظ: [منها].

(٣) ذكر النحاس أقوالا في معنى المسح فقال (٦/ ١١٢): (قال الحسن في قوله تعالى: (فطفق مسحا بالسوق والأعناق) فقطع أسوقها وأعناقها فأبدله الله جل وعز مكانها خيرا منها وقيل معنى (فطفق مسحا): أقبل يمسحها بيده من غير قتل كما روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال يقول: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبا لها، ومن قال قتلها فذلك على أنه ذكاة، أو أنه أبيح ذلك كما روي عن عبد الله بن عمر أنه أعجبه غلام فأعتقه.

(٤) روى الطبري في تفسيره (١٩٦/٢١): (عن ابن عباس، قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ يقول: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها. وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية؛ لأنَّ نبي الله ﷺ لم يكن -إن شاء الله- لِيُعَذِّب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً مِن مالِهِ بغير سببٍ سوى أنَّه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها).

بسببها انكساراً للنفس وإظهاراً لهوانها، بأنَّ الحيوانات انقادت لمن يتولاها، ولم تعرض عن أمره، وهو قد أعرض عنه مع الضَّعْفِ، وهي مع تلك القوة لم تعرض، فكان ذلك المسح من تتمة التوبة/ فاندفع بما ذكرنا أنَّ هذا المعنى لا يناسب قوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [٤٠٦/ب] إلى آخر ما ذكر.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ وراء ذلك فتنةً أخرى، ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾ لتلك الفتنة ﴿جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ إِلَيَّ.

وفي هذه الفتنة روايات، أظهرها: ما رُوِي مرفوعاً أنه قال: «لأطُوفَنَّ الليلة على سبعين امرأة، تأتي لي كلُّ واحدةٍ بفارس يجاهد في سبيل الله سبحانه، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهِنَّ، ولم تحمل إلا امرأةٌ، جاءت بشق رجل. فوالذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا فرساناً»[(١)].

وقيل: وُلِد له ابنٌ، فأجمعت الشياطينُ على قتله، فعلم ذلك، فكان يغدوه في السحاب، فما شعر به إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً، فتَنَبَّه على خطئه بأن لم يتوكَّل على ربّه. وقيل: إنَّه غزا صيدون[(٢)] من الجزائر، فقتل ملكَها، وأصاب بنتَه، فأحَبَّها، وكان لا يرقأُ[(٣)] دمعُها جزعاً؛ جزوعاً[(٤)] على أبيها، فأمر الشيطانُ فمَثَّلوا لها صورتَه، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها، يسجدون لها، كعادتِهِنَّ في ملكه، فأخبره آصفُ، فكسر الصورةَ، وضرب المرأة، وخرج إلى الفلاةِ باكياً متضرعاً، وكانت له أم ولد اسمها

(١) صحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور: باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (١٣٠/٨)، وصحيح مسلم كتاب الأيمان: باب الاستثناء (١٢٧٦/٣).

(٢) صيدون: مدينة قديمة، بناها الفينيقيون على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وهي اليوم تسمى صيدا، من مدن لبنان، قريبة من العاصمة بيروت. انظر: كتاب تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير (١١٥/٢)، والروض المعطار في خبر الأقطار (ص٣٧٣).

(٣) رقأ: قال اللَّيْث: يقال: رَقأ الدَّمُ، فهو يرْقأ رُقوءاً، ورقأ العِرْق: إذا سَكَن. ورَقأ الدَمعُ رُقوءاً: إذا انْقَطع. تهذيب اللغة للأزهري (٢٢٤/٩).

(٤) يظهر أن لفظ (جُزُوعا) مفعول مطلق، والله أعلم، ولم أجد هذا اللفظ في روايات القصة، كما سيأتي -إن شاء الله-.

أمينة، إذا دخل للطهارة أعطاها خاتمه، وكان ملكه فيه، فأعطاها يوماً، فتمثل لها بصورته شيطانٌ اسمه صخر، وأخذ الخاتم، فتَخَتَّم به، وجلس على كرسيه، فاجتمع عليه الخَلْقُ، ونفذ حكمُه في كل شيءٍ إلا فيه وفي نسائه، وغيَّر سليمان عن هيئته، فأتاها لطلب الخاتم، فطردته، فعرف أنَّ الخطيئة أدركته، وكان يدور على البيوت يعتكف، حتى مضى أربعون يوماً عدد ما عبدت الصورة في بيته، فطار الشيطانُ، وقذف الخاتمَ في البحر، فابتلعته سمكةٌ، فوقعت في يدِه، فبقر بطنها، فوجد الخاتمَ، فتَخَتَّم به، وخرَّ ساجداً، وعاد إليه الملك(١).

فعلى هذا المراد بقوله: ﴿جَسَدًا﴾: صخراً، سُمِّي به، وهو جسم لا روح فيه؛ لأنه كان متمثلاً بما لم يكن كذلك. والخطيئةُ تغافُلُه عن حال أهله؛ إذ اتِّخاذُ التماثيل كان جائزاً حينئذ، وسجودٌ لصورةٍ بغير علمه لا يضره.

وتلك الإنابة بأن ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ ليكون ذلك الملك معجزةً لي، أو أعْطِني مُلكاً لا يُسْلَبُ مِنِّي كما سُلِبَ أوَّلاً. والمراد به: أعطني ملكاً عظيماً، فيكون قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ مُستَعْمَلاً في وصف الملك بالعظمة، ولا يكون ذلك منافية(٢). ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ فتعطي ما تشاء لمن تشاء.

فإذا تاب وأناب كما ينبغي ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ وذَلَّلْناها لطاعتِه، فكانت

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٧/٦٠) بعد إيراده للروايات في ذلك: (وقد رُوِيَت هذه القصةُ مطولةً عن جماعة مِن السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها مُتَلَقَّاة مِن قصص أهل الكتاب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب).
قال الشنقيطي في أضواء البيان (٣/٢٥٤): (فإذا علمت هذا فاعلم أنَّ هذا الحديث الصحيح بيَّن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ الآيةَ، وأنَّ فتنة سليمان كانت بسبب تركه قوله: إن شاء الله، وما يذكره المفسرون من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم، وجلس على كرسي سليمان؛ باطِلٌ لا أصل له، ولا يليق بمقام النبوة. والظاهر في معنى الآية هو ما ذكرنا، وقد دلت السنة الصحيحة عليه في الجملة، واختاره بعض المحققين).
(٢) ويمكن إعادة صياغة الجملة كالتالي: (ولا يكون في ذلك منافاة). ومقصود المؤلف: لا منافاة بين طلب الملك العظيم مِن الله، وبين طلب المغفرة منه سبحانه.

﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ ﴾ وإرادته ﴿ رُخَآءً ﴾ ليِّنةً ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ وأراد، فكانت له بمنْزِلة الخيول.

﴿ وَ ﴾سخَّرْنا له ﴿ ٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ وجعلناها له عَمَلَةً؛ ﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ ﴾ يَبْني ما يريد بناءَه، ﴿ وَغَوَّاصٍ ﴾ يغوص في البحرِ، ويُخرج اللآلئ وغيرها مما يخرج منه.

﴿ وَ ﴾جعلنا ﴿ ءَاخَرِينَ ﴾ مِنهم مِن الْمَرَدَةِ ﴿ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ / مُقَرَّنٌ [٤٠٧/أ] بعضُهم معَ بعضٍ لِيَكُفُّوا عن الشرِّ. والمراد بالصفد: ما يمنع به عن الشر، وهو في اللغة: في القيد، وهو لا يكون إلا في الأجسام الصلبة، والشياطين هم الأجسام الشفافة؛ فلا يُقَيَّدون، فالمراد هو: المنع عن الشرِّ[1].

وقلنا له: ﴿ هَٰذَا ﴾ الذي أُعْطِيتَ مِن الْمُلك والبَسْط والتَّسليط مِمَّا لم يُعْطَ غيرُك ﴿ عَطَآؤُنَا ﴾ الذي لا يقدِرُ أحدٌ أن يُعْطِي أحداً، فإنَّا إذا أعطيناك ﴿ فَٱمْنُنْ ﴾ فأَعْطِ مَن شئتَ ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ وامْنَعْ عمَّن شِئتَ؛ فلم نُوجِب عليكَ شيئاً مِن ذلك، فتكون في ذلك متصرفاً ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾؛ إذِ الأمرُ في ذلك مُفَوَّضٌ إليك.

﴿ وَ ﴾ لم تنقصه بذلك مِن آخرته شيئاً، بل ﴿ إِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ لَقُربى في الآخرة ﴿ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ هو الجنة، فكان لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِمَّا لم يكن لغيره، ومع ذلك كان منقاداً لِرَبِّه ذلك الانقياد، وخائفاً منه ذلك الخوف، ومع تلك الرتبة أخذه الربُّ بتلك الزَّلَّةِ حتى أناب، ثم غفر لَمَّا كان صادقاً في إنابته، فينبغي أن يُخاف منه كل حين، ولا يُؤمن منه وتُرجى رحمتُه فلا يقنط.

---

(١) قد ورد في معنى الأصفاد عند كثير من المفسرين: أنها السلاسل مِن الحديد. انظر: تفسير الطبري (٩٩/٢٠)، وتفسير الثعلبي (٢١١/٨)، وتفسير الماوردي (٩٩/٥).
وهنا فسره المؤلف بمعنى: المنع مِن الشرِّ؛ لأنَّه اعتبر الشياطين أجساماً شفافة. ولا منافاة في ذلك، قال صاحب كتاب حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٣٩١/٢٤): (والحق أن يقال: إنَّا لا نعلم حقيقة تلك القيود، ولا كيف تكون العقوبة، كما لا نعلم كيف يشتغل الشياطين، وكيف يبنون، أو يغوصون؟ فكلُّ ذلك في عالَمٍ لا نُدرِك شيئاً مِن أحواله، فعلينا أن نؤمن بأنَّ سليمان لِعِظَمِ مُلكه لم يكتفِ بتسخير الإنس في أعماله، بل سخَّر معهم الجن فيما يصعب عليهم، ونتقبل هذا كما قصّه القرآن، دون دخول في التفاصيل؛ خوفًا مِن الزَّلل الذي لا تُؤمن مغبته، ولا نصل أخيرًا إلى معرفة الحق فيه، ولنكتفِ بذلك، فالعبرة به ماثلةٌ، ولا نتزيد فيه).

﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾ لهم ما ابتلينا به ﴿ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ الذي جُعِل نبياً، وهو ابن عيص ابن إسحاق [1]، فغفر له ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ وقال ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ ﴾ بِتَعَب ﴿ وَعَذَابٍ ﴾. وإنَّما نُسِب إلى الشيطان إذ حصل ذلك بوسوسته، فإنه قيل: إنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أُعْجِب بكثرة ماله[2]. وقيل: إنَّه استغاثه مظلومٌ، فلم يغثه[3]. وقيل: إنَّه كانت مواشيه في ناحيةِ كافرٍ، فداهنه، ولم يغزُه[4]. وقيل: إن الشيطان سأله سبحانه أن يمتحن لصبره[5]، فجعله سبحانه قادراً على ذلك، فأصابه بنُصْبٍ وعذابٍ. وقيل: المراد بالمساس أنَّه وسوس إلى أتباعه حين رفضوه وأخرجوه مِن ديارهم[6]. أو المراد بالعذاب:

---

(١) روى الطبري في تاريخه (٣٢٢/١): (أنَّ أيوب كان رجلاً من الروم، وهو أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم. وأمَّا غير ابن إسحاق فإنه يقول: هو أيوب بن موص بن رغويل بن العيص بن إسحاق بن ابراهيم. وكان بعضهم يقول: هو أيوب بن موص بن رعويل).

(٢) روى الطبريُّ في تفسيره (١٠٧/٢٠) عن السدي قوله: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ ﴾ قال: «نصب في جسدي، وعذاب في مالي».

(٣) ذكر الثعلبي في تفسيره (٢١١/٨) عن وهب: (استعان رجلٌ أيوبَ على ظُلْمٍ يدرأه عنه، فلم يُعِنْه، فابتلي).

(٤) روى حيانٌ، عن الكلبيِّ: أنَّ أيوب كان يغزو ملكاً مِن الملوك كافراً، وكانت مواشي أيوب في ناحية ذلك الملك، فداهنه، ولم يغزه؛ فابتلي. المصدر السابق (٢١١/٨).

(٥) روى يحيى بن سلام (١/ ٣٣٣): قال الحسن: إنَّ إبليس قال: يا رب، هل مِن عبيدك عبدٌ إن سلطتني عليه امتنع مني؟ قال: نعم، عبدي أيوب.

(٦) وفي نقد هذه الروايات قال القرطبي (٢١٠/١٥): (وأمَّا قولهم: إنَّه استعان به مظلومٌ فلم ينصره؛ فمَن لنا بصحة هذا القول؟ ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو مُنَزَّه عن ذلك، أو كان عاجزاً فلا شي عليه في ذلك. وكذلك قولهم: إنَّه منع فقيراً من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطل عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه. وأمَّا قولهم: إنَّه داهن على غنمه الملك الكافر؛ فلا تقل: داهن، ولكن قل: دارى، ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز، نعم وبحسن الكلام. قال ابن العربي القاضي أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين، الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، والثانية: في ص: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ ﴾. وأمَّا النبيُّ ﷺ فلم يَصِحَّ عنه أنه ذكره بحرف واحد، إلا قوله: «بينا أيوب يغتسل إذ خَرَّ عليه رجلٌ مِن جراد مِن ذهب» الحديث رواه البخاري في =

ما كان يوسوس إليه في مرضه مِن عظيم البلاءِ، والقنوط من الرحمة[1].

فقلنا له: ﴿ٱرْكُضْ﴾ اضرب ﴿بِرِجْلِكَ﴾ الأرضَ، فضربها، فنبعت منها عينٌ، فقلنا له: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾ [ما يُغْتَسَلُ به][2] ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ما يُشْرَب منه. روي: أنَّه نبعت عينانِ؛ حارةٌ وباردةٌ، فاغتسل مِن الحارَّةِ، وشرِب مِن الباردة[3].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بعد تَفرُّقِهم، أو أحييناهم بعد موتهم، ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ حتَّى كان له ضعفُ ما كان أولاً، وجميعُ ما ذُكِر كان ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عليه، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وتَذْكِرَةً ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فإنَّهم كانوا إذا تأمَّلوا في الدلائل يمكن لهم أن يعلموا ذلك، فذا تذكرة لهم.

﴿وَ﴾قلنا له: ﴿خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾، وهي: الحِزمة الصغيرةُ مِن الحشيشِ [ونحوِه][4]، ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ زوجتَك، ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾. رُوي: أنَّ زوجته ليا بنت يعقوب. وقيل: رحمة بنت إفرائيم بن يوسف؛ ذهبت لحاجةٍ، وأبطأت، فحلف / إن برئ ضربها مائةَ ضربةً، فحلَّل اللهُ يمينه بذلك[5]، فهي رخصة باقية في الحدود. وإنما أعطيناه ما [٤٠٧/ب]

=

صحيحه (٦٤/١) كتاب الغسل، باب من اغتسل عُريانًا وحده في الخلوة، ومن تستر فالتستر أفضل. وإذ لم يصح عنه فيه قرآنٌ ولا سنةٌ إلا ما ذكرناه؛ فمَن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيِّ لسانٍ سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنَّها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً).

(١) قال الرازي في تفسيره (٣٩٦/٢٦): (والعذاب المضاف في هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة، وإلقاء الخواطر الفاسدة).

(٢) ما بين المعقوفتين غير موجود في [ف].

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠٧/٢٠). وانظر: تفسير النيسابوري (٦٠٢/٥)، وتفسير البيضاوي (٣١/٥) بغير إسناد.

(٤) ما بين المعقوفتين غير موجود في [ف].

(٥) لم أجد لهذه الرواية سنداً عند المفسرين، وذكر الواحدي في الوسيط (٥٥٨/٣) عن قتادة: (عرض لها إبليسُ، وأراد أن تحمل زوجها على شيء، فقالت لأيوب: لو تقرَّبت إلى الشيطان

=

أعطيناه لأنه كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مستحقاً لذلك ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فهو ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله تعالى. آنا فآنا فلم ينفعه ما أُعْطِي مِن الأمتعة الدنيوية، ولكن نفعه صبره وأَوَّبه إلى ربه.

﴿وَ﴾أمثال ما ذُكِر كثيرون في عبادنا؛ فإنك ﴿ٱذْكُرْ﴾ لهم ﴿عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، فإنَّهم كانوا ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوة والمعرفة.

﴿إِنَّآ﴾ إنَّما أعطيناهم ما [أعطينا][1] إذ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ جعلناهم خالصين لنا، ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخصلة لا شَوْبَ فيها، وهي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾، فإنَّهم كانوا يذكرون الآخرةَ دائماً، ولِتَذَكُّرِهم إيَّاها أخلصوا طاعته سبحانه، فلمَّا أخلصوها أعطيناهم ما أعطينا.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ لهم ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثُمَّ صار نبيّاً، ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ وهو ابن عم يسع، أو بشر بن أيوب[2]، واختُلِف في نُبُوَّته[3]، ﴿وَكُلٌّ﴾ منهم كانوا ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾، فأُعطيت لهم الأمتعة الدنيوية والأخروية.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكِرَ من أمورهم ﴿ذِكْرٌ﴾ وشرف لهم، ﴿وَ﴾ليس هذا الشرف مخصوصاً بهم، بل ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أجمعين ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع.

أعني: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ وإقامته، لا يخرجون منها، ولا يمنعون عنها، بل كانت

=

بشيء، فذبحت له عَناقاً. فحلف أيوبُ: لئن شفاه الله ليجلدنها مائة جلدة). وقيل: غير ذلك.

(١) في [ف] بلفظ: [أعطيناهم].

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٣٢/٥)، وتفسير أبي السعود (٢٣١/٧).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٣١٩/٥): (وأمَّا ذو الكفل فالظاهر مِن السياق أنَّه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبيٌّ. وقال آخرون: إنَّما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً. وتَوَقَّف ابنُ جرير في ذلك، فالله أعلم).

﴿مُفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

وكانوا ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ كما يتكئ الْمُنَعَّمون في دار الدنيا في مجالسهم، وكانوا ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ في تلك الجنَّات التي هم فيها، ولا يحتاجون إلى أن يخرجوا منها، ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾، فجميعُ ذلك لهم في جنَّاتهم. وفي قوله: ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جميع ذلك لهم لِمَحضِ التَّلَذُّذِ، لا لدفع ألمِ الجوع.

﴿وَ﴾معَ ذلك ﴿عِندَهُمْ﴾ أزواج ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لا يَنظُرْنَ إلى غيرِ أزواجهنَّ، ﴿أَتْرَابٌ﴾ لِدَاتٌ[1] [لهن][2]، إذِ التحَابُّ بين الأقران أشد.

فيُقال لهم: ﴿هَٰذَا﴾ الذي أُعطِيتم ﴿مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، فهذا جزاءٌ على أعمالِكم التي وُعِدتُم عليها.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي عندكم ﴿لَرِزْقُنَا﴾ مِن عندنا ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقِطاع.

﴿هَٰذَا﴾ كما ذُكِر ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ الذين فعلوا ما يُناقِضُ أفعالَ هؤلاء واتبعوا أهواءَهم ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ مَرْجِع.

﴿جَهَنَّمَ﴾ فهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلونها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

ويُقال لهم: ليذوقوا ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ وهو ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، [والغَسَّاق][3]: ما يغسق يسيل مِن صديد أهل النار، مِن غسقت العينُ: إذا سال دمعها.

﴿وَ﴾لهم عذابٌ ﴿ءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من مثل هذا العذاب المذكور، وذلك العذاب ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أجناس.

ويُقال لهم: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ الذي يتبعكم في الدنيا ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ داخِلٌ

---

(١) روى الطبري في تفسيره (١٧١/٢٤) عن مجاهد: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ:٣٣]: لدات. ومعنى لدات: مستويات في السّن. اللّدة: مِن وُلِد معك في وَقْتٍ وَاحِد. انظر: المعجم الوسيط (٨٢٢/٢).

(٢) ورد في كلتا النسختين بلفظ: [بهم]، والصواب ما أثبته.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة في [ف].

معكم في شِدَّتِكم، [كما كان معكم][1] في الدنيا تابعاً لكم. فقال المتبوعون لأجل تابعيهم: / إنهم ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، هذا دعاءٌ منهم عليهم، أي: يأتوا رحبة وسعة، [٤٠٨/أ] ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ داخِلوها.

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ فإنَّكم أضللتمونا، و ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ بإغوائكم إيَّانا ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ ما جعلتُمُوه لنا.

و﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ العذابَ ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مُضاعفاً ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الطاغوتُ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنون: الذين آمنوا، وكانوا يسترذلونهم، فتَحَسَّروا على ما [حكمنا][2] فعلوا بهم في الدنيا.

فقالوا مُنكرين على أنفسهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾؟! ثم قالوا: ليسوا هنا فلم نرهم، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مع كونهم فيها؟!

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بُدَّ وأن يقع منهم، فإنَّه ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ فيما بينهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أشرف الخلائق: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ لكم مِن عذاب ربِّكم، ﴿وَ﴾لا أقول لكم إلا أنَّه ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشّركَةَ، ويدُلُّ على ذلك العقلُ والنقلُ، فإنَّه قد ثبت فيما تقدم مِن الكتب السماوية، وهو ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي يُعَذِّب مَن خالفه.

ومِمَّا يدُلُّ على وحدته وقهره أنَّه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فلو كانت الآلهةُ متعددةً لفسدت وخربت، وإذا كان هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ رب فثبتت له العِزَّة والقدرة، وهو ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ يغفر لمن يشاء.

(١) ما بين المعقوفتين سقطت من [ف].
(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من [ف].

﴿ قُلۡ ﴾ لهم: ﴿ هُوَ نَبَؤٌاْ ﴾ أي: ما أنبأتكم به مِن أنِّي نذيرٌ مِن عقوبةِ مَن خالف الربَّ سبحانه ﴿ عَظِيمٌ ﴾.

ولكنَّكم ﴿ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴾ لِغَفلَتِكم.

ألا تتأملون أني ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾، ويقولون لربهم: أتجعل فيها مَن يُفسد فيها[1]؟.

فإنَّ إخباري عنهم مُوافِق لِما في كتب الأوَّلين، فيدُلُّ على أنَّه ليس ذلك إلا بالوحي، وأيضاً لا أقول لكم ما به تنكرونني وتستبعدون رسالتي، فإني لا أقول لكم إلا أني ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾، أي: إلا لأجل إنما أنا نذير مبين، والإنذار لا يمنع الرسالة، بل يحققها؛ إذِ الرسالةُ مِن الملك القهار الوهاب لا تكون إلا بما ينفع المرسَل إليهم، ويستوجب الموهبة، ويمنع الغضب والقهر.

فلا بُدَّ من الإنذار وأنتم معرضون ومتكبرون، ألا تتفكرون في ضرر الإعراض والتكبر؟! أما سمعتم ما وقع؟! ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴾. فعَجِبوا مِن ذلك؛ حيث أراد الله سبحانه أن يجعله الخليفة بشراً، ويسلب الخلافة منهم.

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ ﴾ وعدَّلتُ خِلقته ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وأحييته، فأمرتهم بالسجود، ﴿ فَقَعُواْ ﴾ وخرُّوا ﴿ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ تكرِمةً وتبجيلاً.

﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾ مع أنَّهم كانوا مِن نورٍ، مطبوعين على الحمائد، وتركوا ذلك التعجب[2].

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ فإنَّه لم يسجد، ولم يكن فيه ما يقتضي عدم السجود والتذلل اللازم، لكنه / ﴿ ٱسۡتَكۡبَرَ ﴾، وقال: إنِّي خُلِقْتُ مِن نارٍ، وزعم أنَّها ألطف من الأرض، [٤٠٨/ب] وأعلى مكاناً، فلا يناسب التذلل، ولم ينظر إلى أنَّ ذلك السجود لأمر الله سبحانه، فلا ينظر فيه إلى ما نظر، بل ينظر إلى مجرد أمر الله سبحانه، ويعتقد إجمالاً أنَّ في ذلك

---

(١) انظر: تفسير مقاتل (٦٥٣/٣)، وتفسير الطبري (٢٣٦/٢١)، وتفسير الثعلبي (٢١٥/٨).

(٢) يقصد المؤلف: تعجّبُ الملائكة مِن أن يجعل الله خليفةً في الأرض.

الأمر حكمة لا نعلمها. وما زعم أنَّه مانع عن السجود ليس بمانع، فإنَّ الأرضَ غالِبَةٌ على النارِ؛ فإنَّها تُخْمِدُها، فالعلوُّ مكاناً عارضه الإخبار، ﴿وَ﴾لِتَكَبُّرِه ﴿كَانَ﴾ صار ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ [أَن تَسْجُدَ][1] لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ مِن غيرِ تَوَسُّطٍ؛ حيث كان بلا أبٍ وأمٍّ. وفي تثنية[2] اليد إشارة إلى جميعة[3] آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ مِن غيرِ استحقاقٍ، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؟! يعني: أم كنت مِن الجماعة التي فيها الجهات المقتضية للاستعلاء.

ولم يقل: أم علوتَ، أو أم كنت عالياً؟! إشارةٌ إلى أنَّك إن كنت عالياً فيلزم أن لا تكون وحدك عالياً، فإنَّك لست أن نوعك منحصر في فرد واحد حتى تكون وحدك عالياً، وأنت امتنعت وحدك عن السجود، ولا يمتنع معك أحدٌ. فيه أيضاً تنبيه إلى أنَّ الملائكة عاليةً بالذات عن البشر[4]، فإنَّ فضل الأنبياء عليهم عارضي؛ إذ ماهيةُ

---

(١) ما بين المعقوفتين أضيفت على الحاشية اليسرى بخط كبير ومغاير لخط المخطوط.

(٢) في [ف] بزيادة: [فيها الجهات]، ولم يظهر لي المعنى بعد هذه الزيادة؛ لأنَّ الجملة ستكون: (وفي تثنية [فيها الجهات] اليد إشارة ...!!!!)، أما الجملة بدون هذه الزيادة فمعناها واضح.

(٣) في هذه الآية وأمثالها مِن الآيات إثبات صفة اليدين، وهما مِن الصفات الذاتية التي لا تَنفَكُّ عن الله، فيجب إثباتها لله حقيقةً، على ما يليق بجلاله وعظمته، قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنَّ الله لم يخلق بيده إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده. وفي محاجة آدم لموسى: «أنت الذي خلقك الله بيده» الحديث. انظر: مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (ص٥٩)، والتدمرية لابن تيمية (ص٧٣).
أما عبارة المؤلف: (وفي تثنية اليد إشارة إلى جميعة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) فقد يقصد بها تأويل اليدين إلى أنَّ خلق آدم كان بالجمع، وهو تأويل عن ظاهر المعنى؛ إذ إن خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان بيدي الله تعالى، على الوجه الذي يليق به سبحانه وبحمده.

(٤) في هذه الجملة نظر وليست على إطلاقها حيث لا يُسلم بأن الملائكة عالية بالذات عن البشر وفي تفضيل الملائكة عن البشر خلاف بين العلماء، قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (٢/ ٤٢٣): (وَحَاصِلُ الْكَلَامِ: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ فُضُولِ الْمَسَائِلِ. وَلِهَذَا لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ، وَتَوَقَّفَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فِي الْجَوَابِ عَنْهَا)

الإنسان ليست بمقتضيةً ذلك الفضل، فهم مع ذلك سجدوا وأنت لم تسجد.

ولَمَّا لم يفهم إبليسُ ذلك؛ إذ التكبر قد عميه؛ ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾.

ولَمَّا لم يسمع ما قيل له ولم يفهم ﴿ قَالَ ﴾: إذا عصيتني ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾ مِن الجنة، أو مِن صورة الملائكة؛ ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ مَطرودٌ مِن الرحمة.

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾: إذا أُخرِجْتُ مِن جِوار رحمتك ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ وسُلطانك ﴿ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ ﴾ الذين حكمتَ عليهم، مع أنَّهم كانوا ﴿ مِنۡهُمُ ﴾؛ بأنَّهم كانوا هم ﴿ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ الذين أخلصهم اللهُ سبحانه.

﴿ قَالَ ﴾ سبحانه: ﴿ فَٱلۡحَقُّ ﴾ أحقُّ، ﴿ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴾، وليس في حضرتنا[1] إلا حقٌّ.

فأنا ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

﴿ قُلۡ ﴾ لهم: لِمَ لا تؤمنون بي؟! وتُنكِرون ما أقول لكم؟! مع أنِّي ﴿ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ ﴾ فيكون لكم مظنة شبهةٍ فيما أقول لكم.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾ الذين يدَّعون ما ليس فيهم.

﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ ﴾ وموعظةٌ ﴿ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وأنتم لا تعلمون ذلك.

﴿ وَ ﴾لكنَّكم ﴿ لَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ ﴾ وصِدْقه ﴿ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾ أَجَلٍ أُجِّلَ لكم.

---

(١) قال صاحب شمس العلوم (٣/ ١٤٨١) (الحضرة: القرب، يقال: كلمته بحضرة فلان، قال:

فشلت يداه يوم يحمل رايةً ... إلى نهشلٍ والقوم حضرة نهشلِ

وحضرةُ الرجل: فناؤهُ. وفي إطلاقها على الله عز وجل نظر والله أعلم.

(سورة الزمر)

مكية، إلا قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ [الزمر:٥٣] الآية[١].

وآيها خمس وسبعون، أو اثنا وسبعون آية[٢].

وسميت بها[٣] لأنها ذكر فيها سَوق المتقين والمجرمين إلى الجنة والنار بما عملوا، وهذه السورة / -بل جميع القرآن- سَوقه لهذا. [٤٠٩/أ]

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ [مِنَ][٤]﴾ أي: الكتاب الجامع الكامل المنَزَّل إليك هو ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ الجامع لجميع الأوصاف الكاملة؛ فكذا هذا الكتاب جامع، ولأنَّه مِن ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ القادر الغالب على كل شيءٍ، هو غالبٌ على كل كتاب، وما ثبت به مِن الدين صار غالباً على كل الأديان، وذلك لأنَّه مِن ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾، فما ذُكِر في ذلك الكتاب كلُّه حِكْمَةٌ، يغلب على [جميع سواه][٥]، فقوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأٌ، خبره قوله:

---

(١) سورة الزمر من السور المتفق على مكيتها، واختلف في الآيتين، وهما: الآية: ١٠ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، والآية ٢٣ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، ولا دليل على ذلك، والقول بمكيتها تبعاً للسورة، هو المعتمد. والآيات ٥٣-٥٤-٥٥: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، وقد جاء في مدنيتها أثران، ولكن يُعارض القولَ بمدنيتها ما ورد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: (نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا والفتح، والحديد، والحديد والمجادلة والحشر، والممتحنة، والحواريون- يريد الصف-، والتغابن، ويا أيها النبي إذا طلقتم، ويا أيها النبي لم تحرم، والفجر، والليل إذا يغشي، وإنا أنزلناه في ليلة القدر، ولم يكن، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله، وسائر ذلك بمكة). حيث لم تُذكر سورة الزمر مما يدل على أنها مكية. انظر المكي والمدني (ص٢٦٠).

(٢) قال الداني في البيان (ص٢١٦): (وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي، وثلاث في الشامي، واثنتان في عدد الباقين).

(٣) ومن أسمائها: سورة الغُرف؛ لورود قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ [الزمر:٢٠]، وسورة تنْزيل؛ لافتتاحها بهذا اللفظ. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٢٥).

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة في [ف].

(٥) كذا في المخطوط ولعل الصواب: [جميع ما سواه].

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾[1]، أو قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، يعني: هذا[2]. فحينئذ في الظاهر أن المراد بالكتاب هو هذه السورة، وإن كان يحتمل أن يكون المراد هو القرآن[3]، وإن كان قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ فالظاهر أن المراد بالكتاب القرآن، ويحتمل أن يكون المراد[4] [هو][5] السورة.

وكيف لا يكونُ ذلك الكتابُ كذلك! ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ذلك ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مُلتَبِساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، والحقُّ غالِبٌ ذو حكمةٍ، أو بسبب إثباتِ الحقِّ وإظهارِهِ؛ فلا بُدَّ وأن يكون غالباً ذا حكمة. فإذا أُنزِل إليك ذلك الكتاب الكامل ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾ الذي أَنزَلَ إليك ذلك شكراً له وعملاً بما فيه، [ولله][6] كن ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ بلا شِرْكٍ ورياءٍ.

فإنَّك إذا أخلصت دينَك يكون ذلك الدينُ له، ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ دون غيره ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾، فإنَّ ذلك قد ثبت بالبراهين القطعيةِ، حتى صار بمنْزِلة الضروريِّ، فيكفي التنبيه عليه؛ فوجبت الطاعة الخالصة له سبحانه. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ هؤلاء الكفرة إيَّاهم ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وقد قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ قُربى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وبين عَبَدَتِهِم ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ فإنَّ عبدتَهم يرجون شفاعتهم، وهم يلعنونهم، أو المعنى: والكفرة الذين اتخذوا هؤلاء الأصنام أولياء قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا. فالمراد بالذين اتخذوا: الكفرة، وقوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ خبرٌ على تقدير القول، ويمكن أن يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ﴾ خبرٌ، أو قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ إمَّا حال[7]، أو بدل من قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ على تقدير القول. والمراد بقوله: ﴿يَحۡكُمُ

---

(١) في [ف] بزيادة: [﴿ٱللَّهِ﴾ خ، ﴿مِنَ﴾ م] ولم يظهر لي ما يدل عليه هذين الرمزين.

(٢) قال الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٣٤٣/٤): (ورفع ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مِن جهتين: إحداهما: الابتداء، ويكون الخبر ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: نزل مِن عند الله. ويجوز أن يكون رفعه على: هذا تنْزيل الكتاب).

(٣) قال الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٣٤٣/٤): (﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ههنا: القرآن).

(٤) انظر: تفسير الزمخشري (١١٠/٤).

(٥) ما بين المعقوفتين زيادة في [ف].

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٧) قال الزمخشري في تفسيره (١١١/٤): (﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ يحتمل المتخِذين وهم: الكفرة، =

﴿بَيْنَهُمْ﴾ إمَّا بينهم وبين المؤمنين، أو بينهم وبين معبوديهم[1]. وإنَّما يختلفون معَ كونِ الأمر كالضروري؛ لكثرة البراهينِ، لعدم اهتدائهم إلى الحقِّ، فإنَّ الاهتداء بيده سبحانه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإن الكذب وكفران المنعم يُعمِي البصيرة. فأشركوا، ولم يسمعوا قول الناصحين، ولم ينظروا في الدلائل معَ كثرتها وظهورها.

ومع الشرك نسبوا إلى الله ما هو مستحيل، فإنَّه ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعموا هؤلاء ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ وجعل ولداً ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له [سبحانه][2]؛ للدلائل / الدالَّة على امتناع وجود واجبين[3]، [٤٠٩/ب] ووجوب استثناء جميع ما سواه إليه تعالى. فالكل مخلوق له تعالى، فالمخلوق كيف يكون ولداً؟! إذ الولد لا يكون إلا من نوع الوالد؛ فالولد له محالٌ، ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ مِن الولد؛ إذ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ فمَع بقائه لا يمكن أن يكون له ولدٌ؛ إذ حينئذٍ يثبت الاثنينية، وهو ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، فلا يكون له ولدٌ بأن يعدم عند وجود الولدِ؛ ليبقى الوحدة، فإنَّ قهاريته تُنافي قبول الزوالِ، فلا يعرضه العدم[4]، ولا يقهر عليه سبحانه؛ فإنه هو القهار على كل شيء.

=

والمتخَذين وهم: الملائكة وعيسى واللات والعزى؛ عن ابن عباس -رضى الله عنهما-. فالضمير في ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ على الأوّل راجع إلى الذين، وعلى الثاني إلى المشركين، ولم يَجْرِ ذكرُهم لكونه مفهوماً).

(١) أورده الزمخشري في تفسيره (١١١/٤) قائلاً: (فالضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائدٌ إليهم، وإلى المسلمين. والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين مِن الفريقين).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٣) (الواجب) هو مصطلح عند أهل الكلام، وقد عرَّفه ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٢٤٤/٤) فقال: (الواجب: هو الذي لا يكون مفتقِراً إلى فاعل، ليس هو الذي لا يكون مفتقِراً إلى قابل، فإنَّ الذي قام عليه قطعُ التسلسل أنَّ الواجب لا فاعل له ولا علة). ومعنى الجملة: أنه يمتنع وجود واجبين – يعني: خالِقين قائمين بذاتهما في نفس الوقت، وغير محتاجين إلى أيِّ شيء البتة في كل شؤونهما- ولو اتخذ الله ولداً لاستلزم أن يكون محتاجاً للولد، فدلَّ ذلك على امتناع الولد لله سبحانه؛ لأنَّ الولد لا بُدَّ أن يكون مِن جنس الوالدِ، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٤) والأقرب أن يقال: [ولا يعرض له العدم].

ومما يدل على وحدته وقهره أنَّه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ على الانتظام الكامل، ولو كانت الآلهةُ متعددةً لَزال ذلك الانتظام، وبذلك ثبت قهرُهُ؛ فإنَّ قهرَه على مَن يزيل الانتظام حتى بقي على ذلك الانتظام. ومن أدلته الدَّالَّة على كمال القدرة أنَّه ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾، ويُغْشِي كلٌّ منهما الآخرَ، كأنَّه يلف عليه لفَّ اللباس باللابس، أو يصيبه كما يصيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كارّاً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة[1]. ففي الوجه الأول جعل أحدهما لباساً والآخر لابساً، وفي الثاني جعل أحدهما شيئاً ظاهراً والآخر مُغَيَّباً، وفي الثالث جعل الزمان كالعمامة والليل والنهار بمنْزلة الأكوار. ﴿وَ﴾ذلك التكوير بأن ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، وليس ذلك إلى الأبدِ، بل ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، كأنَّه يطلب ذلك الأجل الذي أُجِّل له[2]؛ فذا كمالٌ في التسخيرِ. أو المراد: منتهى دوره، يعني: أنَّهما لا يختلفان في حركتهما، بل هما متحركانِ على نهجٍ واحدٍ،﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالِبُ على ما يريد، فإنَّه قد عُلِم بذلك قدرته وغلبته على ما يريد، ولم يُعَجِّل العقوبةَ على مَن خالف لأنَّه ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

ألا ترون في أنفسِكم أنَّه سبحانه ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو أبوكم [آدم][3]، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ حوَّاء. وفيه استدلالٌ مِن ثلاثة أوجه: خلَق آدم أولاً من غير أبٍ وأم، ثم خلَق حواءَ مِن خلقه، ثمَّ خلَق منهما خلقاً كثيراً فائتاً للحصر. وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ عَطْفٌ على محذوفٍ، أي: خلقها، ثم جعل منها ﴿وَ﴾به ﴿أَنزَلَ لَكُم﴾ لنفعكم ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي: قضى وقسّم؛ لأنَّ قضاءه وقَسْمَه يُوصَف

(١) التكوير: اللف والليُّ، يقال: كار العمامة على رأسه وكوّرها. وفيه أوجه، منها: أنَّ الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشى مكانه فكأنما ألبسه وألف عليه، كما يلف اللباس على اللابس. تفسير الزمخشري (١١٢/٤).

(٢) روى الطبري في تفسيره (٣٢٦/١٦) عن مجاهد: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: الدنيا.

(٣) في [ع] بلفظ: [واحد].

بالنُّزول؛ لِثُبُوته في اللوح[1]. أو المراد: أنَّه حدث ذلك بأسبابٍ سماويةٍ، كأشعة الكواكب والأمطار[2]، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ ذكرٍ وأنثى، كما مرَّ في سورة الأنعام، ثم انظروا كيف خلقكم؛ فإنَّه ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، ولم يخلقكم دفعةً، بل ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ تدريجاً، وكان خَلْقُكم ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾: ظلمة البطن والرحم والمشيمة، أو الصلب والرحم والبطن[3]. فاعلموا أنَّ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الَّذي هذه أفعاله هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الَّذي هو ﴿رَبُّكُمۡ﴾ لا غيره، / و﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾ جميعه ليس له فيه شريك، [٤١٠/أ] بل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ فإنَّه لا يُشارِكُه في الخلقِ غيرُه، فإذا علمتم ذلكم ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عن عِبادته إلى الإشراكِ.

إنَّكم ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ وعن إيمانكم، ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ لاستضرارهم به رحمةً عليهم. واعلم أنَّ الرِّضا يُستعمل في معنيين: أحدهما: الإرادة، وعلى هذا حمله المعتزلةُ هنا، أي: لا يريد لعباده الكفر. والثاني: الفرح، وهو المراد هنا، باعتبار لازمه، وهو: إعطاء النعم عندنا. وإنَّما قُيد بقوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ ولم يقل: (ولا يرضى الكفر)؛ إذ أفعالُ العباد لها نِسبتان[4]: نسبةٌ إلى الله تعالى مِن حيث إنَّه خلقها، فجميعُ الأفعال مِن حيث تلك النسبة مرضيةٌ بالمعنى الأول، وهو الإرادةُ، فإنَّها كائنةٌ بإرادة اللهِ تعالى. وأما بالمعنى الثاني: وهو الفرح، فلا يُثبَت ولا يُنفَى؛ أمَّا الإثبات فلأنَّه إنَّما يُنسب إليه تعالى باعتبار لازمه، وهو إعطاءُ النِّعَم، فإنَّما يكون بالنسبةِ إلى العبادِ. وأمَّا النفي فلأنه يقتضي الغضبَ، وهو أيضا إنَّما يثبت له سبحانه باعتبارِ

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (١١٤/٤).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٣٧/٥).

(٣) وذكر هذه الأقوال بعض المفسرين. انظر تفسير السمعاني (٤٥٩/٤)، وتفسير الرازي (٤٢٤/٢٦).

(٤) قال السمعاني في تفسير الآية (٤٥٩/٤): (أحدهما: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر. والآخر: أنَّه لا يرضى لجميع عباده الكفر. وعلى هذا القول فرقٌ بين الإرادة وبين الرضا، فقال: إن المعاصي بإرادة الله تعالى، وليست برضاه ومحبته. وقد نُقِل هذا عن قتادة، وكلا القولين محتمل، والثاني هو الأولى، والأقرب بمذهب السلف).

لازمه الذي هو بالنسبة إلى العباد، فالأفعالُ بالنسبة إليهم بعضُها مرضيةٌ بالمعنى الثاني، وهو الفرح[1]، ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فإنَّه سببٌ فلا حكم. ﴿وَ﴾لا تتَّكلوا على مَن قال لكم: إنه ليحمل أثقالكم؛ فإنَّه ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فكلٌّ منهم مسئولٌ عن وِزره. وإن لم تعلموا ذلك اليوم، ولكنَّكم ستموتون ﴿ثُمَّ﴾ تُحشَرون ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ الَّذي خالفتموه ولم تُؤَدُّوا حقَّ الربوبية ﴿مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والجزاء، ولا يعسر عليه ذلك؛ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فكيف تخفى عليه سبحانه أعمالُكم.

﴿فَـ﴾ـهُم يشركون مع علمهم بأنَّ شركاءَهم لا ينفعونهم؛ فإنَّه ﴿إِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، فحينئذ يُخْلِصُ له، ولا يرجع إلى غيره لعلمه بأنه لا ينفعه، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ وأعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ مِن عندِه؛ فإنَّها ليست في وُسعِ أحدٍ ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: الضر الذي كان يدعوه إلى كشفه، أو نسي الربَّ الذي كان دعاه[2]، فـ﴿مَا﴾ كالَّتي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]، ﴿مِن قَبْلُ﴾ في حالة الضُّرِّ ﴿وَ﴾نسي التوحيدَ بأن ﴿جَعَلَ لِلَّهِ﴾ الذي دعاه بالإخلاص والتوحيد ﴿أَندَادًا﴾ قد نسيها في تلك الحالةِ، وإنما كان ذلك الجعلُ ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فإنَّ الضلال عاقبته، فأنت ﴿قُلْ﴾ للإنسان: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ ما تمتعت فإنَّه ﴿قَلِيلًا﴾

---

(١) وفي تفسير المؤلف لهذه الآية بعض الغموض، ومذهبه أشعريٌّ كما ذكرتُ في ترجمته، وقد أورد ابن جزي في تفسيره (٢١٧/٢) عند هذه الآية كلاماً يبين موقف المعتزلة والأشعرية مِن صفة الرضا، فقال: (تأوَّل الأشعرية هذه الآية على وجهين: أحدها: أنَّ الرضا بمعنى الإرادة، ويعني بعباده: مَن قضى اللهُ له بالإيمانِ والوفاةِ عليه. فهو كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، والآخر: أنَّ الرِّضا غيرُ الإرادة، والعبادُ على هذا العموم، أي: لا يرضى الكفر لأحد من البشر، وإن كان قد أراد أن يقع مِن بعضِهم فهو لم يرضه ديناً ولا شرعاً، وأراده وقوعاً ووجوداً، أما المعتزلة فإنَّ الرضا عندهم بمعنى: الإرادة، والعباد على هذا على العموم جرياً على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد).
صفة الفرح ثابتة لله ﷻ على ما يليق به سبحانه، كما وردت في نصوص الشرع، وأمَّا كلام المؤلف هنا ففيه مخالفةٌ عقديةٌ، كما عليه مذهب الأشاعرة في تأويلِ أفعالِ اللهِ ﷻ.
(٢) انظر: تفسير النسفي (١٧١/٣).

ليس إلا في هذه الدار، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ في تلك الدار.

أأنت مع مخالفتك لربكَ تكون مِن أصحاب النار، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ قائمٌ بوظائف الطاعات ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ ساعاته تكون كذلك، فلا يعتقد أحدٌ مثلَ هذا الاعتقاد، بل أصحاب النار هم المخالفون، وكيف لا يكون كذلك وهو كان ﴿سَاجِدًا ﴾ / خاضعاً غاية الخضوع، ﴿وَ﴾كانت سجدته بعد أن حصّل ذلك العبدُ استعداد السجدة، فإنَه كان ﴿قَآئِمًا ﴾ مُؤَدِّياً وظائف الطاعات في حالةِ قيامه، فإذا حصل له استعدادُ السجودِ فإنَّه غايةُ القربِ، فلا بُدَّ لها مِن الاستعدادِ، وإنَّما فعل ذلك لأنَّه ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ لأنَّه علِم علماً كاملاً، فأنت ﴿قُلْ ﴾ لهم: إن لم يكن هو مِن أصحاب النار فالعكسُ لا يُظَنُّ به مَن له أدنى فطنة، فبقي الاستواء بينهما؛ فإنَّه ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والقانت عالِمٌ بربِّه، والآخر جاهلٌ؛ فكيف يُظَنَّ الاستواءُ بينهما. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ ما ذُكر إلا ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الذين ينظرون بعقولهم في الدلائلِ، فتكفيهم التذكرةُ.

[٤١٠/ب]

فأنت ﴿ قُلْ ﴾ لأولي الألبابِ: قال ربكم: ﴿يَٰعِبَادِ ﴾ إنَّكم انتسبتم إِلَيَّ بأنكم صرتم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فأبقوا عليكم ذلكم الانتساب بأن ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ بلزوم طاعته، وذا إنَّما [ينفع بكم][1] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ في الآخرة، ﴿وَ﴾لا عذر لكم في إتيان الحسناتِ؛ إذ ﴿أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ فمَن تَعَسَّر عليه التَّوَقُّفُ على الإحسان في وطنِه فليُهاجِر إلى حيثُ يتمكن منه، واصبروا على أذى مَن يؤذيكم في سبيله تعالى؛ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. وفي الحديث: أنَّه ينصب الموازين يوم القيمة لأهل الصلاة والصدقة والحج، يتوفون لها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلاء، بل يصب عليهم الأجر صباً، حتى يتمنى أهلُ العافية في الدنيا أنَّ أجسادَهم تُقْرَضُ بالمقاريض؛ لِما يرون من أجر أهل البلاءِ مِن الفضل[2].

---

(١) والصحيح أن يقال: (هو أنفع لكم).

(٢) روى ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «يُؤتَى بالشهيد يوم القيامة، فينصب للحساب، ويؤتى بالمتصدق، فينصب للحساب، ثم يؤتى بأهل البلاء، ولا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم =

ثُمَّ قل لهم: إن لم تؤمنوا فلا بأسَ عَلَيَّ؛ فإنِّي لم أؤمر بأن أقسُرَكم على الإيمان، بل ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

فأخلصتُ، وعبدتُ كما أُمِرْتُ، وإنما أوحيت ﴿وَأُمِرۡتُ﴾ بذلك ﴿لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وأحوز ذلك الفضل؛ فإنَّه سبحانه أكرمني بذلك.

﴿قُلۡ﴾ لهم: إنَّ ربِّي أكرمني بذلك الإكرام، ثم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ عصياناً ما ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ وأتركُ جميع ما سواه؛ فأكون ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾.

فأنتُم إذا بلغتكم ما به أرسلني ربي إليكم ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ فإنَّ ضرره إنَّما يعود عليكم. ﴿قُلۡ﴾ لهم: إنَّكم خسرتم غاية الخسران، ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الكاملين في الخُسْرِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالضلال ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالإضلال، وخسرانهم سيظهر ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ حيث يدخلون جهنمَ، ويُحاسبون حساباً شديداً، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

وذلك أنَّهم ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَ﴾ كذا ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾، فالنارُ محيطةٌ بهم مِن جميع جوانبهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر لكم ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ﴾ إنَّكم إذ خُوِّفتم بذلك ﴿فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿وَ﴾لا تَتَعَرَّضوا لِما يُوجِبُ سخطي، واجتنبوا [من][1] ذلك؛ إذ ﴿ٱلَّذِينَ

=

ديوان، فيصب عليهم الأجر صباً، حتى إنَّ أهل العافية ليتمنون في الموقف أنَّ أجسادهم قرضت بالمقاريض مِن حسن ثواب الله لهم». قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٠): (رواه الطبراني في معجمه مختصرا، وعن الطبراني رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة جابر بن زيد بسنده ومتنه، ورواه الثعلبي في تفسيره بسند آخر، ورواه أبو القاسم الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب بهذا السند، وبكر ابن حبيش وضرار والرقاشي كلهم ضعاف، ورواه ابن مردويه في تفسيره) وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢/٣٦٤).

(١) في [ف] بلفظ: [عن] وكلاهما فيه عُجمة. والصحيح أن يقال: (اجتنبوا ذلك).

﴿ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ البالغ غاية الطغيان ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال منه[1]، ﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾ وأقبلوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بكُلِّيَّةٍ ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالثواب على ألسنة الرسلِ والملائكةِ عند حضور الموت، فهم إذا أنابوا إلى الله ﴿فَبَشِّرۡ﴾ هم أنت، أعني : ﴿عِبَادِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ وذلك لأنَّهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لدينه، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ العقول السليمة عن منازعة الوَهم والعادة.

أهم لا يهتدون! ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَ﴾ هم المهتدون! ﴿فَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مع كونه فيها فإنَّ ذلك محال، فإنَّه ضروريٌّ بشرط المحمول، يعني: أنَّ مَن حقَّ عليه كلمةُ العذابِ لا بُدَّ وأن يكون في النار مُعَذَّباً فيها، / والمهتدي لا بُدَّ وأن [٤١١/أ] يُنقَذ مِن العذاب، ومَن كان في النار كيف يُنقَذ مِن العذاب! أو يُقال: إنَّ (مَن) في قوله: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ﴾ شرطية، والجواب قوله: ﴿فَأَنتَ﴾ والاستفهام للتأكيد[2].

وليس الأمرُ كذلك، ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ علالي بعضها فوق بعض، مبنية بناء المنازل على الأرض، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وكان ذلك ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكد؛ لأنّ قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ في معنى الوعد. ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ﴾ لاقتضاء إلهية ذلك ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾؛ إذِ الخُلفُ نقصٌ، وهو على اللهِ مُحالٌ؛ أيرتاب في ذلك أحد!.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ هو المطرُ، ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ وأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ عيوناً ومجاري، كائنة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أو المراد بالينبوع: الماء النابع[3]؛ إذ الينبوع للمنبع

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (١٢٠/٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (١٩٢/٩).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٤٩/٤)، وتفسير الزمخشري (١٢١/٤)، وتفسير البيضاوي (٤٠/٥).

(٣) واليَنْبُوع: العَيْن، يَفْعولٌ مِن نَبَعَ الماءُ: إذا جرى مِن العَيْنِ، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠]. أَو: هو الجَدْوَل الكثيرُ الماءِ، قاله ابنُ دُرَيدٍ، والجمْعُ: اليَنابِيعُ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. انظر: تاج العروس (٢٢٥/٢٢).

وللنابع، فنصبها على الظرف أو الحال[1]، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ويتِمُّ جفافه ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ يابساً، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكير ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فإنَّه لا يَتَذَكَّرُ به غيرُهم، فإنَّهم يستدلون بذلك على جواز الحشر والبعث، وجري الأنهار تحت الغرف، وجواز بناء الغرف بعضها فوق بعض؛ فإنَّ قصبات الزرع طبقات بعضها فوق بعض، ومن يجعلها حطاماً بعد أن كانت خَضِراً غاية الخُضرة يقدر على أن يجعل أهل الأمتعة الدنيوية بعد أن كانوا متمتعين بها في جهنم وقودها.

هم سمعوا ذلك حق سماع؛ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ حتى تَمَكَّن فيه بيُسره. وإنما ذَكَر الصدرَ لأنَّه محل القلب الذي تتعلق به الروح. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ومَن لم يسمع ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن﴾ أجل ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وفي هذا الكلام مبالغةٌ، حيث أثبت الشرح للصّدر الذي هو محل القلبِ؛ تنبيهاً على كمال الشرح، وإبائهم عن القبول أيضاً بلغ الغاية حتى وصل إلى القلوب، فإنَّ فيضان النور / [٤١١/ب] من الرب، فَيَصِلُ أولاً إلى الروح، ثم إلى القلب، ثم إلى الصدر؛ فيسري إلى الجوارح، وأمَّا الظُّلمةُ فبالعكسِ، إذ هي ناشئة منهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين قَسَت قلوبهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يظهر للنَّاظِرِ بأدنى تأمُّلٍ. والآية نزلت في حمزة وعلي وأبي لهب وولده[2].

وكيف لا يكونون في ضلالٍ ظاهرٍ، وهم لم ينظروا ولم يعلموا بالذي ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ إليهم -[أعني عليّ][3]- ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن. رُوِي: أنَّ أصحاب

---

(١) انظر: تفسير تاج القراء للكرماني (١٠١٢/٢)، وتفسير البيضاوي (٤٠/٥).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره (١٣/٤): (وفيمن نزلت هذه الآية؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي بكر الصديق، وأبي بن خلف، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: في علي وحمزة وأبي لهب وولده، قاله عطاء. والثالث: في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل، قاله مقاتل)، وقال الواحدي في أسباب النزول (ص: ٣٦٩): (نزلت في حمزة وعلي وأبي لهب وولده، فعلي وحمزة ممن شرح الله صدره، وأبو لهب وأولاده الذين قست قلوبهم عن ذكر الله).

(٣) في [ف] سقط لفظ: [عليّ] يعني على النبي ﷺ.

رسول الله ﷺ مَلُّوا مَلَّةً، فقالوا: حدِّثنا؛ فنزلت[1]. وكان ذلك الكتاب ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ ليس بعضه مناقضاً للبعض، بل كله متناسب لا يبعد بعضه عن بعض، [﴿مَّثَانِيَ﴾][2] جمع مثنى معاً، مُكَرَّراً قصصُه وأحكامه. وإنَّما وصف الكتاب بالجمع باعتبار التفاصيل، فباعتبار التفاصيل كأنَّه كُتُبٌ][3]، ولذا ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خوفاً منه، فإنَّهم يعلمون أنَّ ذلك الكتاب مُنَزَّلٌ من ربهم، فيخافون منه سبحانه لِما رأوا مِن تقصيراتهم، ﴿ثُمَّ﴾ إذا نظروا إلى عموم رحمةِ الله سبحانه فهم ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ وتطمئن ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فهم يعبدون الله بجوارحهم، ويذكرون الله بقلوبهم رجاءً لرحمته وغفرانه، فهم يعلمون أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكتاب ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ ولكن ليس لجميعهم، بل ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ويخذله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يُخرِجهُم مِن الضلالِ، فهم لا يهتدون.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ويجعل وجهه دَرَقَةً[4] يقي به العذابَ أن يكون مغلولةً يداهُ إلى عُنُقِه، فلا يقدر إلا أن يتَّقي بوجهه، وذلك يكون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يكون مهتدياً! أو المعنى: فهم لا يهتدون، فالكافر الذي يتَّقي بوجهه العذابَ كمَن هو آمَن منه! ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في ذلك اليوم: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ووبالَه.

كذلك التكذيب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لذلك التكذيب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مِن الجِهَةِ التي لم يخطر ببالِهم تلك الجهة.

---

(١) رواه أبو نُعَيْم في الحلية (٢٤٨/٤)، عن عون بن عبد الله، قال: ملَّ أصحابُ النبي ﷺ ملَّةً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا. فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

(٢) في [ف] بزيادة لفظ [تقشعر منه].

(٣) ما بين المعقوفتين كُتب على حاشية [ع].

(٤) قال صاحب العين (١١٥/٥): (الدَّرقةُ: ترسٌ مِن جلود، ويجمع على: درقٍ، وأدراق، ودِراق).

وقال ابن دريد في جمهرة اللغة (٦٣٥/٢): (الدَّرَق: ضربٌ مِن التِّراس، يُتّخذ مِن جُلُود دوابَّ تكون فِي بِلادِ الحَبَش، الواحدة: دَرَقَة، وَالجْمع: دَرَق وأدراق ودِراق).

﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ ﴾ والذُّلَّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ﴾ لم يكتفوا بذلك، بل ﴿لَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ الْمُعَدِّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ مِن العذاب الذي حاق بهم في الدنيا، فإنَّهم ﴿لَوْكَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ مِن أهل العلم لكانوا مُعتَبَرين بذلك.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا [لِلنَّاسِ](١) فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يُحتَاج إليه يُنظر، وإنَّما ضربنا ذلك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويَتَّعِظون به.

ولئن يتَذَكَّروا جعلنا ذلك القرآن ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ على لغتهم، ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ لا اختلالَ فيه بوجهٍ، وإنَّما فعلنا ما فعلنا ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ عنِ المعاصي بتَذَكُّرِهم.

ولقد ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ يُبَيِّنُ الشركَ والتوحيدَ؛ فقال: إنَّ ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا ﴾ آخرَ ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾، فهُما ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ صفةً وحالاً! فمثلُ المشرك باعتبار مذهب ذلك المشرك مِن / حيث اتخذ الشركاء متعددة أنَّ كلاً [٤١٢/أ] منهم يدّعون عبوديته، ويتنازعون فيه، ويتجاذبونه، ويتعاودونه في مهامهم المختلفة؛ [فهو](٢) مُتَحَيِّرٌ لا يستطيع كلامَهم، فإن أطاع واحداً يُغضِبُ آخرَ. ومَثَلُ الموحد مَثَلُ مَن كان له مولىً واحد، فهو يخدمه بسهولة، ومولاه مُطَّلِعٌ على حاله، ويجيبه لخدمته، ويُعطيه ما يليق به. فقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما بَيَّن لكم ذلكم التَّبيين، وهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيشركون به.

والبعضُ الذين يعلمون يُشْرِكون عناداً، وهم يظنُّون أنَّ الموت لينْزل بك، فهم يتخلصون بعد ذلك، وليس الأمر كذلك، بل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم ﴾ أيضاً ﴿مَّيِّتُونَ ﴾؛ إذِ الكلُّ بصَدَدِ الموتِ.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أجمعون -غُلِّب المخاطبون على الغائبين- ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فيعتذر المشركون بالأعذار الباطلة؛ فإنَّهم يقولون: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب:٦٧]، وهم يقولون: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين كتبت على الحاشية.

(٢) في [ع] بلفظ: [فمن].

[الصافات:٣٠]. والرُّسُل يقولون: إنَّا قد بلَّغناهم كما أمرتنا، يحكم الله سبحانه فيما بينهم بالحقِّ كما وعد، فيجزي الظالمين على ظلمهم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أنعم عليه نِعَماً لا تُحْصَى أن يشكره عليها، وهو قد ظَلَم بالشِّرْكِ وإضافة الولد إليه، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ الذي به الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ أَ﴾يَظْلِمُ ذلك الظلمَ ظنًّا منه بأنَّه ﴿لَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ الذي كفروا منعمهم، فظلموه.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ مِن عندِ ربِّه ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أعني: الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومَن تَبِعَهُ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عمَّا نهاهم.

فهم ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنَّةِ، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

وإنَّما جُوزوا بذلك الجزاء ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، يعني: أنَّ عاقبة الجزاء هي التكفير عن سيِّئاتهم، فإنَّهم وإن عمِلوا أيَّ عَمَلٍ كان لكنَّهم مُقَصِّرون في ذلك، مُحتاجون إلى التكفير. وإنما قيل: ﴿أَسْوَأَ﴾ تنبيهاً على أنَّ العبد وإن حصل منه أدنى تقصيرٍ ينبغي أن يستعظمه. ﴿وَ﴾إنَّما كفّر عنهم ذلك لِئن ﴿يَجْزِيَهُمْ﴾ ويعطيهم [﴿أَجْرَهُم﴾](١) وثوابَهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فإنَّهم لَمَّا كفّر عنهم السيئاتِ لم يبق إلا الحسنات. وفي قوله: ﴿بِأَحْسَنِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جزاءهم بمقابلة عملٍ أحسن مِن عملهم.

﴿أَ﴾هُم يكفرونَ بالذي جاء بالصِّدق زعماً منهم أنَّه ﴿لَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الَّذي جاء به! بزعمهم من ذلك، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ رُوِي: أنَّ قريشاً قالوا: إنَّا نخاف أن تَخْبلك آلِهتُنا؛ لِعيبك إيَّاهم(٢). وقيل: إنَّه ﷺ بَعَثَ

(١) في [ع] بلفظ: (أجورهم).

(٢) لم أجد هذا الأثرَ في كتب الحديث، وذكره بعضُ المفسرين. انظر: معاني القرآن للفرَّاء (٤١٩/٢)، وتفسير البيضاوي (٤٣/٥). والخبال والخبل: الفساد. انظر: غريب القرآن لابن =

خالداً ليكسر العُزَّى، فقال له [سادنها][(1)]: أحذِّركها لأنَّ لها شدة، فعمد إليها خالدٌ، فهشم أنفَها، فنَزل تخويف خالد / منْزلة تخويفه ﷺ[(2)]. ﴿وَ﴾إنَّما خوفوا لأنَّهم ضلُّوا [٤١٢/ب] ضلالاً لا يهديهم أحدٌ منه، لأنَّه ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهم إلى سواء الصراطِ.

﴿وَ﴾كذا ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾؛ فإنَّه لا رادَّ لقضائه. ﴿أَ﴾هُم يُخَوِّفونك بآلهتهم، ولا يخافون مِن إلهك؛ لأنَّهم يظنون أنَّه ﴿لَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ، ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ فمَن لا يخافه؟!

﴿وَ﴾ذلك معَ علمهم بقدرته؛ فإنَّك ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِوُضوح البراهينِ على ذلك؛ فلا يُطِيقون إنكاره. ﴿قُلْ﴾ [لهم][(3)]: أإذا أقررتم ألوهيته وعلمتم ذلك ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، فإنَّكم [إذا][(4)] قلتم ذلك فيلزم في كلامكم التناقض. ثم ﴿قُلْ﴾ لهم إن ناقضوا في كلامهم ولم يفهموا ذلك لِبَلادَتِهم: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ في إصابة الخيرِ ودَفْعِ الضُّرِّ، فإنِّي لا أخاف مِن غيرِهِ، ولا أرجو مِن سواه. وفي قوله: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ بصيغة الأنوثة تنبيهٌ على أنَّهم مع كونهم يصفونهم بالأنوثة يجعلونهم شركاء للقادر القوي بتلك القوة[(5)]. و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ الَّذين يتبعونني، فإنَّه سبحانه كما هو حسبي فحسبهم. وفي ترك

=

قتيبة (ص١٨٧).

(١) في [ع] بلفظ: [سادتها].

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢٩٤/٢١) عن قتادة بنحوه.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٤) في [ف] بلفظ: [إن].

(٥) قال ابن جُزي في تفسيره (٢٢٢/٢): (فإن قيل: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ بالتأنيث؟ فالجواب أنَّها لا تعقل؛ فعاملها معاملة المؤنثة، وأيضاً ففي تأنيثها تحقيرٌ لها، وتهكُّمٌ بِمَن عَبَدَها).

العاطِفِ تنبيهٌ على أنَّه سبحانه كفايته للكلِّ على السواء، ليس في تلك الكفاية تابع ومتبوع، فإنَّه سبحانه خالقٌ لجميع الجواهرِ والأعراضِ، وجميع الفاعلين وأفعالهم، والنفع والضرُّ ليس ذلك في يد أحدٍ، فبالضرورة يتوكل عليه، ويلزم ذلك على الجميع، فمَن توكل فتوكله ينفعه؛ لأنَّه يُرْضِي به ربَّه، وليس بتوَكُّلِه يتصرُّف فيه الحقُّ، وبتركه يترك التصرف، فهو سبحانه مُتَصَرِّفٌ على أيِّ حالٍ كانوا.

ثُمَّ ﴿ قُلْ ﴾ لَهُم: ﴿يَـٰقَوْمِ ﴾ إذا سمعتُم ما قلتُ لكُم، وما قبلتم قولي فأنتم ﴿ٱعْمَلُواْ ﴾ ما عمِلتُم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ وحالتكم، فإنَّها لا تزيدُ بأعمالِكُم، بل تنقص يوماً فيوماً، ﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ ﴾ كذلك على مكانتي. وحذف ذلك -أعني قوله: (على مكانتي)- تنبيهاً على أنَّ عملَه ﷺ يزيدُ في حالِهِ؛ فإنَّه يزيد نصرتَه يوماً فيوماً، وإنَّكم لم تعلموا ذلك، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ حِين يحيق بكم جزاؤه.

فإنَّكم حينئذٍ تعلمون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ويخذُله، ﴿وَ ﴾ذلك لأنَّه ﴿يَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ حينئذٍ ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائمٌ، يعني: عذاب جهنم، وليس عدم علمهم مِن جهتنا.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ لِتُبَيِّن للناسِ ما يحتاجون إليه بياناً [ملتبساً](1) ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾، فإذا بينتَ لَهُم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ وقَبِلَ بيانك ﴿فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ فإنَّه ينفعُ بذلك نفسَه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ فإنَّ وَبال الضَّرَرِ عليها، ﴿وَ ﴾ليس عليك إلا البلاغ؛ فإنك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ لِتُجْبِرَهم على الهُدى، ولست إلا مذكِّراً؛ فإنه سبحانه قد نصب / الدلائل في أنفسهم وراء ما في الآفاق. [٤١٣/أ]

فلو نظروا فيها لم يُنكِروا؛ إذ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ التي بها حياتُهم، فإنَّه سبحانه يقبضها ﴿حِينَ مَوْتِهَا وَ ﴾ كذا يقبض الأنفسَ ﴿ٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ ﴾ ولكن يقبضها ﴿فِي مَنَامِهَا ﴾، فإنَّ كُلاً مِن الموت والنوم أخوان؛ فإنَّ في كُلٍّ منهما يُقْطَعُ تَصَرُّفُ النفسِ عن البَدَنِ، إلا أنَّ في أحدِهما يُقْطَعُ التَّصَرُّفُ الظَّاهِرِيُّ والباطِنِيُّ، وهو الموت، وفي الآخر

(١) في كلا النسختين بهذا اللفظ ولعل الصواب: [متلبساً]، وقد تكررت في غير ما موضع.

وهو النوم الظاهري فقط، ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ فلا يَرُدُّها إلى بدنها، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ التي هي النائمة إلى البدن، فهو كالبعثِ؛ فذا يقع مِراراً لا يُعَدُّ ولا يُحصى، والمرة الواحدة كافيةٌ لِمَن له عقلٌ وفطانة، ومع ذلك فهم لا يَنتَبِهُون، بل يُنكِرُون البعثَ، وهم ينتبهون على ذلك ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عُيِّن لهم لموتهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التَّوَفِّي والإمساكِ والإرسالِ ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تَعَلُّقِها بالأبدانِ وانقطاعها عنها، فهم يعلمون أنَّها كما تتعلق بعد انقطاع التعلق الظاهري كذلك تتعلق بعد انقطاع التعلق الظاهري والباطني كليهما، فإنَّهما في نفس التعلق سيان، والانقطاع الباطنيُّ ليس بمانعٍ.

أآمنوا وصدقوا مع تلك الدلائل الواضحات ﴿أَمِ﴾ أشركوا و ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ مِن الشركاء؟! ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَ﴾هم [يشفعونكم][1] ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ في هذه الدارِ ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً، فمَن لم يملك في هذه الدار ولم يعقل فكيف يملك الشفاعةَ في تلك الدار التي يتَحَيَّرُ فيها أولُو القُوَى وتذهل فيها العقول، وشركاؤكم جماداتٌ لا ينفعون ولا يضرون في هذه الدار؛ فكيف في تلك؟!.

فإن أجابوك وقالوا: نحن نرجو الشفاعة مِن [الذين هذه الأصنام تماثيلها][2]. فأنت ﴿قُل﴾ لهم: ليس الأمرُ كما زعمتم؛ [فإنَّ][3] ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ دون [مَن][4] سِواه، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا مَن أذِن سبحانه له، وذلك أنَّ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فالكُلُّ في تَصَرُّفِه ومُلْكِه، فلا يملك أحدٌ شيئاً بدون إذنه، ولكنَّكم لا تعلمون؛ فإذا أنتم تموتون ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فحينئذٍ تعلمون.

﴿وَ﴾مع تلك البراهينِ القطعياتِ على التوحيدِ ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾

---

(١) والصحيح أن يقال: [يشفعون لكم].

(٢) في هذه العبارة ركاكة والصواب أن يقال: [من الذين هذه الأصنام تماثيلهم].

(٣) في [ف] بلفظ: [فإنه].

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

وانقبضت ونفرت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ حتى يظهرَ أثرُ ذلك على ظواهرِهم؛ إذ الاشمئزازُ أن يمتلئ غمّاً حتى تنقبض أديم وجهه، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ مِن أصنامهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حتَّى يظهر أثرُ سُرورِهم في ظواهرهم؛ فإنَّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى ينبسط له بشرة وجهه.

فأنت إذا رأيت وعلمتَ ما هم عليه فتَوَلَّ عنهم، [و][1] ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنت خلقتَهم وأفعالَهم وأحوالَهم، إنِّي لا أملك مِن ذلك شيئاً، [يا][2] ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ﴾ تَعْلَمُ ظواهرَهم وبواطنَهم؛ فإنَّك / ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فاحكم بيني وبينهم. [٤١٣/ب]

فإني سأحكم ﴿وَ﴾حينئذٍ ﴿لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾، وكان ذلك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ﴿وَ﴾أنَّهم حينئذٍ ﴿بَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾. ﴿حَاقَ﴾

﴿وَ﴾ذلك بأنهم ﴿بَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ مِن جزاء أعمالهم حين يجزون، ﴿وَ﴾حينئذٍ ﴿حَاقَ﴾ [أحاط][3] ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فإنَّهم كانوا بالبعث والتوحيد استهزؤوا، معَ أنَّهم كانوا يعلمون.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ وحدَه، ونسيَ ما كان يدعو مِن قبلُ مِن الأصنام؛ فذا دليلٌ على عِلمِهم بالتوحيد، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ وأعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ تَفَضُّلاً؛ إذِ التخويلُ هو الإعطاءُ تفضلاً، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنِّي بوجوه الكَسْب، أو كنت عالماً بأني سأُعطاه لاستحقاقي له، أو أعطاني اللهُ لأنَّه علِم مِنِّي أنِّي مُسْتَحِقٌّ لذلك، وليس الأمر كما زعموا، ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ وامتِحانٌ أيشكر أم يكفر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة في [ف].

وهذه[1] قد جرت؛ إذ ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، فإنَّ قارون قال ذلك ورضي به قومُهُ، فإذا نزل بهم العذاب ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ مِن الأمتعة الدنيويةِ؛ فإنَّهم عمِلوا السيئاتِ معَ تلك الأمتعة الدنيوية.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ وجزاؤها، ﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ المشركين فإنَّهم ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ كما أصاب مَن تَقَدَّمهم، وقد أصابهم؛ فإنَّهم قحطوا سبع سنين، وقتل ببدر صناديدُهم، ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فائتين.

﴿ أَ ﴾يقولون ذلك مِن أنّا وآتينا على علمٍ مِن عندنا[2] ﴿ وَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ بِلا كسب منه، ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ لِمَن يشاء! ويفعلُ ذلك مع شخصٍ واحدٍ في أحيانٍ مختلفة، ولو كان ذلك بالعلم منه لم يتغير؛ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأنَّ الحوادثَ كلَّها منه سبحانه.

فالبسطُ والقَدْرُ دليلٌ بَيِّنٌ على ذلك، ولكن المنتفعين بذلك هم المؤمنون، فأنت ﴿ قُلْ ﴾ لهم: إنَّ ربَّكم يقول لكم: إذا آمنتم ووَحَّدتموه ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ﴾ آمنوا بي وإن ﴿ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أيَّ إسرافٍ كان؛ فإنَّ إسرافهم مع الإيمان لا يَضُرُّهم ضرراً كُلِّيّاً، وإن كان لا يخلو عن ضررٍ ما، ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾، فإنَّ إيمانكم ينفعكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ ﴾ مع الإيمان لمن يشاء جميعاً، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾، وذلك لأنَّه هو ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ورحمته وسعت كل شيء. وإنما حملنا على المؤمنين لِعُرف القرآن، فإنَّ ما وقع فيه العبادُ مضافاً إليه تعالى فالمراد هم المؤمنون. روي أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «ما أُحِبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية». فقال رجلٌ: يا رسول الله، ومَن أشرك؟ فسكت ساعةً، قال: «إلا من أشرك» ثلاث مرات[3]. وروي: أنَّ أهل مكة

---

(١) يعني: سُنَّة التكذيب والجحود.

(٢) يمكن إعادة صياغة هذه الجملة كالتالي: (أيقولون ذلك مِن أنّا أوتينا الرزق على علم من عندنا).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٥/٣٧) مِن حديث ثَوْبَان، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤١/٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠/٧): (رواه الطَّبَرَانِيُّ في الأَوسطِ وأحمدُ بنحوِهِ، =

قالوا: يزعم محمدٌ أنَّ مَن عبد الوثن وقتل النفس بغير حق لم يغفر له؛ فكيف / ولم [٤١٤/أ] نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس؟ فنزَلت. وقيل: نزلت في عيَّاش والوليد بن الوليد في جماعة فتنوا. وقيل: في الوحشي قاتل حمزة[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فعلى هذا فالمراد بالعباد: العام، وتقيد في الكافر بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨]، وللإجماع، وفي غيره يبقى على العموم[(٢)]، ﴿وَ﴾لا تَتَّكِلوا على مغفرته سبحانه؛ فإنَّه لم يَعِدْكم أن يغفر لكم جميعاً بلا توبة بل لِمَن شاء؛ فأنتم ﴿أَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ ولا تُمْنَعون من ذلك العذاب.

=

وقال: «إلا مَنْ أَشْرَكَ» ثلاثَ مَرَّاتٍ، وفيه ابنُ لَهِيعَةَ، وفيه ضَعْفٌ، وَحَدِيثُهُ حَسَنٌ). قال شعيب الأرناؤوط في تحقيق مسند أحمد (٤٥/٣٧): (إسناده ضعيف، ابن لهيعة -وهو عبد الله- سيئ الحفظ، وأبو عبد الرحمن الجبلاني منسوب إلى جبلان: بطن من حمير، روى عنه اثنان، ولم يؤثر توثيقه عن أحد، فهو في عداد المجهولين).

(١) قال الواحدي في أسباب النزول (ص: ٣٦٩): (قال ابن عباس: نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوا به، فنزلت هذه الآيات، وكان عمر كاتبا، فكتبها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا، أخبرنا عبد الرحمن بن محمد السراج قال: أخبرنا محمد بن محمد بن الحسن الكازري قال: أخبرنا علي بن عبد العزيز قال: أخبرنا القاسم بن سلام قال: أخبرنا الحجاج، عن ابن جريج قال: حدثني يعلى بن مسلم أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ رواه البخاري عن إبراهيم بن موسى، عن هشام بن يوسف، عن ابن جريج).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (٢٧٠/١٢)، والتحرير والتنوير (٤٠/٢٤).

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ﴾ وهو القرآن، والإضافةُ للبيانِ، أو المراد: العزائم دون الرُّخَص، أو المأمور دون المنهي، أو الناسخ دون المنسوخ، أو المراد: التوبة[1]؛ فإنَّه سبحانه وعد بالمغفرة، ولكن لا ينبغي الاتِّكال عليه فيعصي، بل يتوب ويستغفر ويَعتقد أنَّه سبحانه يغفر لِمَن يشاء بلا توبةٍ سوى الكفر، وإنَّما كان ذلك الذي ذُكر أحسن لأنَّه مِن ربِّكم الذي يُرَبِّيكم بذلك ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ مجيئه لتداركوا.

وإنَّما أنزل ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ ﴾ في يوم الجزاء ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ في حقِّه وفي طاعته، ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ لَمِن المستهزئين بدين الله سبحانه. و(إن) هي المخَفَّفة، (والواوُ) للحال[2]. فإنه لو لم ينْزل القرآنُ لَكان ينبغي أن يكون حسرته حينئذ مُقيِّدة، إذ لا يكون شيء يرد حسرتَه، فإذا أنزل فحينئذ يُقال له: قد عملت بعد ما علمت، فلا فائدة لحسرتك.

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ الشركَ والمعاصيَ؛ فإنِّي لم أعلمه لكي أتقي عنه.

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ ﴾ رجوع إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ في العقيدةِ والعملِ، فإنَّه لو لم ينْزل لكانت تلك الأقوالُ مُقيِّدةً لهم، فلمَّا أنزل قيل لهم حين يقولون تلك الأقوال: لا تقولوا تلك.

وذلك إنَّما يكون لو لم تعلموا، ﴿ بَلَىٰ ﴾ قد علِمتم؛ إذ ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، فلا تُفيد تلك الأقوال، فإنَّه لا طائل

---

(١) قال الماوردي في تفسيره (١٣٢/٥) لهذه الآية: (فيه خمسة تأويلات: أحدها: هو ما أمرهم الله به في الكتاب، قاله السدي. الثاني: أن يأخذوا ما أمر، وينتهوا عما نهوا عنه، قاله الحسن. الثالث: هو الناسخ دون المنسوخ، حكاه ابن عيسى. الرابع: هو طاعة الله تعالى في الحرام والحلال، قاله ابن زياد. الخامس: تأدية الفرائض، قاله زيد بن علي، ومعاني أكثرها متقاربة. ويحتمل سادساً: أنه الأخذ بالعزيمة دون الرخصة).

(٢) قال النيسابوري في تفسيره (١١/٦): (إن مخففة، واللام فارقة، والواو تحتمل العطف والحال).

لكم فيها.

أو يكون قوله: ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ متعلقاً بقوله: (اتبعوا)، يعني: اتبعوا القرآن لِئلا تقولوا تلك الأقوال التي لا تُفيدكم، فإنَّ أهل النار سيقولون تلك الأقوال تَحَيُّراً وتَعَلُّلاً.

﴿ وَ ﴾ليس لهم اليوم أمارةٌ يعرفُ بها كلُّ مَن رآه، بل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتِّخاذ الولد والشريكِ ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ لِما ينالهم مِن الشِّدَّة، أو بما تخيل عليهم مِن ظلمة الجهل؛ فإنَّ تلك الظلمة يعرفها في ذلك اليوم كل أحد، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الإيمان والطاعة، فكيف / لا يرون كذلك. [٤١٤/ب]

﴿ وَ ﴾إنَّما ﴿ يُنَجِّى ٱللَّهُ ﴾ عن ذلك ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ وفلاحهم؛ فإنَّهم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ أصلاً، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما قالوا.

والسوء كيف يمسهم وهم آمنوا بربِّهم! وهو ﴿ ٱللَّهُ ﴾ الذي هو ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فكيف يخلق فيهم السوء! ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يَتصَرَّفُ فيه دون غيره.

إذ ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ومفاتيحها، فلا يظهر في العالم شيءٌ بدون إذنه. ورُوِي عن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّه سأل النبيَّ ﷺ عن المقاليدِ، فقال: (تفسيرُها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير)[1]. فالمعنى: أنَّ له سبحانه مقاليدَ أعطاها الذين اتقوا ليستنْزِلوا بها بركات السماء، ويستخرجوا بها بركات الأرض، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ لا نجاةَ لهم، ولا بركات، ولا حظَّ لهم من الرحمة.

قل لهم: أتعلمون أوصافَ الله سبحانه ورحمته على مَنِ اتَّقاه! ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ

(١) رواه الطبراني في كتابه الدعاء (ص٤٨٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٦٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/٤٦)، وقال ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٠١): (وهو غريب وفيه نكارة شديدة).

تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ قوله: ﴿ غَيۡرَ ٱللَّهِ ﴾ مفعولٌ لقوله: ﴿ أَعۡبُدُ ﴾، قُدِّم للاهتمام في الإنكار. وقوله: ﴿ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ ﴾ جملة معترِضة.

﴿ وَ ﴾ذا ليس مخصوصاً بك، بل ﴿ لَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ مِن الرُّسُلِ أن يقولوا: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ ﴾ أيُّها الجاهلُ[1] ﴿ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ الذين بلغوا في الخسران، وهو كلامٌ على الفرضِ والتقديرِ لتهييج الرسلِ، وإقناط الكفرة، والإشعار على حكم الأمة.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ إنعامَهُ عليك.

﴿ وَ ﴾الذين أشركوا ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ ﴾، ولم يعرفوا عظمته حتى أشركوا به، ﴿ وَ ﴾كيف يُشرِكون به سبحانه وهو القادِرُ الذي لا تُتَصَوَّرُ قُدرته لأحدٍ؛ إذ ﴿ ٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾، والمراد بهذا الكلام: تمثيل لعظمته[2]، ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

﴿ وَ ﴾الذي ذُكِرَ مَن أنَّ الأرض قبضته وغيرِه لا يكون تدريجاً[3]، بل ﴿ نُفِخَ

---

(١) في قول المؤلف: (أيها الجاهل) لعله يقصد به المخاطَبين من قبل في قوله: (أيها الجاهلون) وهم المشركون، لكن الصواب أن المخاطَب بهذه الآية هو النبي محمد ﷺ ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام، تحذيراً لهم من الشرك. انظر: تفسير الطبري (٣٢٢/٢١)، وتفسير الإيجي (٥١٤/٣). وقال الشربيني في كتابه السراج المنير (٤٥٩/٣): (فإن قيل: كيف صحَّ هذا الكلامُ مع علم الله تعالى أنَّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ أجيب: بأنَّ قوله تعالى: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ قضية شرطية، والقضية الشرطية لا يلزم مِن صدقها صدق جزائها، ألا ترى أن قولك: لو كانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين، قضية صادقة مع أنَّ كل واحد مِن جزأيها غير صادق، قال تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]).

(٢) تأوَّل المؤلفُ قبضة الله للأرض وطيَّ السماوات بيمينه بالعظمة، على عادة الأشاعرة في تأويل صفات الله ﷻ، وهذا مُخالِفٌ لظاهر نصوص الكتاب والسنة؛ لأنَّ هذه الصفات ثابته لله ﷻ حقيقةً على ما يليق به سبحانه، ولا يعرف كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى. انظر إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (ص: ٢٧٤).

(٣) في كلام المؤلف هنا غموض، ولعله يقصد بقوله: (لا يكون تدريجاً) أنَّه ينفخ في الصور ثم يكون ذلك، والذي في الصحيح أن ذلك يوم القيامة وهذا يوحي أنه بعد بعث الناس.

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ في المرَّة الأولى ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾، قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل؛ فإنَّهم يموتون بعد[1]. وقيل: حملة العرش[2]. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي: في الصور نفخة ﴿أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ يُقَلِّبون أبصارهم كالمبهوتين، أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَ﴾في ذلك اليوم ﴿أَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل[3]؛ إذ به يزين البقاع، ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الحسابُ والجزاءُ، ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ للأممِ وعليهم من الملائكة والمؤمنين. وقيل: هم المستشهدون في سبيل الله[4]. ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ بين العباد، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ نقص ثوابٍ، أو زيادة عقاب على / ما جرى به الوعدُ. [٤١٥/أ]

﴿وَ﴾حينئذ ﴿وُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ جزاؤه، ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ فلا

---

(١) قال ابن الجوزي في تفسيره (٣/٣٧٢): (وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الشهداء، قاله أبو هريرة، وابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم إنَّ الله تعالى يميتهم بعد ذلك، قاله مقاتل. والثالث: أنَّهم الذين في الجنة من الحور وغيرهن، وكذلك من في النار، لأنَّهم خُلِقوا للبقاء، ذكره أبو إسحاق بن شاقلا مِن أصحابنا).

قال القاسمي في تفسيره (٨/٢٩٦): (﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ أي: مِن خواصِّ الملائكة، أو من الشهداء، روي ذلك عن بعض التابعين. وقال قتادة: قد استثنى الله، والله أعلم إلى ما صار ثنيته. وهذا هو الوجه؛ إذ لا يُصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/٣٠٢٨) عن كعب الأحبار.

(٣) وهذا أيضاً مِن التأويل الذي وقع فيه المؤلف؛ حيثُ أَوَّل نور الله إلى العدل، ولا شكَّ في أنَّه مُخالِفٌ لظواهر نصوص القرآن والسنة. قال صاحب كتاب توضيح المقاصد شرح الكافية الشافية (٢/٢٤٠): (قال النَّاظِم في الصَّواعق المرسلة: قد ورد النَّصُّ بِتَسْمِيَة الربِّ نوراً، وَبِأَنَّ له نوراً مُضافاً إليه، وبأنَّه نورُ السَّماوات والأَرضِ، وبأَنَّ حجابه نوره؛ فهذه أربعةُ أَنْوَاعٍ).

(٤) قال ابن الجوزي في تفسيره (٤/٢٦): (وفي الشهداء قولان: أحدهما: أنهم الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قاله الجمهور. والثاني: أنهم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، قاله قتادة، والأول أصحُّ).

يفوتُه شيءٌ مِن عملهم، فيجزيهم على ذلك.

﴿وَ﴾لَمَّا فرغ مِن الحساب ﴿سِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجاً متفرقةً، بعضها إثر بعض على حسب ضلالتهم. جمع زمرة، واشتقاقها من الزمر(1)، وهو: الصوت، إذِ الجماعة لا تخلو عنه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليدخلوها، ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ مِن جنسِكم، ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ وهو وقت دخولهم النار؟! ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهو الحُكمُ عليهم بالشَّقاوة، وأنَّهم مِن أهل النار.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ وكانوا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ تلك.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿سِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ على تَفاوُتِ مراتبِهم في الشَّرَفِ والفضلِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ فأُكرِموا إكراماً لا يُكتنه(2)، ﴿وَ﴾قد ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، وفيه تنبيهٌ على أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم إكراماً لهم، ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ مِن الآفات والمكروهات؛ فإنَّكم ﴿طِبۡتُمۡ﴾ وطُهِّرتم مِن أدناس المعاصي [﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾](3)، وكونوا ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها. وفي الفاء

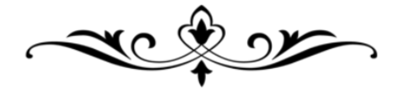
---

(1) قال صاحب الصحاح (٢/٦٧١): (الزمر: الجماعة مِن الناس. والزمَرُ: الجماعات. والزَمِرُ: القليل الشعَرِ، والقليل المروءة. وقد زَمِرَ الرَجُلُ زمراً. والزمار بالسكر: صوت النعام).
قال الماوردي (٥/١٣٧): (فيه أربعة أوجه: أحدها: أفواجاً، قاله الحسن. الثاني: أمماً، قاله الكلبي. الثالث: جماعات، قاله السدي. قال الأخفش: جماعات متفرقة، بعضها إثر بعض واحدها زمرة. الرابع: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار، ومنه قولهم: مزامير داود).
(2) قال صاحب الصحاح (٦/٢٢٤٧): (كنه الشئ: نهايته. يُقال: أَعْرِفُهُ كُنْهَ المعرفة. ووقتُ الأمرِ: كُنْهُهُ أيضاً، ولا يُشتقُّ منه فعلٌ. وقولهم: لا يَكْتَنِهُهُ الوصفُ، بمعنى: لا يَبلغ كُنْهَهُ، أي: قدره وغايته. كلام مولد).
(3) في [ع] بلفظ: (فادخلوا).

إشارةٌ إلى أنَّ دخولهم بسبب طيبهم، والعاصي إذا [عُفي][(١)] فقد طهر.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب، فشكروا على ذلك، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الجنة، وهي المنازل التي جُعِلَت للكافرين، على تقدير أن يُسلموا. فجَعَلَنا ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ في أيِّ مكانٍ [شئنا][(٢)]، فإذا كان ذلك أجرهم ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ الجنة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ مُحْدِقِين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾، وفي كلمة: ﴿مِنْ﴾ التي هي للابتداء، تنبيهٌ على كثرتهم، حتى كانوا ابتدأ[(٣)] الحفوف مِن قريب العرشِ حتى لا يلزم التَّحَكُّم بلا غاية. وهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُلتبسين بحمده، وفيه إشعارٌ بأنَّ منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو التسبيح والاستغراق في صفات الحق، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بإدخال البعضِ في النارِ، والبعض في الجنة، أو بين الملائكة بإقامتهم، أو [في][(٤)] منازلهم على حسب تفاضلهم[(٥)]، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ على ما قضى بينهم بالحق.



(١) كذا في النسختين ومعناها (إذا عُفي عنه)

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة في [ف].

(٣) الصحيح أن يقال: (حتى كان ابتداء الحفوف).

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة في [ف].

(٥) قال القشيري في تفسيره (٣/٢٩٣): (وقضي بين أهل الجنة وأهل النار بالحقِّ، لهؤلاء دركات ولأولئك درجات.. إلى غير ذلك من فنون الحالات، وقضي بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أراده الحقُّ في عباداتهم).

(سورة المؤمن)

سورة المؤمن مكية[1].

وآيها خمس أو ثمان وثمانون[2].

سميت بذلك إذ ذُكر فيها قصة مؤمن آل فرعون[3]، وقوله الذي يدل على أنَّه ينبغي للعاقل أن يؤمن، فإنَّ الإيمان لا يضُرُّ على تقدير عدم البعث والنشر، والكفر يضُرُّ على تقديره، فالاجتناب عن مظنات الضرر واجب، وهو قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] فهذه السورة / بل جميع القرآن مسوقة لذلك. [٤١٥/ب]

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ﴾ المؤلَّف مِنها ومِن أمثالها هذه السورة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنَزل إليك من -الكتاب الجامع الكامل- هو[4] ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الكامل علمه[5]. فهذا الكتاب مشتمل على الحِكَم التي

---

(١) قال ابن الجوزي (٤/٢٩): (وهي مكية! قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة. وحُكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آيتين نزلتا بالمدينة: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والتي بعدها. قال الزجاج: وذكر أن الحواميم كلها نزلت بمكة).

(٢) قال الداني في البيان (ص٢١٨): (وهي ثمانون وثنتان في البصري، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس في الكوفي، وست في الشامي؛ اختلافها تسع آيات).

(٣) وعرفت باسم سورة غافر في المصاحف وكتب التفسير، ومن أسمائها كذلك: سورة حم المؤمن، المؤمن، وسورة الطَول، وسورة حم الأولى. انظر: أسماء سور القرآن الكريم للدكتور محمد الشايع (ص١٢٧).

(٤) في [ف] سقط لفظ: (هو).

(٥) في [ف] سقط لفظ: (علمه).

[هي][1] عَلِمَها سبحانه.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ فيغفر لِمَن عمِل على ذلك الكتاب، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ فيقبل توبةَ أهله، فإنَّهم يتوبون كما ينبغي، مع أنه موصوفٌ بوصفِ ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، ومعَ ذلك موصوف بوصفِ ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ والفضل، فإنَّه سبحانه في تعذيبِه ذو فضلٍ؛ إذ تعذيبُ الكافرين فضلٌ على المؤمنين الذين هؤلاء أعداؤهم.

ووَسَّط (الواوَ) بين الغافرِ والقابلِ تنبيهاً على تغايرهما[2]؛ إذ ربما يُتَوَهَّمُ الاتحادُ.

أو المراد الإشارة إلى الجمع بين كِلا الأمرين: المغفرة وقبول التوبة، فإنَّه إذا تاب العبدُ غُفِر الذنب، وتُجعل توبته طاعةً مِن الطاعات فيُثاب عليه.

أو المراد الإشارة إلى التغاير، فإنَّ الغفران لِمَن لم يتبْ، فيستر ذنبه مع كونه باقياً، ولكن لا يظهر أثره، وأمَّا التائب فهو كالذي لم يُذنِب أصلاً، ففضله أكثر[3].

أو يقال: إنَّ المعنى: لله سبحانه معَ عزته وغلبته على كل شيء عليم، إنما يفعل ما يقتضيه استعداد ذلك الشيء، ومع علمه غافر الذنب، فإنَّ العلم يقتضي أن يعذب مَن خالفه، فهو سبحانه يغفر لمن يشاء بلا توبة، ويقبل توبة مَن تاب، ومع الغفران وقبول التوبة يعاقب عقاباً شديداً لِمَن شاء؛ فإنَّ الغفران يقتضي أن لا يعذب ذلك العذاب، ولكنه بمقتضى الحكمة يُعَذِّب كذلك إن شاء، وكانت شِدَّة العقاب تقتضي أن لا يتفضل ولا يترك العقاب، ولكنَّه سبحانه يترك ذلك، والكل بمقتضى الحكمة. فقد ظهر بما ذكرنا وجهَ ترك الواو فيما تُرِك، وذكره فيما ذُكر، فهو الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، فيجب الإقبال بالكلية إليه سبحانه، ومع ذلك ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ فهو يجازي على العبادة وتركها.

وكانت أُلوهيته اقتضت العبادة فضلاً إذا كان يجزي عليها، وذا لا ريب فيه؛ فإنه

---

(١) هكذا وردت في كلا النسختين والأصوب حذفها.
(٢) وقد ذكر هذه المعاني الرازي في تفسيره انظر (٤٨٥/٢٧).
(٣) وقد ذكر هذه المعاني البيضاوي في تفسيره (٥١/٥).

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ومجادلتهم باطلة، فإنهم يجادِلون بلا دليل، بل بلا شبهة، وهم سيُجْزَون على ذلك ولا يُمْهَلون، ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ للتجارات والتغلب عليها؛ فإنَّهم سيُؤخذون عن قريب كما أُخذ مَن قبلهم.

فإنَّه ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ ﴾ الذين تحزَّبوا على رُسُلِهم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ -قوم نوح- كعاد وثمود، ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ ﴾ ليأخذوا رسولَهم، ويؤذوه بالتعذيب والقتل، ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ بما لا حقيقةَ له كما جادل قومُك ﴿لِيُدۡحِضُواْ ﴾ وليزيلوا ﴿ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ ﴾ بأن أهلكتُهم جزاءً على ما فعلوا، ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ / فإنَّكم تمرون على ديارِهم، وترون آثاره. [٤١٦/أ]

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ التعذيبِ ﴿ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ وقضاؤه أو وعيده[1] على الذين كفروا جميعاً، وتلك الكلمة ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فلا جرمَ أنَّ مَن يُكَذِّبونك يكونون كذلك، وإنَّما الذين يكفرون بربِّهم ويُكَذِّبون رسلَهم هم السفليون مِن الثقلين.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾ مِن الكروبين[2] أعلى طبقات الملائكة، ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾ مِن جميع الملائكة المدبرين لأمر العالم العلوي والسفلي ﴿يُسَبِّحُونَ ﴾ ويُنَزِّهون عمَّا لا يليق به تعالى، ويذكرون اللهَ سبحانه بمجامع الثناءِ مِن صفات الجلال والجمال، مُتلَبِسين ﴿ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾، فيشكرونه سبحانه على ذلك. أو يقال: إنَّ التسبيح هو الحمد[3]؛ لأنَّه الثناء على الجميل، فالتسبيح فردٌ مِنه، إلا أنَّه جعل التحميدَ حالاً؛ إذ التسبيح

---

(١) انظر: تفسير ابن الجوزي (٣٣٠/٢).

(٢) روى الطبريُّ في تفسيره (٥٢٨/١٨)، عن قتادة، عن عمرو البكالي، قال: إنَّ الله جزَّأ الملائكة والإنس والجنَّ عشرة أجزاء؛ فتسعةٌ منهم الكروبيُّون، وهم الملائكة الذي يحملون العرش، ثم هم أيضاً الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون. قال: ومَن بقي مِن الملائكة لأمر الله ووحيه ورسالته، ثم جزَّأ الإنس والجن عشرة أجزاء، فتسعة منهم الجن، لا يولد مِن الإنس ولد إلا ولد مِن الجن تسعة، ثم جزأ الإنس على عشرة أجزاء، فتسعة منهم يأجوج ومأجوج، وسائر الإنس جزء.

(٣) قال الطبري في تفسيره (٤٧٢/١): (وكلُّ ذِكر لله عند العرب فتسبيحٌ وصلاة. يقول الرجل منهم: قضيت سبحتي مِن الذكر والصلاة. وقد قيل: إنَّ التسبيح صلاة الملائكة).

أصلٌ، فإذا سبَّحوا عُلِم أنَّهم يحمدونه ويثنونه[1]، فالحمد مقتضى حالهم، ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ وبتوحيده، فكلُّهم مؤمنون، وأمَّا السُّفليون فمنهم مؤمنون ومنهم كافرون، فالمؤمنون هم أخوة العليين مِن الملائكة، ﴿وَ﴾لذا هم ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أداءً لحقِّ الأُخُوَّة، وفيه تنبيهٌ على أنَّ على المؤمنين أن ينصحوا ويستغفروا فيما بينهم.

وفي هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أن العُلويين والسُفليين في القُرب منه سبحانه على السواء؛ فإنَّ كلهم يؤمنون به.

والمراد بالاستغفار هي: الشفاعة[2] وإلهامهم[3] بما يُوجِب مغفرتهم مِن التوبة والأعمال الصالحة، فيقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ إنَّك ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ فرحمتُك سبقت غضبك، وقد علمتَ أنَّهم آمنوا بكَ، وفعلوا ما لأجله خلقتَهم، فرحمتُك تقتضي بالذَّات أن ترحمَهم، وعِلمُك فيهم مما يقتضي الرحمةَ قد قوَّى ذلك المقتضي، ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ وعلمتَ منهم التوبة، ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ وعمِلوا ما أمرتَهم، واجتنبوا عمَّا نهيتهم، فاغفر ما فرَط منهم، ﴿وَقِهِمۡ﴾ واحفظهم ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ بعد أن تغفِر لهم ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ إقامته ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ إيَّاها، ﴿وَ﴾ألحِق بهم ﴿مَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ وإن كانوا مُقَصِّرين في الأعمالِ؛ وذلك لِيَتِمَّ سرورُهم. ويمكن أن يكون قولُه: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ عطفاً على (هم) في ﴿وَعَدتَّهُمۡ﴾ فيكون بياناً لعموم وعده سبحانه. ﴿إِنَّكَ أَنتَ

---

(١) قال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٥/٢٢٨): (والتحميد مقرون بالتسبيح، وتابع له ... وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد، والأخرى بالتعظيم، فإنَّا قد ذكرنا أنَّ التسبيح فيه نفيُ السوءِ والنقائصِ المتضمن إثبات المحاسن والكمال، والحمد إنما يكون على المحاسن).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/٧٤)، وتفسير الزمخشري (٤/١٥٣).

(٣) لم أجد في كتب المفسرين مَن فسَّر الاستغفار بإلهام الملائكة للمؤمنين بالاستغفار والتوبة، وإنَّما الإلهام والهداية مِن الله سبحانه. وهذا قولٌ مرجوح؛ لأن الاستغفار مفسر بما بعده في قوله تعالى: (فاغفر للذين تابوا) الآية، ولا يستقيم تفسيره بالشفاعة إلا إن حُمل ذلك على يوم القيامة، أما في الحياة الدنيا فلا يستقيم المعنى إلا بالاستغفار المعهود، ويشهد له ما في السياق في قوله تعالى: (وقهم السيئات) الآية. والله أعلم.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب على كلِّ شيءٍ؛ فلا يعسُر عليك شيءٌ مِمَّا نسألك، مع أنك أنت ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، والحكمةُ تقتضي إيفاءَ الوعد، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ للداعي أن يدعوَ ويَتَوَسَّل بأسمائه التي تقتضي الإجابةَ من يبالغ في دعائِه كما بالغوا.

ربَّنا ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فالمراد بالسيئات: إمَّا العقوبات، أو جزاء الأعمال السيئات على حذف المضاف[1]، وهذا الذي ذكر مِن استغفارِهم ودعائهم كان لآخرتِهم، ﴿وَ﴾هم يستغفرون / لدنياهم أيضاً، فيقولون: ربنا إنَّك ﴿مَن تَقِ﴾ وتحفظ الأعمال ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ في الدنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ رحمة عظيمةً؛ إنَّ الأعمال السيئات أسبابٌ للعقوبات، فإذا حفظتَهم عن أسباب العقوبات فقد بالغتَ في الرحمة. ويمكن أن يكون المرادُ بالسيئات ما أريد بالأولى؛ فيكون المعنى: ربَّنا إنَّ رحمتك الكاملة هي أن تحفظ عن العقوبات في الآخرة، فإنها هي الغاية القصوى، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. [٤١٦/ب]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بربِّهم لا يعلمون، ولكنهم سيعلمون؛ ﴿يُنَادَوْنَ﴾ ويُقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ عليكم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ التي أَمَرَتْكم بالأفعالِ التي دخلتم بها في النارِ، فإنَّه قد مقت الله عليكم ﴿إِذْ﴾ كنتم ﴿تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ في الدنيا ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾، فقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مُتَعَلِّق بمحذوف، ولا يجوز أن يتعلق بالمقت الأول؛ لأنَّه قد أخبر عنه وتَمَّت الجملة، ولا بالمقت الثاني؛ لأنه يكون في الآخرة لا في الدنيا[2]. ويمكن أن يكون المراد بالمقت هو (التضييع)[3]؛ فيكون المعنى: إنَّكم ضيعتم أنفسكم؛ إذ دُعِيتم إلى الإيمان بربِّكم وأنتم كفرتم به. فيكون مِن قبيل قولهم: (الصيفَ ضيعتِ اللَّبَن)، فإنَّه يُقال لِمَن كان متوجهاً إليه لفائدةٍ، ثم ضاع عنه ذلك وصار بلا فائدة. يعنون: أنَّك ضاع لبنُك في

---

(١) وذكر هذين المعنيين السمعاني في تفسيره (٥/٨).

(٢) ذكر بعض النحويين أن ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ متعلق بـ(مقت الله). انظر: الحجة للقراء السبعة للحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٥/٢٢٦)، والإعراب المحيط من تفسير البحر المحيط للدكتور ياسين جاسم المحيميد (٦/٢٩٢).

(٣) لم أجد في كتب المفسرين مَن فسَّر المقت بالتضييع.

الصيفِ، وصرت ذا الحين بلا فائدة، فكذا هنا؛ فإنَّ الجزاء باعتبار الأعمال التي عملت الأنفس، وهي قد ضاعت في الدنيا، فالمعنى: لَتضييعُ اللهِ إيَّاكم أكبرُ مِن تضييعكم، فإنَّه كان يمكنكم أن تتداركوا ذلك التضييع في الدنيا، وأمَّا تضييع الله إيَّاكم فليس له التدارك.

فتضرَّعوا و﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ إماتتين؛ بأن خلَقنا وكُنَّا أمواتاً، ثم صيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا، ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾: الحياة الأولى والثانية البعث، أو الإماتة الأولى عند انصرام الأجل والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال[1]؛ فالحياتان ما في القبر والمبعث، إذ المقصود اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا، كما يدُلُّ عليه قولهم: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ التي أذنبناها في الدنيا، ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ﴾ من العذاب ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾ طريقٍ فنسلكه، وإنَّما يقولون ذلك تعلُّلاً وتحيُّراً.

فيُقال: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾ وأُمِرتم بتوحيده فأنتم ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ به، ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ بالإشراك وقبلتموه، ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ المستحق للعبادة الذي أنتم تركتم عبادتَه، فحكم بعذابكم السرمديِّ؛ فإنَّه هو ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ مِن أن يُشرَك به، ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ الذي لا عُدول عن حكمه.

وهو سبحانه قد كان لَم يُهمِلكم في دنياكم بلا نصبِ أدِلَّةٍ، فإنَّه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّة على التوحيد والبعث آيةً بعد آية، ﴿وَ﴾مِن تلك الآيات / أنه [٤١٧/أ] سبحانه ﴿يُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ أسباب رِزقكم، وذا يَدُلُّكم على التوحيدِ كما مَرَّ مِراراً، وأيضاً يدلُّ على البعثِ، فإنَّه يحيي الأرض بعد موتها، ﴿وَ﴾لكن ﴿مَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات التي رُكِزَت في العقول ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجِع عن الإنكارِ بالتفكُّرِ في الآيات التي نُصِبَت.

فأنتم إذا سمعتم -أيُّها المؤمنون- ما ذُكِر لكم ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ أنتم ﴿ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الذي أمركم سبحانه بذلك الدين، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) ذكره السمعاني في تفسيره (٩/٥) عن السدي.

وذلك[١] فإنَّهم لا يستطيعون أن يضرُّوكم؛ إذ الذي تؤمنون به وتُخْلِصون له ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾، لا يظهر في هذا العالم ما يظهر إلا بتوسُّط عرشه وتدبيره من ذلك[٢]، فلا يُخافُ مِن أحدٍ سِواه، ولا يُعْلَم ما ذُكر أحد إلا بإعلامه، فإنَّه ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ وإرادته ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، فكلُّ مَن في السماوات والأرض مُسَخَّرون لأمره، وإنما يوحي إلى مَن يشاء ﴿لِيُنذِرَ﴾هُم ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ الذي فيه تتلاقى الأرواحُ والأجسادُ، وأهلُ السماء وأهلُ الأرض، والمعبودون والعابدون، فكلُّهم يجتمعون في ذلك اليوم.

أعني: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ خارجون عن قبورهم، أو يكونون ظاهرين[٣] لا يسترهم شيءٌ، أو يظهر أعمالهم وسرائرهم؛ فهو سبحانه يجزيهم في ذلك اليوم، ﴿لَا[٤] يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ مِن أعيانهم وأحوالهم وأعراضِهم، ففي ذلك اليوم إذا سأل سائلٌ وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؟ فيجيبه كلّ مَن سأله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

ففي ذلك اليوم يظهر ذلك لكلٍّ منهم، فيُقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ مِن الخير والشرِّ؛ إذ ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾، ولا يبقي الظلمُ الذي كانوا ظُلِموا بذلك الظلم في الدنيا، [و][٥] لا ظلم في الجزاءِ بنقص الثواب وزيادة العقاب، ولا يعسر عليه سبحانه جزاؤهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، فيَصِلُ إليهم ما يستحقونه[٦].

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ مِن جزاء أعمالهم ومِن الحسابِ عليها ﴿يَوۡمَ﴾ القيامة

---

(١) في [ف] بلفظ: (ذلكم).

(٢) في هذه الجملة غموض، ويقصد المؤلف أن مكان تدبيرها جميع الأمور يكون من العرش (وقد يشير إلى أن ذلك بسبب الملائكة لأن منهم حملة العرش عليهم السلام) وقد تكررت هذه العبارة عنده في غير ما موضع، ولم أجد من قال بذلك، وفي تعيين ذلك نظر، والله أعلم.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠/٢٩٧).

(٤) في [ف]: (إذ لا).

(٥) في [ف] بلفظ: [أو].

(٦) انظر: تفسير البيضاوي (٥/٥٤).

﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ القريبة، أعني: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ كأنَّها ترتفع عن أماكِنها، فتلتصق بحلقومهم، فلا تعودُ فيَترَوَّحوا، ولا تخرج فيستريحوا، ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الغمِّ، وذلك لأنه ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٍ﴾ قريب مُشفِقٍ، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ مُشفَّع.

وهو سبحانه ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ النظرة الخائنة؛ كالنظرة الثانية إلى غير الْمَحْرَم[(١)] ﴿وَمَا تُخۡفِي﴾ مِن الضمائر.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ فيما بينهم، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿يَدۡعُونَ﴾ في الدنيا من شركائهم ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾؛ فإنَّهم لا يقدِرون على ذلك. أو المراد: واللهُ يقضي في الدنيا بالأحكام الشرعية بالحقِّ[(٢)]، فإنه يحكم كما ينبغي، وآلهتهم لا يقضون ولا يحكمون / بشيءٍ لا بالحق ولا بالباطل؛ لأنها جماداتٌ، والحاكم لا بُدَّ وأن يكون سامعاً بصيراً ليحكم كما ينبغي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ فيسمع أقوالَهم، ويبصرهم على ما هم عليه؛ فيحكم عليهم بمقتضى ذلك. [٤١٧/ب]

﴿أَ﴾يكفرون بذلك الحاكم السميع البصير ﴿وَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كعاد وثمود، ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ قُدرةً وتمكُّناً ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن القلاع والمدائن الحصينة، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ مِن كفرهم وتكذيبهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ حفيظٍ يمنع العذاب عنهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذابُ ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات والأحكام الواضحة، ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾ على ما يريدُه ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، لا يقدر أحدٌ أن يُعاقِب مثلَ عقابِه.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ إلى مَن قبلهم رسلنا، فأرسلنا ﴿مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المعجزات الباهرات ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ مِن الدلائل العقليات، أو المراد به العصا تفخيماً

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (٥٥٣/٤).

(٢) لم أجد في كتب المفسرين هذا المعنى.

لشأنه، أو المراد هي الآيات، والعطف لتغاير الوصفين[1].

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ ﴾ فكذَّبوه، وإذا لم يكن لهم أن يُعارضوا تلك الآيات، ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾، فلِكمال سحرِهِ لا نستطيع أن نُعارضه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي اقتضى أن يُؤمنوا بِهِ؛ لأنه[2]﴿مِنْ عِندِنَا ﴾ لَم يؤمنوا به، عادوا معَ من آمنوا به، و﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ فأَعِيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم، لكي يصدُّوا عن مظاهرة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يقتلوهم أنفسهم لأنهم كانوا يخدمونهم، فتركوهم أحياءً، وكادوا، ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ وضياع[3].

﴿وَ ﴾ضاع كيدُهم، فلم يضرُّوا بموسى وقومه، وكانوا شاوروا فيما بينهم أن يقتلوا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقالوا: إن قتلناه يظنُّ الناسُ أنَّهم عجزوا عن المعارضة بالحُجَّة، وهو ليس الذي تخافه[4]، بل هو ساحر. فلمَّا ظهر أمرُه يوماً فيوماً ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ ﴾ اتركوني ولا تمنعوني ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَ﴾ قولوا له: ﴿لْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ فإنِّي لا أُبالي بذلك، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتلْه ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ بالكُلِّيَّة، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ فإنَّه إن لم يقدر على تغيير دينِكم بالكلية فإنَّه يُحارب معكم[5] لكثرة قومه وأتباعه يوماً فيوماً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لَمَّا سمِع كلامه: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ الذي هو ربي، فكذلك استعيذوا أنتم به؛ ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ فإنَّه إنَّما يُريد الأذى بكم لِعدم إيمانه بذلك اليوم، فربُّنا يكفينا مِن شرِّه.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٥/٥٥).

(٢) في [ف] بلفظ: (بل لأنه).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري (٤/١٦٠)، وتفسير البيضاوي (٥/٥٥).

(٤) كذا في المخطوط ولعل صوابها : [وهو الذي نخافه] وبه يستقيم الكلام.

(٥) والصحيح أن يقال: (يحاربكم).

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تظاهر الأرواح يستجلب الإجابة[1].

﴿وَ﴾لَمَّا اشتهر ذلك فيما بينهم / مِن أنهم يريدون قتله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مِن أقاربه. وقيل: إنه كان أيضاً إسرائيلياً[2]، وقوله: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾[3]. وقيل: كان عربيّاً مُوَحِّداً يكتم إيمانه منهم[4]، ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾ تقصدون قتلَه ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ دون مَن سواه، ﴿وَ﴾لا يُوجِب ذلك القولُ أن تقتلوه وإن لم يُورِد على ذلك دليل، فإنَّه ليس في ذلك أذىً لكم، على أنه ﴿قَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الكثيرة الواضحات الدالَّة على صدقه، وكيف تقصدون قتله مع أنَّها تدل على أنها ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾ الذي ربَّاكم بتلك البينات! ﴿وَ﴾ما لكم لا تؤمنون به فإنه ﴿إِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطَّاه وبالُ كذِبه، فلا تحتاجون في دَفْع الوبال إلى قتله، ﴿وَ﴾ذلك الرجل ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ إن لم يصبكم جميعُه. وفيه إظهارٌ للإنصافِ وعدمِ التعصب؛ فقدَّم كونه كاذباً، وقال: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾، ولم يقل: جميع ما يعدكم. ويمكن أن يكون المراد: عذاب الدنيا[5] فإنَّه بعضُ ما خوَّفكم به، فإنَّه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خوَّفهم مِن عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فخوَّفهم بما هو أظهر احتمالاً

[٤١٨/أ]

---

(١) في هذه الجملة شيء من الغموض ولعل مقصود المؤلف أن كثرة الدعاء والداعين على المتكبرين مظنةٌ للإجابة، وذلك في دعاء موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ فتظاهر أرواح المستعيذين باجتماع قلوبهم وألسنتهم بالاستعاذة والدعاء مظنة الإجابة، والعلم لله.

(٢) رواه الطبري (٣١١/٢٠) عن السُّدِّيِّ، ورجَّحه.

(٣) قال الرازي في تفسيره (٥٠٩/٢٧): (لفظ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿مُّؤۡمِنٌ﴾، أي: كان ذلك المؤمنُ شخصاً مِن آل فرعون، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، والتقدير: رجلٌ مؤمِنٌ يكتم إيمانه مِن آل فرعون. وقيل: إنَّ هذا الاحتمال غير جائز لأنه يقال كتمت مِن فلان كذا، إنما يقال: كتمته كذا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٤٢]). وانظر: تفسير البيضاوي (٥٦/٥)، وتفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١٣/٤).

(٤) لم يذكر أحد من المفسرين المتقدمين غير المؤلف هذا الوصف (أنه عربي)، وذكره من المتأخرين صاحب كتاب روح البيان إسماعيل الخلوتي (١٧٧/٨).

(٥) انظر: تفسير السمعاني (١٧/٥)، وتفسير ابن عطية (٥٥٦/٤)، وتفسير ابن كثير (١٤١/٧).

عندَهم؛ فإنَّ عذاب الدنيا أخوف عندهم، وأنتم لا تحتاجون إلى قتل ذلك الرجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، وهو إن كان كاذباً فيما يدَّعيه فهو سبحانه يهلكُه، وإلا فهو سبحانه يهلككم. وفي قوله: ﴿كَذَّابٌ﴾ بصيغة المبالغة إشارةٌ إلى أن الكذب عليه سبحانه كذِبٌ كثيرٌ وإن قَلَّ.

﴿يَٰقَوْمِ﴾ لا تغْتَرُّوا بما ﴿لَكُمُ﴾ في هذه الدار؛ إذ هو ﴿ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فصرتم ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين به ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي أنتم فيها، وهي أرض مِصر، وهو أقلُّ قليلٍ بالنسبة إلى ملكه سبحانه، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ فلا يمنعنا منه أحدٌ؟! ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ وأشير إليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأستصوبه، وهو قتله، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والصواب الذي قد علمته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبكم ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والأمم الماضية.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِمَّن كذَّبوا الرسلَ فأُهلِكوا، ﴿وَ﴾ لم يهلكهم بغير ذنبٍ، فإنه ﴿مَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فإنَّهم أُهلِكوا[1] لأنهم استحقوه.

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ وهو القيامة؛ فإنَّه يومٌ يُنادي فيه بعضُهم بعضاً، يعني: لا تكتفون بعذابِ الدنيا، بل مع ذلك تُعَذَّبون بعذاب الآخرة أيضاً.

وكان ذلك العذاب ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ عن الموقف ﴿مُدْبِرِينَ﴾ إلى النارِ، فحينئذ ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم مِن عذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

فكيف ينفعُ نصحي ﴿وَ﴾أنتم لقد نصحكم ناصِحون، فما قبِلتُم نُصحَهم؛ فإنَّه ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب على أنَّ فرعونه / هو فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء[2]، أو المراد: يوسف بن إبراهيم بن يوسف؛ فإنه أقام [٤١٨/ب]

(١) في [ف] بلفظ: (فإنما أهلكوا).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٤٥٣/٢)، وتفسير البيضاوي (١٥٩/٣).

فيهم نبيّاً عشرين سنة ﴿مِن قَبۡلُ﴾ موسى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات[1]، ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ مِن الدِّين، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ومات ﴿قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾، ولم يكن تصديقاً لرسالته؛ فإنَّهم كانوا في شكٍّ منها، بل ضمُّوا إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة مَن بعده، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإضلالُ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ شاكٌّ.

فإنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدَّالَّة على التوحيد وصِدق الرُّسُل ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ وحُجَّة، بل بتقليد وشبهة واهيةٍ، إذ لم يكن لهم سلطان ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾ مِن عند ربهم، وغير ذلك السلطان في باب الأصول باطل قطعاً، ومَن كان كذلك فهو ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ﴾ فإنَّهم يمقتون أيضاً كما يمقت الله تعالى، وإنَّما ذلك لأنه ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾، أو المعنى: كذلك المقت يطبع الله[2]. أو هو متعلق بقوله: ﴿كَبُرَ﴾، يعني: كذلك الجدال كبر مقتاً[3].

﴿وَ﴾لذلك الطبعُ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ بناءً عالياً ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ الطريق.

أعني: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأبوابها، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ فإنَّه ليس له إلهٌ في الأرض حتى يصل إليه، فإنه لم يعين إلهه فيها، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ في دعوى الرسالة. والمراد ببناء الصرح: إمَّا الرصد ليرصد منه أحوال الكواكب، فيطَّلع على أنه هل يصدق مَن يدَّعي في هذا الزمان مثل دعوى موسى، وهل يحدث في هذا الزمان مثل هذه الحوادث[4]، أو أراد بذلك الكلام أن يدُلَّ على أنَّ موسى يدَّعي أنَّه صعد إلى

(١) انظر: تفسير ابن عطية (٥٥٩/٤)، وتفسير البيضاوي (٥٧/٥)، وتفسير ابن جزي (٢٣١/٢).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٢٧٦/٧).

(٣) انظر: المصدر السابق، والمجتبى من مشكل إعراب القرآن للدكتور أحمد الخراط (١١٠٢/٣).

(٤) لم أجد مِن المفسرين مَن صرّح بأنَّ معنى الصرح: الرصد. والمشهور عند المفسرين أن الصرح: هو البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعُد، وأصله مِن التصريح، وهو الإظهار. =

السماء فاستنبأه ربُّه هنالك[1]، وذا لا يمكن؛ فقوله فاسدٌ، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التزيين ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الرشاد، ﴿وَ﴾لكن لم يضر ذلك موسى وقومَه؛ إذ ﴿مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ وهو مُؤمِنُ آلِ فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ فإنَّه مَن يسلك فيه يصل إلى المقصود.

فإني أقول لكم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ تَمَتُّعٌ يسيرٌ لِسُرعةِ زوالها، ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لِخُلودها، وإنَّكم ستجزون في تلك الدار جزاء تخلدون فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ في هذه الدَّار ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في تلك الدارِ ﴿إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فإنَّه لا فرق بين عاملٍ وعاملٍ باعتبار القوة والضعف، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإنَّ الأعمال بدون الإيمان ليست بنافعةٍ، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهم ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتقدير؛ فجزاء الحسنات لا يكون بقدرها كما [كانت جزاء / السيئات، فإنَّها كانت مثلها][2]، بل جزاء الحسنات بغير تقدير. [٤١٩/أ]

وفي إيراد الجزاء في السيئات جملةً فعلية، وفي الحسنات جملة اسمية أيضاً؛ إشارة إلى غلبة الرحمة، كما في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ تَنَبَّهوا عن سِنَة الغفلة ﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

فإنكم ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾ بربوبيته ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فإنَّه لا يُعتَقَد ربوبيةُ أحدٍ إلا بالعلم بالبرهان، وأنتم لا تقيمون البرهانَ على ما تقولون،

=

انظر: تفسير الثعلبي (٨/٢٧٥)، وتفسير البغوي (٤/١١٢)، وتفسير الزمخشري (٤/١٦٧).

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٧/٥١٥)، وتفسير ابن كثير (٦/٢١٤).

(٢) والصحيح أن يُقال: (كما كان، فإنه كان مثلها).

فكيف أقبل قولكم؟! ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي ثبتت قدرتُه وغلبته على كلِّ شيءٍ، مع أنه موصوف بوصف ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾، فيغفر ما فَرَط منكم إن آمنتم به.

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا بُدَّ ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إذ ما دعوتم إليه لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة، فليس فيه وصفٌ يقتضي أن يُعبد، فالمراد بقوله: ﴿دَعْوَةٌ﴾ وصفٌ يقتضي الأُلوهية[1]، أو المراد: ليس له استجابة دعوة[2]، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالموتِ، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بالإشراك والعصيان ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لأنهم أشركوا ذلك العزيز الغفار.

فإذا نصحتكم ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ ويُذَكِّر بعضُكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ذا الحين مِن النصيحة، ﴿وَ﴾أنتم تريدون أن تكيدوا بي، فإني ﴿أُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فهو يعصمِني مِن كلِّ سوء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرس ويحفظ مَن كان مُستَحِقّاً له، ويُهْلِك مَن كان مستحقاً له.

﴿وَ﴾لَمَّا قصدوا قتله وإهلاكه ﴿حَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾. رُوِي: أنَّه فرَّ إلى جبلٍ، فاتَّبعه طائفةٌ، فوجدوه يُصَلِّي والوحشُ صفوفٌ حوله، فرجعوا عنه رعباً، فقتلهم فرعون[3]. أو المراد: ولو لم[4] يقبلوا قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يُؤمِنوا به حاق بفرعون وقومِه سوء العذاب، وهو الغرق[5].

ولم يكتفوا بذلك العذاب، بل ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، يعني: يُحرَقون بها دائماً إلى يوم القيامة. وذِكر الوقتين يحتمل التخصيص؛ فإنَّهما وقتان تنْزل

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (٢٧٧/٨)، وإعراب القرآن للنحاس (٢٦/٤).

(٢) ذكره كثير من المفسرين، ونقله الثعلبي عن قتادة والسدي. انظر: تفسير الثعلبي (٢٧٧/٨)، وتفسير السمرقندي (٢٠٧/٣)، وتفسير السمعاني (٢٢/٥)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٧٦/٤).

(٣) لم يذكر هذه القصة إلا الثعلبي في تفسيره (١٩٨/١٠).

(٤) في [ف] بلفظ: (ولما لم).

(٥) ذكره كثير من المفسرين، وحكاه الماوردي. انظر: النكت والعيون (١٥٩/٥)، وتفسير مقاتل (٧١٥/٣)، وتفسير الثعلبي (٢٧٧/٨).

فيهما الرحمةُ على الْمُسَبِّحين فيهما، فينْزل العذابُ على أعدائهم؛ ولأنهما[1] وقتان للتغيير دالان على التنْزيه والتقديس، وهم لم ينتبهوا على ذلك، فعُذِّبوا فيهما على التخصيص. أو المراد: التأبيد[2]، فيكون ذكر الجزء وإرادة الكل، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال لهم: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو عذاب جهنم.

﴿وَ﴾هم لا يعلمون ذلك في الدنيا، وإنَّما يعلمون ﴿إِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ ويتخاصمون فيما بينهم فيها، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي: التابعون للمتبوعين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تُبَّاعاً، كخَدَم في جمع خادم، أو هو مصدر[3]؛ فإمَّا بإضمار: ذوي، / أو على التَّجوُّز[4]، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وإن كان قليلاً. [٤١٩/ب]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ نحن وأنتم، فكيف نستطيع أن نُغني عنكم؟! ولو كُنَّا قادرين على الإغناء لكُنَّا مغنين عن أنفسنا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾، فأَدْخَل أهلَ الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ، فلا يستطيع أحدٌ أن ينفع أحداً.

ولَمَّا أَيِسوا منهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: إنَّكم ملائكةُ ربِّكم؛ فلكم مكانٌ عند ربكم، فأنتم ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قدر يومٍ شيئاً ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، أو يُخَفِّف عنَّا شيءَ يومٍ، وذلك الشيء هو العذاب[5]. والتفصيل بعد الإجمال لكمال الاهتمام.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد جاءتكم رسلنا. ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ فإنَّا لا نجترئ فيه؛ فإنَّا

---

(١) في [ف] بلفظ: (أو لأنهما).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٥/٥٩).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/١٥٨)، وإعراب القرآن للنحاس (٤/٢٧).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٥/٦٠).

(٥) أورد أبو السعود (٧/٢٧٩) معنيين في ذلك، فقال: (أي: مقدارَ يومٍ، أو في يومٍ ما مِنَ الأيامِ على أنَّه ظرفٌ لا معيار شيئاً).

لم يؤذن لنا فيه لأمثالكم، ولا ينفعكم دعاؤكم، ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ﴾ ضياع لا تجاب.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الذين جاءوا عليهم بآيات بينات، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بهم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالنَّصر والظَّفر والحُجَّة، ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ﴾ جمع شاهد، والمراد: مَن يقوم يوم القيامة للشهادة على الناسِ مِن الملائكة والنبيين والمؤمنين.

يعني: أنَّ النصرة لهم تكون في الدارين، فلا ينفع الكفرةَ دعاؤُهم حين انتقم منهم، لا سيما يوم القيامة ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ لأنها باطلة، ولأنَّهم لا يؤذن لهم فيعتذرون بعد ذلك، ﴿وَ﴾كيف ينفعهم؟! فإنَّه ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ البُعد مِن الرحمة ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنم.

﴿وَ﴾مِن نُصرتنا لرسلنا أنَّا ﴿لَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ ما يُهتَدى به مِن المعجزات والشرائع والكتاب، ﴿وَأَوۡرَثۡنَا﴾ بعد موسى ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ الذي أعطيناه.

وكان ذلك الكتاب ﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾ لِذوي العقول السليمة، فكان ذلك نصرةً للذين آمنوا بموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

فإذا علمت -يا أشرف الخلائق- أنَّ نصرتنا حقٌّ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ أنت على أذاهم؛ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالنصرِ ﴿حَقّٞ﴾ فينصرك والذين آمنوا معك كما نصر موسى والمؤمنين معه بعد أن آذوهم أذىً كثيراً، ﴿وَ﴾اتَّهم نفسك في ذلك؛ فإنَّ ما أصابك مِن سيئة فمِن نفسك؛ فأنت ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ الذي صدَرَ منك مِن ترك الأَوْلَى، والاهتمام بأمر العِدَا أيضاً ذنبٌ بالنسبة إليه ﷺ[1]، فأُمر ﷺ بالاستغفار لينصره سبحانه. ﴿وَسَبِّحۡ﴾ ونَزِّه ملتبساً ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على توفيقِه إيَّاك على التسبيح، واشكره على ذلك دفعاً للعجب دائماً، لا سيما ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَـٰرِ﴾. وقيل:

---

(١) لم أجد في كتب التفسير تعيين هذا الذنب الذي ذكره المؤلف (وهو ترك الأَوْلى، والاهتمام بأمر العِدَا).

المراد: صلِّ في هذين الوقتين[1]؛ إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيّاً، أي: الفجر والعصر[2]، ففيه تنبيهٌ على أنَّ على الداعي أن / يستغفر أولاً عن الذنوب، ثم [٤٢٠/أ] يسبّح ويعبد ربه، ثم يحمد فيدعو ليكون أقرب إلى الإجابة، ويترَصَّد الأوقات المرجوة، ولا يرد على ما وعد من النصرة له ﷺ والمؤمنين، وكذا الأنبياء الأُخر عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ما وقع مِن الغَلَبة للأعداء في بعض الأحيان؛ إذ العبرة للعواقب وغالب الأمر، وكيف لا يكون الغلبة للرسل والمؤمنين؟!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي أرسلها إليهم ليعتبروا ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ فإنَّ المجادلة في آيات الله لا بُدَّ وأن يكون بالسلطان الذي أتاهم مِن ربهم ليعارضوا به تلك الآيات. روي: أنَّها نزلت في مشركي مكة[3]. وقيل: نزلت في يهود قالوا: لستَ صاحبَنا، بل هو المسيح بن داود، يريدون الدجال، قالوا: يبلغ سلطانه البرَّ والبحرَ، وتسير معه الأنهار[4]. ولكنها شاملة لكل مجادل مبطل. ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ تَكَبُّرٌ عن الحقِّ، فلا يتفكرون فيه فلا يتعلمون، فإنهم يريدون الرياسة، وأنَّ النبوة والملك لا يكون إلا لهم، ولكنهم ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، فإنه سبحانه قد حكم بذلك ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ والتجئ إليه. وفيه تنبيهٌ على أنَّ على العبد أن يُديم الاستعاذة به سبحانه والالتجاء إليه دائماً، حتى أُمر النبي ﷺ بذلك فيما وعد له من النصر والظفر، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالك وأقوالهم، و﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ لأفعالك وأفعالهم.

وهُم إنَّما يجادلون في آيات الله لأنهم لا يؤمنون بالبعث، أمَّا لو كان المجادلون هم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/٤٠٣).

(٢) ذكره ابن عطية في تفسيره (٤/٥٦٥) عن الحسن. وانظر: تفسير البغوي (٤/١١٥) وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٤): (يعني صلاة الفجر وصلاة العصر، قال الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غدوة وركعتا عشية. عن الحسن أيضا ذكره الماوردي. فيكون هذا مما نسخ والله أعلم).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٥/٦١).

(٤) حكاه السمرقندي في تفسيره (٣/٢١٠) عن الكلبي، وابن كثير (٧/١٥٢) عن كعب وأبي العالية.

المشركون فظاهرٌ، وأمَّا لو كان اليهود فهم لا يؤمنون كما ينبغي، بل يعتقدون عقائد فاسدة في ذلك كما مرَّ مراراً، فهم لا يعلمون أنه ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ فمَن خَلَق ذلك كيف لا يقدر على الإعادة! مع أنَّ أمثلة الإعادة فيما خلق في الأرض كثيرة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لِعدم تأمُّلهم فيها.

﴿وَ﴾ما ذلك إلا لعمى قلوبهم؛ فإنه ﴿مَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ فإنَّ البصير يُبصِر دون الأعمى، ﴿وَ﴾كذلك ما يستوي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لبصارة قلوبهم ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ لِعَمى القلب. وزيد ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقال: (ولا الذين آمنوا) لزيادة الاهتمام ينبغي مساواته، وتنبيهاً على أن نفي مساواة المسيء للمؤمن أشدُّ مِن نفي مساواة الأعمى[1]. وفي إيراد الجمع في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمان والأعمال الصالحات في الجماعات أبلغ تأثيراً. وأخَّر البصير ليُذكر مجتمعاً مع المؤمنين، ولكنهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ لتظاهر أدلَّتها الدالَّة عليها؛ مِن إطباق جميع الكتب السماوية عليها، مع عدم المانع من العقل، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لجهلهم وتنَزلهم عن إنسانيتهم / ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾. [٤٢٠/ب]

فإذا[2] جادل المجادلون معكم -أيها المؤمنون- فاستجيبوا إلى ربكم فهو ينصركم، فإنه ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ ﴾ في جميع حاجاتكم ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ ودعائي، فعَبَّر عن الدعاء بالعبادة للمبالغة، فإنه مُخُّ العبادة[3]، أو المعنى:

---

(١) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧٨/٢٤): (وأعيدت ﴿لَا﴾ النافية بعد واو العطف على النفي، وكان العطفُ مغنياً عنها، فإعادتها لإفادة تأكيد نفي المساواة، ومقام التوبيخ يقتضي الإطناب).

(٢) في [ف] بلفظ: (﴿وَ﴾إذا). وفي الجملة ركاكة والصواب أن يقال: (فإذا جادلكم المجادلون أيها المؤمنون).

(٣) ورد في سنن الترمذي (٣١٦/٥، برقم ٣٣٧١)، وقال: (هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة)، وأورده الطبراني في كتاب الدعاء (ص٢٤). قال الألباني في =

إنكم أيها المؤمنون إذا آمنتم بالساعة فاعبدوا ربكم[1] ووحّدوه، واعملوا ما أمركم، واجتنبوا عمَّا نهاكم ليفيدكم إيمانكم. فإنَّ المستكبرين عن العبادة ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

وكيف لا تعبدونه هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ فإنَّه سبحانه خلقه بإرادته مظلماً ليؤدي إلى ضعف المحركات وهدوء الحواس، ﴿وَ﴾جعل ﴿ٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ يُبصر به أو فيه، وجعلهما لكم دليلين على وحدته وقدرته، وجعل كلاً منها خلَفاً للآخر لمن أراد الذِّكر والشُّكر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ كثير ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ بمقتضى طبعهم ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ فإنه كان ظلوماً جهولاً.

وكيف لا يشكرون مع أنَّه ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية الربوبية[2]﴿ٱللَّهُ﴾ هو ﴿رَبُّكُمۡ﴾ ويربيكم، فإنه ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فخلقكم وخلق ما تحتاجون إليه في معاشكم، فهو الذي ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ليس غيره[3]،﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ تُصرَفون عن عبادته وشكره.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإفك ﴿يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ ينكرون الحق ولم يتأملوه.

=

أحكام الجنائز (١/ ١٩٤): (وهو ضعيف –يعني ابن لهيعة– لسوء حفظه، فيستشهد به إلا ما كان من رواية أحد العبادلة عنه فيحتج به حينئذ، وليس هذا منها، لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان.

(١) يقصد المؤلف أنَّ الدعاء بمعنى العبادة، كما روى أهل السنن عن النعمان بن بشير أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾. مسند أحمد (٣٠/٢٩٧)، وسنن ابن ماجه (٢/١٢٥٨)، وصحيح ابن حبان (٣/١٧٢)، والسنن الكبرى للنسائي (١٠/٢٤٤)، وسنن الترمذي (٥/٢١١)، وسنن أبي داود (٢/٧٦).

(٢) في [ف] بلفظ: (المقتضية للألوهية والربوبية) وهو الصواب لأن الشكر العملي من توحيد الألوهية في غالبه.

(٣) في [ف] سقط لفظ: (ليس غيره).

وكيف تجحدون! وهو ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ هذا في الآفاق، ﴿ وَ ﴾إن نظرتم في أنفسكم فهو ﴿ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ بأن خلقكم مُنتَصِب القامة، بادي البشرة، متناسب الأعضاء والتخطيطات، متهيأة لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات، ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ واللَّذائذ، ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي فعل بكم تلك الأفعال فهو ﴿ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فهو مُنَزَّه عن الشريك والأمثال، ليس للعاملين رب سواه. وكيف يكون ربٌّ سواه!

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ بالحياة الذاتية، ليس لِمَن سواه تلك الحياة التي لا بُدَّ للإله، فهو الذي ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَـ ﴾إنكم إذا علمتم ﴿ ٱدْعُوهُ ﴾ واعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ والطاعة مِن الشرك والرياء، وقولوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الَّذي وفَّقنا لذلك وعلَّمنا إيَّاه.

وهم إن لم يعبدوا ذلك الخالق الرب فأنت ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ مِن الحُجَج العقليات والنقليات ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ وأنقاد ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وكيف لا أنقاد و﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ ﴾ يبقيكم ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ وقوتكم، ﴿ ثُمَّ ﴾ يبقيكم بعد ذلك ﴿ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾، ﴿ وَ ﴾لستم جميعاً كذلك، بل ﴿ مِنكُم مَّن / يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [٤٢١/أ] أن يبلغ أوان الشيخوخة، بل الأشدية، ﴿ وَ ﴾لا يفعل ذلك بكم إلا ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾، ﴿ وَ ﴾إنما فعل ذلكم بكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما في ذلكم من الحجج والآيات.

فإنَّكم إن تأمَّلتم في الذي ذكركم فتعلمون أنه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ليس الإحياء والإماتة بيد غيره، ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ وإرادةً ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى أسباب وكُلفة، فلا يُستبعد البعث والحشر بالنسبة إليه سبحانه، ومع ذلك يَستبعد من يَستبعد.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدالة على التوحيد والبعث والجزاء

﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ عن الحق والتصديق به مع وضوحه ذلك الوضوح.

وهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بجميع الكتب السماوية الدالة على ذلك، ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مِن المعجزات الدالة على صدقهم، وهم لا يعلمون جزاء ما يعملون؛ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون ذلك.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ فهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ يُجرُّون.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ بها ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يُحرَقون، مِن سَجر التنور إذا ملأه بالوقود، ومنه: التسجير للتصديق، كأنه سجر بالحب، أي: مُلِئ بالحب[1].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ ولم نجد منهم ما كُنا نتوقع منهم، ﴿بَل﴾ تبين لنا أنَّا ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ﴾ نعبد بعبادتهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿شَيْـًٔا﴾ ينفع، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم.

﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ تتكبرون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي مكان التذلل ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَتَوَسَّعون.

فأنتم ﴿ٱدْخُلُوٓاْ﴾ بما فعلتم ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ التي قُسِمَت لكم على حسب أعمالكم، وكونوا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق جهنم.

وإذا علمت أن مثواهم ذلك فإنهم إن آذوك ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كائن لا محالة فينصرك ويُهلك أعداءك الذين يؤذونك، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإن نُريك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو: القتل والأسر[2]، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

---

(١) قال النحاس في معاني القرآن (٦/٢٣٤): (قال مجاهد: أي توقد بهم النار. قال أبو جعفر: يقال: سَجرت الشيء أي ملأته، ومنه: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦]، فالمعنى على هذا: تملأ بهم النار). وانظر: شمس العلوم لنشوان الحميرى (٥/٢٩٨٣).

(٢) ذكر هذا المعنى السمرقندي في تفسيره (٣/٢١٥)، وانظر تفسير الزمخشري (٤/١٨٠)، وتفسير البيضاوي (٥/٦٤).

يوم الجزاء فنجزيهم في ذلك اليوم قطعاً، فننصرك في ذلك اليوم قطعاً.

﴿وَ﴾إنا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناك، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾؛ فإنَّه قيل: عددُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً[1]، والمذكور أشخاص قليلون منهم. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ من تلك الرسل ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات الله الدالة على صدقهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولم يكن ذلك الإتيان بأيدي ذلك الرسول، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بعذاب ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بإنجاء المحق والمبطل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون.

وكيف تُعانِدون وهو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ بعضاً منها، وتسافرون إلى مقاصدكم / الدينية والدنيوية، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: لتأكلوا؛ إذ الأكلُ ضروريٌّ؛ فلا يقع منهم قطعاً[2]. [٤٢١/ب]

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كالألبان والجلود والأوبار، ولم يقل: لتنتفعوا لما ذكر، فإنَّ النفع منها أيضاً ضروري كالأكل، بخلاف الركوب فإن ذلك ليس بضروري فإن ذلك قد يقصد به التعيش والتلذذ، وأيضاً الركوب قد يكون لأغراض دينية واجبة أو

---

(١) قال العلامة ابن باز في مجموع فتاوى ابن باز (٦٦/٢): (وجاء في حديث أبي ذر عن أبي حاتم بن حبان وغيره أنه سأل النبي ﷺ عن الرسل وعن الأنبياء، فقال النبي ﷺ: «الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر». وفي رواية أبي أمامة: «ثلاثمائة وخمسة عشر». ولكنهما حديثان ضعيفان عند أهل العلم، ولهما شواهد، ولكنها ضعيفة أيضاً، كما ذكرنا آنفاً، وفي بعضها أنه قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ألف نبي فأكثر». وفي بعضها: «أن الأنبياء ثلاثة آلاف». وجميع الأحاديث في هذا الباب ضعيفة، بل عدَّ ابن الجوزي حديث أبي ذر من الموضوعات، والمقصود أنه ليس في عدد الأنبياء والرسل خبر يعتمد عليه، فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى، لكنهم جم غفير، قص الله علينا أخبار بعضهم، ولم يقص علينا أخبار البعض الآخر، لحكمته البالغة جل وعلا).

(٢) هذه الجملة غير واضحة ولعل مراد المؤلف هو: أن الله قدّم ذكر الركوب في الأنعام على الأكل منها فالأكل غير ضروري لأن ما يأكله الإنسان يمكن أن يكون من الأنعام ومن غيرها أما الركوب فلا يكون إلا في الأنعام.

مندوبة، وأيضاً الأكل والنفع من العين، والركوب [ليس من ذلك.﴿وَ﴾أيضاً ﴿لِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا﴾ على الأنعام ﴿حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ﴾، ولم يطلع على تلك الحاجة غيركم، ولم يكن لكم أن تُطلعوا عليها الغير لأنَّ فيه ضررَكم، ولا يمكن لكم قضاء تلك الحاجة بغير الأنعام لعذر مرض أو غيره، ولكنه يمكن لكم القضاء إذ زال ذلك العذر، ووجه تغيير النظم مما ذكرنا ومما ذكر قطب الأولياء[1] تأمَّل ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ وعلى الأنعام][2] ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ فجُعِلَت الأنعام في البر كالفلك في البحر.

﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّة على كمال قدرته وفرط رحمته ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فأية آيات الله التي يريكموها يمكن لكم أنكم ﴿تُنكِرُونَ﴾، فإنَّه لا يمكن لكم ذلك؛ لأنَّ كل آيةٍ مِن تلك الآيات كالضروريات الأولويات، لا يمكن لعاقل أن ينكرها.

﴿أَ﴾يُنكرون تلك الآيات ﴿فَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ما بقي منهم مِن التصور والمصانع؛ فإنَّ جميع ذلك من آيات الله الدالة على صدق الأنبياء عليهم [السلام][3]. وذُكر بالفاء لأنه قدمت فيما تقدم ذكر الآيات، فهم أن يسيروا في الأرض بعد أن سمعوها فنظروا فيها فهم يؤمنون[4]، فإذا أهلكناهم ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

وذلك لأنَّا أرَيناهم آياتٍ كثيرةً دالّةً على التوحيد والبعث ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات والآيات الواضحات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ واستحقروا

---

(١) هذه اللفظة من ألفاظ الصوفية ولا يُعلم مقصود المؤلفُ بقطب الأولياء، وربما يكون أحد مشايخه، أو مَن اشتهر في ذلك الزمن. كما ذكرت ذلك عند الكلام عن عقيدته في المبحث الرابع من الفصل الأول (ص٢٣).

(٢) ما بين المعقوفتين كتب على هامش [ع]

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من النسختين.

(٤) في هذه الجملة ركاكة ولعل الأصوب أن يقال: (فإذا ساروا في الأرض فسينظرون في آيات الله ويؤمنون بها).

عِلْمَ الرسل لما عندهم من العقائد الزائفة، وشبههم الواهية، ﴿وَ﴾لَمَّا فرحوا ﴿حَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وجزاؤه؛ فإنَّهم استهزؤوا معَ أن الرسل ذكّروهم بآيات كثيرة عظام.

فإذا أرسل إليهم ما كان جزاء ما فعلوا ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ شِدَّة عذابنا التي كانت جزاء ذلك الاستهزاء ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ من الأصنام.

﴿فَـ﴾إذا قالوا ذلك غير أوان ذلك القول ﴿لَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ لأنهم آمنوا لما رأوا بأسنا، وكانت تلك ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت من قبل ﴿فِى عِبَادِهِۦ﴾. أو هي مصدر، أي: سنة الله، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: في ذلك الزمان، فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ اسم مكان استعير للزمان.



(سورة السجدة)

سورة السجدة مكية[1].

وآيها ثلاث أو أربع وخمسون آية[2].

سميت إذ ذكر فيها السجدة[3] التي هي أقصى العبادة، فهذه السورة -بل جميع القرآن- مسوقة لذلك.

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴾ المؤلف منها وأمثالها هذه السورة.

وهي ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الذي استوى على العرش، الذي منه تدبير جميع / [٤٢١/ب] العالم، فبهذه السورة دبَّر جميع العالم[4]، وهو موصوف بوصف ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الذي

---

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٧٣٣/٣)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص٣٨٨)، وتفسير الطبري (٣٧٥/٢٠)، ومعاني القرآن للنحاس (٢٣٩/٦)، وتفسير السمرقندي (٢١٧/٣)، وقد حكى الإجماع على مكيتها ابن عطية (٣/٥)، وابن الجوزي (٤٥/٤).

(٢) قال الداني في البيان (ص٢٢٠): (وهي خمسون وآيتان بصري وشامي، وثلاث مدنيان ومكي، وأربع كوفي، اختلافها آيتان: ﴿ حمٓ ﴾ عدها الكوفي ولم يعدها الباقون، ﴿ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت:١٣] لم يعدها البصري والشامي وعدها الباقون).

(٣) من أسمائها: ١- سورة فصلت وهو الاسم الذي اشتُهرت به في المصاحف، ٢- سورة حم السجدة، ٣- سورة السجدة وهو الاسم الذي أورده المؤلف هنا، ٤- سجدة المؤمن، ٥- سورة المصابيح، ٦- سورة الأقوات. انظر: أسماء سور القرآن الكريم للدكتور محمد الشايع (ص١٣٠).

(٤) لعلَّ المؤلف يقصد أن في هذه السورة وصفَ تدبيره للعالم؛ بخلق السماوات والأرض في آيات من هذه السورة؛ لأنه لم يرد في الكتاب والسنة ما يدل على أن الله دبَّر هذا العالم بهذه السورة.

يرحم في الآخرة على[1] المؤمنين، فبهذه السورة يرحم المؤمنين[2].

فهو ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ومُيِّزت بحيث لا يختلط ولا يلتبس بعضُها ببعض، وإنما فُصلت إذ التدبير بالتفصيل، وكان ذلك ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ يُفهَم معناه ليعملوا بمقتضاه، ولكن ذلك ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أُولِي العلمِ والنظر.

فكان ذلك الكتاب ﴿بَشِيرٗا﴾ لِمَن عمِل به، ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لِمَن لم يعمل، ﴿فَـ﴾إذا جاءهم ذلك الكتاب ﴿أَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ عن قبوله، فإذا أعرضوا ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ بالتأمل والطاعة.

واعتذروا لإعراضهم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ وأغطية ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ صمَم وثِقَل، ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ يمنعنا عن التواصل بك، فإذا اخترت ديناً وعملت به ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ في ديننا أو في إبطال أمرك.

قل لهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ لست بِمَلَك ولا جِنٍّ حتى لا يمكنكم الوصول إليَّ ولا تفهموا كلامي، وإنَّما أنذركم وأبشركم لأنه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، والتوحيدُ ثَبَت بالعَقْلِ، فإذا دعوتكم إلى ذلك ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ في أفعالكم، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه مِن سوء العقيدة، ﴿وَ﴾قل لهم: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الذين أشركوا لفرط جهالتهم واستخفافهم بالله سبحانه.

وهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لبِخُلهم، وعدم إشفاقهم على الخلق، وذا مِن أعظم الرَّذائل. وفيه تنبيهٌ على أنَّ البخل مِن لوازم الإشراك، ﴿وَ﴾إنما لا يؤتون الزكاة إذ ﴿هُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ ويمكن أن يكون المرادُ بالزكاةِ: التزكية والطاعة[3] وما عملوا

---

(١) عدّى الفعل (يرحم) بحرف الجر (على) والصواب أن يتعدى بنفسه فيقال: (الذي يرحم في الآخرة المؤمنين).

(٢) في هذه العبارة نظر، ولعل المؤلف يقصد أن في هذه السورة ذكر رحمة الله للمؤمنين.

(٣) ذكر الثعلبيُّ في تفسيره (٢٨٦/٨) عن مجاهد والربيع: يعني: لا يزكّون أعمالهم. وانظر: إعراب القرآن للنحاس (٣٥/٤).

من الأعمال مع عدم الإيمان، فذا ضائع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ﴾ دون غيرهم ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾ لا يُمَنُّ به عليهم، أو لا يُقْطَع عنهم. قيل: نزلت في المرضى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر[1]، فالمعنى: أن المشركين وإنْ عملوا فأعمالُهم مُحْبَطَة، والمؤمنون الذين كانوا قد عمِلوا ثم تركوا ذلك لعذرٍ فلهم أجرٌ غير مقطوع بسبب ترك العمل.

﴿قُلۡ﴾ للمشركين: لأيِّ شُبهةٍ تركتم التوحيدَ وأشركتم؟ ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ في مقدارهما، أو بنوبتين[2]، وخلق في كلِّ نوبة ما خلق في أسرع ما يكون يمكن أن يكون. والمراد بالأرض: جهة السفل مِن البسائط، خلق الملوك أولاً، ثم المركبات منها ومن الصورة؛ لِيُرَتِّب على ذلك الكائنات والفاسدات؛ فإنَّ ذلك أنسب بالحكمة[3]، وفي ذلك إيماء إلى القدرة والحكمة، ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ لا يمكن منهم ذلك، ولا تتأملون أنَّه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فعل هذا الفصل هو ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَ﴾مِن تربيته لهم أنه ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت / ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾ [٤٢٢/ب] مرتفعةً عليها؛ لِيظهرَ ما فيها مِن وجوه الاستبصار؛ فيكون في ذلك تربيةً ظاهريةً وباطنية. فإن كان يمكن أن يجعل ثِقَل الجبال في باطن الأرض لِئَلا تميل بالناس، ولكنه سبحانه أظهرها ليعتبر بها أولو الأبصار، ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ في الأرضِ، فخلق فيها النبات والأشجار والحيوان، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ فعَيَّن لكلِّ نوعٍ ما يصلحه ويعيش به، أو عيَّن الأقواتَ لكلِّ قُطْرٍ مِن أقطارها؛ فإنَّ بعض الثمار يحدث في جانبٍ دون جانبٍ[4] في

---

(١) ذكر الثعلبي في تفسيره (٢٨٦/٨) قال السدي: (نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة، يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعلمون). وانظر: تفسير البغوي (١٢٥/٤).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٦٧/٥).

(٣) قال ابن عطية (٥/٥): (والحكمةُ في خلقه هذه المخلوقات في مُدَّةٍ ممتدة مع قدرة الله على إيجادها في حين واحد، وهي إظهار القدرة في ذلك حسب شرف الإيجاد أولا).

(٤) قال ابن الجوزي (٤٦/٤): (وللمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال : أحدها: أنه شقَّق الأنهار وغرس الأشجار، قاله ابن عباس. والثاني: أنَّه قسم أرزاق العباد والبهائم، قاله الحسن. =

يومين، فتمَّ جميع ذلك ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ الأحد إلى الأربعاء[1]، ﴿سَوَآءٗ﴾ استوت تلك الأيام الأربعة ما زادت وما نقصت، هذا الذي ذكر مِن تعيين الأيام الأربعة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عن مُدَّةِ خلق الأرض، أو بارك وقدَّر للسائلين الطالبين للأقوات[2].

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وقصد نحوها ﴿وَهِيَ دُخَانٞ﴾ جوهر ظلماني، و ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتبيِّ؛ إذ الأرض بعد ذلك دحاها، فخَلْقُ السماوات كانت[3] أولاً، وإن كانت مادة الأرض قبلها[4]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما مِن التأثيرات والتأثرات، وإبراز ما أودعتُ فيكما مِن الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة[5]. أو المراد: ائتيا في الوجود[6]، فالخلق السابق بمعنى التقدير، والفاء للتَّعقيب الرُتبِيِّ، أو في الإخبار، أو المراد: ليأتِ كلٌّ فيكما الأخرى في حدوثِ ما أُريد ليره منكما طوعاً وكرهاً،

=

والثالث: أقواتها من المطر، قاله مجاهد. والرابع: قدر لكل بلدة ما لم يجعله في الأخرى، كما أنَّ ثياب اليمن لا تصلح إلا باليمن، والهروية بهراة، ليعيش بعضهم مِن بعض بالتجارة، قاله عكرمة والضحاك. والخامس: قدر البُر لأهل قُطر، والتمر لأهل قُطر، والذُرة لأهل قطر، قاله ابن السائب).

(١) روى الطبري في تفسيره (٣٨٨/٢٠) عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: «أنه فرغ مِن خلق الأرض وجميع أسبابها ومنافعها مِن الأشجار والماء والمدائن والعمران والخراب في أربعة أيام، أولهن يوم الأحد، وآخرهن يوم الأربعاء». وانظر الدر المنثور (٧/ ٣١٦).

(٢) قال الزجاج (٣٨١/٤): (ومعنى ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مُعلَّق بقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ لكل محتاج إلى القوتِ).

(٣) والصحيح أن يقال: (كان أولا) لأن الضمير في (كان) يعود إلى (خلق) وهو مذكر.

(٤) ذكر المؤلف هنا أن خلق السماء قبل الأرض والصواب أنّ خلق الأرض كان أوّلاً بدلالة السياق هنا، ثم خلق السماء ثم دحى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

(٥) قال السمرقندي في تفسيره (٢٢٠/٣): (يعني: أعطيا وأخرجا ما فيكما من المطر، والنبات منفعة للخلق ... وروي عن مجاهد أنه قال: معناه: يا سماء أبرزي شمسك، وقمرك، ونجومك، ويا أرض أخرجي نباتك).

(٦) انظر: تفسير الرازي (٥٤٩/٢٧).

فالمراد: إظهار كمال قدرته تعالى، ولزوم وقوع مراده[1]، ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ مُنقادين، ويمكن أن يكون سبحانه قد أقدَرَهما على الجواب.

فإذا قصد إلى مادة السماوات ﴿فَقَضَىٰهُنَّ ﴾ وخلقهن ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ ﴾ ليسع الكواكب وأملاكها ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ قيل: خلق السماوات يوم الخميس، والشمس والقمر والنجوم يوم الجمعة[2]. ولم يجعل لها أربعة أيام كما جعل للأرض تنبيهاً على كثرة ظهور الحكمةِ فيها؛ فإنَّ فيها الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات كثيرة وإن كانت أفراد الملك كثيرة، ولم يذكر العرشَ والكرسيَّ، فذا بظاهره دالٌّ على أنهما قبلها؛ إذ لا يكون بعدهما؛ لأنَّه يُدَبِّر الأمر من [العرش][3]، والظاهر أن الكرسي تابع له كما يدل عليه اسمه، ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ شأنها وما يتَأَتَّى منها، أو أوحى إلى أهلها مِن الملائكة[4]، ويمكن أن يكون خلق كل ملائكة كل سماء حين خلقها، أو يكون قبلها ثُمَّ عُيِّن لهم مقام معلوم من سماء مِن السماوات، ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ وهي النجوم التي كالمصابيح، ولا يقتضي ذلك أن تكون الكواكب مخلوقة ومركوزة في السماء الدنيا، فإنها وإن كانت مركوزةً في السماء الثانية وهي الكرسي إلا أنَّها ترى في السماء الدنيا[5] فهي زينة لها، / ﴿وَ﴾حفظناها مِن الآفات والشياطين الذين يَسْتَرِقُون السمعَ [٤٢٣/أ]

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب (١١٢/١٧).

(٢) انظر: تفسير السمعاني (٤٠/٥)، وتفسير البيضاوي (٦٨/٥).

(٣) في [ع] بلفظ: [من الأرض العرش]، فلفظ [الأرض] زيادةٌ جاءت خطأً.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٦٨/٥). وقال ابن الجوزي (٤٧/٤): (﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أوحى ما أراد، وأمر بما شاء، قاله مجاهد ومقاتل. والثاني: خلق في كل سماء خلقها، قاله السدي).

(٥) لم يتبين لي مقصودُ المؤلف، ولم يتبين لي وجه أن الكرسي يطلق على السماء الثانية كما ذكر، ولكن أورد أبو الفداء الإستانبولي في كتابه روح البيان (٢٣٨/٨) كلاماً قد يبين ذلك، حيث قال: (وليس كلها في السماء الدنيا، وهى التي تدنو وتقرب مِن أهل الأرض، فإن كل واحد من السيارات السبع في فلك، والثوابت مركوزة في الفلك الثامن، إلا أن كونها مركوزة فيما فوق السماء الدنيا لا ينافي كونها زينةً لها؛ لأنَّا نرى جميع الكواكب كالسرج الموقدة فيها. وقيل: إنَّ في كل سماء كواكب تضيء. وقيل: بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا)

﴿ حِفۡظٗاۚ ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر لكم هو ﴿ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ فلِقُدرته وعلمه قدر كذلك.

﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾ عنِ الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلۡ ﴾ لهم: إن لم تؤمنوا فقد ﴿ أَنذَرۡتُكُمۡ ﴾ أن يصيبكم عذاب شديد ويكون ذلكم ﴿ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾.

فإنَّها قد أصابتهم ﴿ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ ﴾ وأنذروهم أن يأتيهم العذاب ﴿ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ مِن جميع جوانبهم، وأنذروا[1] من جهة الزمن الماضي بالإخبار عمَّا جرى على مَن تقدَّمهم مِن الكفار، ومِن جهة المستقبل بالتحذير بما أعد لهم في الآخرة[2]. وأخبرهم[3] الرُّسُلُ عمَّا سيلحقُ الكفارَ الذين يجيئون بعدهم، وقالوا لهم: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ ﴾، فلم يؤمنوا بهم، ولم يقبلوا قولهم، بل ﴿ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ ﴾ برسالته ﴿ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ على زعمكم لـ ﴿ كَٰفِرُونَ ﴾[4]؛ فإنَّكم بَشَرٌ مثلُنا، لا فضلَ لكم علينا.

﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾ مع كونهم ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ التي هي مكان التَّذَلُّل ﴿ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾؛ فإنَّ التكبُّر بالحقِّ -وهو التكبر على أعداء الله لله سبحانه- محمودٌ، ﴿ وَ ﴾ذلك التكبُّر أنهم ﴿ قَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ ﴾. وقيل: كان مِن قوتهم أنَّ الرجل منهم ينْزِع الصخرةَ يقلعُها بيده[5]. أيقولون ذلك ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ ﴾ قدرةً فيهلكهم بلا سبب ظاهريٍّ[6]، أو يعطي غيرَهم قوةً أشدَّ مِن قوَّتهم،

---

(١) في [ف] بلفظ: (أو أنذروا).

(٢) قال الماوردي (١٧٤/٥): (فيه وجهان: أحدهما: أرسل من قبلهم ومن بعدهم، قاله ابن عباس والسدي. الثاني: ما بين أيديهم عذاب الدنيا، وما خلفهم عذاب الآخرة، قاله الحسن).

(٣) في [ف] بلفظ: (أو أخبرهم).

(٤) في [ف] بلفظ: (بزعمكم كافرون).

(٥) انظر: تفسير السمعاني (٤٤/٥)، وتفسير الزمخشري (١٩٢/٤).

(٦) يقصد المؤلف بقوله: (بلا سبب الظاهري): السبب الخارج عن عُرف البشر وقدرتهم. وقد =

﴿وَ﴾معَ ذلك الاستكبارِ ﴿كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ معَ أنَّهم يعرِفون أنَّها حقٌّ، كما يدلُّ على ذلك لفظُ الجحودِ؛ إذ هو الإنكارُ مع العرفانِ، فاستحقوا العذابَ مِن جهتي الاستكبار والجحود.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ بارِدَةً، تُهْلِكُ بشِدَّة بردِها، مِن الصَّرِّ وهو البردُ، أو شديد الصوت في هبوبِها، مِن الصرير[1]، وكان ذلك الإرسال ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾. وقيل: كن في آخر شوالٍ مِن الأربعاء، ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء. ويدل قوله: ﴿نَّحِسَاتٖ﴾ على أنَّ ما يقع في تلك الأيام يكون كثيراً[2]، ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولا نكتفي بذلك العذاب، بل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ ودلَلْناهُم على الحقِّ بنصبِ الحُجَجِ وإرسالِ الرسلِ، ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾ واختاروها ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ وهي صاعقة من السماء، فأهلكتهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ اختيار الضلالة.

﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ مِن تلك الصاعقة. ولما كان عاد تكبَّروا بالقُوَّة أُهلِكوا بالرِّيح الذي هو ضعيف بالذات؛ فإنَّ مادته لا تقتضي ذلك، بخلاف ثمود.

﴿وَ﴾الذين كفروا لا يتأمَّلون في ذلك حتى يعلموا، وإنما يعلمون ﴿يَوۡمَ يُحۡشَرُ

=

تكررت في مواطن من تفسيره وسيأتي قوله في موضع آخر في تفسير سورة الذاريات (ص:٢٩٧): (﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ بلا سببٍ ظاهريٍّ بل سماويٍّ) مما يعني سبب خارج عن طاقة البشر، بل واقع بقدرة الله وأمره.

(١) قال النحاسُ في معاني القرآن (٦/٢٥٤): (روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: شديدة السموم. وروى معمرُ، عن قتادةُ، قال: باردةٌ. قال أبو جعفر: قولُ قتادة أبين. وكذا قال عطاء؛ لأنَّ ﴿صَرۡصَرٗا﴾ مأخوذٌ مِن صَرَّ، والصَّرُّ في كلام العرب: البرد). وقال الشوكاني في فتح القدير (٥/١٥٠): (وقيل: الصرصر: شدة الصوت).

(٢) حكاه الماوردي في النكت والعيون (٥/١٧٤) عن مجاهد وقتادة، وأورد في معنى ﴿نَّحِسَاتٖ﴾ أربعة أقوال.

أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ / إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ ﴾ لكثرتهم ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ لا يُحْبَس أولهم على آخرهم لِئَلا يتفرَّقوا، [٤٢٣/ب] والمراد هنا الكثرة[1].

وهم يُنكِرون ما فعلوا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ وحضروا النارَ ﴿ شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، وذلك بأن يُنطِقَها اللهُ سبحانه، أو يُظْهِر عليها آثارَ ذلك.

﴿ وَ ﴾لَمَّا رأوا ذلك ﴿ قَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا ﴾ إمَّا تعجُّباً أو توبيخاً، ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ فلم يكن لنا في ذلك اختيارٌ، وإن كانت الشهادةُ بالحالِ فهذا القولُ أيضاً باعتبار الحال، ويكون الشيءُ في قوله: ﴿ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ عامّاً مُتناوِلاً لكلِّ موجود، ﴿ وَ ﴾أنتم لِمَ تُنكِرونَ البعثَ مع أنَّكم تعلمون أنَّه هو الذي خلقكم أول مرَّةٍ، وذا يقتضي أن تكونوا ﴿ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾؛ فإنَّ [من][2] الذي خلقكم بحكمةٍ بالغةٍ كيف يجعلكم عبثاً! وأيضاً إنَّكم تُبصِرون أنَّ جميع ما وُجِد في العالم دوري يرجع إلى ما منه بدأ. ويمكن أن يكون مِن كلام الجلودِ لهم للتوبيخ.

﴿ وَمَا كُنتُمۡ ﴾ وما تستطيعون أنكم ﴿ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ ﴾ فإنَّ الناسَ يستترون [الناس][3] عند ارتكابِ الفواحشِ مخافة الفضاحة، وما يظُنُّون أنَّ أعضاءَهم يشهدون عليهم، ولو علِموا لم يعصُوا؛ لأنَّهم لا يستطيعون التستُّرَ منهم، وخافوا الفضيحةَ، ولا حاجة له سبحانه إلى الاستشهاد؛ لأنه سبحانه عالِمٌ، ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فاجترأتُم على ما فعلتم.

﴿ وَذَٰلِكُمۡ ﴾ الذي ذُكِر لكم ﴿ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ ﴾، وذلكم الظنُّ ﴿ أَرۡدَىٰكُمۡ ﴾ وأهلككم، ﴿ فَأَصۡبَحۡتُم ﴾ وصرتم ﴿ مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾، فإنَّه صارت أعضاؤكم التي فعلتم بها أعداءَكم، وقد أعطيتُ لكم تلك الأعضاء لتسعدوا وتعملوا بها

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (١٩٥/٤).

(٢) كذا في المخطوط والصواب حذفها.

(٣) تكررت لفظة [الناس] في المخطوط، وهذا من مذهب الناسخ أنه إذا أخطأ أو كرر كلمة إما أن يخط عليها خطا يسيرا أو يتركها، والصواب هنا حذفها.

ما يُنجيكم.

وذلك الخسران قد لَزِمَهم؛ ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ ﴾ لا خلاصَ لهم عنها، ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ ﴾ وطلبوا الرجوع إلى ما يُحِبُّون ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾ الْمُجابِين إلى الرجوع.

﴿وَ ﴾إنَّما صاروا كذلك لأنا ﴿ قَيَّضۡنَا ﴾ وقدَّرنا لهم للكفرة ﴿قُرَنَآءَ ﴾ أخداناً مِن الشياطين، ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ مِن أمرِ الدنيا واتباع الشهوات، ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ مِن أمر الآخرة، فأنكروا ذلك، ﴿وَ ﴾لذا ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ وهي كلمةُ العذاب كما حقَّت تلك ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ ﴾ ومضت ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ﴾ فإنَّهم كانوا عمِلوا مثل أعمالهم، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ لتلك الأعمال وللخسران.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَ ﴾ إذا سمعتموه فأنتم ﴿ٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ وعارِضوه بالخرافات، وارفعوا أصواتكم بها، لِيُشَوِّشُوه على القارئ، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ عليه، وإذا فعلوا ذلك فلا يغلبون بذلك، وإن غلبوا ظاهراً فلا يأس.

[٤٢٤/أ] ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ / وإن غلبوا ذا الحين ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا ﴾ على مقابلة ذلك الفرح بالغلبة، ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾. وفي قوله: ﴿أَسۡوَأَ ﴾ بصيغة التفضيل إشارةٌ إلى أنَّهم ما يفعلون مع الكفر وإن كان سيئاً فيه أسوأ لاقترانه بالكفر.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر ﴿ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ فهي دار إقامتهم فإنهم جُوزوا ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ ويُنكِرون الحقَّ معَ عِلمِهم ذلك.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لَمَّا أدخلوا في النار ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ شيطانَيِ النوعين الحاملين على الضلالة والعصيان. وقيل: هما إبليسُ وقابيلُ؛ فإنَّهُما سَنَّا الكفرَ والقتلَ[1]، ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ فإنَّا ندسهما، وننتقم منهُما انتقاماً.

---

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٧٤٢/٣)، وتفسير عبد الرزاق (١٥٣/٣)، وتفسير الطبري (٤٦٢/٢١) عن علي بن أبي طالب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ نجوا من ذلك الخسران هم الذين ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ في العمل. و﴿ثُمَّ﴾ لتراخيه عن الإقرارِ في الرُّتْبَةِ مِن حيثُ إنَّه مبدأُ الاستقامةِ، ولأنها عسر قلما تتبع الأقدار[1]. فإنهم ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إذا عَنَّ لهم ما يُخَوِّف ويُحْزِن، فيُلهمونهم بما يشرح صدورهم، أو المراد النُّزول عند الموت[2] وعند الخروج من القبر[3]، ويقولون لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تُقْدِمون عليه، ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما خلَّفتُم؛ فإنَّ الله معَكم، وينصركم إن صبرتم، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ جزاءً لإيمانكم وأعمالكم، فلا بأسَ بِما تؤذون في دنياكم.

﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فنُلهِمُكم [ما يحق بكم][4]، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ والكرامة. وإن كان المرادُ التنزُّلَ عند الموت والقبر فالمعنى: كما كنا أولياؤكم في دنياكم كذلك في الآخرة؛ لا تنقطع ولايتُنا عنكم، ﴿وَلَكُمۡ﴾ لقولكم ذلكم القول ولاستقامتكم ﴿فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ مِن اللَّذائذ، ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تطلبونَ؛ فهو أعمُّ مِن الأول.

وكان ذلكم ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ﴾ قد غفر لكم ما فَرَط عنكم، ﴿رَّحِيمٖ﴾ يَتَفَضَّلُ عليكم تفضُّلاً بعد تفَضُّلٍ.

ليس ذلكم إلا لِحُسْنِ قولكم ذلكم القولَ، ثم الاستقامة؛ فإنَّه ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن﴾ قال ذلك القول ثم استقام، ثم أحسن منه مَن قال ذلك ثُمَّ ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾

---

(١) يظهر أن المؤلف يقصد أن الاستقامة عسيرة على النفوس، وغير موافقة لاستطاعة الإنسان وقدرته.

(٢) رواه الطبري (٢١/٤٦٦) عن السدي والحسن.

(٣) ذكره النحاس في كتابه إعراب القرآن (٤/٤٢) عن زيد بن أسلم قال: (والبشارة في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث). وذكره السمعاني (٥/٥٠) عن أبي العالية، وذكره البغوي (٤/١٣٢) عن وكيع بن الجراح.

(٤) في هذه العبارة عجمة والأصوب أن يقال: [فنُلهمكم الحق].

وعبادتِهِ غيرَه مِن المكلفين، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربِّه، ولم يقل ما لم يفعل، بل فعل بنفسه وأمرَ غيره ﴿وَ﴾تفاخر بإسلامه بأن ﴿قَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. والآيةُ عامَّةٌ لِمَن استجمع تلك الصفات، وقيل: نزلت في النبي ﷺ. وقيل: في الْمُؤَذِّنين الذين عملوا الصالحات[1].

﴿وَ﴾كيف لا يُجْزَون بذلك الجزاء فإنه ﴿لَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء والعاقبة، وأنت لا تقِس جزاءك على جزائه سبحانه، بل أنت ﴿ٱدْفَعْ﴾ السيئةَ ﴿بِٱلَّتِى / هِىَ أَحْسَنُ﴾، والمراد بالأحسن هو الزائد مطلقاً، حتى لا يلزم حسن السيئة، أو المراد أحسن مِمَّا يمكن دفع تلك السيئة من الحسنات[2]؛ فإنَّ ما يدفع به السيئة هي جزاؤها، فهي حسنة. فإنَّك إذا فعلت ذلك ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ يصير كأنه ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. [٤٢٤/ب]

﴿وَ﴾هذه الخصلةُ قد عزَّت[3] حتى إنَّها ﴿مَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، ﴿وَ﴾فيه كمال الخير، فهي ﴿مَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، فأنت إذا عرفت ذلك فاجتهد في تحصيلها، ﴿وَ﴾اهتمَّ كلَّ الاهتمام فيها.

ثُمَّ ﴿إِمَّا﴾ أن ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ نخس، فهو مِن باب جدَّ جِدُّه، فإنه عدو مبين لبني آدم؛ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ مِن شرِّه، والتجئ إليه ليحفظك منه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذة مَن استعاذ به ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضميرِه مِن الاهتمام بتحصيل تلك الخصلة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالَّةِ على أنَّه يلزمُ أن يُقال: ربُّنا الله، ويُستقام عليه، ويعبدوا الله دون غيره، والدالَّة على قدرته واتصافه بالصفات الكاملة؛ ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ

---

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/٤٢)، ولطائف الإشارات (٣/٣٣١)، وتفسير ابن كثير (٧/١٨٠)، وأسباب النزول للواحدي (ص: ٢٠١).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره (٤/٥٢): (﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وذلك كدفع الغضب بالصبر، والإساءة بالعفو. وقال عطاء: هو السلام على من تعاديه إذا لقيته).

(٣) في [ف] بلفظ: (عسرت).

﴿ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾ اللذان يتحركان في الليل والنهار على وجهٍ قُدِّر لهما، لا يغلب أحدهما على الآخر، وبهما نفعُ العالم بما يحتاجون إليه، وبهما يُعطَى ما يُطلَبون، فأنتم ﴿ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ ﴾؛ فإنَّهما لا تنفعانكم إلا بأمره وإرادته، ﴿ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ ﴾ تقولون إنَّكم ﴿ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ دون مَن سواه؛ فإنهم قالوا: إنَّا نتخذ مَن سواه شفعاء. فالسَّجدة أقصى العبادة.

﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾ ولم يمتثلوا ما قلتَ لهم، فلا نقصَ بذلك في حضرته سبحانه، فإنه غني بالذات، إنَّما العباداتُ لنفع العابدين، وإن ظنَّ أن العبادةَ كمالٌ فلا بُدَّ منها ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ مِن الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ ويُنَزِّهون ﴿ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ دائماً ﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ لا يَمَلُّون عن[1] ذلك، أو المعنى: وإن استكبروا عن التوحيد فالذين عند ربك يسبحونه عما يشركونه، ويلعنونهم على إشراكهم[2].

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ الدالَّة على التوحيد والبعث الباعث لهم على أن يعبدوه وحده، ويكونوا دائمين على ذلك ﴿ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً ﴾ يابسة كالميت، ﴿ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ ﴾ تَزَخْرَفَت، ﴿ وَرَبَتۡ ﴾ ونفخت بالنبات، فاستدلُّوا بها على التوحيد والبعث، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ ﴾ فذا مِثال البعث، ولإمكانه واحتياجه إلى المؤَثِّر يدل على التوحيد أيضاً، وبذا ثبتت القدرة الباهرة، ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ مِن التكوين والإفساد[3] ﴿ قَدِيرٌ ﴾، فلا يخلو شيءٌ عن إحاطة القدرة به؛ إذ كل شيء لا يخلو عن الكون والفساد.

﴿ إِنَّ ﴾ الذين يسمعون ما تلونا عليهم ثُمَّ ﴿ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بالطعن

---

(١) والصحيح أن يقال: (يملون من ذلك).

(٢) وضح هذا المعنى القشيري في تفسيره (٣٣٣/٣) حيث قال: (ويقال: خلق الملائكة -ومع كثرة عبادتهم، ومع تقدمهم في الطاعة- قال لهم: اسجدوا لآدم، وحين امتنع واحدٌ منهم لعن إلى الأبد. وقال لأولاد آدم العصاة المذنبين: ﴿ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ ... ﴾).

(٣) لم يظهر لي مراد المؤلف بلفظ (الإفساد)، وربما صُحف لفظ (الإيجاد) إلى (الإفساد)، أو يقصد المؤلف بالفساد هو فناء العالم عند قيام الساعة وهلاك الكون واضمحلاله بعد وجوده.

والتحريف والتأويل الباطل والإلغاء فيها ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾ هؤلاء / ﴿عَلَيْنَآ﴾ فلا بُدَّ أن [٤٢٥/أ] نجزيهم، فلا يستوون حينئذٍ، بل أحدهما على[1] خير، والآخر شرٌّ، ﴿أَ﴾أنتم تقولون: إنَّ الملحدَ خيرٌ! ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾، ﴿أَم﴾ تقولون أنَّهُ ﴿مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التي هي مشحونة بالأهوال! ففي هذه المقابلة مبالغة في إحماد[2] المؤمنين؛ حيث لم يقل: أم من يدخل الجنة، فأنتم إذا سمعتم ما ذكر لكم فأنتم ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو يجزيكم على ذلكم.

﴿إِنَّ﴾ الذين يلحدون في الآيات هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وهم يكفرون تعانداً، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ غالب ليس له نظير، كثير النفع.

إذ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ مِن جهة مِن الجهات، أو مما فيه مِن الأخبار الماضية والأمور الآتية، فدلَّ ذلك على أنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وليس في ذلك الكتاب ما به يتطرَّقُ إليه الشبهةُ؛ فإنه ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ في ذلك الكتاب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، أو المعنى: لا تحزن على تكذيبهم وإلحادهم في الآيات، فإنهم لا يقولون لك إلا ما قد قالت الأممُ الماضيةُ لرسلهم[3]، فإنه قد قيل لك في كتابك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للذين اسْتَحَقُّوْا ذلك، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لِمَن استحَقَّ ذلك، أو إنَّ ربَّك قد غفر لأنبيائه وتابعيه، وعاقب أعداءهم.

وهم يطعنون في كتابك بأنَّه هَلاَّ أُنزل بلغة العجم ليكون أعجز؛ فإنَّ تكلُّم العربيِّ

---

(١) في [ف] بلفظ: (أحدهما خير).

(٢) الإحماد مشتق من الحمد، قال ابن دريد في جمهرة اللغة (٥٠٥/١): (والحَمْد: خلاف الذَّمِّ، حمدت الرجل أَحْمَده حمداً إذا رأيت مِنه فعلاً مَحموداً، واصطنع إليك يداً تحمده عليها. وأحمدت الأَرْض أحمدها إحماداً: إذا رضيت سكناها أَو مرعاها).

(٣) رواه الطبري (٤٨١/٢١) عن السدي، وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥٤/٤): (فيه قولان: أحدهما: أنه قد قيل فيمن أرسل قبلك: ساحر وكاهن ومجنون. وكذبوا كما كذبت، هذا قول الحسن، وقتادة، والجمهور. والثاني: ما تخبر إلا بما أخبر الأنبياء قبلك مِن أن الله غفور، وأنه ذو عقاب، حكاه الماوردي). حيث قال الماوردي في النكت والعيون (١٨٦/٥): (حكاه ابن عيسى، وقاله الكلبي).

بلسان العجم أغرب، فإنا ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ﴾ طعناً فيه: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ﴾ وبُيِّنت ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بلسان نفهمه كلامٌ ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَ﴾ مخاطَبٌ ﴿عَرَبِيّٞۗ قُلۡ﴾ لهم: إنَّكم إنَّما تطعنون لأنه ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وعلم اللهُ سبحانه إيمانَهم ﴿هُدٗى﴾ إلى الحق ﴿وَشِفَآءٞۚ﴾ لما في صدورهم مِن الشكِّ والشبهةِ، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ذلك القرآن ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ وثِقل، ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ ذلك لتصامِّهم عن سماع الآيات، وتعامِيهم عن رؤيتها، فصاروا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كأنهم ﴿يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ فلا يسمعون قول المنادي لِلمسافة البعيدة.

﴿وَ﴾ليس ذلك ببِدعٍ مِن قومك، بل تلك سُنَّةٌ قد جرت فيمن تقدَّم، فإنّا لقد ﴿لَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ بالتَّصديق والتَّكذيب كما اختلف في القرآن، ﴿وَ﴾كان مقتضى تكذيبهم أن يهلكوا سريعاً؛ فإنه ﴿لَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ باستئصال المكذبين؛ ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ -أي: الذين لا يؤمنون مِن قومِك بكتابِك- ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ مِن كتابك ﴿مُرِيبٖ﴾، أو الذين لا يؤمنون مِن اليهود لَفي شكٍّ من التوراة(١)، فإنهم لو كانوا يؤمنون بكتابك أيضاً.

﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وآمن بكتابك ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ نفعُه، ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ﴾ ولم يؤمن ﴿فَعَلَيۡهَاۗ﴾ ضرُّه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلا يجعل عقابَهم لغيرِهم.

[٤٢٥/ب] وإنهم لم يؤمنوا بك لأنَّهم يسألونك عن الساعة، / ويقولون: متى هذا الوعد؟ فقل لهم: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ دون غيرِه، فإنَّه لا يعلمها إلا هو، ﴿وَ﴾كذلك ﴿مَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ مِن أوعيتها، ﴿وَ﴾كذا ﴿مَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾، فكما لا تقتضي الرسالةُ عِلْمَ الأشياء المذكورة؛ فإنَّ الرسلَ الذين قد مضوا لم يكونوا يُخْبِرون بتلك الأشياء، وكذلك لا يقتضي أن يكون الرسولُ عالِماً بالقيامة. ﴿وَ﴾هم لا يعلمون ضررَ عدمِ إيمانهم بذلك اليوم إلا ﴿يَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ بزعمكم؟ ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ وأعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ يشهد لهم بالشركة، فإنَّا

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٥/٧٣).

تبَرَّءنا منهم لَمَّا عاينَّا الحال.

﴿وَ﴾حينئذ ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ﴾ وتيقَّنوا أنهم ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مَهْرَبٍ.

وهم لم يتيقَّنوا بذلك حين كان ينفعُهم، وكانوا كذلك في الدنيا حين نزول البلايا بهم؛ فإنَّه ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ وطَلَبِه، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ والأذى ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ مِن فضلِ اللهِ سبحانه.

﴿وَ﴾إنَّا ﴿لَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ فنفرجها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ وأنا أستحِقُّه بمالي مِن الفضل. وفي قوله: ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾ إشارةٌ إلى اغتراره بالنعمة القليلة، ويغتر بذلك حتى يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ بل يكون الزمان ذا يُرى هكذا، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ كما تقولون ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ كما هو لي[1] الآن. فإذا جاءت الساعة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ مِن السيئات، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ جزاءً على ذلك[2] الأعمال.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ ليشكر ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشِّرْكِ، ﴿وَنَـَٔا﴾ وانحرف عنه ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ وتباعد عنه بالكُلِّيَّة، يعني: أنه لا يتوهم الشكرَ أصلاً، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فيدعو اللهَ سبحانه كثير الدعاء.

﴿قُلْ﴾ للذين كفروا بكتابك الذي يخبر بالتوحيد والبعث: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ ذلك الكتاب ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ فانظروا أنَّه ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ مِن الصواب، وإنَّكم قد وقعتم في ذلك الخلاف على ذلك التقدير، وعلى العاقل أن يجتنب عن[3] مظانِّ الضرر. وهذا

---

(١) في [ف] بلفظ: (كما هي لي).

(٢) والصحيح أن يقال: (تلك الأعمال).

(٣) والصحيح أن يقال: (يجتنب مظان) لأن فعل (يجتنب) يتعدى بنفسه.

[ناظِرٌ إلى قول][1] مؤمن آل فرعون -أعني قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر:٢٨]-.

وإنَّا ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالَّة على أنَّ القرآن حقٌّ ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ مِن الأخبار التي أخبر بها النبيُّ ﷺ مِن الحوادث الآتية والماضية، وما يَسَّر اللهُ تعالى لخلفائه مِن الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ما حلَّ بأهل مكة، أو في بدن الإنسان مِن عجائب الصنع[2] ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ / أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ أيشك في [٤٢٦/أ] ظهور أمرك! ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾ والباء زائدة، يعني: أولم يكف ربُّك في إظهار أمرك! بل كفاك[3] ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ مُطَّلِعٌ على حالك وعلى أحوالهم، فيحقق أمرك، ويبطل أمرهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ﴾ وشكٍّ من ذلك؛ لأنهم في ريب، بل إن كان ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ فإنهم ينكرون البعث، إلا أنه سبحانه ليجزيهم ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ لا يفوت عنه سبحانه شيء؛ فهم لا يفوتونه.

---

(١) كذا في المخطوط ولعل الصواب أن يقال: [نظير قول مؤمن آل فرعون]

(٢) قال الماوردي في تفسيره النكت والعيون (١٨٩/٥): (فيه خمسة أقاويل: أحدها: أنَّ في الآفاق فتح أقطار الأرض، وفي أنفسهم فتح مكة، قاله السدي. الثاني: في الآفاق ما أخبر به من حوادث الأمم، وفي أنفسهم ما أنذرتهم به من الوعيد. الثالث: أنها في الآفاق آيات السماء وفي أنفسهم حوادث الأرض. الرابع: أنها في الآفاق إمساك القطر عن الأرض كلها، وفي أنفسهم البلاء الذي يكون في أجسادهم، قاله ابن جريج. الخامس: أنها في الآفاق انشقاق القمر، وفي أنفسهم كيف خلقناهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وكيف إدخال الطعام والشراب من موضع واحدٍ وإخراجه من موضعين آخرين).

(٣) قال أبو البقاء العكبري في التبيان في إعراب القرآن (١١٢٩/٢): (قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾: الباء زائدة، وهو فاعل ﴿يَكۡفِ﴾، والمفعول محذوف؛ أي: ألم يكفك ربك. فعلى هذا ﴿أَنَّهُۥ﴾ في موضع البدل مِن الفاعل، إما على اللفظ، أو على الموضع؛ أي: ألم يكفك ربك شهادته. وقيل: في موضع نصب أو جر، على تقدير: بأنه. وقيل: ﴿بِرَبِّكَ﴾ في موضع نصب مفعول ﴿يَكۡفِ﴾؛ أي: ألم يكف ربك شهادته).

(سورة الشورى)

سورة الشورى مكية[(١)].

وهي ثلاث وخمسون آية[(٢)].

سُمِّيت بذلك لاشتمالها على أمر المشورة، التي هي أعظمُ أركان الدِّين، الدالَّة على تألفهم فيما بينهم، وهو الذي مَنَّ الله تعالى به على عباده، فقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣]، فكأنَّها مسُوقةٌ لذلك.

وسميت بـ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ أيضاً إذ تتمتها أنها وحيٌ مِن الله سبحانه، فهذه السورة -بل جميع القرآن- مسوقة لذلك.

وقيل: سُميت السور التي هي مشاركة في مبدئها مِن بيان حال الكتاب باسم واحد، فحينئذ إمَّا أن يُقال: إنَّ هذه السورة سميت بـ﴿حمٓ﴾ وبـ﴿عٓسٓقٓ﴾ كما يدل عليه كتابتها منفصلة. أو يقال: إنها سميت بالمجموع؛ إذ ذكر فيها حال ما قبل القرآن أيضاً، ويوجه بذا تسميتها بذينك الاسمين دون ما سواها مِن السور المشاركة لها في المبدأ[(٣)]. وقيل: إن المجموع اسم واحد[(٤)]، فيوجه الانفصال في الكتابة بالتطابق بين الحواميم الأخر.

---

(١) سورة الشورى من السور المتفق على مكيتها، واختلف في: الآيات ٢٣-٢٧ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ إلى قوله تعالى: (إنه بعباده خبير بصير) والآيات ٣٩-٤١: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ إلى قوله تعالى ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ ولا يصح القول باستثنائها. انظر المكي والمدني (ص٢٧٨).

(٢) قال الداني في البيان (ص٢٢١): (وهي خمسون وثلاث آيات في الكوفي، وخمسون في عدد الباقين. اختلافها ثلاث آيات: ﴿حمٓ ۝١﴾ و﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾، و﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الشورى:٣٢] عَدَّهُنَّ الكوفيُّ ولم يعُدَّهُنَّ الباقون، وكلهم عدَّ ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ في الموضعين من هذه السورة، وقد جاء عن أيوب بن المتوكل أنه لم يعد الأول، ولا يصِحُّ ذلك عنه).

(٣) ورد لها أربعة أسماء : الأول سورة الشورى، والثاني سورة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، والثالث سورة ﴿عٓسٓقٓ﴾، والرابع سورة (حم سق). انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص: ١٣٣).

(٤) يقصد باسم واحد: أنها تنطق الأحرف مجتمعة (حمعسق) نطقا لا كتابة.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ المؤلَّف منها ومِن أمثالها.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فالذي يُوحَى إليك والذي يُوحَى إلى مَن قبلك متشاركان؛ لأنَّ كلاً منهما مِن الله العزيز الغالب الحكيم، فكل منها غالب ذو حكمة.

وهو الذي ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع ذلك الانتظام البليغ، ﴿وَ﴾ذا يدُلُّ على أنه ﴿هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

ولِعُلُوِّه وعظمته ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ يشّقَّقْن ﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾، وتخصيص الجهة الفوقانية إذ أعظم الجهات هي تلك؛ إذ العرش الذي منه تدبير العالم في تلك الجهة. أو المراد: يتشققن لادِّعاء أهل الأرض الولد له مع تلك العظمة[1]، فتخصيص تلك الجهة لأنَّه إذا انشقت تلك الجهة مِن ذلك الادعاء فجهة السُّفلِ أولى. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين هم سُكَّان السماوات ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يُنَزِّهون ملتبسين ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، ويشكرون الله على توفيقه للتسبيح، ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ الله سبحانه ﴿لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِما يرون منهم التفريطات الموجبة لإهلاك جميع العالم. أو المراد: هو السعي فيما يوجب مغفرتهم من الشفاعة[2] والإلهام وإعداد الأسباب المقربة إلى الطاعة. فعلى الوجه الأول يَعُمُّ قولُه: (مَن في الأرض) جميعَ الموجودات، /﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي [٤٢٦/ب] يستغفرونه ﴿هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فما مِن مخلوقٍ إلا وهو ذو حِفظ مِن رحمته، فلا علوَّ ولا عظمةَ أعلى من ذلك.

---

(١) قال الثعلبي في تفسيره (٨/٣٠٣): (﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي: مِن عظمة الله وجلاله فوقهنّ. قال ابن عباس: تَكادُ السَّماواتُ كلّ واحدة منها تتفطّر فوق الّتي تليها من قول المشركين، اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً).

(٢) قد مر معنى شفاعة الملائكة للمؤمنين في تفسير الآية ٧ من سورة غافر، عند قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ تركوا ذلك العليَّ العظيم ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ شركاء وأنداداً، ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ ﴾ رقيب ﴿عَلَيۡهِمۡ ﴾[1] وعلى أحوالهم وعلى أعمالهم، فيجازيهم، ﴿وَمَآ أَنتَ ﴾ يا محمد ﴿عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ يحفظهم ويمنعهم عما يضُرُّهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ الإيجادُ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ يفهمه قومُك؛ ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ يعني: مكة وأهلها، ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ مِن القرى الأخرى التي للعرب، ﴿وَ ﴾إنَّما ﴿تُنذِرَ ﴾هُم ﴿ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ ﴾ الذي يجمع فيه الخلائقَ للجزاء، وذلك اليوم ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾، ويُمَيِّز فيه الفريقان المؤمنون والكافرون، ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾.

ولا يُنافِي كفرُهم وعصيانُهم عُلُوَّه وعظمته، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ مجتمعين على الاهتداء، ولو شاء لجعلهم كلهم كافرين، فلما كان ذلك تابعاً للمشيئة لم يُنافِ العلوَّ[2]، وليس ذلك بمقتضى ذواتهم، ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ ﴾ بالهداية والحملِ على الطاعة، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الذين لم يشأ رحمتَهم ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

اتخذ قومك ذلك العلي العظيم وليّاً، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ فهم لا ينصرونهم، فإنَّهم إذا أرادوا أولياء ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ ﴾ بالحقِّ، وذلك لأنَّه هو يحيي الموتى لئن يجزيهم، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ ﴾ فهو الحقيق بالولاية، فكان الواجب عليكم أن تتفقوا على ذلك العلي العظيم.

﴿وَ ﴾إنكم ﴿مَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ ﴾ أنتم والكفار ﴿فِيهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ مِن أمر من أمور الدِّين أو الدنيا ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، فهو يُمَيِّز بين الْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ. أو المعنى: وكان

---

(١) في [ف] بلفظ: (حفيظ عليهم).

(٢) الصفات الفعلية هي التي تتعلق بالمشيئة وليست لازمة لذاته سبحانه مثل: الاستواء على العرش، ونزوله بمشيئته إلى سماء الدنيا. فنزوله سبحانه إلى سماء الدنيا لا ينافي علوه فوق عرشه لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع العليم فهو عالٍ في دنوه قريب في علوه.

عليكم أن تَتَّفِقوا على الكتاب الذي أنزل من ربكم[1]، وكان عليكم أن تَرُدُّوا ما اختلفتم فيه مِن ذلك الكتاب لعدم وضوح معناه إلى الله، وإلى ما ثبت وتَحَقَّق أنَّه منه سبحانه مِن المحكم في ذلك الكتاب؛ إذ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ وربُّكم، فإني ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في مجامع الأمور، وأنتم عليه توكلوا فيها، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أَرْجِعُ.

وكذلك أنتم ارجعوا إليه في جميع معضلات أموركم؛ إذ هو ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وما بينهما، فالكل منه سبحانه، وانظروا إلى أنفسكم فإنه ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ نساء لتسكنوا إليهنَّ؛ إذ الجنسُ مع الجنسُ أَمْيَلُ وآنَسُ، ﴿وَ﴾خلق لكم ﴿مِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ أصنافاً لِتَمَتُّعِكم، أو ذكوراً أو إناثاً، وإنما جعل ذلك لأنه ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ ويُكثركم في ذلك التدبير، فإنه حينئذ يُكثر الجميع بالتوالد والتناسل؛ وحينئذ تكون المؤانسة والزينة أكثر[2]. وإنما قال ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾ ولم يقل: (به)؛ لأنَّه جعله كالمنبع للبثّ[3]. فتحقَّق بذلك أنَّه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ والكاف زائدة[4]، أو للكناية[5]، فإنه إذا لم يكن / لِمِثْلِه مِثْلٌ لم يكن له أيضاً كذلك. فاتركوا الاختلاف في الكتاب، ولا في شيء مِمَّا أمركم ربُّكم بالاتفاق فيه، ﴿وَ﴾ذلك إذ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم؛ فيجازيكم عليها، وفَوِّضوا جميع أموركم إليه سبحانه إذ هو ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ لأحوالكم وأفعالكم. [٤٢٧/أ]

ولا بُدَّ لكم مِن ذلكم الذي ذُكِر لكم مِن التفويض إليه سبحانه؛ إذ ﴿لَهُۥ

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦٠/٤): (﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: مِن أمر الدين. وقيل: بل هو عامٌّ، ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: علمه عند الله. والثاني: هو يحكم فيه. قال مقاتل: وذلك أن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن وآمن بعضهم، فقال الله: أنا الذي أحكم فيه، ذلكم الله الذي يحكم بين المختلفين).

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦٠/٤): (﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: يخلقكم، قاله السدي. والثاني: يعيشكم، قاله مقاتل. والثالث: يكثركم، قاله الفراء).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري (٢١٢/٤).

(٤) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٥١/٤).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري (٢١٢/٤).

﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ التي جميعُ ما في هذا العالَمِ إنَّما يتَولَّد منهما، وبيده خزائنهما، فهو ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُوَسِّع ويُضَيِّق على وفق مشيئته، ولكنه سبحانه لا يشاء بلا حكمة ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعُلُه على ما ينبغي.

وما أُمِرتُم به ليس ببِدْعٍ؛ فإنه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ فإنَّهم كلَّهم كانوا متفقين على الأصول، وقلنا لهم: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ مجتمعين، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، فإنَّ الأصول الذي هو مِن الاعتقاديَّات لا يمكن فيه الاختلاف، وإن كان يمكن ذلك في الفروع الذي هو من العمليات، وهو يسهل على المؤمنين الذين بقوا على فطرتهم، وإنما ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن الدين القويم؛ لأنَّهم أضاعوا فطرتَهم، وجميع ذلك بيده سبحانه إذ ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿وَ﴾لكنه جرت سننه بأنه ﴿يَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

﴿وَ﴾إنَّهُم لَم يتفرقوا في ذلك جهلاً منهم، بل ﴿مَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بأنَّ التفرُّق ضلالٌ، وإنما تفرقوا ﴿بَغْيًۢا﴾ وطلباً للدنيا، وحسداً ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَ﴾كان مقتضى ذلك الخسران يهلكوا كما فعلوا، فإنه ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهال ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة، أو أواخر أعمالهم المقدرة؛ ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال الذين أبطلوا، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ بعد الذين جاءهم العلم، وهم اليهود الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ[1]، أو المشركين الذين أُورِثُوا الكتاب مِن بعد اليهود، وهو القرآن[2]، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن كتابهم، لا يعلمونه كما هو، أو لا يؤمنون به، أو من القرآن، ﴿مُرِيبٍ﴾ متعلق.

---

(١) قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى. انظر: تفسير مقاتل (٧٦٦/٣)، وتفسير الطبري (٥١٥/٢١)، وتفسير البغوي (١٨٧/٧).

(٢) قال الماوردي في النكت والعيون (١٩٨/٥): (﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، قاله السدي. الثاني: أنهم نُبِّئوا مِن بعد الأنبياء، قاله الربيع).

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ التفرق أو العِلْمُ ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتِّفاق على الدِّين القويم، أو إلى الاتِّباع إلى ما أوتيت؛ فعلى الوجه الأول يكون (ذلك) إشارة إلى التفرق[1]، وعلى الوجه الأخير يكون ذلك إشارة إلى العلم أو الكتاب، فعلى هذا الوجه الأخير يمكن أن يكون اللام بمعنى إلى[2]، وأن يكون للعلة، وأن يكون للصلة كما في قولك: دعوت زيداً لدرهم، فإنه يمكن أن يكون المعنى دعوته إلى درهم، ولأجل درهم، ولفقره لدرهم، يعني: لأجل الفقر لدرهم. فاللام الأولى للعلة، والثانية للصلة. واعلم أنَّ كل لام يفيد معنى الصلة أو العلة[3] فيمكن أن يكون بمعنى: إلى. ﴿وَ﴾أنت ﴿ٱسْتَقِمْ﴾ / على دينك ﴿كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، وإن رأيت في ذلك مصلحةً، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ جميع الكتب المنزلة، ولا يكون كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ﴿وَ﴾قل لهم ﴿أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ فكيف أتَّبعُ أهواءَكم التي تميل إلى البطلان! وكيف أتَّبع ما يخالف أمرَه سبحانه! وهو ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الذي يتولى أمور الجميعِ، وليس علينا إلا الأمر بذلك[4]، فإنه ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فإنَّ كلاً منا ومنكم يُجازى بعمله، ولم يبق إلا الأمر إذ ﴿لَا حُجَّةَ﴾ ولا خصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ فإنَّ الحقَّ قد ظهر، فمَن آمَنَ به فلنفسه، ومَن أساء فعليها، وأنتم لا تعلمون ذلك اليوم ولكن ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجع الكل.

[٤٢٧/ب]

﴿وَ﴾حُجَّتُكم لا تفيدُكم؛ إذ ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ في دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ لظهورِه، فإنَّهم ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ باطلة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وإن كانت رائجةً عند الناس لذلك، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ فإنهم يجادلون مع ظهورِ أنه حقٌّ لا[5] يظهر غضبه لهم، فإنهم لا يعلمون ذلك، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على ذلك.

---

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/٥٢).

(٢) قال الفراء في معاني القرآن (٣/ ٢٢): (والمعنى: فإلى ذلك فادع. كما تقول: دعوت إلى فلان، ودعوت لفلان).

(٣) لم أجد في كتب اللغة مَن أشار إلى أنَّ اللام للصلة وللعلة.

(٤) مقصود المؤلف: ليس علينا إلا الأمر بذلك والدعوة إليه، فالأمر هنا بمعنى الدعوة والله أعلم.

(٥) في [ف] بلفظ: (ولا).

وهُم يُحاجُّونك مع أنَّه هو ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ بعيداً عن الباطل، ﴿وَ﴾جعل كتابك ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ الذي به تُوزَن حقوق العباد والرب، أو أنزل آلة الوزن بأن أوحى أعدادها وجعلها كالكتاب[1]، فكما يعلم بالميزان الزيادة والنقص كذلك بالكتاب، ويظهر فائدة العمل بذلك يوم القيامة، ﴿وَ﴾لا تظنوا أنها بعيدة، فإنَّه ﴿مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ إتيانها؛ [فعليك][2] أن تتَّبعوا الكتاب، واعملوا بالشرائع، ولا تنقصوا في الميزان.

وإنَّما ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ زعماً منهم بأنَّها ليست بآتية، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أمارة إيمانهم أنَّهم ﴿ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾، فإنَّك وإن بعد وقوعها لكن ما تحقَّق وقوعه، فهو كأنه وقع. ﴿وَ﴾هم إنما يخافون لأنهم هم ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ الكائنُ لا محالة، لإقامة البراهين القطعية الدالَّة على وقوعها، ﴿أَلَآ ﴾ إنهم هم الذين سلكوا سواءَ السبيل، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ ﴾ يُجادِلون ﴿فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ بعد أن أُقيمَتِ البراهينُ عليها ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ عنِ الصواب، فعَوده إلى الحقِّ بعيدٌ كل البعد.

وكان مقتضى ذلك أن لا يُرزقوا؛ فإنَّهم إنما يُرزقون لأن يعبدوا، والباعث على العبادة وهو الإيمان بالساعة، فإذا لم يؤمنوا بها فلا يعبدون، لكنِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾، يُرَبِّيهم بصنوفٍ مِن البرِّ، فهو ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾، ولا يتوقَّفُ رِزقُه على العبادة؛ فإنَّه سبحانه يرزق الكفرةَ، ﴿وَ﴾ذلك لأنه ﴿ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ﴾ القادر على كل شيء، فيفعل ما يريد في أيِّ وقت أراد، فلا يُبالي يبسط الرزقَ ويقبضه.

إلا أنَّه يرضى عمَّن يعبدُه، فإنه قال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ / ويعبده ليكون له ثواب في آخرته ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾، فنعطيه بالواحد عشراً إلى سبعمائة فما [٤٢٨/أ]

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦٢/٤): (والميزان فيه قولان: أحدهما: أنه العدل، قاله ابن عباس، وقتادة، والجمهور. والثاني: أنه الذي يوزن به، حُكي عن مجاهد. ومعنى إنزاله: إلهام الخلق أن يعملوا به، وأمر الله ﷻ إيَّاهم بالإنصاف.وسمي العدل ميزاناً: لأنَّ الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق).

(٢) كذا في المخطوط والصواب أن يقال: [فعليكم].

فوقها، ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ ﴾ شيئاً ﴿ مِنْهَا ﴾ كما قسمنا له، ولا يمنعنا عن ذلك عصيانُه وكفرُه بنا، إلا أنه ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ علمه ذلك؛ إذ الآخرةُ إنَّما تكون لِمَن عمِل ونوى بعمله تلك.

وذلك الذي ذكر هو الدين القيم، والدين الذي اتخذوه أَهُمْ أحدثوه مِن عند أنفسهم؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ أي كان[1] ﴿ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾، والدين لا يكون ديناً إلا بإذنه سبحانه، ﴿ وَ ﴾كان مقتضى ذلك الاتخاذ أن يَهلكوا كما اتخذوا، إلا أنه ﴿ لَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ ﴾ القضاءِ السابق بتأخير عذابهم ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: المؤمنين والكافرين، أو المشركين وشركائهم[2]، ولكنهم لا يُهْمَلون على ما هم عليه ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وذلك حين ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ مِن الأعمال السيئات، ﴿ وَ ﴾خوفُهم حينئذٍ لا يفيدُهم إذ ﴿ هُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ﴾ لم يظلموا بل ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فهم ﴿ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ﴾، فهم يلْتَذُّون لذَّةً عظيمةً، بحيث ﴿ لَهُم ﴾ هنالك ﴿ مَّا يَشَآءُونَ ﴾ إذ هو ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، ولا يبعد بالنسبة إليه سبحانه ذلك لكمال قدرته، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر ﴿ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الذي يصغُر دونَه ما لغيرهم.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الفضل ﴿ ٱلَّذِى ﴾ ذُكِر إنَّما ﴿ يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ﴾ انتسبوا إليه سبحانه بأن آمنوا ﴿ وَ ﴾قوَّوْا إيمانهم بأن ﴿ عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وإنما بشّر لأن يهتموا كل الاهتمام بالإيمان والأعمال، ﴿ قُل ﴾ لهم: إني ﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ ﴾ على[3] ذلك التبشير ﴿ أَجْرًا ﴾ كما هو دأب المبشرين ولا أطلب منكم شيئاً ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ ﴾ أن تودُّوني ﴿ فِى ﴾ جهة ﴿ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ قرابتي منكم، فإنَّ رعاية الأقربين محمودةٌ عند كلٍّ، فأسألكم

---

(١) في [ف] بلفظ: (الذي كان).

(٢) ذكر هذين المعنيين الزمخشري، انظر: الكشاف (٢١٨/٤)، وانظر تفسير البيضاوي (٨٠/٥).

(٣) في [ف] بلفظ: (﴿ عَلَيْهِ ﴾). وهو الصواب الموافق لرسم الآية.

ذلك لأجل ذلك، لا لتبشيري. أو أسألكم أن تودّوا أقاربي(1)، وذا ليس بأجرٍ على التبشير، بل ذا ينفعُكم؛ فإنّكم تُحِبُّونهم لي، فبذلك يتِمُّ إيمانُكم. رُوِي: أنَّها لَمَّا نزلت قيل: يا رسول الله، مَن قرابتُك هؤلاء الذين وجبت مودتُهم؟ قال ﷺ: «عليٌّ وفاطمة وابناهما»(2). أو المراد: التقرب إلى الله، يعني: إلا المودة التي تقربكم إلى الله، وهي أن تطيعوه ورسولَه بالأعمال الصالحات، [ليس](3) التبشير مخصوصاً بكثرة الأعمال، بل ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ واحدة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا﴾ وفي حسنة ﴿حُسْنًا﴾ بِتَضاعُفِ الثوابِ. وقيل: إنها نزلت في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مودتِه لآل الرسول(4) ﷺ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَن أذنب، فليس ذلك التبشير مخصوصاً لِمَن لم يذنب أصلاً، ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَن أطاع، فيُثيبه ويُوفق له الزيادة على تلك الطاعة. قيل: إنَّ ذلك التوفيق جزاؤُه في العاجل/. [٤٢٨/ب]

أيُصَدِّقون ما قيل لهم ﴿أَمْ﴾ لا يُصَدِّقون و﴿يَقُولُونَ﴾: إنه ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة والقرآن. وذا محالٌ منكَ؛ فإنَّه سبحانه قد طَهَّرك عن الذنوبِ كلها، وشرح صدرك بنوره، [وليس](5) بمقتضى ذاتك، ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فحينئذٍ تفتري عليه سبحانه، وهو سبحانه لم يشأْ ذلك؛ فإنَّه سبحانه شاء أن ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ﴾ لئن يُظْهِر ألوهيته و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾، ﴿وَ﴾ذا لا يكون إلا بأنَّه ﴿يُحِقُّ ٱلْحَقَّ

---

(١) انظر: النكت والعيون (٥/٢٠٢) وذكر في ذلك خمسة أوجه، وتفسير السمعاني (٥/٧٣).

(٢) رواه الإمام أحمد عن ابن عباس في فضائل الصحابة (٢/٦٦٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/٤٧). وضعفه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٤٨)، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٣٥): (ورواه ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيريهما: ثنا علي بن الحسين، ثنا رجل سماه، ثنا حسين الأشقر به سواء، وحسين الأشقر شيعي مختلق، وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد فإنها مكية، ولم تكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية. وأخرج البخاري في باب مناقب قريش من كتاب المناقب (٤/ ١٧٩) عن ابن عباس قال: إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان لهم فيه قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة).

(٣) في [ف] بلفظ: [وليس].

(٤) لم أجد ذِكْرُ هذا السببِ لنُزول هذه الآية في كتب المفسرين.

(٥) في [ف] بلفظ: [وذا ليس].

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ التي أُنزِلت إليك، وهو سبحانه عليمٌ بما يقولون، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التي لم تتكلم.

﴿وَ﴾هم وإن قالوا ذلك لكن باب التوبة عنهم ليست بمسدودة، لأنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ[1] ٱلتَّوْبَةَ﴾ التي هي عملُ القلبِ أولاً ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الذين انتسبوا إليه سبحانه بإخلاص التوبة. وإنما قلنا: (عمل القلب أولاً) إذ هي الندامة، ثم إعادة الفرائض إن ضاعت، وردُّ المظالمِ إن كانت. ﴿وَ﴾هو سبحانه لعلمه ﴿يَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كلها إن علم أنه [يستعدّ][2] لذلك، وكانت الحكمة في ذلك، وذلك لِمَن يشاء بلا توبة، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم على أفعالكم.

﴿وَ﴾لعلمه ﴿يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أدعيتَهم، أو طاعتهم التي طلبوا بها ما يتَرَتَّبُ عليها، أو وإنما يستجيب الله بالطاعة الذين آمنوا[3]، ﴿وَ﴾هو سبحانه ﴿يَزِيدُهُم﴾ على ما سألوا، أو فعلوا واستحقوا، ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ عليهم، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين لم يستجيبوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدل ما للمؤمنين مِن الثواب والفضلِ، لم يفضل عليهم عاجلاً، ولم يعُدَّ على الطاعة ذلك.

﴿وَ﴾ لم يبسط على كل مطيعٍ، فإنَّه ﴿لَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتكبَّروا فيها وأفسدوا فيها. وذا باعتبار الغالب، فإنَّ البغيَ مع الفقرِ أقل، ومع البسط أكثر، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ﴾ يعلم خفايا أمورَهم، ﴿بَصِيرٌ﴾ يعلم جلاياها. رُوي: أنَّ

---

(١) في [ف] بلفظ: [هو يقبل].

(٢) في [ف] بلفظ: [مستعد]. وهو الأنسب للسياق.

(٣) ذكر الزمخشري في الكشاف (٤/٢٢٣) نحواً مِن هذا فقال: (وقيل: الاستجابة: فعلهم، أي: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها، ويزيدهم هو من فضله على ثوابهم).

قال ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير (٤/٦٥): (﴿يَسْتَجِيبُ﴾ بمعنى: يجيب، وفيه قولان: أحدهما: أن الفعل فيه لله، والمعنى: يجيبهم إذا سألوه، وقد روى قتادة عن أبي إبراهيم اللخمي ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم، ويزيدهم مِن فضله. قال: يشفعون في إخوان إخوانهم. والثاني: أنه للمؤمنين، فالمعنى: يجيبونه. والأول أصح).

أهل الصُّفَّةِ تَمَنَّوُا الغِنى؛ فنَزَلت[1]. وقيل: في العرب[2]، فإنهم كانوا إذا أخصبوا تحاربوا، وإذا جدبوا انتجعوا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطر الذي هو مِن أسباب البسطِ، وإنما سمي غيثاً: لأنه يغيثهم من الجدب، ولذا خُصَّ بالمطر النافع ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا﴾ قُبِضوا قبضاً ﴿قَنَطُواْ﴾ من البسط، ﴿وَ﴾بالغيث ﴿يَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ مِن الخصب، فهو سبحانه حيناً يَقبض لإزالة بغيهم، وحيناً يبسط وينشر الرحمة لأن يشكروه ويعبدوه، أو ينشر رحمته في كل شيء، ورحمته عامَّة، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتصرَّف في ملكه ينشر الرحمة، فهو ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ الذي يُحْمَد على ذلك.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الدالَّةُ على أنَّه هو المتصرِّف المتولي في جميع الأشياء، وهو المنَزِّل للغيث وهو الذي ينشر الرحمة؛ ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ / التي هي آباء لما في العالم، [٤٢٩/أ] ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ التي هي أمهات له، فإذا كان خَلْقُهما منه سبحانه، إذ لا بُدَّ لهما مِن صانع واجب بالذات[3]؛ فجميع ما في العالم منه سبحانه، ﴿وَ﴾منه خَلَقَ ﴿مَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ مِنْ حيٍّ. مِن إطلاق اسم المسبب للسبب، فيشمل الملائكة[4]. والمراد بما يدُب على الأرض، فإنَّ ما يكون في أحد الشيئين يُقال له: إنَّه فيهما[5]، ﴿وَ﴾إذا كان منه خلق الجميع فإنه ﴿هُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فاحذروا مِن الساعةِ التي فيها يجمعُكم ويجزيكم على أعمالكم.

وليس الجزاءُ مخصوصاً بيوم الجمع، بل ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ في الدنيا

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٥٣٥/٢١) عن عمرو بن حريث. وانظر أسباب النزول للواحدي (ص: ٣٧٥).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٥٧٧/١٤) عن ابن زيد. وانظر تفسير البيضاوي (٨١/٥)، وتفسير النيسابوري (٦/ ٧٨).

(٣) قد سبق بيان معنى كلمة: (واجب) في تفسير آية الزمر رقم (٤) (ص١٢٧).

(٤) انظر: تفسير مقاتل (٧٧٠/٣)، ورواه الطبري في تفسيره (٥٣٨/٢١) عن مجاهد.

(٥) انظر: تفسير الماتريدي (١٢٧/٩).

﴿ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ وعمِلَتْه من المعاصي؛ فإنَّ المصائب بشؤمها، حتى قيل للرسول ﷺ مع أنه معصومٌ عن الذنوب: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥]، فالمصائب تكون بشؤم معاصي مَن أصيب بها، أو معاصي مَن هو في جواره[1]، وقد يكون للابتلاء، والأول هو الغالب، ﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ مِن الذنوب فلا يُعاقِب عليها.

﴿ وَ ﴾لا تغتَرُّوا بذلك العفو؛ فإنكم ﴿ مَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ حين يُريدُ أن يعاقبكم، ﴿ وَ ﴾إذا أراد ذلكم بكم فإنَّكم ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يحرسكم عنها، ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفعها عنكم.

﴿ وَ ﴾لا تتفكرون في الآيات الدالَّة على ما ذكر؛ فإنَّه ﴿ مِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ ﴾ السفنُ الجاريةُ ﴿ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ كالجبال.

فإنَّه سبحانه ﴿ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ التي جَرْيُها بها، ﴿ فَيَظۡلَلۡنَ ﴾ ويبقين ﴿ رَوَاكِدَ ﴾ ثوابتَ على ظهرِ البحرِ، فهل مِن أحد من يجريها؟! ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ ﴾ يحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكر في الآية، ﴿ شَكُورٍ ﴾ يشكُر على نعمائه، ولا ينسب نعمه إلى غيره، فإنهم إذا جرى الفلكُ ينسبون ذلك إلى الرياح، أو المراد بالصبار: المؤمن[2] الكامل في الإيمان، يعني: أنَّ الذي كمُل إيمانه يستدل بآيات الله سبحانه بنور إيمانه؛ إذ الإيمان كالمصباح، لا يُرى شيءٌ في الظلمة بدون نور المصباح.

﴿ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ ﴾ أو يهلكهن بإرسال الريح العاصفة المفرقة، وذلك ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ عن المعاصي، ﴿ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴾ عن كثير مِن المعاصي، فإنَّه لو كان يأخذُهم بجميعِ معاصيهم لم يبق في الأرض شيءٌ.

وإنما فعل ذلك لينتقم منهم، ﴿ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أنهم ﴿ مَا لَهُم مِّن

---

(١) لعل المؤلف يقصد بذلك أن مَن لم يذنب قد تصيبه المصيبة بسبب جوار مَن أذنب، ويكون ذلك ابتلاءً له. والله أعلم.

(٢) وذكر هذا المعنى يحيى بن سلام في تفسيره (٦٨١/٢)، وانظر تفسير الماتريدي (١٣١/٩)، وتفسير السمعاني (٧٩/٥).

مَّحِيصٍ ﴾ مِن العذابِ الذي نزل بهم على معاصيهم.

ولا تجادلوا أنتم في آيات الله اغتراراً بالأمتعة الدنيوية؛ ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ نمتّعكم به مدةَ حياتِكم، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ مما وعدكم في الآخرة ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾، وذلك ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَ ﴾لإيمانهم ﴿ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، قيل: نزلت في أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- حين تصدَّق بمالِهِ كُلِّه، فلامه جماعةٌ[1].

﴿ وَ ﴾هم ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ / وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾، وفي [٤٢٩/ب] قوله: ﴿ هُمْ ﴾ دالَّةٌ على أنهم هم الأخِصَّاء[2] بالمغفرة.

﴿ وَ ﴾إنما اتصفوا بهذه الأوصاف لأنهم هم ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ فيما دعاهم إليه؛ ﴿ وَ ﴾لذا ﴿ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الناهية عن الفحشاء والمنكر، فصاروا طاهرين جميعاً، وتناسبوا فيما بينهم؛ ﴿ وَ ﴾لذا ائتلفوا فصاروا بحيث ﴿ أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ذوو شورى، لا ينفردون برأيٍ حتى يجتمعوا عليه، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في الخيرات.

﴿ وَ ﴾لا يقتضي المغفرةُ وقتَ الغضب أن لا ينتصروا أصلاً، بل هم ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ ﴾ والظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ كراهةً لِلتَّذَلُّلِ، وذا وصفهم بالشجاعة؛ فالحِلْمُ عن العاجز محمودٌ، وعن المتغلِّب مذمومٌ؛ إذ ذاك إغراءٌ على البغي في الانتصار.

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ وسُميت الثانية سيئة للازدواج[3]، أو لأنها تسوء مَن تنْزِل به[4]، فإذا أظهر شجاعته وغَلَبَته ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ بعد ذلك ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لا يُعَدُّ ولا يُحصَى. ولا يُذم الانتصار كما ينبغي ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وهم المبتدؤون بالسيئةِ، والمتجاوزون في الانتقام.

﴿ وَ ﴾أمَّا مَن لم يتجاوز فإنه ﴿ لَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ بعد ما كان مظلوماً

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢٢٨/٤) عن علي بن أبي طالب، وانظر: تفسير النسفي (٢٥٧/٣).
(٢) أخِصّاء: جمع مختص، وأخصاء بالمغفرة: المقصود به مختصون بالمغفرة دون غيرهم.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٩٠/١).
(٤) المصدر السابق (٤٣٥/٣).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ من المعاتبة والمعاقبة.

﴿إِنَّمَا﴾ ذلك ﴿ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بالإضرارِ وطلبِ ما لا يستحق منهم، ﴿وَ﴾هم الذين ﴿يَبۡغُونَ﴾ يُفسدون ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على الظلم والبغي.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى معَ الغلبة والقوة ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر أصلاً؛ بحيثُ أخرج عن قلبه ذلك؛ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ منه ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ وجاوزَ في الانتقام، أو ابتدأ بالظلمِ؛ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾ ناصرٍ يتولَّى ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ بعد خذلانه سبحانه إيَّاه، وهم لا يعلمون ذلك الخذلان، ﴿وَ﴾لكنهم ليعلمون حين ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ حين يخرجون على ظُلمهم ﴿يَقُولُونَ هَلۡ﴾ لنا ﴿إِلَىٰ مَرَدّٖ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾.

﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ حينئذ ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ على النار ﴿خَٰشِعِينَ﴾ مُتَذَلِّلين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ الذي يلحقهم، فهم ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ﴾ تحريك لأجفانهم ﴿خَفِيّٖ﴾ ضعيف، كالمصبور[1] ينظر إلى السيف، ﴿وَ﴾حينئذ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالتعريض للعذاب الدائم، وكان ذلك الخسران أو القول ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾. فيُقال لهم تصديقاً لهم: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾، أو يكون هذا مِن تمامِ كلامهم في ذلك اليوم[2].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ حينئذٍ ﴿مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَ﴾هم لا ينتفعون بالذي ذُكِر لهم؛ لأنه ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾ إلى الهدى والنجاة.

---

(١) المصبور: الْمَحْبُوس على القَتْل. المعجم الوسيط (١/٥٠٦).

(٢) ذكر السمرقندي في تفسيره أقوالا في ذلك فقال (٣/ ٢٤٨): (قال بعضهم: هذه حكاية كلام المؤمنين في الآخرة، بأنهم يقولون ذلك، حين رأوا الظالمين، الذين خسروا أنفسهم. وقال بعضهم: هذه حكاية قولهم في الدنيا، فحكى الله تعالى قولهم، وصدقهم على مقالتهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ يعني: دائم وقال بعضهم هذا اللفظ، لفظ الخبر عنهم، والمراد به التعليم، أنه ينبغي لهم يقولوا هكذا يعني: يصبروا على ظلمهم.

يا أيها الذين آمنوا ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ ﴾ / القيامة، ذلك[1] [٤٣٠/أ] ﴿يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؛ فإنَّه حكم به وقضاه، ولا يمكن لأحد سواه أن يردَّه، وإذا جاءكم فإنه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴾ إنكار لما اقترفتموه؛ فإنَّه مُدَوَّنٌ في صحائفِ أعمالِكم، مع أنها تشهد عليها جوارحكم.

وأنت بلِّغهم ذلك، ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾ عن الإيمان به ولم يُصَدِّقوا ﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ ﴾ رقيباً أو مُحاسِباً؛ فإنَّه ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ الذي أُرسِلْتَ به، وإنَّما يُعرضون عن الإيمان لتكبُّرهم، ﴿وَ﴾ذا إنما هي طبيعتهم، ﴿ إِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ﴾. وفي لفظة (الإذاقة) إشارة إلى قلة الرحمة، وفي قوله: ﴿مِنَّا ﴾ إشارة أنها لم تكن باستحقاقٍ منهم، بل كان مِن فضلنا. ﴿فَرِحَ ﴾ وتكبَّر ﴿بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ ﴾ مع أنَّها ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ فلا يتوبون مِن معاصيهم، ولا يتأملون فيما أعطاهم ربهم مِن النعم، وأنَّه إنَّما زالت عنهم لشؤم معاصيهم؛ ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ بليغٌ في الكُفْرِ، ينسى النعمةَ رأساً، ويذكر البَلِيَّة.

ولا يعلم أنه ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ فيتصرَّف منهما كيف يشاء؛ فُيعطي النِّعَم تارةً، ويسلب أخرى؛ فإنه ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾، ولا ينظر في ذلك إلى فرحِكم وغيره، فإنه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا ﴾ معَ أنَّه يظَلُّ بها وجهُهُ مُسْوَدّاً وهو كظيم، ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ الذين يفرحون بهم، ولا يُعتَرَض بذلك عليه سبحانه. ونكَّر الإناث وعرَّف الذكور إشارةً إلى تحقيرها وتعظيمهم عندهم، ورعاية الفاصلة أيضاً[2]، فإنه لو نكّر لكان عليه الوقف بالألف، فلا يوافق قوله: ﴿كَفُورٞ﴾. وقدَّم الإناثَ تنبيهاً على أنَّها قد تكونُ أفضلَ مِن الذكور عنده سبحانه، ورعاية الفاصلة أيضاً، ولأن الإناث أوفق[3] لقوله: ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فإنَّ التصرف فيهن أكثر؛ إذ التوالد منهن

---

(١) في [ف] بلفظ: (وذلك).

(٢) قال السيوطي في الإتقان (٣٣٢/٣): (الفاصلة: كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع).

(٣) قال الزرقاني في البرهان (٤٧٣/٣): (وتأمَّل كيف عرَّف سبحانه الذكور بعد تنكير، فجبر =

يكون بازدواج الذَّكر وغيره، كعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بخلاف الذكور فإنهم لم يقع منهم ذلك بدون الازدواج قطعاً. وأيضاً التقديم أوفق بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ فإنهم يعُدّون تلك مصيبةً. وفي تكرير قوله: ﴿يَهَبُ﴾ إشارة إلى أن كلاً مِن تلك الموهبة أمرٌ عظيم وإن لم يعرفوا قدْرها.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ وهذا قِسْم لمجموع القسمين الأولين باعتبار المعنى؛ إذ المعنى: إمَّا أن يهب أحدَهما أو كليهما، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يهب أصلاً شيئاً منهما، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح لكلٍّ منكم، ﴿قَدِيرٌ﴾ على أن يعطي ما يشاء.

﴿وَ﴾ كما نوحي إليك هذا الذي ذكرنا كذلك نُوحي إلى الذين مِن قبلك، ولم نكن نوحي إليهم بغيره فإنه ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلاماً خفِيّاً يُدرَك بسرعة، فإنَّه ليس ككلامنا مؤلفاً من حروف مقطعة لكلامنا، وهو الكلام الذي أوحي بلا واسطة / وبلا حجاب، ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ فيهتف به، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [٤٣٠/ب] مَلَكاً، ﴿فَيُوحِىَ﴾ إلى أنبيائه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ وأمره ﴿مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين، فليس كلامه ككلام البشر، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفضل ما تقتضيه الحكمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإيحاء ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وكان ذلك الوحي ﴿رُوحًا﴾ يُحيي به القلوب ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وأرسلنا(١) إليك روحاً، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢)، وجعلنا ذلك معجزةً لك تدُلُّ على رسالتك، فإنك ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ قبل ذلك الوحي، وإنما عُلِّمتَ ما عُلمتَ بالوحي فكان ذلك ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ﴾ بذلك النور ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق للقبول والنظر والعمل، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ بذلك الوحي ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

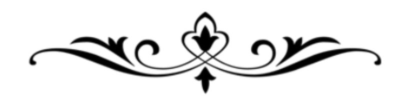
=

نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص المتأخر بالتعريف، فإنَّ التعريف تنويه. وهذا أحسن مما ذكره الواحدي أنَّه عرف الذكور لأجل الفاصلة. ولما ذكر الصنفين معاً قدم الذكور، فأعطى لكلٍّ مِن الجنسين حقه من التقديم والتأخير. والله أعلم بما أراد).

(١) في [ف] بلفظ: (أو أرسلنا).

(٢) قال البغوي في تفسيره (٢٠١/٧): (قال ابن عباس: نبوة. وقال الحسن: رحمة. وقال السدي ومقاتل: وحياً. وقال الكلبي: كتاباً. وقال الربيع: جبريل. وقال مالك بن دينار: يعني: القرآن).

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيَصِلُ مَن سلك في تلك الصراط إليه سبحانه، فإنكم اسلكوا فيها أو لا تسلكوا، فإنه ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الذي تلك الصراط صراطه ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فيجزي حينئذٍ مَن سلكه على سلوكه، ومَن لم يسلكه على عدم سلوكه.



(سورة الزخرف)

سورة الزخرف مكية[1]، وقيل[2]: إلا قوله: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا ﴾ [الزخرف:٤٥].

وهي تسع وثمانون آية[3].

وسُميت بها[4] لأنها ذُكِرَت فيها الزخرفُ التي ينبغي ألا يُغتَرَّ بها، فهذه السورة –بل جميع القرآن– مسوقة لذلك؛ فإنَّ المانع من سلوك الصراط المستقيم هي تلك[5].

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴾ المؤلَّف منها ومِن أمثالها هذه السورة.

﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ الذي هو هذا القرآن.

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ وهذا مِن البدائع لتناسب القسم والمقسم عليه، يعني: أنَّ إعجازه بلغَ إلى غايةٍ لا أبلغ منها حتى يقسم عليه بذلك، ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ وتفقهون معانيه، فإنَّه لو كان عجمياً لم يفهموه.

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ القرآنَ ﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وأصله هو اللوح المحفوظ، فإنه أصل لكل

---

(١) سورة الزخرف من السور المتفق على مكيتها، واختلف في الآية: ٤٥ ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾، والآية مكية كسائر آيات السورة). انظر المكي والمدني (ص٢٨٦).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢٣٥/٤) عن مقاتل، وابن الجوزي في زاد المسير (٧٢/٤).

(٣) قال الداني في البيان (ص٢٢٣): (وهي ثمانون وثمان في الشامي، وتسع في عدد الباقين. اختلافها آيتان: ﴿ حمٓ ﴾ [الزخرف:١] عدَّها الكوفي ولم يعدها الباقون، ﴿ هُوَ مَهِينٞ ﴾ [الزخرف:٥٢] لم يعدها الكوفي والشامي، وعدَّها الباقون).

(٤) من أسمائها: سورة الزخرف، واشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وحم الزخرف فوردت عن بعض الصحابة. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص: ١٣٥).

(٥) أي الزخارف الدنيوية التي فتن بها الناس.

كتاب سماوي؛ محفوظٌ ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا مِن التغيير، ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيع الشأن، ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة لم يذكر فيه سواها.

﴿أَ﴾ نهملكم ﴿فَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ ونعرضه عنكم ﴿صَفْحًا﴾ إعراضاً ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ لإسرافكم، فإنَّه يقتضي أن لا تُهمِلوا، بل تنصحوا، لعلكم تهتدون، وإلا فيلزم الحجة عليكم.

﴿وَ﴾ عدم الإعراض للإسراف سنتُنا فيمن مضى مِن الأمم السابقة، فإنه ﴿كَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَ﴾ إنهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فإذا استمروا على ذلك ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ هؤلاء وكانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ مِن القوم المسرفين ﴿بَطْشًا﴾ وأَخْذاً، ﴿وَ﴾ قد ﴿مَضَىٰ﴾ في القرآن ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [وقصتهم العجيب](١).

﴿وَ﴾ هُم مع علمهم يُسرفون ويُنكرون فإنك ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهم يعلمون الخالقَ مع أوصافه الكاملة.

وهو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرُّون / فيها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، فتعتبروا بها، وتؤمنوا به. [٤٣١/أ]

﴿وَ﴾ هو ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدارٍ ينفع ولا يضرُّ، ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لتعلموا أنَّكم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإنشاء ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تنتشرون من قبوركم.

﴿وَ﴾ هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات لكم ولنفعكم، ﴿وَ﴾ كذا ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

---

(١) والصحيح أن يُقال: [وقصصهم العجيبة] لتستقيم الجملة.

﴿ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أي: ظهور ما تركبونه، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ على ظهوره، فإنَّكم قبل استوائكم قد عرفتم النعمة التي كانت لكم فيها، فإذا استويتم عليه تذكَّرتم تلك النعمة ﴿ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ مطيعين.

ويستدلوا بركوبِ ما تركبون عليه، وانتقالكم إلى ما تقصِدون؛ على انقلابكم إلى الله ﴿ وَ ﴾تقولوا: ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ راجعون إلى الله.

﴿ وَ ﴾هم لم يتذكَّروا بالآيات التي خلقت لهم لأجل تذكرهم، بل ﴿ جَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ الذين خُلقوا ﴿ جُزْءًا ﴾ وولداً، والعبودية منافية للجزئية؛ ولذا يصير الولد معتقاً بمجرد كونه مملوكاً للوالد، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الكفران.

تَنَزَّه تعالى عما تصفون، ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ ففيه استبعاد من وجوه: أنَّ الجزئية والخلق بينهما تنافٍ[١]، ثم نسبة البنت –التي أخسُّ– إليه سبحانه[٢]، وهم يكرهون تلك، وذا أيضاً يقتضي الجنسية، وهو سبحانه واحد بالذات، وإلى الأُولى أشار بقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾.

وإلى الثاني والثالث بقوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ أي: بالجنس الذي جعله له مثلاً؛ إذ الولد لا بُدَّ وأن يماثل الوالد، ﴿ ظَلَّ ﴾ صار وجهه ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ لكثرة الحزن بتلك البشارة، ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مَمْلوءٌ قلبه مِن الكرب.

﴿ أَوَمَن ﴾ هو أضعف خلقا وذلك لأنه ﴿ يُنَشَّؤُاْ ﴾ يترَبَّى في الحِلْية والزينة، ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ ﴾ والمجادلةِ ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ غير مُقِرٍّ لِما يدَّعيه لأجل نقصان العقل؛ يكون ولده سبحانه!

﴿ وَ ﴾فيما ذكروا شناعةٌ مِن وجه آخر، فإنَّهم ﴿ جَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ

---

(١) المعنى الذي يظهر لي من عبارة المؤلف : أن الله سبحانه وتعالى لا يُمكن أن يكون له بنات، وهو الخالق الذي خلق الجنسين؛ فكيف يخلُق ويلد!!

(٢) الخِسة بالنسبة لهم هي استنقاصهم للمرأة، واستحقارهم لها، وأنها تجلب العار.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ الذين بهم رحم العالمين[1] ﴿ إِنَٰثًا ﴾ هُنَّ أنقص رأياً، وأخسهم صنفاً، ﴿ أَشَهِدُواْ ﴾ وحضروا ﴿ خَلۡقَهُمۡ ﴾ فشاهدوا أنهم إناث! فإنَّ ذلك مما يعلم بالمشاهدة. وهم لا يهملون على ما يقولون ﴿ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة، ﴿ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴾ عنها يوم القيامة.

﴿ وَ ﴾مع ذلك الذي ذكر من شناعاتهم لهم شناعة أخرى، فإنَّهم ﴿ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم ﴾ فإنَّا إنَّما عبدناهم لأنه سبحانه شاء مِنَّا ذلك، كما هو مذهبكم، والمشيئة هي الأمر، فهو سبحانه أمرنا بعبادتهم. وذا قولٌ باطلٌ؛ إذ المشيئة هي ترجيح بعض الممكنات على بعض[2]. وإنما قالوا / ذلك جهلاً، فإنَّهم ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾، فإنَّه لا يدلُّ على ما ذكروا دليلٌ عقليٌّ، ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ يتَمَحَّلون تَمَحُّلاً باطلاً لا يقبله عاقل، فلا ينصِبُون على ما يقولون دليلاً عقلياً. [٤٣١/ب]

﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبًا مِّن قَبۡلِهِۦ ﴾ قبل كتابك ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴾ فليس لهم دليل عقليٌّ ولا نقليٌّ.

﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا ﴾ الذين كانوا أعقل مِنَّا ﴿ عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ دين، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ ذاهبون، فنحن ﴿ مُّهۡتَدُونَ ﴾.

﴿ وَ ﴾ذا ليس ببدع منهم، بل ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ من رسول إلى زمانك ﴿ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾ مُنَعَّموها ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾، ويكفينا في ذلك وجداننا[3] هؤلاء على ذلك الدين، وليس علينا سوى ذلك، ولَمَّا كان زمانُه ﷺ أشرف، وكان أهل زمانه أعقلَ بالنسبة إلى من قبلهم، قالوا: ﴿ مُّهۡتَدُونَ ﴾ ذهاباً إلى أنَّ آباءنا لا بُدَّ وأن يكونوا مهتدين، فنحن كذلك. وأما من

---

(١) أي أنَّ الملائكة أُرسلت إلى الأنبياء بالوحي، الذي هو رحمة للعالمين. فالباء سببية، أي: بسببهم.

(٢) انظر: تفسير الشربيني (٣/٥٨٨). قال الشيخ عبد الرزاق عفيفي: (المشيئة هي الإرادة الكونية) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي – قسم العقيدة (ص٣٤٩).

(٣) يعني بذلك: ما وجدنا آباءنا عليه من الدين.

قبلهم فلم يتفطنوا لذلك فقالوا: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾.

﴿قَٰلَ﴾ رسولهم ﴿أَ﴾تتَّبِعُون آباءكم ﴿وَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ بدينٍ أهدى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ مِن دين آبائكم! فلم يتأمَّلوا في قولهم، بل أصرُّوا على ذلك، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وإن كان أهدى.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستئصال، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ولا تكترث بتكذيبهم؛ ﴿وَ﴾مِن ذلك ما وقع إذ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من عبادتكم. قوله: ﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر نُعت به.

وإني لا أعبد أحداً ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وخلقني، وإن كان ذلك القوم يعبدون الله والأصنام فالاستثناء متصل، يعني: بريء من معبوديكم إلا الله. وإلا فمنقطع[1]، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ إلى سواء السبيل.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ﴾ وجعل إبراهيمُ تلك الكلمةَ، أي: التوحيد، أو جعل الله تلك ﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ وذريته؛ فيكون فيهم مَن يوحّد الله تعالى أبداً، وكان ذلك ببركة أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال تلك الكلمة قبل نبوته، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى التوحيد بدعاء مَن وحَّد، فبعضهم رجعوا، وبعضهم قلدوا آباءهم. وانظروا أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يُقَلِّد الآباءَ، فإنَّه دعا إلى ذلك قبل الاستنباء.

وعدمُ إيمانِ قومِك مع أنَّهم مِن عَقِب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليس لعدم نصب الدلائل عليهم، ﴿بَلْ﴾ لأنَّا ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ المعاصرين للرسول ﷺ، فاغترُّوا بذلك، وانهمكوا في الشهوات، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي ثبتت حقيقته بالدلائل، ﴿وَ﴾ذلك بأن جاءهم ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يظهر الحق ونبوته.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي اقتضت حقيقتُه أن يؤمنوا بِه لم يقبلوه، بل ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ لا نُطِيقُ رَدَّه، لذلك ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

لذلك لم تكن شبهة لهم تردُّ ذلك الحقَّ والرسولَ إلا أنهم ﴿قَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا / [٤٣١/ج]

---

(١) انظر: تفسير تاج القراء الكرماني (١٠٦٢/٢)، وتفسير ابن عطية (٥٢/٥).

﴿ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف[1]، ﴿عَظِيمٍ﴾ بالمال والجاه، ولم يعلموا أنَّ ذلك مِن الله سبحانه، يُفَضِّل به على مَن يشاء مِن عباده.

﴿أَ﴾يقولون ذلك إذ ﴿هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾! وكيف تكون القسمةُ بأيديهم مع أنَّا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهم عاجزون في تدبيرها، معَ أنَّ تلك أدنى؛ إذ هي كائنةٌ لجميع مَن له حياة مِن الجسمانيات، فمِن أين لهم دَخْل في تلك الرتبة العالية؛ ﴿وَ﴾لأنّ قسمة المعيشة مِنَّا ﴿رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾، ولو كان ذلك بأيديهم لَمْ تحصُل تلك الرفعةُ، بل كانوا كلُّهم أعلى درجاتٍ، وإنما فعلنا ذلك ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، ويستعمل بعضُهم بعضاً في حوائجهم، فيحصل بينهم تآلفٌ وتضامٌّ، فينتظم بذلك نِظامُ العالم، وإلا لم يلتفت بعضُهم إلى بعض. ﴿وَ﴾لا يعلمون أنَّ مَن أُعطي النبوة هو الرجلُ العظيم في جميع العالمين، إذ ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ التي هي النبوةُ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وينظرون مِن حطام الدنيا.

﴿وَ﴾ذلك لأنَّه لا عبرة لها عندنا؛ فإنَّه ﴿لَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ولولا أن يرغبوا في الكفر لقصور نظرهم على الأمتعة الدنيوية ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أعني: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعد كذلك، فيكونون ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلمون.

﴿وَ﴾كذا جعلنا ﴿لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ وزينةً أو ذهباً[2]، فجعلنا ذلك تأثيراً لكفرهم، فكما يكفرون يكونون كذلك، فحينئذٍ لم يبق منهم مسلم قط. وفي قوله: ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أن رحمته عامة لا تقبض عن الكفرة. وفي إيراد قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ ثم الإبدال عنه بقوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ ثم التكرار بقوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ تنبيهٌ على أن لا نقص في حضرته سبحانه بذلك[3]، وأن لا عبرة للدنيا عنده سبحانه، ولم يفعل ذلك لنفعهم ﴿وَ﴾ذلك

---

(١) وعليه جمهور المفسرين. انظر: تفسير مجاهد (ص٥٩٣)، وتفسير الطبري (٥٩٢/٢١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٢٨٢/١٠). والطائف: هي المدينة المعروفة اليوم وتبعد عن مكة ٨٠ كم.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤١١/٤)، وتفسير السمعاني (١٠١/٥).

(٣) معنى هذه العبارة أي لا ينقص ذلك من ملكه شيئاً.

لأنه ﴿إِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك -[إن][1] بلغ ما بلغ- قليلٌ، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ التي هي ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ خير ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ دون غيرهم.

فلا يُغْتَرَّ بها، ﴿وَ﴾لا يُعرِض بالاشتغال بها عن عبادته سبحانه؛ فإنه ﴿مَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي رحمهم بالإيجاد والنِّعَم التي بها بقاؤُهم وتلذُّذُهم، ويشتغل بتلك النِّعَم اشتغالاً نسي به ذكرَه تعالى ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ [يوسوسه][2]، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يغويه دائماً.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ﴾ سواء ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي يُوصِلُهم إلى فلاحِهم وفوزِهم العظيم، ﴿وَ﴾هم لا يعلمون ذلك، بل ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [فيهم على ذلك الحسنات دائمون][3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ ذلك الذي اتبع الشيطان وأعرض عن عبادة الرحمن ﴿قَالَ﴾ الشيطانُ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ بُعد المشرق والمغرب؛ فغلَّب المشرق، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ / أنت.

[٤٣١/د]

﴿وَ﴾قيل لهم: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ذلك التمني ﴿إِذ﴾ قد صحَّ وقد تحقق أنكم ﴿ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ﴾ اليوم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كنتم مشتركين في الظُّلْمِ الذي هذا العذابُ جزاؤه.

فأنت يا أشرف الخلائق بلغتهم كما أُمِرت، ونصحتهم، وأقمت عليهم الدلائلَ، وهم لم يقبلوا؛ إذ خُتم على سمعهم فلا يسمعون، وعلى أبصارهم فلا يبصرون الآيات، ﴿أَ﴾أنت تُسْمِعُهم وتُبصِرُهم ﴿فَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ وذا لا يكون قطعاً، ﴿وَ﴾أنت كيف تهدي ﴿مَن كَانَ﴾ واستقرَّ ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ولم يخرج عن ذلك الضلال.

---

(١) في [ف] بزيادة لفظ: [و].

(٢) كذا في النسختين والأصوب أن يقال: [يوسوس له].

(٣) كذا في النسختين ولعل الصواب: [فهم على تلك الحسنات دائمون].

ولا تحزن على ذلك؛ فإنَّا لا نُهْمِلُهم؛ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وقبضناك قبل أن نبصّرك عذابهم، و(ما) مزيدة مؤكِّدة، بمنْزلة لامِ القسم في استجلاب النون المؤكِّدة[1]، ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بالعذابِ في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ﴾ فإمَّا ﴿نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ إن أردنا ذلك، فلا يبعُد ذلك علينا، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ فهُم لا يفوتوننا.

وإذا علمتَ ذلك فلا تستعجل أنت بعذابهم، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ مِن الآيات والأحكام؛ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عِوَج له.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ لَشَرفٌ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أنت وقومُك عن القيام بحقِّ ذلك الذي أوحي إليك.

﴿وَسْـَٔلْ﴾ أنت ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ يعني: أُمَمَهم وعلماءَهم الذين في زمانِك ليشهدوا لك على مَن يُجادلونك فيما أوحي إليك: ﴿أَجَعَلْنَا﴾ في شريعة من الشرائع ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؟! وهل حكمنا بعبادة الأوثان؟! فما تقوله ليس ببِدعٍ ابتدعتَه مِن عند نفسِك حتى ينكروه، ذلك ثابتٌ بإجماعٍ مِن الرسل الذين قد تقدَّموا وثبتت شرائعُهم.

﴿وَ﴾لا تحزن بتكذيبِهم إيَّاك، فإنَّا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباهراتِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد جئتُكم لأدعوكم إلى توحيدِه وعبادتِه وتركِ ما تعبدون مِن غيرِه سبحانه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ويستهزِؤون.

﴿وَ﴾لم يتأمَّلوا فيها حتى يعرفوا صدقَها، فكانت جميعُ تلك الآياتِ باهرةً واضحةً، يكفي منها آيةٌ واحدةٌ لِمَن تأمل فيها، فإنَّا ﴿مَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وبالغة أعلى درجات الإعجاز، بحيث يحسب الناظرُ إليها أنَّها أكبر ممَّا يقاس

---

(١) انظر: تفسير ابن جزي (٢/٢٥٩)، وتفسير الإيجي (٤/٨٦).

إليها مِن الآيات الأُخر. يعني: كل الآيات كانت أكبر، ﴿وَ﴾من تلك الآيات أنَّا ﴿أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ بالسنين والطوفان والجراد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن تكذيبهم.

﴿وَ﴾لَمَّا عجزوا عن العذاب الذي أُخِذُوا به ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ﴾ الذي غلبت علينا بسحرك فإنك أنت ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾ الذي لا مثلك في زمانك، أو المراد بالساحر: العالم؛ فإنَّهم كانوا يُسَمُّون العالِمَ الباهرَ: ساحراً[1]، / ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك مِن النبوة، أو مِن أن يستجيب دعوتك [و][2] يكشف العذاب عمَّن اهتدى، وبِما عهِد عندك وكلَّفك به [فوفيت به][3]، وهو الإيمان والطاعة، والوجه الأول أنسبُ بالمقام؛ فإنَّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يدَّعي النُّبُوَّةَ، والثاني أنسب بقوله: ﴿ٱدْعُ﴾، وأيضاً كان ذلك العذاب بدعائه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والثالث أنسب بقوله: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾، والرابع أيضاً أنسب بذلك؛ إذ معناه: ادعُ بحقِّ ما أمرك ربك فامتثلت به. فإن يكشف عنَّا ذلك العذاب فنحن نكون كذلك مهتدون كما اهتديت.

[٤٣٢/أ]

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقُضون ذلك العهدَ الذي عاهدوا به.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ مع رؤيته تلك الآيات الباهرة ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ بعد كشفِ العذابِ عنهم مخافةَ أن يؤمنوا به، وذلك أن ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهارُ النيل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؟ ﴿أَ﴾تؤمنون مع ذلك بموسى وتُنكِرونني ﴿فَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك.

أهو خير ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة التي ترونها ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ذو إهانة لا يستحق للرئاسة، [ليس][4] له فصاحةٌ في الكلام، فكيف يصلُح [للرئاسة][5]؟!

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦١٥/٢١)، وتفسير السمرقندي (٥٤٣/١)، وتفسير الثعلبي (٣٣٨/٨).

(٢) في [ف] بلفظ: [أو أن].

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٤) في [ف] بزيادة لفظ: [و].

(٥) في [ف] بلفظ: [للرسالة].

فإنَّ الرسول لا بُدَّ ﴿ وَ ﴾أن يكون فصيحاً [حيث][1] يُثبِتُ ما ادَّعاه، فإنه ﴿ لَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الكلامَ لِما به مِن الرتة[2].

فإن كان هو رسولاً مِن رب العالمين الذي يدَّعي أنه ربه، وأنَّ أمر جميع العالم بيده؛ ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾، فإنَّهم كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه، وطوَّقوه بطوق من ذهب، يعني: أنَّه إذا أُرسل رسولاً إلى قوم فأُلقي عليه أسورة من ذهب[3]، فهو إن كان رسولاً مِن ربِّ العالمين فكان ربه يُلقي إليه كذلك، ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ معه يُعِينونه، [فإن كان][4] ربُّه ربَّ العالمين لَكانت الملائكة تحت أمره، فيرسلُهم معَ رسوله كما نرسل مع رسولنا مِن عسكرنا لإعانته.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ ﴾ وطَلَب الخِفَّة منهم بمثل ذلك التزوير في طاعته، ﴿ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فيما أمرهم به، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾، واعتادوا بالفسق، فأطاعوه فاسقاً للتجانس.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ وأغضبونا بالفساد والعصيان ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾ لِمَن بعدهم مِن أمثالِهم مِن الكفرةِ، فهم يُهلكون كما أُهلكوا، ﴿ وَمَثَلًا ﴾ وعِظَةً ﴿ لِّلْءَاخِرِينَ ﴾، فإنَّهم يَتَّعِظون إذا سمعوا قصتهم. وجعلنا قصتهم عجيبة صارت مثلاً، فيقال: مثلهم كمثل قوم فرعون، واشتهر ذلك فيما بينهم، وقومك إذا وعظتهم بتلك القصة لا يتَّعظون، ويحزنون غضباً، وكذا إذا مُثّلوا بذلك القوم لم يتعظوا وغضبوا.

---

(١) في [ف] بلفظ: [حتى]. وهو الأنسب للسياق.

(٢) قال الأزهري في تهذيب اللغة (١٤/١٧٧): (رت: قال اللَّيْث: الرُّتَّة عَجَلةٌ في الكلام، ورجلٌ أَرتُّ). وقال صاحب الصحاح (ص١١٧): (ر ت ت: الرُّتَّة -بالضم-: العُجْمة في الكلام، ورجل أَرَتُّ: بَيِّنُ الرَّتَتِ، وفي لسانه رُتَّةٌ، وَأَرَتَّهُ اللهُ فَرَتَّ).

(٣) انظر: تفسير الماتريدي (٩/١٧٤)، وأورده الثعلبي (٨/٣٣٩) في تفسيره عن مجاهد.

(٤) في [ف] بلفظ: [فإنه إن كان].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ﴾ مجادلة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقيل: إنَّ / عيسى قد عُبِد، فيلزم أن يكون [٤٣٢/ب] كذلك ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ ﴾ مِن هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ ﴾ يَضِجُّون[١] فرحاً[٢]؛ لظنِّهم أنَّ الرسولَ ﷺ صار ملزماً به. روي: أنَّه جادل بذلك ابنُ الزِّبَعْرَي[٣]. وقيل: قالوا: إنَّ النصارى أهل الكتاب، وهم يعبدون عيسى، ويزعمون أنه ابن الله سبحانه، والملائكة أولى بذلك لأنهم أنسب به سبحانه من عيسى[٤]. وقيل: جادلوا معه ﷺ في قوله: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا ﴾ بأنَّ عيسى قد عُبِد[٥]. وقيل: قالوا: إنَّ محمداً يُريد أن يُعبد كما عُبد المسيح[٦].

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾ عندك ﴿أَمۡ هُوَ﴾ أي: عيسى، فإن كان في النار فليكن آلهتُنا كذلك، أو أنَّه إذا عُبِد عيسى فآلهتنا -يعنون: الملائكةَ- أولى بذلك، أو أنَّ محمداً يريد أن يُعبد فإن كان خيراً فنعبده ونترك آلهتنا، وذا ليس بثابت، وهم ﴿مَا ضَرَبُوهُ ﴾ أي: هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾ خصومةً لا أن يُميزوا الحق، فإنهم لا يطلبون ذلك ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ شديد الخصومة.

فإنَّه قد ظَهَر أنَّ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ ﴾، فإنَّه كان يُقِرُّ بذلك، وكانت أمارةُ ذلك عليه ظاهرةً، فإنَّه ممكنٌ مُحتاج إلى المؤثرِ، ومع ذلك كان يأكل ويشرب وينام، وليس بينه وبين العباد الآخرين فرقٌ إلا أنَّا ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ بالنبوة،

---

(١) قال الأزهري في تهذيب اللغة (١٠/ ٢٤١): (أضَجَّ القومُ إضْجَاجاً إذا صاحُوا وجلَّبُوا).

(٢) رواه الطبري (٦٢٤/٢٠) عن ابن عباس، وانظر: معاني القرآن للنحاس (٣٧٦/٦).

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٧٩٩/٣)، وتفسير السمرقندي (٢٦١/٣).

وأما ترجمة ابن الزبعري فقال ابن حجر في أسد الغابة (٢٣٩/٣): (عبد الله بن الزبعرى القرشي السهمي الشاعر، وكان من أشدِّ الناسِ على رسول الله ﷺ في الجاهلية، وعلى أصحابه بلسانه ونفسه، وكان مِن أشعر قريش، ثم أسلم عبد الله بعد الفتح، وحسن إسلامه).

(٤) تفسير السمرقندي (٢٦١/٣).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مِن أنه خلقه سبحانه بلا أبٍ مِن بينهم.

فكانت قصتُه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عجيبةً فيما بينهم، [أمَّا][1] ما ذكرتم مِن أنَّ الملائكة خيرٌ منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فليس الأمر كذلك، بل هو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خيرٌ منهم، ﴿وَ﴾إنَّما زعمتم ذلك لأنَّ عيسى وإن لم يكن مولوداً لكن أمثاله [مولود][2] بخلاف الملائكة، وذا زعمٌ باطِلٌ؛ فإنَّا ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ ولَوَلدنا منكم[3] ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ جماعتَكم. أو أنَّه لا فرقَ بين عيسى وبينهم، فإنَّا لو نشاء لأفنيناكم، وجعلنا بدلكم ملائكةً يعبدونني في الأرض كما عُبِد عيسى ومَن تبعه، فمِن أين لهم أن يستحقوا الألوهية!.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ فإنّ نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِن أشراط الساعةِ يعلمُ به قربَها، أو لأنَّ إحياء الموتى الذي كان منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دالٌّ على أنه سبحانه قادر على الإحياء جميعاً في الساعة[4]. وفي الحديث: أنه ينْزِل عيسى على ثَنِيَّةٍ بالأرض المقدسة يُقال لها: أفيق[5]، وبيده حربة بها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة

(١) في [ف] بزيادة لفظ: [و].

(٢) في [ف] بلفظ: [مولودة]. وهو الصواب.

(٣) ذكر ابن الجوزي تفصيل ذلك فقال (٤/ ٨٢) : (ولو نشاء لجعلنا منكم فيه قولان:أحدهما: أن المعنى: لجعلنا بدلا منكم ملائكة ثم في معنى «يخلفون» ثلاثة أقوال: أحدها: يخلف بعضهم بعضا، قاله ابن عباس. والثاني: يخلفونكم ليكونوا بدلا منكم، قاله مجاهد. والثالث: يخلفون الرسل فيكونون رسلا إليكم بدلا منهم، حكاه الماوردي. والقول الثاني: أن المعنى: «ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة» أي: قلبنا الخلقة فجعلنا بعضكم ملائكة يخلفون من ذهب منكم، ذكره الماوردي.

(٤) قال الماوردي في تفسيره النكت والعيون (٥/٢٣٥): (فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أن القرآن علم الساعة لما فيه من البعث والجزاء، قاله الحسن وسعيد بن جبير. الثاني: أن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى، قاله ابن إسحاق. الثالث: أنَّ خروج عيسى علم الساعة؛ لأنه من علامة القيامة وشروط الساعة، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، والسدي).

(٥) قال الحموي في معجم البلدان (١/٢٣٣): (أَفِيق –بالفتح ثم الكسر، وياء ساكنة، وقاف–: قرية من حوران، في طريق الغور، في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق، والعامة تقول: فيق، تنْزل =

الصبح، فيتأخر الإمامُ، فيقدمُه عيسى، ويُصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتُل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البِيَع والكنائس، ويقتل النصارى إلا مَن آمن به[1].

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ ولا تشكُّنَّ فيها، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا الذي أنزل إليكم؛ فإنَّه ﴿هَٰذَا﴾ الذي دُعيتم إليه ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يَضِلُّ سالِكُه.

﴿وَ﴾احذروا فإنَّه ﴿لَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾/ عن المتابعة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بانت عداوتُه فيما مضى مِن الزمان. [٤٣٣/أ]

﴿وَ﴾ لم يكن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ادَّعى الأُلُوهِيَّةَ ولا النُّبوةَ؛ فإنه ﴿لَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزاتِ وبآيات الإنجيل وبالشرائع الواضحة ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل والشريعة لأهديكم، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، وإنَّما قال: ﴿بَعْضَ﴾ إذ الأنبياء إنما بُعثوا لأن يبينوا ما اختُلف فيه مِن أمر الدين لا مِن أمور الدنيا، فإنهم وإن بيَّنوا ذلك فذا ليس عليهم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكم عنه سبحانه.

ولا أقول لكم إلا ما أجمع عليه جميعُ الأنبياء الذين تقدّموا عَلَيَّ، ودلَّت عليه البراهينُ العقليةُ، فصار ذلك بمنْزِلة الضروريِّ الأوَّلِيِّ، وذلك إليّ، أقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ووحِّدوه، فإنَّ ذلك مقتضى الربوبية، ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكرتُ لكم ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

فكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ذلك ما دام كان فيهم، فإذا رُفع منهم ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرقُ المتحزبة ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ مِن بين الذين بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إليهم،

=

من هذه العقبة إلى الغور، وهو الأردن، وهي عقبة طويلة نحو ميلين).

(١) روى البخاري (١٦٨/٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينْزِل فيكمُ ابنُ مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنْزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً مِن الدنيا وما فيها».

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ وهَلَكَةٌ ﴿ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ مِن الأحزاب ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة.

فهم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ الضمير لقريش أو للأحزاب[1] ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ فجأةً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ غافِلون لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها.

ولا يُعتمد في ذلك اليوم على الأحِبَّاء كما يُعتمد في الدنيا؛ إذ ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يتَعادَوْن؛ لانقطاع المودةِ، وظهور الحقِّ الذي كانوا ينكرونه، فكانت الأخِلاءُ سبباً لذلك الإنكار، ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإنَّ خُلَّتهم لَمَّا كانت في الله بقِيَت كما كانت، بل زادت.

فقيل للمتقين حينئذ: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

وهم ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ [كانوا بآياتنا][2] ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ مخلصين.

فأنتم ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾ لذلكم ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ نساؤكم، فكنتم ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تُسَرُّون سروراً يظهر حباره[3] وأثرُه في وجوهكم.

وكيف لا يُسرّون وهم ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ جمع صحفة، ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب، وهو كُوز لا عروة له، ﴿ وَفِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ بمشاهدته. وهو تعميمٌ بعد تخصيص، يعني: أنَّ نعيم الجنة لا يُكْرَه قطعاً، لا باعتبار استكراه النفس، ولا باعتبار الأبصار كنعيم الدنيا؛ فإنَّ منها ما يكون مستكرهاً في النظر، ومنها ما يكون في النفس دون النظر، كالأشياء التي تكون حسنةً في المنظر وكريهة في اللذة. [يقال][4] لهم: لا تخافوا من الخروج منها، فإنكم أنتم

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٤/٢٦٢).

(٢) في [ف] بلفظ: [بآياتنا كانوا]. ولفظ الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾.

(٣) تفسير الزمخشري (٤/٢٦٣): (حباره -أي: أثره- على وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المطففين:٢٤]. وقال الزجاج: تكرمون إكراماً يُبالغ فيه. والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل).

(٤) في [ف] بزيادة لفظ: [و].

﴿فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ فنِعَماً دائمةً لا خوف لزوالها عنكم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ هي ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُقال ذلك لهم لئن يفرحوا. وفيه تنبيهٌ على أنَّ الجنة كالإرث لهم واجبٌ مُتحقِّقٌ لهم.

وإنكم / ﴿لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا﴾ بعضها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ لفرط كثرتها. [٤٣٣/ب]

﴿إِنَّ﴾ الذين لم يكونوا بآياتنا مسلمين أعني: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين في جرمهم ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾.

بحيث ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ ولا يُخَفَّف ذلك العذاب عنهم، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيِسُون مِن الخروج منه.

﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بذلك العذاب ﴿وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿وَ﴾لَمَّا آيسوا مِن النجاة ﴿نَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ وسله أن يميتنا، فإنَّك ترى ما بِنا من العذاب، وقد آيسنا مِن الخروج منه. ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ فيه، لا خلاص لكم أصلاً لا بالموت ولا بغيره.

ويقول سبحانه حينئذٍ: إنما ذلك لأنّا ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بإنزال الكتب والشرائع في الدنيا، وما قبِلتُم. ويمكن أن يكون ضمير ﴿قَالَ﴾ عائداً إليه سبحانه، فإنَّ مالِكاً لم يُجِبْهم، بل أجابهم سبحانه[1]. ولم يكن عدم قبولكم لشبهةٍ تمكنت في ذلك الحق بحيث لم يتَّضح لكم، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ من حيث إنَّه حقٌّ ﴿كَـٰرِهُونَ﴾، فإنَّ قلوبكم قد مرِضَت، والمريض يستكره أشياءَ وإن كانت لدينه.

أكرهوا الحقَّ كراهةً مجردةً؟ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ طلبوا ﴿أَمْرًا﴾ آخر معَ كراهتهم؟ وهو الكيد مع الرسول ﷺ، ﴿فَإِنَّا﴾ نجزيهم على ما عملوا، فإن كرهوا مجرد كراهة فجزاهم عليها، وإن أبرموا وكادوا معه ﷺ فنحن ﴿مُبْرِمُونَ﴾ أمراً في مجازاتهم. والعدول من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾ إيحاءٌ إلى كمالِ فظاعةِ شأنهم.

---

(١) وهذا ما عليه المفسرون وهو أن فعل ﴿قَالَ﴾ المقصود به الله سبحانه وتعالى.

أيفعلون ذلك مع أنَّهم يعلمون أنَّا مُطَّلِعُون على سرائرهم؟! ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ ؟! السر: حديث النفس، والنجوى: التناجي فيما بينهم، ولم يكن لهم أن يحسبوا ذلك، ﴿ بَلَىٰ ﴾ نسمعها ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ الذين [أمرنا][1] بحفظ أعمالهم ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ يلازمونهم، فهم ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ جميعَ أعمالهم.

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للذين لم يؤمنوا بك، وجعلوا الملائكة الذين منهم مَن يحفظون أعمالهم ويكتبونها، وجعلوا عيسى الذي جاءهم بالبينات وأمرهم بالتوحيد ولدًا: إنَّه ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ الذي رحمكم بالإيجاد وإبقاء وإنزال الكتاب ﴿ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ منكم؛ فإنِّي أعلم به منكم، فأُعَظِّمُ ما يجب تعظيمُه، وأعبدُ ما يجب عبادته.

وإنِّي لا أعلم بذلك، بل نعلم نفيه، فكيف علمتم بذلكم! فإني أقول: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، فإنَّ كُلاً مِن ذلك دالٌّ على نفيِ الولدِ، فإنَّ هذه الأجسام -لكونها أصولاً لم يلحق بها سرعةُ زوالٍ- لم يكن لها ولد، فكيف يكون للقائمِ الدائمِ الذي تنزَّه عن الأمثال ولد!.

فإنهم إذا لم يقبلوا قولك ولم يصدقوك فيما قلت لهم ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ واتركهم ﴿ يَخُوضُوا ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فيجزون / في ذلك اليوم. [٤٣٤/أ]

[﴿ وَ ﴾هم] [2] كيف يقولون ذلك وينسبون إليه الولد مع أنَّه ﴿ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ ﴾ فجميع مَن في السماء يعبدونه، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ فكذا جميع مَن في الأرض يعبدونه، فكيف يكون مَن في ذلك ولدٌ له! ﴿ وَ ﴾ كيف لا يكون ﴿ هُوَ ﴾ إلهاً! مع أنه ﴿ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ وليس غيرُه حكيماً ولا عليماً، والإله لا بُدَّ وأن يكون كذلك.

﴿ وَتَبَارَكَ ﴾ وتعالى وتنزَّه ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فجميعُ ذلك

---

(١) في [ف] بلفظ: [أمرناهم].

(٢) في [ع] بلفظ: [هم].

له سبحانه خلقاً ومُلكاً، فكيف له ولد وهو لا يكون ملكاً للوالد[1]! وهم لا يؤمنون بذلك؛ لأنهم يسألونك عن الساعة ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ لا عند غيره، فكيف تجيبهم وتخبرهم بذا، ﴿وَ﴾إنَّكم تجزون على ما تفعلون حين ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

﴿وَ﴾حينئذٍ ﴿لَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ﴾ آلهةً ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاء عند الله سبحانه؛ فإنَّه لا يشفع عنده سبحانه ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالتوحيد ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ توحيده سبحانه، فلا تكون شهادتهم نفاقاً.

ويمكن أن يكون المعنى: وهم -أي: الكفرة- يعلمون توحيده سبحانه، ومع ذلك ينكرون، ﴿وَ﴾ذلك لأنَّك ﴿لَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذُّر المكابرةِ فيه مَن فرط ظهوره، أو المعنى: وكيف يعبدون مَن سواه! فإنك لو سألت المعبودين عن خالقهم ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ يُصرَفون عن عبادته.

﴿وَ﴾عنده سبحانه عِلمُ ﴿قِيلِهِۦ﴾ قول الرسول ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [إنَّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون بي، مع أنِّي بلغت لهم كما أمرت، فهم قومٌ مجرمون][2]، فهو يجزيهم ويجزيه[3] في يوم الجزاء.

فإذا أبلغتهم كما أمرتَ وهم لم يقبلوا قولك ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾ فأعرِض ﴿عَنۡهُمۡ﴾ لليأس من إيمانهم، ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ تَسَلُّمٌ منكم ومتاركة، فإنهم إذا لم يؤمنوا بك ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ إذا يجزون على ما يقولون.



---

(١) أي: هم يزعمون أنَّ لله ولداً، وفي نفس الوقت ينفون عنه الملك، فكيف يكون له ولد وهو لا يملكه!!

(٢) ما بين المعقوفتين كتب على حاشية [ع].

(٣) يجزيه أي: يجزي النبي ﷺ.

(سورة الدخان)

سورة الدخان مكية[1]، إلّا قوله تعالى[2]: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ ﴾ الآية [الدخان:١٥].

وهي سبع أو تسع وخمسون آية[3].

سُميت بها[4] إذ هي مشتملة على ذلك، وذا مِن أعظم الآيات التي تُوجب الإيمانَ، فهذه السورة -بل جميع القرآن- مسوقةٌ لذلك.

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴾ الْمُؤَلَّفُ مِن هذه الحروف وأمثالِها هذه السورة.

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ الظاهر أنَّه مِن عند الله سبحانه.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ كثيرةِ البركاتِ، والمراد: ما ليلة القدر، أو ليلة البراءة، ابتدأ [فيها][5] إنزاله، أو إنزاله فيها جملةً إلى سماء الدنيا مِن اللوح ثم أنزل إلى

---

(١) سورة الدخان من السور المتفق على مكيتها، واختلف في الآية: ١٥ ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ ولم يثبت ما يدل على مدنيتها. انظر: المكي والمدني (ص٢٩٢).

(٢) وذكر ذلك الزمخشريُّ (٢٦٩/٤)، والرازي (٦٥١/٢٧).

(٣) قال الداني في البيان (ص٢٢٥): (وهي خمسون وتسع آيات في الكوفي، وسبع في البصري، وست في عدد الباقين. اختلافها أربع آيات: ﴿ حمٓ ﴾ [الدخان:١] عدها الكوفيُّ ولم يعدها الباقون، ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴾ [الدخان:٣٤] عدَّها الكوفيُّ ولم يعدها الباقون، ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ [الدخان:٤٣] لم يعدها المدني الآخر والمكي وعدها الباقون، ﴿ فِى ٱلْبُطُونِ ﴾ [الدخان:٤٥] لَم يعدها المدنيُّ الأولُ والشامي وعدها الباقون).

(٤) وبهذا الاسم اشتهرت في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ومِن أسمائها: سورة حم الدخان، والمباركة. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٣٦).

(٥) في [ف] بلفظ: [منها]. وذكر الزمخشري (٢٦٩/٤) هذه التسمية (تسمية ليلة القدر بليلة البراءة).

الرسول ﷺ نجماً نجماً[1]. وبركة تلك الليلة لذلك، فإنَّ في ذلك الكتاب منافع دينية ودنيوية، وبذلك الكتاب قوام العالم، فإنَّ فيه اسم الأعظم، ولِما في تلك الليلةِ مِن نزول الملائكة، والرحمة، وإجابة الدعوة، وقَسْمِ النِّعمةِ، وفصل الأقضية، وإنما أنزلناه لينتفعوا بها، ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ هؤلاء بذلك الكتاب وبالإنذار، يجتنبون عمَّا يضُرُّهم، ولا نفع أعظم مِن / ذا. [٤٣٤/ب]

وكانت تلك الليلة ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ مُلْتَبِسٌ بالحكمةِ؛ فإنَّ كُلَّ أمرنا لا يخلو عنها، أو محكم قد قضينا به، فكانت تلك الليلة مناسبة بذلك الكتاب فأنزل فيها، وقوله: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يدلُّ على أنَّ المراد ليلة القدر، فإنه قد ذكر في وصفها تنَزُّلُ الملائكةِ والروحِ فيها بإذن ربِّهم مِن كلِّ أمر.

وكان ذلك الأمرُ ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ حاصِلاً على مقتضى حكمتِنا، فيكون ذلك تفخيماً للأمر، وبه يكون تفخيم الليلة أيضاً. أو يكون قوله: ﴿ أَمْرًا ﴾ مُقابِلاً للنهيِ، مصدراً لقوله: ﴿ يُفْرَقُ ﴾ إذِ الأمرُ هو الفَرْقُ، أو مصدرٌ لفعل محذوف: أمرنا أمراً مِن عندنا، فيكون بياناً لقوله: ﴿ يُفْرَقُ ﴾[2]. وليس ذلك الإنذار بهذا الكتاب ببِدْعٍ مِنَّا،

---

(١) ذكر عبد الله شحاته أقوال العلماء في المسألة عند تعليقه على تفسير مقاتل (٥/٢٦٥) في: (الأول -وهو رأي الجمهور- أنَّ القرآن نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة. والرأي الثاني -وهو رأي مقاتل بن سليمان- أنه نزل إلى سماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدرٍ مِن ثلاث وعشرين سنة، يُنَزِّلُ اللهُ في كلِّ ليلة قدرٍ ما قَدَّر إنزاله في تلك السنة، ثم ينْزل به جبريلُ منجماً على رسول الله ﷺ. والرأي الثالث: وهو رأى الشعبي أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة مِن سائر الأزمان على النبي ﷺ. وقد ساق السيوطي في الإتقان هذه الآراء، ونقل عن ابنِ حجرٍ أنَّ الأول هو الصحيح المعتمد).

(٢) قال النحاس في إعراب القرآن (٤/ ٨٣): (﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ في نصبه خمسةُ أقوال: قال سعيد الأخفش: نصبه على الحال بمعنى: آمرين. وقال محمد بن يزيد: نصبه نصب المصادر، أي: إنّا أنزلناه إنزالاً، والأمر مشتمل على الإخبار. قال أبو عمر الجرميّ: هو حال مِن نكرة، وأجاز على هذا: هذا رجل مقبلاً. وقال أبو إسحاق: ﴿ أَمْرًا ﴾ مصدر، والمعنى: فيها يفرق فرقاً و﴿ أَمْرًا ﴾ بمعنى: فرق. والقول الخامس: أن معنى ﴿ يُفْرَقُ ﴾ يُؤمَر ويؤتمر، فصار مثل: هو يدعه تركاً).

بل ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رسلَنا بالكتب والشرائع.

وليس ذلك مما يجب علينا، بل ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وفي قوله: ﴿رَّبِّكَ﴾ إشعارٌ بأنَّ هذا مِن أنواع التربية، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يجوزُ أن يكون علةً لقوله: ﴿يُفْرَقُ﴾ أو علةً لقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، و﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لقوله: ﴿مُرْسِلِينَ﴾، أي: إنَّما يُفرَق كلُّ أمر حكيم لأنَّ مِن شأننا إرسال الرحمة. وفي تفريق الأمورِ مِن الأرزاق وغيرها رحمة. أو إنما [كانت مصدر][1] الأوامر من عندنا رحمةً مِنَّا على عبادنا، فيكون المراد بقوله: ﴿أَمْرًا﴾ مقابلاً للنهي[2]، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يطلبه العباد بلسان الحالِ [و][3] المقالِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِما يليقُ بهم، فيرسل الرحمةَ على حسب ذلك.

إذ هو ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ومريدين الإيقان فاعلموا ذلكم، أو إن كنتم مِن أهل الإيقان في العلومِ فتعلمون ذلك، أو إن كنتم موقنين فيما تفترون إذا سُئِلْتُم: من خلقكم؟ فقلتم: الله، علمتم ما قيل لكم.

فهو الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وإلا لفسدتا، فهو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إذ لستم وليسوا إلا مِمَّا بينهما، فلا تُقَلِّدوا آباءَكم في إشراكِهم.

وهم ليسوا بموقنين حتى يفهموا هذا القول، ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

فإذا لم يزالوا في شكهم ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ وانتظِر ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يومَ شِدَّةٍ ومَجاعةٍ، فإنَّهم قد قحطوا حتى أكلوا الجِيَف والكلابَ وعظامَها[4]. أو يوم ظهور الدخان الذي عُدَّ مِن أشراط الساعة، كما روي أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما قال: «أول الآيات الدخان، ونزول عيسى، ونار تخرج مِن عدن تسوق الناس إلى المحشر»، قيل: وما الدخان؟ فقال رسول الله ﷺ الآية، وقال: «يملأ ما بين المشرق والمغرب،

---

(١) في [ف] بلفظ: [كان صدور]. وهو الأنسب للسياق.
(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٥/٩٩).
(٣) في [ف] بلفظ: [أو]. وهو الأصوب.
(٤) وقد ذكر هذا القول البيضاوي في تفسيره (٥/١٠٠).

يمكث أربعين يوماً وليلةً، أمَّا المؤمنُ فيُصيبه كهيئةِ الزُّكامِ، وأما الكافرُ فهو كالسكران، تخرج مِن منخريه وأذنيه ودبره»[1]. أو يوم القيامة، فالمراد بالدخان حينئذٍ أيضاً إمَّا الشدة أو الدخان الحقيقي.

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ [2] ويحيط بهم، فيقولون: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

[٤٣٥/أ]

﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا / ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾.

وهم لا يتذَكَّرون ولا يتَّعِظُون؛ فإنه ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهِرٌ رسالته بالمعجزات.

﴿ ثُمَّ ﴾ لم يتذكروا ولم يؤمنوا به، بل ﴿ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾، قال بعضُهم: إنَّه يُعَلِّمُهم غلامٌ أعجميٌّ لبعض ثقيف. وقال آخرون: إنه لمجنون.

والعذاب الذي عُذِّبوا به في الدنيا على كفرهم قد يزول عنهم، ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ ﴾ بدعاء النبي؛ إذ هو ﷺ دعا، فوضع عنهم القحطَ، ولكن كشفنا ﴿ قَلِيلًا ﴾؛ إذ ذلك الكشف يكون في الدنيا فحسب، لأنَّكم لا تؤمنون بعد ذلك الكشف، بل ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ إلى الكُفْرِ عند الكشفِ. ومَن فسَّر الدخان بما هو مِن أشراط الساعة

---

(١) روى الطبري (٢٢/١٧) بنحوه عن ربعي عن حذيفة، وضعفه، ثم قال: (وأولى القولين بالصواب في ذلك ما روي عن ابن مسعود مِن أنَّ الدخان الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يرتقبه هو ما أصاب قومَه مِن الجهد بدعائه عليهم، على ما وصفه ابن مسعود مِن ذلك، إن لم يكن خبر حذيفة الذي ذكرناه عنه عن رسول الله ﷺ صحيحاً، وإن كان صحيحاً فرسول الله ﷺ أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحدٍ مع قوله الذي يصح عنه قول).

(٢) قال الماوردي في تفسيره (٢٤٧/٥): (في معنى الدخان ثلاثة أقوال: أحدها: ما أصاب أهلُ مكةَ مِن شدَّة الجوع حتى صار بينهم وبين السماء كهيئة الدخان لَمَّا دعا عليهم رسول الله ﷺ في إبطائهم عنِ الإيمان وقصدهم له بالأذى، فقال: «اللهُمَّ اكفِنيهِم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، قاله ابن مسعود. قال أبو عبيدة: والدخان: الجدب. وقال ابن قتيبة: سمي دخاناً ليبس الأرض منه حتى يرتفع منها الدخان. الثاني: أنه يوم فتح مكة لَمَّا حجبت السماءَ الغيومُ، قاله عبد الرحمن بن الأعرج. الثالث: أنَّه دخان يهيج بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمن منه كالزكمة، وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه).

قال: إذا جاء الدخانُ غوث الكفار بالدعاء، فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين، فريثما يكشفه عنهم يرتَدُّون. ومن فسَّره بما في القيامة أوّله بالتقدير. ويمكن أن يقال: إنَّ قوله: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ لم يرد به أنه كيف الذكرى بهذه الآية حتى يحتاج إلى التأويل، بل المراد: أنه كيف لهم الذكرى إن لم يتذكروا بهذا الرسول؟! وليس المراد بقوله: ﴿كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ ﴾ هو عذاب الدخان، بل العذاب الذي يسلط عليهم في الدنيا لكفرهم[1].

فإنهم لا يكتفون بالعذاب الدنيوي، بل ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾، البطش هو: التناول بصَوْلَةٍ.

﴿ وَ ﴾تكذيب الأنبياء سُنَّةٌ قد جرت؛ فإنَّا ﴿لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾، وهو موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقال لهم: ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ الذين هُم بنو إسرائيل، أو أَدُّوا إِلَيَّ حقَّ الله من الإيمان والطاعة وقبول الدعوة يا عباد الله[2]، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ غيرَ مُتَّهَمٍ لِدلالة المعجزة على صدقِه، أو لأنَّه سبحانه جعله أميناً على وحيه.

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ ﴾ ولا تَتَكَبَّروا عليه بالاستهانة بوحيه، ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ والتجأتُ إليه وتوكلتُ عليه ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ وتُؤذُوني.

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ ولا تتعرَّضوا إِلَيَّ بسوء.

---

(١) قال ابن الجوزي في تفسيره (٤/٨٩): (وفي العذاب قولان: أحدهما: الضرُّ الذي نزل بهم كشف بالخصب، هذا على قول ابن مسعود. قال مقاتل: كشفه إلى يوم بدر. والثاني: أنَّه الدخان، قاله قتادة. قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ فيه قولان: أحدهما: إلى الشرك، قاله ابن مسعود. والثاني: إلى عذاب الله، قاله قتادة)، وانظر: تفسير الزمخشري (٤/٢٧٣).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره (٤/٩٠): (وفيه قولان: أحدهما: أدُّوا إِلَيَّ ما أدعوكم إليه مِن الحقِّ باتباعي، روى هذا المعنى العوفيُّ عن ابن عباس. فعلى هذا ينتصب ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ بالنداء. قال الزجاج: ويكون المعنى: أن أدُّوا إِلَيَّ ما آمركم به يا عباد الله. والثاني: أرسلوا معي بني إسرائيل، قاله مجاهد، وقتادة، والمعنى: أطلقوهم مِن تسخيرِكم، وسلِّمُوهُم إِلَيَّ).

فكذبوه وآذوه، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾.

فأجابه ربُّه، وقال له: إن كان الأمر كذلك ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ فيتبعكم فرعونُ وجنودُه.

﴿ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا ﴾ مفتوحاً، ذا فجوة واسعة[1]، ولا تضربه بعصاك ليلتئم ويختلط؛ ﴿ إِنَّهُمۡ ﴾ يدخلون في البحر متعاقبين قومَك، فهم ﴿ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴾ وتكونون ناجين.

ولم يبق منهم باقيةٌ تَرِثُهم، فهم ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ ﴾ يعني: تركوا كثيرا ﴿ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾.

﴿ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴾.

﴿ وَنَعۡمَةٖ ﴾ وتَنَعُّمٍ ﴿ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ مُتَفَكِّهين.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما كانت، أو مثل ذلك الإخراج أخرجناهم، أو الأمر كذلك، ﴿ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا ﴾ تلك المذكورات ﴿ قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ / ليسوا منهم ولا مِن بني إسرائيل [٤٣٥/ب] الذين خرجوا معَ موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنَّهم لم يعودوا إلى مصر[2]. ولَمَّا ذكر هنا الزروعَ والنِّعمةَ التي لا تبقى مدةً طويلة قيل هنا: ﴿ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾، بخلاف ما وقع في الشعراء فإنَّه ذكر هنالك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم فهي باقيةٌ مدةً طويلةً، فذكر هنالك: ﴿ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩]؛ فإنَّهم دخلوا مِصر بعد مدة طويلة.

وهم إذا غرقوا ﴿ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ لعدم الاعتداد بهلاكهم، فإنه

---

(١) قال السمعاني في تفسيره (١٢٥/٥): (في قوله: ﴿ رَهۡوًا ﴾ أقوالٌ: أَحدها: ساكناً. وَالآخَرُ: يبساً. والثالثُ: طريقاً. والرَّابع: سهلاً دَمِثاً).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (١٠١/٥): (وأكثر المفسرين على أنهم بنو إسرائيل)، قال السمعاني في تفسيره (١٢٦/٥): (أَي: بني إسرائيل. وفي القِصَّة: أنَّ الله تعالى لَمَّا أغرق فرعون وقومَه رجعت بنو إسرائيل إلى مصر، ونزلوا منازل آل فرعون وسكنوها).

روي في الأخبار: إنَّ المؤمن لَيبكي عليه مُصلاه، ومحل عبادته، ومصعد عمله، ومهبط رزقه[1]، ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ مُمْهَلِين إلى وقتٍ آخرَ.

﴿وَ﴾إذا أهلكوا فإنَّا ﴿لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي هو استِعْبادُ فرعونَ وقتلُه أبناءَهم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ الذي قد سُلِّط عليهم تسلُّطاً كثيراً، وآذاهم أذىً كثيراً، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ مُتكَبِّراً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الذين اشتهر إسرافهم وعتوهم. أو كان رفيع الطبقة من بينهم.

﴿وَ﴾إنا ﴿لَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ وفضَّلناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنَّا بأنَّهم أحِقَّاء بذلك الفضل، فإنهم تبعوا موسى وآمنوا به، وكانوا مِن ذريته بني يعقوب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. أو على عِلْمٍ مِنَّا بأنهم سيزيغون بعد ذلك في بعض الأحوال. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بكثرة الأنبياء منهم، أو عالَمِي زمانهم.

﴿وَ﴾مِن تفضيلهم أنَّا ﴿ءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ﴾ نعمة ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهِرة؛ كفَلْقِ البحرِ، وإنزال المنِّ والسلوى، وتظليل الغمام.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين هم قومُك بمِثْلِ هذه القصص مِن إهلاك أعداء الأنبياء لا ينتبهون؛ لأنهم يقولون: ﴿إِنْ هِىَ﴾ أي: التي وقعت عليهم مِن الموتِ ويقع على كل حيٍّ ﴿إِلَّا﴾ أنها تقع مرة واحدة، وهي ﴿مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، ولا تقع ثانيةً في قبورنا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بِمَبعوثين بعد ذلك. أو المعنى: ليست الشِّدَّةُ التي يُخاف منها ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، ولا بعث بعد ذلك ولا جزاء حتى يُخاف، والموتة التي هي الأولى كائنة البتة، فلا يفيد الخوفُ فيها.

---

(١) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد والرقائق (١/١١٤) من قول علي بن أبي طالب بلفظ: (إذا مات العبدُ الصالح بكى عليه مُصَلاه من الأرض، ومصعد عمله مِن السماء والأرض)، ثم قرأ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾، وأبو داود في كتاب الزهد (ص١١٧) بنحوه.

وإن كنتم تدَّعون البعث والجزاء ﴿ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ ﴾ الذين قد ماتوا، فإنَّ ربكم إن كان قادراً على البعث مجتمعين [فاسألوا][1] أن يُحْيِي مِن آبائنا مَن يُخبرنا بذلك، ويكون بإحيائه دليلٌ على البعثِ لنا، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فيما تقولون.

﴿ أَهُمۡ ﴾ لا يؤمنون بك ولا يُصَدِّقونك فيما تقول لهم لأنهم ﴿ خَيۡرٌ ﴾ في القوة والمنعة ﴿أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ ﴾ الذي سار بالجيوش وحيّر الحيرة[2] وبنى سمرقند[3]، وكان مؤمناً وقومُه كافرين[4]، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ كعاد وثمود، وكانوا أقوياء منهم، فإنَّا ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ ﴾ إهلاكاً كإهلاك سائر الأقوام، فذا دليلٌ / ظاهرٌ على صدقك فيما [٤٣٦/أ] تُهَدِّدهم به ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ كما أجرموا، فإذا ثبت الجامِعُ فعليهم أن يخافوا مِن أن ينْزِل بهم ما أُنزِل على هؤلاء الأقوام.

﴿ وَ ﴾هم يقولون: إن هي إلا موتتنا الأولى، ولا بعث ولا جزاء. ألا يتأملون أنّا ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ مِن الخلائق ﴿لَٰعِبِينَ ﴾ لاهين.

فإنَّ كونها مشحونةً بالحِكَم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى دالَّةٌ على أنَّا ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ فلا بُدَّ مِن البعثِ والجزاءِ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

وما قالوا مِن إحياء آبائهم باطلٌ، فإنه سبحانه لم يَعِدْهم بالإحياء متفرقين، ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

ويكون ذلك اليوم ﴿ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي ﴾ لا ينفع ﴿مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا ﴾ مِن الإغناء

---

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب أن يقال: [فإن كان ربكم قادرًا على بعث الميتين فاسألوه].

(٢) قال صاحب معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (ص١٠٧): (الحيرة: مدينة كانت على شاطئ الفرات الغربي، كانت عاصمة ملوك لخم، المشهورين بالمناذرة، وكان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة. وقد احتلت اليوم مدينة النجف موقع الحيرة على أميال مِن آثار الكوفة).

(٣) سمرقند: أحد مدن بلاد ما وراء النهر، وكانت مركزًا مهمًّا من مراكز الثقافة الإسلامية، وتعتبر اليوم في منطقة آسيا الوسطى، تقع إلى الشرق من نهر أموداريا، وإلى الغرب من نهر سيرداريا فى الأراضي التي تشكل اليوم جمهورية أوزبكستان وجزءًا مِن جنوب جمهورية كازاخستان. انظر: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (٣٦/١١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٤٠/٢٢).

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ مِن أحدٍ.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بالعفوِ، أو بقَبولِ الشَّفاعة في حقِّه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالِبُ الذي لا يقدر أحدٌ أن ينصر مَن أراد تعذيبَه، وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يرحمُ على مَن يشاءُ مِن عبادِه، فإنَّه سُبحانه لا يجب عليه شيءٌ مِن التعذيب ولا الرحمة، وكلٌّ مِن التعذيب والرحمة قد بلغ الكمال[1].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾.

الذي هو ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ نزلاً.

يكون ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾، وهو ما يمهل في النار حتى يذوب، فهو ﴿يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾.

غلياً ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾.

وقيل: للزبانية ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ فجُرُّوه، العَتْلُ: الأخذُ بمجامعِ الشيءِ وجرُّه بقهر، ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ووَسَطِهِ.

---

(١) قال الشيخ محمود قدح معلقاً على المسألة في كتاب تخجيل مِن حرَّف التوراة والإنجيل (٤٠٣/١): (إنَّ مسألة الوجوب على الله أو «هل يجب على الله تعالى شيء؟»)، قد سلك فيها كلٌّ مِن المعتزلة والأشاعرة طريقين كلاهما خطأ، ولم يُوَفَّقوا لطريق الحقِّ الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، وتوضيح ذلك:

١- أنَّ المعتزلة أفرطوا في تمجيد العقل، حتّى أوجبوا بمقتضاه على الله تعالى أموراً وحرَّموا عليه أموراً أخرى، ووضعوا لله شريعةَ التعديل والتجوير، فهم بذلك شبَّهوا الخالق بالمخلوق.

٢- أمَّا الأشاعرة فقد أخطأوا في إطلاقهم القول بنفي الوجوب في حقّه تعالى، فلم ينَزِّهوه عن فعل شيء، بناءً منهم على نفي التحسين والتقبيح العقليين، وقالوا: إنَّ الوجوب لا يتصور في حقّه؛ لأنه المالك المتصرف ولا يسأل عما يفعل، ونسوا أنه لا يسأل لكمال حكمته.

٣- وأما أهل السنة والجماعة فهم الذين منعوا أن يوجب العقل على الله تعالى شيئاً، ولم يمنعوا أن يوجب اللهُ على نفسِه بعضَ الأمور التي يقتضيها كمالُه، والتي أخبر أنه أوجبها على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]). بتصرف.

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾.

وقولوا له إهانةً واستهزاءً به: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ العذابَ ﴿ مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكُّون في الدنيا.

وكذا الرحمة قد بلغت الكمال؛ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا الشركَ والعصيانَ ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ عن الآفةِ والانتقالِ.

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السندس: ما رَقَّ مِن الحرير، والإستبرق: ما غلُظ منه[1]، ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في مجالِسِهم، مستأنسين فيما بينهم بعضهم ببعض، ليس بينهم تباغضٌ وتحاسدٌ أصلاً، كذلك كالتقابل والمؤانسة التي تكون في الدنيا فيما بينهم في بعض الأحيان مع بعض الأخِلاء، [و][2] آتيناهم بمثل ذلك أو الأمر.

﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم ﴾ وقَرَنَّاهم ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ والحوراء: البيضاء، والعيناء: عظيمة العين. واختلف في أنَّهُنَّ نساء الدنيا أو غيرها[3].

وهُم ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ﴾ يطلبون بإحضار ما يشتهون مِن الفواكه، لا يتخصَّصُ شيءٌ منها بمكانٍ ولا زمانٍ، ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ مِن الضرر.

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ بل يَحيَون فيها دائماً، ﴿ إِلَّا ﴾ أنهم يذوقون ﴿ ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ قبل دخولها، ولا يذوقون في الآخرة إلا الموتة الأولى، فالاستثناء متصل ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

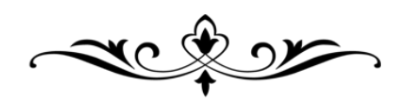
وكان ذلك ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكِر ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فإنَّهُ خَلاصٌ مِن المكاره كلها، وفوز بالمطالب.

فإذا / أَعْلَمْناك ذلك الذي ذكر لك ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ولغتك ﴿ لَعَلَّهُمْ [٤٣٦/ب]

(١) انظر: تفسير الطبري (٥١/٢٢)، وتفسير الزمخشري (٢٨٢/٤).
(٢) في [ف] بلفظ: [أو].
(٣) انظر: تفسير البيضاوي (١٠٤/٥).

يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لعلهم يفقهونه فيتذكرون.

فلَمَّا لم يتذكروا ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾ فانتظر ما يحل لهم ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ منتظرون ما يحل بك.



(سورة الجاثية)

سورة الجاثية مكية[١].

وهي سبع أو ست وثلاثون آية[٢].

سُمِّيت بذلك[٣] لأنَّها مشتملةٌ على ذلك، وبذا يُنذَرُ كلُّ الإنذار، وهي مسوقة بل جميع القرآن مسوق لذلك.

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴾ المؤلف مِن هذه الحروف ومن أمثالها.

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الجامِع البالغ درجة الكمال ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

ومِن حكمته وغلبته سبحانه ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنَّ فيهما ما يدُلُّ على الصانع القادر الحكيم؛ فهي كافيةٌ لِمَن آمَن في إيمانه.

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ وعطفه على المجرور لا يحسن، إذ قولك: (هذا أبوك وعمرٍو) قبيحٌ، فهو إمَّا على حذف المضاف، أي: خلق ما يبُثُّ، أو الخلق بمعنى

(١) سورة الجاثية من السور المتفق على مكيتها، واختلف في الآية: ١٤ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾، ونسب القول بمدنية هذه الآية إلى ابن عباس وقتادة وهذا المستند لا تقوم به حجة والصواب أن الآية مكية كسائر آيات السورة. انظر: المكي والمدني (ص٣٠٠).

(٢) قال الداني في البيان (ص٢٢٦): (وهي ثلاثون وسبع آيات في الكوفي، وست في عدد الباقين، اختلافها: آية ﴿ حمٓ ﴾ عدَّها الكوفيُّ ولم يعدها الباقون).

(٣) عرفت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ومِن أسمائها كذلك سورة حم الجاثية، وسورة الشريعة أو حم الشريعة، وسورة الدهر، إلا أن الأشهر في هذه التسمية أنها لسورة الإنسان. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٣٨).

المخلوق[1] ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾، فإنَّ ما يقعُ على أنفسِهم وعلى الدوابِّ في بابِ أرزاقِهم وغيرِها مقتضٍ لليقينِ عليه سبحانه.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٍ﴾ مَطَرٍ ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ ويُبْسِها ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلافِ جهاتِها وأحوالِها ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ فإنَّ مَن يعقل يستدلُّ بذلك على القدرةِ والحكمةِ والبعثِ، وبذا ظهر وجه اختلاف الفواصل. وقيل: اختلاف الفواصل لاختلاف الآياتِ في الدِّقَّة والظهور، فإنَّ الأُولى أظهر بالنسبة إلى الثانية، فإنَّ خلقهم وخلق الدواب مِن الآباء والأمهات نظراً إلى الظاهر، والثالثة أدق مِن الثانية وذا ظاهر[2].

﴿تِلۡكَ﴾ الآيات المذكورة ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ دلائلُه، فإنَّا ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ متلبسين ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، فإنَّهم إذا لم يؤمنوا بها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ﴾ حديثِ ﴿ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ التي أراها إيَّاكم سبحانه ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾.

فإنهم ﴿وَيۡلٌ﴾ لهم إذ ذاك ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

وليس أحد أكثر بها مِمَّن ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مع أنها ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ بالخصوصِ،

---

(١) قال صاحب اللباب في علوم الكتاب (١٧/٣٤٠): (قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ فيه وجهان: أظهرهما: أنَّ قوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ معطوفٌ على ﴿خَلۡقِكُمۡ﴾ المجرور بـ ﴿فِي﴾، والتقدير: وفي مَا يَبُثُّ. الثاني: أنَّه معطوف على الضمير المخفوض بالخلق، وذلك على مذهبِ مَن يرى العطفَ على الضميرِ المجرورِ دون إعادةِ الجارِّ. واستقبحه الزمخشري وإن أُكِّدَ، نحو: مَرَرْتُ بِكَ أَنْتَ وَزَيْدٍ، يشير بذلك إلى مذهب الجَرْميّ، فإنه يقول: إن أكّدَ جاز، وإلاَّ فَلاَ. فقوله مذهب ثالث).

(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط (٩/٤١٤): (وهنا رتَّبها على مقاطع ثلاثة: يؤمنون، ﴿يُوقِنُونَ﴾، ﴿يَعۡقِلُونَ﴾. قال: وأظنُّ سبب هذا الترتيب: إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل، فإن لم تكونوا مؤمنين ولا موقنين فلا أقل أن تكونوا مِن العاقلين، فاجتهدوا. وقال هناك: إن في خلق السماوات، وهنا: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فدلَّ على أن الخلق غير المخلوق، وهو الصحيح عند أصحابنا، ولا تفارُق بين أن يقال: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي خلق السموات. انتهى، وفيه تلخيص وتقديم وتأخير).

وهو مخاطب بها، ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ ويقيم على كفره ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن تلك الآيات، ويُصِرُّ ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، فمن كان هذا وصفه ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون له ذلك العذاب معَ أنَّه ﴿إِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ مِن غير أن يتأمَّل فيه، بل معَ علمِه بأنَّه مِن آيات الله سبحانه، فلا جرم أنهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وذلك العذاب أنَّهم ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ قُدَّامهم ﴿جَهَنَّمُ﴾، وهُم يتوجهون إليها ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ مِن الأولادِ والأموالِ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن العذاب، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ لاتخاذهم ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بحيثُ لا يُمكِن لهم / أن يتحمَّلوا ذلك. [٤٣٧/أ]

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكِر لهم هو ﴿هُدًى﴾ مِن ربِّهم، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي هداهم سبحانه بتلك الآيات ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

وكيف تكفرون بتلك الآيات مع أنَّه هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ مع غايةِ بُعْدِ ذلك التسخيرِ عن عقولكم؛ ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وإرادته، ﴿وَ﴾ إنَّما أجرى الفلك ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارةِ والغوصِ فيه والصيدِ وغيرها مِن الأمور الدنيوية والدينية، ﴿وَ﴾ إنَّما فعل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعَم، فتُوَحِّدُوه ولا تكفروه.

﴿وَ﴾ لَم يكتفِ بتسخيرِ البحرِ، بل ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فإنَّه سبحانه خلقها نافعة لكم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك.

وإذا سمعتَ ما يحِلُّ بهم فأنت ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بك ﴿يَغْفِرُواْ﴾ ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ ولا يتوقعون وقائعه بأعدائه، ولا يجادلوا معهم أبلغ جدالٍ، ولا يبطشوا بهم إن آذوهم، وذلك ﴿لِيَجْزِىَ﴾ الله سبحانه بذاته ﴿قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، فهُو يُعَذِّبهم عذاباً مهيناً. والآيةُ نزلت في عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه شتمه غفاريٌّ،

فهم أن يبطش به[١]. وقيل: إنها منسوخة بآية القتال[٢].

وإنَّما أُمِروا بذلك لأنه ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ فلها ثوابُ الأعمالِ وعليها عقابُها، فإن أعرضوا عنهم فلهم ثوابُ ذلك وعلى أعدائهم عقابُه، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ جميعاً، فيُجازيكم على أعمالكم.

﴿ وَ ﴾ كما يخالفك الذين لا يرجون أيام الله مع أنك ذكّرتهم بالآيات، كذلك خالف الذين مِن قبلهم مِن قبلك؛ فإنَّا ﴿ لَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ﴾ النظرية، والحِكمة العملية، فإنَّ كتابهم مشتملٌ عليهما، ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ فإنَّا جعلنا فيهم أنبياء كثيرة، ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ واللَّذائذ، ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ وَ ﴾ ذلك أن ﴿ ءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ الذي لم نُؤتِ غيرَهم، وبيَّنَّا في كتابهم أمرَك ووصفكَ، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ ﴾ في ذلك ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ بحقيقته، وإنَّما كان ذلك ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ وعداوةً وحسداً، وهم لا يعلمون ما يفعلون، ولكنهم سيعلمون، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في دنياهم.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ ﴾ بعدهم ﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ طريقةٍ ﴿ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أمرِ الدِّين، ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ فاتَّبع تلك الشريعة، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مِنهم ومِن قومِك.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ إذا أراد سبحانه أن يُحِلَّ بك، وإن رأيت في ذلك مصلحةً بحسب الظاهرِ، ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ فبالموالاة لهم

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (٣٥٩/٨)، وتفسير الماوردي (٢٦٢/٥).

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ للقاسم بن سلام (ص١٩٠). قال الطبري في تفسيره (٦٦/٢٢): (وهذه الآية منسوخة بأمر الله بقتال المشركين. وإنما قلنا: هي منسوخة؛ لإجماع أهل التأويل على أن ذلك كذلك). وانظر: الناسخ والمنسوخ للمقري (ص١٥٩). وقال الماوردي: (وفي نسخ هذه الآية قولان: أحدهما: أنها ثابتة في العفو عن الأذى في غير الدِّين. الثاني: أنها منسوخة، وفيما نسخها قولان: أحدهما: بقوله سبحانه: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥] قاله قتادة. الثاني: بقوله: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج:٣٩] قاله أبو صالح).

يدخل في زمرة الظالمين مَن يواليهم، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيحب التقوى منهم واتِّباعَ الشريعة.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذَكَر لك مِن التقوى واتباعِ الشريعة هي ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ بينات تبصرهم وجه الفلاح، ﴿وَهُدًى﴾ مِن الضلالة / ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مِن الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يكونون على يقينٍ مِن ربِّهم. [٤٣٧/ب]

أيكفرون بك معَ علمهم بأنهم يعذبون! ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وعمِلوها ﴿أَن﴾ لا نُسائلهم، أو ﴿نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بك ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وكانوا ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ يكونون مكرمين في حياتهم ومماتهم!، فهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿وَ﴾ كيف يكون الأمر كذلك مع أنَّه ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، وذا يقتضي أن يعدل ويجزي على كُلٍّ حسب ما يقتضي ذلك عمله، وهو سبحانه إنَّما خلق ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك الجزاءِ بنقصِ الثوابِ ولا بزيادة العقاب.

أتطمع هدايتهم بعد أن لم يهتدوا آيات الله سبحانه، وحَسِبوا أن تجعلوا كلَّ المؤمنين الذين اهتدوا بهداية الله، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، ﴿وَ﴾ لا يكون ذلك إلا بأن ﴿أَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾، وإنما أضلَّه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منه سبحانه بأنَّه مُستعِدٌّ لذلك الإضلال ومستحقه، ﴿وَ﴾ إضلاله بأن ﴿خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يبالي بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ وإضلاله ﴿أَ﴾ تظنُّون ذلكم! ﴿فَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَ﴾ لِضلالهم ﴿قَالُواْ مَا هِيَ﴾ ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الحياة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ التي نكون فيها، وذلك لأنَّا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وهكذا قد جرَتِ السُّنَّةُ بذلك، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ ومرورُ الزمان، ﴿وَ﴾ الذين يقولون بذلك ﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ودليلٍ وبرهانٍ يدُلُّهم على ذلك، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فإنَّهم إنما قالوا ذلك تقليداً لآبائهم.

﴿وَ﴾قد رَسَخَ ذلك في قلوبهم، حتى ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة فهم لم يقبلوها وأنكروها، و﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ التي يتَشَبَّثُون بها في اعتقادهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ واجعلوهم أحياء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿قُلِ﴾ لهم: لست أدَّعي أنَّ الإحياءَ بيدي حتى ترُدُّوا قولي بذلك، بل ﴿ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وذلك اليوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فالكل بيده سبحانه؛ فيُحيي مَن شاء إذا شاء، وكذلك يُميت مَن شاء إذا شاء، والجمع في ذلك اليوم الذي عيَّنه لذلك، ولا يمكن لأحد أن يفعل ذلك مِن عندِ نفسِه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيجادلون.

﴿وَ﴾لا يعلمون أنه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دونَ غيرِه فله التَّصرُّف، ﴿وَ﴾هم لا يعلمون إلا أنه ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿وَ﴾ذلك لأنك ﴿تَرَىٰ﴾ في ذلك اليوم ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ مجتمعة، مِن الجثوة، وهي: الجماعة، أو باركة مستقرة على الركب[1]، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ وصحيفة أعمالها؛ فإنكم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فيُقال لهم: / ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بما عمِلتُم بلا زِيادة ونقصان، ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتب الملائكةَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فيقال لهم: أعمالكم. [٤٣٨/أ]

فإذا أحضرت الصحف في ذلك اليوم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانهم وأعمالهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإدخالُ فيها ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهِرُ الذي لا شَوْب فيها للآفة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم: أكفرتم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وما آمنتم بها، وإذا قيل لكم آمنوا ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَ﴾ لَم تكن في تلك الآيات شبهةٌ تدعوكم إلى ذلكم، بل ﴿كُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فصارَ عادتُكم الإجرامَ.

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (٣٦٦/٨)، وتفسير ابن عطية (٨٨/٥).

﴿وَ﴾لذلكم ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لكم: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فإنَّه البتة يعذبكم إن لم تؤمنوا، ويغفر لكم إن آمنتم به، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ التي وعدكم ذلكم فيها ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾. فما قبِلتُم ذلكم القول، بل ﴿قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيء الساعة؟! ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ كان أصل الكلام: إن نحن في الساعة إلا نظنُّ ظناً، فحذف قوله: نحن في الساعة، وقدم قوله: نظن؛ لِئَلا يجتمع حرفا النفي والإثبات[1]. أو المعنى: ما نظن شيئاً نتوجَّه إليه بل نعلمه إلا نظن في القيامة لغاية استبعادها، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ فإنَّ ما سمعنا مِن آباءنا بنفيِ الساعة، وما سمعنا مِن الأنبياء يدُلُّ على وقوعها، فما قبلناها.

﴿وَ﴾في ذلك اليوم ﴿بَدَا﴾ ظهر لهم ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ نتركم في العذاب ﴿كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ وأنكرتموه، ﴿وَ﴾لذلكم ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَ﴾ إنَّما اتخذتم ذلكم لأنكم ﴿غَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، فحسبتم أن لا حياة سواها، فإذا كنتم تجزون ذلكم الجزاء بكفركم ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾. يطلب منهم ربُّهم أن يرضوه لِفَوْتٍ، أو إنَّه فإذا أعلمكم ربكم ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وليس لغيره الحمد إذ ليس لغيره الربوبية.

﴿وَ﴾إذا كان الأمر كذلك فإنه ﴿لَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿وَ﴾ذلك إذ ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالِبُ الذي لا يغلبه أحدٌ، وهو ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئاً إلا فيه حكمةٌ.

---

(١) قال الزمخشري في تفسيره (٢٩٣/٤): (فإن قلت: ما معنى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾؟ قلت: أصله: نظنُّ ظناً، ومعناه: إثبات الظن فحسب، فأدخل حرفا النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفى ما سواه، وزيد نفيُ ما سوى الظن توكيداً بقوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾).

(سورة الأحقاف)

سورة الأحقاف مكية[1].

وهي أربع أو خمس وثلاثون آية[2].

سُميت بها[3] إذ هي مُشتمِلَةٌ على إنذار هود عَلَيْهِ السَّلَامُ عليها، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم وإن كانوا أشدَّ قوة لكن بناء الدنيا على الرُّسُلِ فلا يغتر بها، فهذه السورة بل جميع القرآن مسوق لذلك.

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴾ المؤلف مِن هذه الحروف وأمثالها.

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الجامع الكامل ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

إنَّما نزلنا / ذلك الكتاب لأنّا ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ مِن الأشياء [٤٣٨/ب] المتولِّدات منهما ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ والحكمة المقتضية والجزاء، ﴿ وَ ﴾لكنَّه أجّل ذلك إلى

---

(١) سورة الأحقاف من السور المتفق على مكيتها، واختلف في الآية: ١٠ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، والآيات الأربع ١٥-١٨ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾، والآية ٣٥ ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الآية، والقول بمكية هذه الآيات هو الأرجح كسائر آيات السورة. انظر: المكي والمدني (ص٣٠٦)

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٩١/٥): (هذه السورة مكية، لم يختلف منها إلا في آيتين، وهي قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:١٠]، وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الآية [الأحقاف:٣٥]، فقال بعض المفسرين: هاتان آيتان مدنيتان وُضِعتا في سورة مكية).

(٢) قال الداني في البيان (ص٢٢٧): (وهي ثلاثون وخمس آيات في الكوفي، وأربع في عدد الباقين. اختلافها: آية ﴿ حمٓ ۝١ ﴾ عدها الكوفيُّ، ولم يعدها الباقون).

(٣) وعرفت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ومِن أسمائها: سورة حم الأحقاف. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٤٠).

﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُنتَهَى إليه، فيكون بعد ذلك الأجل البعث والجزاء، فلا بُدَّ مِن الكتاب الذي يبين لهم ما أُحِلَّ وما حُرِّم، وما أُمِرُوا به وما نُهُوا عنه؛ لئَلاَّ يبقى لهم عُذْرٌ، ولكن الذين كفروا بذلك الكتاب ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ مِن هَوْلِ ذلك الوقت ﴿مُعۡرِضُونَ﴾، ويمكن أن يكون (ما) مصدرية، يعني: مِن الإنذار[1].

﴿قُلۡ﴾ لهم: ما لكم إنَّكم أعرضتم عن ذلكم، واشتغلتم بما لا دليلَ عليه لا مِن العقلي ولا من النقلي، فإنكم ﴿أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي يدعوكم ذلكم الكتاب إليه مِن آلهتكم، فأخبروا عن أحوالِهم، وذلك بأن ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ والعالَم السفلي حتى وقع لكم الريب في أنَّهم آلهتكم، ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِن الارتباطات بهذا العالم، فكما للتي في السماوات أوضاع الكواكب والحركات التي لها ارتباط بما يحدث في هذا العالم يكون لآلهتكم أيضاً ارتباط بما يحدث في العالم، فوقع لكم في ألوهيتهم شك، فما ليس له دخل في الحوادث لا بطريق الاستقلال ولا بطريق الواسطة كما للسماويات على قول مَن يقول بذلكم كيف تنسب إليه الألوهية؟! فانتفى الدليل العقليُّ على ذلك، بل قام على خلاف ما ادَّعيتُم، ثم ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ﴾ مُنزَّل ﴿مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ الكتابِ، ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ﴾ بقيةٍ[2] ﴿مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ مِن علوم الأولين الذين ثبت صِدقُهم بالمعجزات مِن الأنبياء الذين قد تقدَّموا مِن أنهم قالوا كما قلتم، وإنما قيل: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ﴾ لأنهم قد ذهبوا ومضى ما قالوا واندرس، وإن بقي شيءٌ من ذلكم فائتوا به، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فليس لكم دليل نقليٌّ أيضاً إن لم تأتوا به.

﴿وَ﴾إذا لم يكن لكم دليل عقليٌّ ولا نقليٌّ فانظروا أنه ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٤/٢٩٤). وقال أبو حيان في تفسيره (٩/٤٣١): (يحتمل أن تكون (ما) مصدرية، وأن تكون بمعنى الذي).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره (٤/١٠٢): (وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّه الشيء يثيره مستخرجه، قاله الحسن. والثاني: بقية من علم تؤثر عن الأولين، قاله ابن قتيبة، وإلى نحوه ذهب الفراء وأبو عبيدة. والثالث: علامة مِن علم، قاله الزجاج).

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ ويتركُ عبادةَ السميعِ المجيبِ القادرِ الخبيرِ إلى عبادةِ مَن لا يستجيب، على تقدير أن يسمع، فضلاً عن أن لا يسمع، وكان عدم استجابته ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ما دامت الدنيا، ﴿وَ﴾ذلك إذ ﴿هُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ لأنَّهم إمَّا جمادات، وإمَّا عِبادٌ مُسَخَّرون مشتغلون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ وقامت القيامةُ ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ يضُرُّونهم ولا ينفعونهم، ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ مُكَذِّبين، ويمكن أن يكون الضمير للعابدين[1]، كما قال سبحانه حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

﴿وَ﴾مع ما ذُكِر مِن عدمِ الدلائلِ العقليَّةِ والنقليَّةِ لهم ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالَّةُ على الحقِّ مِن التوحيد والبعث مع كونها ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للحقِّ لأجلِه وفي شأنه ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ مِن غير نظيرٍ وتأمُّل: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ / [٤٣٩/أ] ظاهِرٌ بطلانه.

أيقولون ذلك ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ أشنع منه، وذلك أنهم يقولون: إنَّه ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ مِن عند نفسه، ﴿قُلۡ﴾ لهم: أمَّا قولتكم: إنَّه سحر، فبطلانه ظاهر؛ إذ ليس فيه أمارة مِن أمارات السحر، وأمَّا الافتراء فإني ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ فَرَضاً ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ إن عاجلني بالعقوبةِ، فلا تقدرون على دفع شيء منها، فكيف أجترئ على ذلك مع علمي به، ولا حاجة لي إلى مجادلتكم إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ﴾ تندفعون ﴿فِيهِ﴾، ولا أحتاج إلى أن أُقيم الشهداء عليكم؛ إذ ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ سبحانه ﴿شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾، فهو سبحانه يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالتكذيب والإنكار، ﴿وَ﴾معَ ذاك إن تبتم فهو يغفر لكم؛ إذ ﴿هُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ يغفر الذنوب كلها لمن شاء، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالتَّفَضُّلِ على عبادِه بتضعيف الثواب.

---

(١) قال ابن جزي في التسهيل لعلوم التنْزيل (٢/٢٧٤): (الضمير في ﴿كَانُواْ﴾ للأصنام، أي: تتبرأ الأصنام من الذين عبدوها، وإنما ذكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء لأنَّه أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء، من الاستجابة والغفلة والعداوة).

﴿ قُلْ ﴾ لهم: لِمَ تنكرونني؟ فإنِّي ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أدعوكم إلى ما يدعون إليه، أو أقدر على ما لم يقدروا عليه مِن الإتيان بالمقترحات كلها، ﴿ وَ ﴾لست أقدر أن أُعَجِّل في العقوبة على إنكارهم إيَّاي، فإني ﴿ مَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ في الدَّارَيْنِ على التفصيلِ؛ إذ لا عِلم لي بالغيب، وإن كُنتُ عالِماً إجمالاً أني أغلب عليكم، وأنكم مغلوبون [عاقبته][1]، ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ لا أتجاوزُ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لهم: تُنكِرُونني وليس فِيَّ ما يشهد على كذبي؛ فإنكم ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ وأنكرتُم ذلكم، فكيف تكون عاقبتكم! والعاقل لا بُدَّ وأن يكون مُحْتَرِزاً عن مَظِنَّةِ الضَّرَرِ، ﴿ وَ ﴾على صِدْقِي دليلٌ ظاهِرٌ؛ فإنَّه ﴿ شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، فإنَّه قد عَلِم صِدقي مِن الكتاب الذي أُنزِل على نبيِّهم، والمراد: عبد الله بن سلام[2]، إذ قد اطلع من كتابه ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ مثل القرآن، وهو الذي ذُكِر في التوراة مِن المعاني المطابقة للقران، ﴿ فَـَٔامَنَ ﴾ به لَمَّا عِلم أنَّه مُطابِق لكتابه، ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان جهلاً منكم، بل عِناداً، وظلمتم فما اهتديتم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ وَ ﴾مِن ظُلمِهم واستكبارِهم أنَّه ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ لأجلهم: ﴿ لَوْ كَانَ ﴾ الإيمانُ ﴿ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾؛ فإنَّ عامَّتهم فقراء وموالي ورعاة، وهم عاندوا

---

(١) كذا في المخطوط ولعل الصواب: [عاقبةً].

(٢) قال الماوردي في النكت والعيون (٥/٢٧٣): (فيه خمسة أقاويل: أحدها: أنه عبد الله بن سلام، شهد على اليهود أنَّ رسول الله ﷺ مذكورٌ في التوراة، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد. الثاني: أنَّه آمين بن يامين، قال لَمَّا أسلم عبد الله بن سلام: أنا شاهد مثل شهادته ومؤمن كإيمانه، قاله السدي. الثالث: أنَّ موسى مثل محمد ﷺ يشهد بنبوته، والتوراة مثل القرآن يشهد بصحته، قاله مسروق. ولم يكن في عبد الله بن سلام لأنه أسلم بالمدينة والآية مكية. الرابع: هو مَن آمن مِن بني إسرائيل بموسى والتوراة، قاله الشعبي. الخامس: أنه موسى الذي هو مثل محمد -صلى الله عليهما-، شهد على التوراة التي هي مثل القرآن، حكاه ابن عيسى).

وتمسكوا بمثلِ هذه الشبهات الواهية، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ وسيزيد ظلمُهم حيناً فحيناً ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مِن أساطير الأولين.

﴿وَ﴾هُم لا ينظرون أنَّه ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ قبلِ القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾، وكان ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لِمَن نزل إليهم، وقد ثبت صدقُه وأنَّه من عند الله، ﴿وَهَذَا﴾ الذي أنزل عليك ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لذلك الكتاب الثابت صدقه، وكان ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ يفهمونه، وإنَّما أُنزِل هذا الكتاب ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ﴾ كان / ذلك الكتاب [٤٣٩/ب] ﴿بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في الاعتقادات والأعمال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ أحسنوا وهم الذين ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فجمعوا بين التوحيدِ الذي هو خلاصةُ العلمِ، والاستقامةُ في الأمورِ التي هي منتهى العملِ؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن لُحُوقِ مكروهٍ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب.

﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِن الاعتقاداتِ والأعمالِ.

﴿وَ﴾مِن الإحسان الذي وُعِدُوا على ذلك ما وُعِدُوا ما ﴿وَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ وهو أن [يُحْسِنوا][1] ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾، وإنَّما أُمِر بذلك لأنَّه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ الكُره: المشقةُ، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ والفِصال: الفِطام، أي: مُدَّة الحملِ، والفطام: ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، أو المراد بالفصال: وقتُ الفِطام؛ فإنَّه مستعملٌ لذلك أيضاً[2] لقوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨]، فالمرادُ: تَمام الرضاع المنتهي بذلك الوقت، فهو عُطف على المضاف المحذوف على قوله: ﴿حَمْلُهُ﴾، وعلى الأول عُطف على قوله: ﴿حَمْلُهُ﴾[3]، فينبغي للإنسان أن يُحْسِن إحساناً أبلغ على حسب

---

(١) لعل الصواب أن يقال: [يُحسن].

(٢) قال الرازي (٤٦٤/٦) في معنى الفِصال: (القول الثاني: في تفسير الفصال، وهو أنَّ أبا مسلم لما ذكر القول الأول قال: ويحتمل معنىً آخر، وهو أن يكون المراد مِن الفصال: إيقاع المفاصلة بين الأم والولد، إذا حصل التراضي والتشاور في ذلك، ولم يرجع بسبب ذلك ضرر إلى الولد).

(٣) مراد المؤلف في الفرق بين المعطوف عليه في القولين الذين أوردهما، أنه في الأول عطف =

مشقتها، وأمَّا الأب فهو منشؤه وأهله، فكما يشكر ربه عليه أن يشكر أباه، ومنهم مَن يشكر شكراً بليغاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ قوته وعقله، ﴿ وَ ﴾ذلك بأن ﴿ بَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾، قيل: لم يُبعَث نبيٌّ إلا بعد أربعين[1]، ﴿ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ ﴾ وألْهِمني ﴿ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ فإنَّ ذلك الشكر مِن الإحسان إليهما، فإنه يتوبُ عمَّن شكرهما، وأيضاً يدل على فرحه بالإنعام عليهما كما فرح بالإنعام على نفسه؛ فذا إحسانٌ إليهما. رُوِي: أنَّها نزلت في أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]، فإنه أسلم هو وأبوه، ولم يكن من المهاجرين والأنصار مَن أسلم معَ الأبوين، أولئك الذين ذكر، والنعمة تَعُمُّ الدينية والدنيوية، ﴿ وَ ﴾ألهمني ﴿ أَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾، وفي كلمة ﴿ فِي ﴾ دلالةٌ على رسوخ الصلاح في الذرية، ﴿ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ عمَّا لا ترضاه، ﴿ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الْمُخلصين لك؛ فأرجو أن تقبل دعوتي.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾ ذكر أوصافهم ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾؛ فإنَّه صارت بذلك جميعُ حسناتِهم أحسنَ؛ فإنهم شكروا [أبوَيْه][3]، أو المراد الطاعات[4]؛ فإنَّ المباح حَسَنٌ، ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ لتوبتهم، فكانوا ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾، وكان ذلك الوعد

=

الفصال على حمله، وأما على الثاني فهو عطف على المضاف المحذوف وهو: (مدة).

(١) قال الرازي في تفسيره (١٨/٢٨): (قال المفسرون: لم يُبعَث نبيٌّ قط إلا بعد أربعين سنة. وأقول: هذا مُشكل بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإنَّ الله جعله نبيّاً مِن أول عمره، إلا أنه يجب أن يُقال: الأغلب أنه ما جاءه الوحي إلا بعد الأربعين، وهكذا كان الأمر في حقِّ رسولنا ﷺ). وقال السيوطي في الإكليل في استنباط التنْزيل (ص١٧٣) في قول الله تعالى: ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ [مريم:١٢]: (فيه ردٌّ لِمَن قال: إنَّ النبوة لم تحصل لأحد إلا بعد الأربعين).

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٢٠/٤)، وأسباب النُّزول للواحدي (ص٣٨٠).

(٣) لعل الصواب أن يقال: [أبويهم].

(٤) قال الماوردي (٢٧٨/٥): (فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم إذا أسلموا قُبِلَت حسناتهم وغفرت سيئاتهم، قاله زيد بن أسلم يحكيه مرفوعاً. الثاني: هو إعطاؤهم بالحسنة عشراً، رواه أبو هلال. الثالث: هي الطاعات؛ لأنها الأحسنُ مِن أعماله التي يُثاب عليها، وليس في المباح ثواب ولا عقاب، حكاه ابن عيسى).

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا.

﴿ وَٱلَّذِي ﴾ لم يُحسِن ولم يشكُر، بل ﴿قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾ على ما تفعلانِه؛ فإنكما ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ وأُبْعَث ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ﴾ ومضت ﴿ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾ فلم يرجع واحدٌ منهم، فكيف أرجع! ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ لِفَرط شفقتهما، ويقولان: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ ﴾ وخَفْ مِن عذابِه، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ ﴾ الذي [يقول إنه][(١)] / ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ وأباطيلهم. [٤٤٠/أ]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المذكورون ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ بأنَّهم مُعَذَّبون عذاباً عظيماً، فيكونون ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ ﴾ ومَضَت ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ الذين ظلموا بالكفر والإنكار؛ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ أشدَّ خُسران.

﴿ وَلِكُلّٖ ﴾ مِن الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٞ ﴾ ومَراتِب ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أو لأجله مِن الخيرِ والشرِّ[(٢)]، ﴿وَ﴾إنَّما فعل بهم ما فعل ﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ جزاءَها، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ بِنَقص الثوابِ وزيادةِ العقاب.

﴿وَ﴾لكن سيظهر ذلك ﴿يَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ فيُعَذَّبون بها، ويقال لهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ ﴾ لذائذكم باستيفائها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَ﴾كُنتم ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾، فما بقي منها لكم شيء، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾ والذل ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ التي هي موضع التَّذَلُّل، فكان استكباركم ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَ﴾كان ذلك ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾، ففِسقُكم قد جرَّكم إلى الاستكبار عن الإيمان.

﴿وَٱذۡكُرۡ ﴾ لهم ﴿أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وما وقع منه ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ ﴾ الذين استكبروا في الأرض، وكان فيهم ما يقتضي أن يستكبروا مِن شدَّة القوة، وكانوا

---

(١) كذا في المخطوط ولعل الصواب أن يقال: [تقولانه].

(٢) قال الماوردي في (١٧٢/٢): (وفيها وجهان: أحدهما: أنَّ المقصود بها الأعمال المتفاضلة. والثاني: أنَّ المقصود بها الجزاء المتفاضل. ويحتمل هذا التفضيل بالدرجات على أهل الجنة وأهل النار، لأنَّ أهل النار يَتفاضلون في العقاب بحسب تفاضلهم في السيئات، كما يتفاضل أهل الجنة في الثواب لتفاضلهم في الحسنات).

يسكنون ﴿ بِٱلۡأَحۡقَافِ ﴾ جمع حِقْفٍ، وهو: رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، مِن احقوقف الشيءُ إذا اعْوَجَّ[1]. ولم ينتبهوا بمساكنهم على أن مبنى الدنيا بأجمعها على الضَّعْفِ، ﴿ وَ ﴾ لَم نَكْتَفِ بإرسال هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بل ﴿ قَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ ﴾ قبله ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﴾ وبعده، وكانوا بأجمعهم قائلين ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ووَحِّدوه، واعملوا بما أمركم، وانتهوا عما نهاكم، ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ هائل.

فلم يؤمنوا بل ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا ﴾ لِتَصرفنا ﴿ عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ وعبادتها؟! ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ مِن العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما تَعِدُنا.

﴿ قَالَ ﴾: ليس ذاك بيدي، ولا عِلْمَ لي بوقته، ﴿ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ ﴾ بذلك ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ الذي أرسلني إليكم بذلكم، ﴿ وَ ﴾لستُ إلا أني ﴿ أُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ ﴾، ﴿ وَ ﴾ لَم يكن التقصير مِن جانبي في ذلكم، ﴿ لَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ ﴾ تُقَصِّرون فإنّكم كنتم ﴿ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴾، ولا تعلمون أنَّ الرُّسُلَ إنَّما بُعِثُوا مُبَلِّغين لا مُعَذِّبين.

فإذا جاءهم ما وُعِدوا ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا ﴾ سحاباً عرض في أُفُقِ السماء ﴿ مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ ﴾ فرِحوا، و ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا ﴾ يأتينا بالمطر. قال هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ليس كما زعمتم، ﴿ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ ﴾، فإنه ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فإنَّها ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا ﴾ وبإرادتها[2]، فإذا جاءتهم تلك الريح ﴿ فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ ﴾، فإنا ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾. رُوِيَ: أنَّ هوداً لَمَّا أحَسَّ بالريح اعتزل بالمؤمنين في الحظيرة، وجاءت الريحُ، / فأمالت الأحقافَ على الكفرة، وكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام، ثم كشفت عنهم، واحتملتهم الريح، وقذفهم في البحر[3]. [٤٤٠/ب]

---

(١) انظر: العين للفراهيدي (٥١/٣)، ومعاني القرآن للفراء (٥٤/٣)، وتهذيب اللغة للأزهري (٤٣/٤).

(٢) الريح ليس لها إرادة، وإنَّما هي مأمورةٌ بأمرِ ربها، ولا تكون إرادة إلا مِن مُريد. ولعل هذا من آثار العجمة لم يقصده المؤلف وإنما قصده (بإرادته) أي الله سبحانه وتعالى.

(٣) انظر: تفسير الطبري في قصة طويلة في ذلك (٥١٣/١٢).

﴿ وَلَقَدْ ﴾ كُنَّا ﴿ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ كان بغيكم أكثر من بغيهم، أو يكون كلمة ﴿إِن﴾ نافية[1]، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾ لِيَعرفوا تلك النِّعَم ويشكروا ربَّهم عليها، فصرفوا تلك النعم فيما لم تخلق له، فإذا أُهلِكوا ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ مِن الإغناء، ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فإنهم مع تلك القوة لم يكن لهم أن يحتالوا بما أُعطي لهم مِن تلك القوى، فما لكم تجحدون بالآيات! فعلى أي شيء تعتمدون ﴿وَ﴾لا تتأملون إنه ﴿ حَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم ﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ سوى الأحقاف، ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾ بتكريرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم.

وهم يعتمدون في ذلك على شركائهم، ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ﴾ يتقربون إليهم لأنهم جعلوهم ﴿ءَالِهَةًۢ ﴾ لهم، فلم يشفعوهم ونصروهم من إهلاكهم، فهم ما نصروهم ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ ﴾ وغابوا ﴿عَنْهُمْ ﴾ وعن نصرهم، وهم لم يستمدوا بهم في ذلك الوقت، فإنهم لم يحضروهم في ذلك الحين لهول ذلك العذاب ﴿وَذَٰلِكَ ﴾ الاتخاذ الذي أثره هذا ﴿إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾.

وكيف اتَّخذوا مِن دونه سبحانه آلهةً ومنهم من يستمع إليك ويؤمن بك، ﴿وَ﴾ذلك ﴿ إِذْ صَرَفْنَآ ﴾ أَمَلْنا ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ الذين كانوا يعبدونهم، وحالهم أنهم ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ ﷺ وسمعوا القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ﴾ فيما بينهم: ﴿أَنصِتُوا۟ ﴾ واسكتوا لنسمعه. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ وفرغ ﷺ مِن قراءته ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ ﴾ صرفوا إلى ﴿قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إيَّاهم ما سمعوا مِن القرآن. رُوي: أنهم وافوا رسولَ الله ﷺ بِوادي النخيل عند منصرفه مِن الطائف يقرأ في تهجده[2].

---

(١) انظر: النكت في القرآن الكريم لأبي حسن القيرواني (ص١٩٥)، وإعراب القرآن للأصبهاني (ص٩٥)، وتفسير ابن عطية (١٠٣/٥).

(٢) انظر: تفسير مجاهد (ص٦٠٣)، وأخبار مكة للفاكهي (٦٢/٥)، وتفسير الطبري (١٣٤/٢٢). قال الشيخ مقبل الوادعي في كتابه الصحيح المسند من أسباب النُّزول (ص١٨٦): (عن =

﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ قيل: إنَّما قالوا ذلكم لأنَّهم كانوا يهوداً، أو ما سمعوا بأمر عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وهو بعيد؛ إذ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان اشتهر دينُه، ومع ذلك لم يسمع الجنَّ، فيكون بعيداً غايةَ البعد، والأَولى أنَّهم سمعوا مِن القرآن ما كان مُطابِقاً للتوراة، فإنَّ بعض ما في القرآن مذكورٌ في التوراة أيضاً، فقالوا ذلك[1] ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ إلى العقائدِ، ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ ﴾ إلى صراط ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الشرائع.

فأنتم ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ الذي جاء بذلك القرآن، ﴿ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾، وهو ما يكون في خالصِ حقِّ الله تعالى؛ إذ المظالم لا تُغفر بالإيمان[2]، ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مُعَدٍّ لِمَن كفر.

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ﴾ / ربَّه أن يعذبه، وكيف يزعم أحدٌ ذلك مع أنَّه ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ ينصرونه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الْمُعرِضون ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. [٤٤١/أ]

=

عبد الله بن مسعود، قال: هبطوا على النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا تسعةً، أحدهم زوبعة؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ الآية إلى ﴿ ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾) صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق الحاكم بهذا السند في دلائل النبوة (١٣/٢).

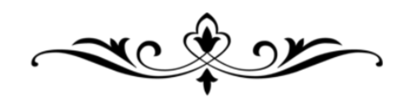
(١) قال ابن عطية (١٠٥/٥): (قال هؤلاء المنذرون لَمَّا بلغوا قومَهم: يا قومنا إنَّا سمعنا كتابا وهو القرآن العظيم، وخصصوا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأحد أمرين: إمَّا لأنَّ هذه الطائفة كانت تدين بدين اليهود، وإمَّا لأنهم كانوا يعرفون أنَّ موسى قد ذكر محمداً وبشَّر به، فأشاروا إلى موسى مِن حيث كان هذا الأمر مذكوراً في توراته. قال ابن عباس في كتاب الثعلبي: لم يكونوا علموا أمر عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلذلك قالوا: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾. وقولهم: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يؤيد هذا، و(ما بين يديه) هي التوراة والإنجيل).

(٢) وتغفر المظالم بإرجاع الحقوق إلى أهلها، أو التحلل من أصحابها. أو بالأخذ من حسناتهم يوم القيامة.

﴿ أَ ﴾يعرضون ولا يؤمنون به ﴿ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ ﴾ ولم يتعب ﴿ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فإنَّ الإعادةَ أسهلُ مِن خلق تلك الأجرام العظام، وليس الأمر كما يزعمون، ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ يقدِرُ على ذلك، ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مُمْكِنٍ ﴿ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ وَ ﴾ليس لمقدوراته نهايةٌ وحصر، وهم يُقِرُّون بذلك يوم ﴿ يَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ فيُقال لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾؟ فحينئذٍ ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ ﴾: إذا كنتم لم تؤمنوا به في دنياكم ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

فإذا بلَّغتَهم كما أُمِرتَ وهم لم يؤمنوا ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ ﴾ والثباتِ والجدِّ ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ إذ أنت مِن جُملتهم، ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ العذابَ، فإنه وإن كان بعيداً إلا أنهم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ استقصروا مِن هوله مُدةَ لبثهم في الدنيا. هذا الذي وُعِظُوا به ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ كفاية لِمَنِ اتَّعظ، وإن لم يتعظوا ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ عن الاتِّعاظ والطاعة.



(سورة القتال)

سورة القتال مدنية، وقيل: مكية[(١)].

وآيُها سبعٌ أو ثمان وثلاثون آية[(٢)].

سميت بذلك[(٣)] إذ القتالُ مبنى الدّينِ؛ فالسورةُ مسوقةٌ لذلك.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ امتنعوا عن الدخولِ في الإسلامِ ومنعوا الناسَ عنه، وهم المطعمون يومَ بدرٍ، أو شياطين قريش، أو المصرون مِن أهل الكتاب، أو عام في جميع من كفر وصد[(٤)] ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وأحبطَ جميعَ مكارمهم؛ كصلة الرحم، وفكِّ الأسارى، وحفظ الجوار[(٥)].

---

(١) سورة محمد من السور المختلف فيها على قولين: الأول: أنها مدنية، وهو قول جمهور المفسرين. والثاني: أنها مكية. والراجح هو قول الجمهور؛ لِما ذكروه، ولعدم وجود ما يدل على مكيتها، واختلف في الآية: ١٣ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، ونُسِب القول باستثناء هذه الآية إلى ابن عباس وقتادة، والآية مدنية كغيرها من آيات السورة، ولا يصح استثناؤها. انظر: المكي والمدني (ص٣١٦):

(٢) قال الداني في البيان (ص٢٢٨): (وهي ثلاثون وثمان آيات في الكوفي، وتسع في المدنيين والمكي والشامي، وأربعون آية في البصري، اختلافها آيتان: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ [القتال:٤] لم يعدها الكوفيُّ وعدها الباقون، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [القتال:١٥] عدَّها البصريُّ ولم يعُدَّها الباقون).

(٣) واشتهرت في المصاحف وكتب التفسير والسنة بسورة محمد، ومن أسمائها سورة القتال -كما أورد المؤلف-، ومن أسمائها سورة الذين كفروا كونها مطلعها وبداية الآية الأولى فيها. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٤١).

(٤) انظر: تفسير الزمخشري (٣١٤/٤)، وتفسير البيضاوي (١١٩/٥).

(٥) قال الماوردي في تفسيره (٢٩٠/٥): (﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يحتمل ثلاثةَ أوجه: أحدها: أحبط ما فعلوه مِن الخير بما أقاموا عليه مِن الكفر. الثاني: أبطل ما أنفقوا ببدرٍ لِما نالهم مِن القتل. الثالث: أضلَّهم عن الهدى بما صرفهم عن التوفيق).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَ ﴾ هم الذين ﴿ ءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَ ﴾ إنَّما آمنوا لأنه ﴿ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ وسترها بالإيمانِ والأعمالِ الصالحاتِ، ﴿ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾ حالَهُم في الدارين بالتوفيق.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكِر مِن الإضلال والإصلاح ﴿ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ فاتِّباع الباطل يقتضي الإحباط لظلمته، واتِّباع الحق يقتضي الإصلاح؛ إذ هو نورٌ يُزيل جميع الظلمات، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الضرب ﴿ يَضۡرِبُ ﴾ يُبَيِّن ﴿ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾.

فأنتم إذا علمتم أن الكافرين اتبعوا الباطل ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في المحاربة ﴿ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾، أصله: فاضربوا ضرب الرقاب[(١)]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ﴾ وأكثرتُم قتلَهم وأغلظتم في ذلكم[(٢)] ﴿ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ والوثاق -بالفتح، والكسر-: ما يوثق به، ﴿ فَإِمَّا مَنَّۢا ﴾ ﴿ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ فإنكم خُيرتم بعد الأسر في المن بالإطلاق، وفي أخذ الفداء، وأسر العرب ثابت عند الشافعي[(٣)] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومنسوخ عند أبي / حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٤)]، أو [٤٤١/ب]

(١) قال الفراء في معاني القرآن (٥٧/٣): (نُصِب على الأمرِ، والذي نُصِب بِهِ مضمر، وكذلك كلُّ أمرٍ أظهرتَ فيه الأسماءَ، وَتركت الأفعال فانصب فيه الأسماءَ، وَذُكر: أَنَّهُ أدبٌ مِن الله وتعليم للمؤمنين للقتال).

(٢) قال الزمخشري في الكشاف (٣١٦/٤): (﴿ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ﴾: أكثرتُم قتلهم وأغلظتموه، مِن الشيء الثخين: وهو الغليظ. أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض، ﴿ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ فأسروهم).

(٣) انظر: المجموع شرح المهذب للنووي (٣١٠/١٩).

(٤) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني الحنفي (١١٩/٧).

وقد اتفق الفقهاء على جواز استرقاق الأعاجم، وثنيين كانوا أو أهل كتاب، واتجه الجمهور إلى جواز استرقاق العرب على تفصيل بينهم. والحنفية لا يجيزون استرقاق مشركي العرب. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٠٢/٤).

ويجوزُ استرقاقُ العرب؛ لأنّ الأدلة الصحيحة قد دلَّت على جواز استرقاق الكُفَّار، مِن غير فَرْقٍ بين عربيٍّ وعجمي، وذَكَرٍ وأنثى، ولم يقُم دليلٌ يصلُح للتَّمَسُّك قطُّ في تخصيص أسْرى العرب بعدم جواز استرقاقهم؛ بل الأدلّة قائمةٌ متكاثرة على أن حُكْمهم حُكمُ سائر المشركين.
=

مخصوص ببدر، ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وآلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها؛ كالسلاح وغيرها، يعني: تنقضي الحرب بأن لا يبقى إلا مسلمٌ أو مُعاهِدٌ، وقيل: بنُزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الأمر ﴿ذَٰلِكَ﴾[1]، أو افعلوا بهم ذلك، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ وانتقم بالاستئصال بلا حربٍ منكم، ﴿وَلَٰكِن﴾ أمَرَكم بالحربِ ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ بالحرب فيما بينكم، فيستوجب المؤمنون الثوابَ العظيم، والكافرون العذاب العظيم، أو يتوبون على أيديهم، ﴿وَ﴾قل للمؤمنين لا بأس عليكم وإن قُتلتم في ذلكم إذ ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ﴾ ولن يُضِيع ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

بل ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثوابِ، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ بالإخلاص له سبحانه.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ حين قُتِلوا في سبيله ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ في الدُّنيا، فاشتاقوا إليها، فعمِلوا، فاستحقُّوها به. أو يُبينها لهم بحيث يعلم كلُّ واحد منهم منْزِلَه، ويهتدي إليه؛ كأن كان ساكنه منذ خُلِق[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مُقتضى إيمانِكم أن تهتمُّوا في أمر القتال؛ فإنكم ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ ورسولَه ﷺ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدُوِّكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في قتالِكم.

=

انظر: الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة (٢٣٣/٧).

(١) قال ابنُ عطية (١١١/٥): (واختلف المتأوِّلون في الغاية التي عندها تضع الحرب أوزارها، فقال قتادة: حتى يسلم الجميع فتضع الحرب أوزارها. وقال حذاق أهل النظر: حتى تغلبوهم وتقتلوهم. وقال مجاهد: حتى ينْزل عيسى ابن مريم. قال القاضي أبو محمد: وظاهر الآية أنها استعارة يُراد لها التزام الأمر أبداً، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها، فجاء هذا كما تقول: أنا أفعل كذا إلى يوم القيامة، فإنما تريد: إنك تفعله دائماً).

(٢) قال الماوردي في تفسيره (٢٩٤/٥): (فيه أربعة تأويلات: أحدها: عرفها بوصفها على ما يشوق إليها، حكاه ابن عيسى. الثاني: عرفهم ما لهم فيها مِن الكرامة، قاله مقاتل. الثالث: معنى ﴿عَرَّفَهَا﴾ أي: طيَّبها بأنواع الملاذِّ، مأخوذ مِن العرف، وهي: الرائحة الطيبة، قاله بعض أهل اللغة. الرابع: عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يسألون عنها، قاله مجاهد. قال الحسن: وصف الجنة لهم في الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها. ويحتمل خامساً: أنَّه عرف أهل السماء أنها لهم إظهاراً لكرامتهم فيها).

﴿وَ﴾أمَّا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقاتَلوا في سبيل الطاغوت ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ وهلاكاً لهم؛ ﴿وَ﴾ذلك لأنه سبحانه كان ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جميعاً في قضائه.

وإنما ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر وفعل بهم ﴿بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن القرآنِ لأنَّه نُورٌ، وهم ذو ظُلْمَةٍ، حتى صاروا عينَها، فوقع التنافرُ بينهم وبينه، ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فلم يرِثوا شيئاً وإن كانوا عملوا أعمالاً كثيرة.

وتلك النُصرة المذكورة سُنة جارية فيمن تقدَّم، أيسمعون ذلك ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، وفي الفاء إشارةٌ إلى أنَّ تلك سُنَّةٌ جاريةٌ فيمن تقدم، ولذا عمّم قوله: والذين كفروا، بأنه سبحانه ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ واستأصل عليهم بكُلّيتهم، ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين في زمانك ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ مِن العقوبة والهَلَكة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن نصر المؤمنين وهَلَكَة الكافرين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فينصرُهم على أعدائهم، ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فيدفع العذابَ عنهم، وكما أنَّه سبحانه مولاهم في الدنيا، كذلك مولاهم في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وإن كانوا ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ وينتفعون بمتاعِ الدنيا؛ فإنَّه لا يثبت بذلك أنَّه سبحانه مولى لهم؛ ﴿وَ﴾ذلك لأنهم ﴿يَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ غافلين عن العاقبةِ، بل هم أضل منها إذ هؤلاء صرن تراباً، ﴿وَ﴾أما الكافرون فـ ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ ومقامهم لا يخرجون منها أبداً.

وتلك الهَلَكَة ليست بمختصة بهم، فإنه / ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ فإنّا إذا ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ يدفع عنهم عذابنا. [٤٤٢/أ]

وهم ينظرون إلى مساكنهم إذ يمشون فيها فلا يتَّعظون بذلك، ولو كانوا لم يهلكوا بل بقوا في تمامِ عمرهم على تنعُّمِهم وتلذُّذِهم معَ إنكارهم أنبياءهم، فإنَّ لهم أيضاً دليلاً على سوء عاقبتهم، فإنهم ﴿أَ﴾ لَم يكن لهم العاقبة ﴿فَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ وحجةٍ

﴿مِّن﴾ عند ﴿رَّبِّهِۦ﴾، ويكون لتلك الحجة خُصوصية مع الربِّ كالنبي والمؤمنين، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مِن الشرك والمعاصي [بذلك][(١)] التزيين ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ وتركوا تلك الحجة، كلا لا يَقبل ذلك الاستواء أحدٌ مِن الذين يعقلون، بل بينهما بُعد لا يُتصور غايته.

فإنه ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ الذين كانوا على بينةٍ من ربهم، وهم ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أنه ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ تغيير كما يتغير ماء الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾ أُخر ﴿مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما يتغير طعمُ لبن الدنيا بأدنى مرور الزمان، ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾ أُخر ﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لا يكون فيها كراهية بوجه، لا بالريح، ولا بالسُكر، ولا بالخمار كما يكون في الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾ أخر ﴿مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ مِن الشمع وفضلات النحل وغيرها كما يكون في عسل الدنيا، ﴿وَ﴾لم يكتفوا بذلك بل ﴿لَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وصفُها على هذا القياس، ﴿وَ﴾لهم مع ذلك ﴿مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بتلك النعم، فإنَّ النِّعَم وإن بلغت غايتها ولم يكن معها مغفرة بل غضب كالنعم التي للكفار في الدنيا منغصة قبيحة غاية القبح، فمن كان كذلك كيف يكون ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾! ﴿وَ﴾مع ذلك ﴿سُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكان تلك الأشربة، ﴿فَقَطَّعَ﴾ ذلك الماءُ ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾ مِن فرط الحرارة.

وهم لا يحضرونك حتى يستمعوا ذلك، ﴿وَمِنْهُم مَّن﴾ يحضر و﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ولكنهم يستهزؤون بك وبكلامك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ ومِن مجلسك ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن صحابتك ﴿مَاذَا قَالَ﴾ الرسول ﷺ ﴿ءَانِفًا﴾ وقتاً متقدماً، مستعارٌ مِن قولهم: أنف الشيءُ؛ لِما تقدم منه، وهو مستعار من الجارحة المخصوصة[(٢)]، وإنما يقولون ذلك إذ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يفهموا ذلك الكلام، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فاستهزؤوا به وتهاونوا به.

﴿وَ﴾أمَّا ﴿ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ وهم الذين آمنوا فالله سبحانه ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾

---

(١) في [ف] بلفظ: [وبذلك].

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٥/٣٤٦)، ومقاييس اللغة لابن فارس (١/١٤٦).

بالتوفيقِ والإلهامِ وقولِ الرسول ﷺ[1]، ﴿ وَءَاتَنٰهُمۡ ﴾ وبيَّن لهم ﴿ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾، أو أعانهم عليها، أو أعطاهم جزاءها[2].

فإذا لم يُؤمنوا بالقرآنِ ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ وتلك لا تأتيهم حين تأتيهم إلا ﴿ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً ﴾ فلا ينفع الإيمان إذ ذاك، وأمَّا التي تدلُّ عليها ﴿ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا ﴾ التي هي مقدماتها، فهم لم ينتبهوا بذلك ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ﴾ الساعة ﴿ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴾.

فإنَّك إذا علمت ذلك / ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ مِن الزّلاتِ فإن البشر لا يخلو من ذلك، وإنَّما قيل ﴿ لِذَنۢبِكَ ﴾ هضماً للنفس، وللتنبيه على أنَّ القليلَ مِن الشريفِ كثيرٌ، والصغير عظيم، ﴿ وَ ﴾استغفر أيضاً ﴿ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ ذنوبهم. وفي إعادة الجارِّ تنبيهٌ على أنَّهم يحتاجون إلى الاستغفارِ أشد احتياج، حتى أمر ﷺ بالاستغفار لهم على التخصيص. وفيه تنبيه أيضاً على أنَّ ذنوبهم مِن جنس آخر. وفي الحذف أيضاً إيماءٌ إلى أنَّ الذنوب قد بلغت مِن الكثرة حتى لم تُعَدَّ ولم تُحصَ. ﴿ وَ ﴾عليكم أيها المؤمنون أن تستغفروا إذ ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ ﴾ في الدنيا وأعمالكم فيها، ﴿ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ في العُقْبَى، فاتقوا الله واستغفروا وأعدوا لمعادكم. [٤٤٢/ب]

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بأنَّه سبحانه يعلم متقلبهم ومثواهم ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ ﴾ تُبَيِّن لهم ما به يكون مثواهم خيراً، ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ ﴾ بَيَّنت

---

(١) قال الماوردي في تفسيره (٢٩٨/٥): (فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنَّ الاستهزاء زاد المؤمنين هدى، قاله الفراء. الثاني: أن القرآن زادهم هدى، قاله ابن جريج. الثالث: أنَّ الناسخ والمنسوخ زادهم هدى، قاله عطية. وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل: أحدها: زادهم علماً، قاله الربيع بن أنس. الثاني: علموا ما سمعوا، وعلموا بما عملوا، قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيهم، قاله الكلبي. الرابع: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان. ويحتمل خامساً: والذين اهتدوا بالحق زادهم هُدىً للحق).

(٢) قال الماوردي في تفسيره (٢٩٨/٥): (﴿ وَءَاتَنٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ فيه خمسة أوجه: أحدها: آتاهم الخشية، قاله الربيع. الثاني: ثواب تقواهم في الآخرة، قاله السدي. الثالث: وفقهم للعمل الذي فرض عليهم، قاله مقاتل. الرابع: بيَّن لهم ما يتَّقون، قاله ابن زياد. الخامس: أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ، قاله عطية).

لهم الأوامرَ والنواهيَ ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ الذي بُني عليه الدينُ ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفٌ في الدين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ﴾ أجل ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ جُبناً ومخافةً ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ ويلٌ ﴿لَهُمْ﴾، وهو مِن الوَلْي، وهو: القُرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه[1]، أو من آلَ، أي: رَجَع، يعني: يرجع إلى المكروه أمرُهم[2].

فإنَّهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خيرٌ لهم، والذين هم كانوا كذلك ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ وُجِد أمر القتال، وهو مِن المجاز؛ إذِ العَزم لأصحاب الأَمرِ لا له؛ كرِهوا ذلك، وظهر كذبهم في قولهم كذلك، ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما قالوا مِن الحرص على الجهاد ﴿لَكَانَ﴾ ذلك الصدقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

فإذا ظهر كذبهم في قولِهم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فهل يُتَوقَّع منكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ الناس، وتأمَّرتم عليهم ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ إذ المانع عن ذلك كان هو الانقياد للرسول والطاعة له، أو إن أعرضتم عن الإيمان فلا يتوقع منكم إلا ذلكم[3].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون هم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحقِّ، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن رؤية الآيات.

﴿أَ﴾يسمعون ﴿فَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ولا يتفكرون ولا يتفحصون ما فيه مِن المواعظ

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٣٢٤/٤). قال أبو البقاء الحنفي في الكليات (ص٢٠٨): (ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: فويلٌ لهم، دُعاء عليهم بأن يَلِيَهم المكروهُ، أو يؤول إليه أمرُهم، فإنَّه (أفعل) مِن (الوَلْي)، أو (فعلى) من (آل)).

(٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص٤٢)، وإعراب القرآن للنحاس (١٢٣/٤).

(٣) قال الماوردي في تفسيره (٣٠١/٥): (فيه أربعة أوجه: أحدها: فهل عسيتم إن توليتم أمور الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم، قاله الكلبي. الثاني: فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا، قاله أبو العالية. الثالث: فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام وتقطعوا أَرحامكم، قاله قتادة. الرابع: فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام، قاله ابن جريج).

والزواجر حتى يجْرؤوا على المعاصي، ﴿أَمْ﴾ يتدبرون ولكن ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فلا ينكشف لها أمرُه. ونكّر القلوبَ إذ المراد قلوب الذين لم يرجعوا عن أفعالهم. وفي إضافة الأقفال إلى القلوبِ إشارةٌ إلى أنَّ لتلك الأقفال مناسبة بتلك القلوب، ولا تُجانس الأقفال المعهودة. أو يكون التنكير إشارة إلى شدة قساوة تلك القلوب. وفي الإضافة إشارة أنها أقفال لا تفتح[1]، ولها اختصاص بتلك القلوب لا يزول عنها.

وهم بذلك لا يضُرُّون إلا أنفسَهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ ورجعوا إلى كُفرهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ / بالدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات؛ [٤٤٣/أ] إنَّما ارتدوا إذ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ وسهَّل اقترافَ المعاصي لهم، ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ ومدَّ ﴿لَهُمْ﴾ في الآمال والأماني، وأمهل الله سبحانه لهم ولم يعاجلهم في العقوبة، فاتِّباع العدوِّ استضرارٌ لنفسه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر مِن الارتِداد ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ مِن أمر القتالِ: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ مِن القعودِ عن الجهاد، والموافقة في الخروج معهم إن خرجوا، والتظافر على الرسول ﷺ. والمراد بالقائلين ذلك: إمَّا اليهود الذين كفروا بالنبي ﷺ مِن بعد ما تبيَّن لهم نعتُه في كتابهم، فهم قالوا للمنافقين، أو المنافقون قالوا لهم ذلك، أو أحد الفريقين قالوا للمشركين، أو جميعهما لهم[2].﴿وَ﴾هُم وإن أَخفَوا ذلك لكن ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فيجزيهم على ذلك.

ومِن ذلك الجزاء أنَّه سبحانه أفشا قولهم ﴿فَكَيْفَ﴾ يعلمون ويحتالون! ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ تصويرٌ للشِّدَّة التي تقع عليهم حين توفاهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّوفِّي المذكورُ ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ مِن الكفرِ وكِتمان نعت النبي ﷺ وعصيان أمرِه[3]، ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ مِن الإيمان وطاعةِ الرسول

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٣٢٦/٤).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٣٢٦/٤).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٥٨/٢٨)، وتفسير البيضاوي (١٢٤/٥).

ﷺ فإذا هم فعلوا ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أهم يعملون ذلك لظنِّهم أن الله سبحانه لا يعلمهم.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ ولن يُبْرِزَ اللهُ تعالى للرسول ﷺ ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادَهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ وعرَّفناكَهُم بأعيانهم، فإذا عرَّفناكهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وعلاماتهم، فإنَّ تلك العلامات لا تحتاج إلى تأمُّلٍ كثيرٍ، بل تعرف بأدنى التفات، ﴿وَ﴾ذلك لأنك ﴿لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وأسلوبه. وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مِن ذلك قولُهم: ما لنا مِن الثواب إن أطعنا، ولا يقولون: ما علينا إن عصينا من العقاب[1]. أو إمالته إلى جهة تعريض، فاللحنُ مستعملٌ في كلٍّ مِن ذينك المعنيين، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيُجازيكم على حسبِ ما علِمَها منكم.

﴿وَ﴾لا يبقى ذلك مخفيّاً؛ فإنَّا ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنَمْتَحِنكم بالتكاليف الشاقَّة، ومنها الجهاد؛ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على ذلكم، فيظهر حينئذٍ أحوالُكم في جميع الناس، ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أحوالكم وأعمالكم، فيظهر حسنُها وقبحها، فالمراد بالإخبار: ما اشتهر مِن أحوالهم وأفعالهم، يعني: لا نكتفي بالاشتهار، بل نمتحن صدقها وكذبها، أو نمتحن ما تقولون وتخبرون به مِن الإيمان وموالاة المؤمنين إنَّه صدق أو كذب[2].

وكذبكم إنما يضر أنفسكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ / من الضرر، ولا الرسول ﷺ، ولا المؤمنين، [٤٤٣/ب] وهم إنما يضرون أنفسهم لأنه سيحبط أعمالهم من حسناتهم وإن كابدوا فيها أشد مكابدة.

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤/٣٢٧). وانظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/١٢٦).

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/٣٢٢): (فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقولُ ابنُ عباسٍ في مثل هذا: إلا لنعلم، أي: لنرى).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مقتضى إيمانكم ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ كما أبطلوا هؤلاء بالكفر والنفاق والعجب والرياء والمنّ والأذى، واحذروا أن يصْدُر عنكم الكفرَ وتموتوا على ذلكم[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إمَّا أنفسَهم فقط، وإمَّا مع الناس ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾.

فأنتم يا أيها الذين آمنوا إذا علمتم ذلكم ﴿ فَلَا تَهِنُواْ ﴾ ولا تضعفوا ﴿ وَ ﴾لا ﴿ تَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ الصُّلْحِ تذللاً ولا ضعفاً، ﴿ وَ ﴾ذلك إذ ﴿أَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ الأغلبون عاقبةً، ﴿ وَ ﴾ذلك إذ ﴿ٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فهو ينصركم، ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ ﴾ ولن يضيع ﴿ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، مِن وترتُ الرجلَ إذا أفردتَه وقتلت قريبَه[2].

وقولوا للكفرةِ: لا تغترُّوا بالدنيا ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لا ثبات لها، ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ عن ما نُهيتم ليكمُل إيمانُكم ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ مِن ثواب إيمانكم وتقواكم، ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ جميعَها، بل ربع العشر، والعشر.

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ ويبالغكم بطلبِ الكُلِّ، والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ بمقتضى طبعكم ﴿ وَيُخْرِجْ ﴾ ذلك البخل ﴿ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ أحقادكم على رسوله ﷺ، أو يضغنكم الله تعالى بذلك السؤال على رسوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[3].

والإنفاقُ شأنُه عظيمٌ؛ فإنَّكم ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الذين ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي

---

(١) قال الماوردي في تفسيره (٣٠٦/٥): (فيه ثلاثة أوجه: أحدها: لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي، قاله الحسن. الثاني: لا تبطلوها بالكبائر، قاله الزهري. الثالث: لا تبطلوها بالرياء والسمعة).

(٢) قال الفراء في معاني القرآن (٦٤/٣): (مِن وترت الرجل: إذا قتلت له قتيلاً، أو أخذت له مالاً فقد وترته.

(٣) انظر: تفسير الزمخشري (٣٣٠/٤). وقال ابن الجوزي في تفسيره (١٢٣/٤): (﴿ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ بنصب النون، أي: يظهر بغضكم وعداوتكم لله ولرسوله ﷺ، ولكنه فرض عليكم يسيراً. وفيمن يضاف إليه هذا الإخراج وجهان: أحدهما: إلى الله ﷻ. والثاني: البخل، حكاهما الفراء).

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ ﴾ ولا ينفق معَ أنَّ سبيله سبحانه مِن حيث إنها منسوبة إليه سبحانه، وبالإنفاق يسلك في ذلك السبيل تقتضي أن ينفق، وإن كان جميعُ المالِ مطلوباً، ﴿ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ إذ نفعُ الإنفاقِ وضُرُّ البخلِ عائدان إليها، ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ سبحانه لم يأمرَكم بالإنفاق لنفسه إذ هو ﴿ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ ﴾ فإنما يأمُركم لاحتياجكم، فإن امتثلتم فهو لكم، وإلا فعليكم ﴿ وَ ﴾غناه بحيث ﴿ إِن تَتَوَلَّوۡاْ ﴾ وتُعرِضُوا ﴿ يَسۡتَبۡدِلۡ ﴾ مكانكم ﴿ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ بل يكونوا مطيعين له، والمراد هم الفُرس؛ فإنَّه روي أنَّه ﷺ سُئِل عن ذلك وكان سلمانُ إلى جنبه، فضرب فخذَه، وقال: «هذا وقومه»[١]، أو الأنصار، أو اليمن، أو الملائكة[٢].



(١) رواه الترمذي في سننه (٥/٣٨٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: (هذا حديث غريب في إسناده مقال)، وابن حبان في صحيحه (١٦/٦٣) وصححه شعيب الأرناؤوط، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥/٣٧٩).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره (٤/١٢٣): (وفي هؤلاء القوم ثمانية أقوال: أحدها: أنهم العجم، قاله الحسن، وفيه حديث يرويه أبو هريرة. والثاني: فارس والروم، قاله عكرمة. والثالث: من يشاء مِن جميع الناس، قاله مجاهد. والرابع: يأتي بخلق جديد غيركم، وهو معنى قول قتادة. والخامس: كندة والنخع، قاله ابن السائب. والسادس: أهل اليمن، قاله راشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير، وشريح بن عبيد. والسابع: الأنصار، قاله مقاتل. والثامن: أنهم الملائكة، حكاه الزجاج، وقال: فيه بعدٌ، لأنه لا يقال للملائكة: قومٌ، إنما يقال ذلك للآدميين، قال: وقد قيل: إن تولى أهل مكة استبدل الله بهم أهل المدينة، وهذا معنى ما ذكرنا عن مقاتل).

(سورة الفتح)

سورة الفتح مدنية[1]، نزلت في مرجع رسول الله ﷺ من الحديبية[2].

وهي تسع وعشرون آية[3].

سميت بذلك إذ بُشِّر فيها بالفتح[4] الذي به ظهورُ الدين الذي أنزل القرآن لذلك.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ المراد: إما فتح مكة بمكة، أو ما اتَّفق له في تلك السنة من فتح خيبر وفدك[5]، أو المراد صلح حديبية؛ لأنَّه كان بعد ظهوره على المشركين، وذلك الصلح تسبّب لفتح مكة، / وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فغزاهم وفتح [٤٤٤/أ] مواضع، وأدخل في الإسلام خلقاً كثيراً، أو المراد فتح الروم، فإنهم غلبوا على الفرس في

---

(١) سورة الفتح من السور المتفق على مدنيتها. انظر: المكي والمدني (ص٣٢٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/٢٠١)، وتفسير الثعلبي (٩/٤٠)، وأسباب النُّزول للواحدي (ص٣٨٢).

(والحديبية: على (٢٢) كيلا غرب مكة على طريق جدة القديم، وهي خارج الحرم غير بعيدة منه). انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (ص: ٩٤)

(٣) قال الداني في البيان (ص٢٢٩): (وهي عشرون وتسع آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف).

(٤) وبهذا الاسم اشتهرت في المصاحف وكتب التفسير والسنة، قال ابن عاشور: (ولا يعرف لها اسم آخر)، لكن ربما قيل: سورة إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٤٣).

(٥) (فدك: هي بلدة كانت عامرة، صالح أهلها رسول الله بعد فتح خيبر، ولها قصص وأخبار في التاريخ الإسلامي، وهي قرية من شرقي خيبر تعرف اليوم بالحائط) بتصرف من معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (ص: ٢٣٥)

تلك السنة، وكان ذلك علامةً لفتح رسول الله ﷺ كما مرَّ في سورة الروم[1].

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ بذلك الفتح ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾ جميعَ ما فرط منك مِن زَلاتك، إذ ذلك الفتحُ شأنٌ عظيم، والحسنات يُذهِبْن السيئات، ولكمال شأنِ ذلك الفتح غفر به ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أيضاً، فإنَّ بعض الحسنات لِعِظَم شأنها تحفظ عن السيئات، وإن صدرت صارت مغفورةً، ﴿ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ بإعلاء الدين، وحينئذ لك الملك والنبوة، ﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ في إقامة مراسم الرياسة[2].

﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ ﴾ فيما غزوتَ بعد ذلك ﴿ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾.

ومِن نصره سبحانه إيَّاك أنَّه ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ والثباتَ ﴿ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الذين تبعوك ﴿ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ ويقيناً مع يقينهم السابق، ﴿ وَ ﴾لا يبعد الفتح -أيُّ فتحٍ كان- بالنسبة إليه سبحانه؛ إذ ﴿ لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيُدَبِّرُ أمرهما، ويُسَلِّط البعضَ على بعضٍ، ﴿ وَ ﴾لا يفعل ما يفعل إلا بالحكمة؛ لأنه ﴿ كَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح ﴿ حَكِيمٗا ﴾ فيما يُدَبِّر.

وإنَّما دبَّر ما دبَّر ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ بأعمالِهم التي عملوها، ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ بحسناتهم، ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخالُ ﴿ عِندَ

---

(١) قال ابن الجوزي في تفسيره (١٢٥/٤): (وفي المراد بالفتح أربعة أقوال: أحدها: أنَّه كان يوم الحديبية، قاله الأكثرون. قال البراء بن عازب: نحن نعد الفتح بيعة الرضوان. وقال الشعبي: هو فتح الحديبية، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقال ابن قتيبة: إنا فتحنا لك فتحاً، أي: قضينا لك قضاءً عظيماً، ويقال للقاضي: الفتاح. قال الفراء: والفتح قد يكون صلحاً، ويكون أخذ الشيء عنوة، ويكون بالقتال. وقال غيره: معنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي جعل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذراً حتى فتحه الله تعالى). ورجح الشوكانيُّ القولَ الأول وهو صلح الحديبية. انظر: فتح القدير (٥٣/٥)، وفتح البيان في مقاصد القرآن (٨٥/١٣).

(٢) ذكر هذا المعنى البيضاوي في تفسيره (١٢٦/٥)، وهذه العبارة غريبة لأن النبي ﷺ لم يطلب الرئاسة وليس هناك صلة بين لفظ الآية ﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ وبين الرئاسة.

﴿ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ فإنَّه سبحانه إنَّما خلق ما خلق إلا للإنسان، وما خلق الإنسان إلا للإيمان والفرقان، فجميع التدبيرات لهم.

﴿وَ﴾لأن يُفرحهم ﴿يُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ الذين هم أعداءُ الله ورسوله والمؤمنين؛ لأنَّهم كانوا ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾، وهو أن لا ينصر سبحانه رسوله والمؤمنين الذين هم أولياؤه، فصاروا هم ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ لا تتخطَّاهم، ﴿وَ﴾ذلك لأنه ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، ﴿وَ﴾لغَضَبِه ﴿لَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾ قبل أن يكفروا به سبحانه؛ لِعلمِه بأنهم ملعونين، ولم يَذكر قوله: ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾ بالفاء، مع أنَّ السببيةَ تقتضي ذلك إشارة إلى أنَّ ذلك في قضائه، وليس فيه على سبيل التعاقب والتسبب، ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ جهنم.

﴿وَ﴾قُل لهم لا تغترُّوا بكُثرةِ عَدَدِكم وعُدَدِكم؛ لأن ﴿لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿وَ﴾هو سبحانه لا يحتاج إلى الجنودِ لأنَّه ﴿كَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً يفعل ما يشاء بلا آلةٍ، إلا أنه كان ﴿حَكِيمًا﴾ علَّق الأشياءَ بأسبابها.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لحِكمتنا ﴿شَٰهِدًا﴾ على أُمَّتِك ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لِمَن يؤمن بك ﴿وَنَذِيرًا﴾ لِمَن لم يؤمن.

وإنَّما فعلنا ذلك ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ أنت وأمتُك ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنَّ الأمة كما هي مأمورة بالإيمان بالرسول، كذلك الرسول مأمورٌ بالإيمان برسالة نفسه، والخطاب / للأمة [٤٤٤/ب] خاصةً إذ معنى قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ إنا أرسلنا رسولنا إليكم لتؤمنوا به ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بتقوية دينه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتُعظِّموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنزِّهوه[1] ﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ دائماً، فإنه كان في قدرته سبحانه أن يؤمن الناسُ به

(١) قال الماوردي في تفسيره (٣١٣/٥): (فمنهم مَن قال أنَّ المراد بقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعزِّروا الله وتُوَقِّروه لأنَّ قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجِعٌ إلى الله، وكذلك ما تقدَّمه، فعلى هذا يكون تأويل قوله: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُثْبِتوا له صِحَّة الربوبية، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك. ومنهم من قال: المرادُ به رسول الله ﷺ أن يعزروه ويوقروه لأنَّه قد تقدم ذكرهما، فجاز أن يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله وبعضه راجعاً إلى رسوله).

تعالى بلا إرسالِ رسول، لكنه لحكمته جعل كذلك، وإنَّا فضَّلناك بحيث جعلناك رسولاً تكون منزلة مرسلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فاجعل يدك فوق أيديهم وأنت غالب عليهم، ولا تباسطهم خوفاً مِن أن يغلبوا عليك، إذاً تنفّروا عنك إذ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ دائماً، وهو سبحانه غالِبٌ لا يكون مغلوباً، ولا تحزن بنكثهم البيعة، ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ ونقض العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، ووَبالُ ضررِه يعودُ إلَيه، ﴿وَ﴾ كذلك النفع فإنَّه ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ ووفّى في مبايعته، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، والآية نزلت في بيعة الرضوان.

ومِن الناكثين مَن يكتم نكثَه فإنَّه ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم أَسْلَمُ وجُهينة ومزينةُ وغفار، استنفرهم ﷺ عامَ الحديبية، فتخلَّفوا، واعتلُّوا بالشغل بأموالهم وأهاليهم[(١)]، وإنَّما خلفهم الخذلان، ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ ليس لنا مَن يقوم بأمرهم، ونحن مُقِرُّون بتقصيرنا، فإذا أقررنا بذلك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ منه سبحانه على ذلك، وهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فإنهم لا يعلمون أنهم قد قصّروا. ﴿قُلْ﴾ لهم: إنكم تخلفتم لأنَّكم خفتم عن المقاتلة وغلبة الأعداء ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ مِن القتل أو الهزيمة أو الخلل في المال، فإنَّ تخلفكم لا يمنعكم مِن ذلكم، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ ما يُضادُّ ذلكم، وإنما فعلتم ذلكم لأنَّكم زعمتم أنه سبحانه لا يعلم أعمالكم فلا يجزيكم، وليس الأمر كذلكم، ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ فيعلم ما قصدتم في تخلُّفكم.

ولم يكن ذلكم التخلُّفُ للعُذْرِ الذي ذكرتم، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ والمشركون يستأصلونهم، والأهلون: جمع أهل، ﴿وَ﴾ إنما ظننتم ذلكم إذ ﴿زُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ وتمَكَّن ﴿فِى قُلُوبِكُمْ وَ﴾ كان ذلكم الذي ﴿ظَنَنتُمْ﴾ بربِّكم وأحِبَّائه ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَ﴾ بذلكم الظنِّ ﴿كُنتُمْ﴾ وصرتم ﴿بُورًا﴾

---

(١) ذكرها كثير من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/٧٠)، وتفسير الطبري (٢٢/٢١٢)، وتفسير الثعلبي (٩/٤٥).

هالِكين عند الله سبحانه.

﴿وَ﴾ذلك لأنه ﴿مَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ لكفرهم ﴿سَعِيرًا﴾.

﴿وَ﴾ذلك الذي ذُكِر مِن العذابِ والمغفرةِ ليس بواجبٍ عليه سبحانه[1]؛ إذ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَ﴾ إنَّما يغفر لأنه ﴿كَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، والتَّعذيب إنَّما يكونُ إمَّا رحمة لِمَن عذب إن كان مؤمناً لأنَّ ذلك لتطهيره، / فإن كان كافراً فهو للرَّحمة على المؤمنين[2]. [٤٤٥/أ]

والناكثون المذكورون سيُظهِرون الاتِّفاق معكم، فإنَّه ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وهي مغانم خيبر، فإنَّه ﷺ رجع مِن الحديبية في ذي الحِجَّة مِن سنة ستٍّ، وأقام بالمدينة بقيَّتَها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبرَ بِمَن شهد الحديبية، ففتحها، وغنم أموالاً كثيرةً، فخصَّها بهم[3]: ﴿ذَرُونَا﴾ اتْرُكونا ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾. فهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ مِن وعده لأهل الحديبية أن يُعَوِّضهم مِن مغانم مكةَ مغانِمَ خيبرَ، ﴿قُل﴾ لهم: إنَّكم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ ولا يُمْكِن لكم ذلكم، إذ لم يُقَدِّر لكم سبحانه. أو هو في معنى النهي[4]، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ فإنَّكم إذ تقولوا لهم ذلكم ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: لم يمنعنا اللهُ، ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نُشارِكَكم في الغنائم. وأنتم لا تحسدونهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا

(١) قد مرَّ نحوٌ مِن هذه المسألة في تفسير سورة الدخان، وهي: هل يجب على الله الرحمة والعذاب، عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان:٤٢] وبيَّنَّا أنَّ أهل السنة والجماعة منعوا أن يُوجِب العقلُ على الله تعالى شيئاً، ولم يمنعوا أن يُوجِب اللهُ على نفسِه بعضَ الأمور التي يقتضيها كمالُه، والتي أخبر أنَّه أوجبها على نفسه. انظر (ص٢٣٢).

(٢) في هذه العبارة بعض الغموض، ولعل مقصد المؤلف بأن رحمة الله للمؤمنين تتجلى يوم القيامة حيث أنجاهم من هذا العذاب في الوقت الذي حل بالكافرين.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١٥/٢٢)، وتفسير ابن كثير (٣١٣/٧).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (١٢٨/٥).

يفهَمُون ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وذلك فطنتهم لأمور الدنيا.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾: إن تُبتم مِن تخلُّفكم فلا تقبل توبتكم[1]، إلا أنكم ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم بنو حنيفة[2]، أو غيرهم مِمَّن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، فأنتم ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ فلا بُدَّ مِن المقاتلةِ أو إسلامِهم؛ إذ لا جزية عليهم، وذا يدُلُّ على إمامة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّه لم تتفق هذه الدعوة لغير أبي بكر[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ في الدارين مِن الغنيمة والجنة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ [وأعرضوا][4] ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم ﴾ وأعرضتم ﴿مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

وأنتم لا تدعون إلى ذلكم أجمعين؛ فإنَّه ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ منكم ﴿حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾، ﴿وَ﴾نَفْعُ طاعتِكم لا يكون إلا لكم، فإنه ﴿مَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ ويُعْرِض عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾. خصَّ الوعد والوعيد أولاً بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ إلى آخره، ثُمَّ عمَّم بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ ﴾ تنبيهاً على أنَّ ذلك عامٌّ لكل مِن أطاع وعصى. وفصّل في الوعد دون الوعيد تنبيهاً على سعة رحمته.

والطاعة المقبولة عنده سبحانه إنَّما هي التي تكون بالإخلاص؛ فإنه ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾. روي: أنَّه ﷺ لَمَّا نزل الحديبية بعث [الحارث][5] بن أمية الخزاعي إلى أهل مكة، فهمُّوا به، فمنعه الأحابيش، فرجع،

---

(١) لا يُسلم للمؤلف بهذا، بل التوبة تجب ما قبلها.

(٢) انظر: تفسير مقاتل (٤/٧٢)، وتفسير الطبري (٢٢/٢٢٠)، وتفسير الثعلبي (٩/٤٦).

(٣) قال الثعلبي في تفسيره (٩/ ٤٦) مبينا ذلك: (قال رافع بن جريج: والله لقد كنّا نقرأ هذه الآية فيما مضى ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ فلا نعلم من هم، حتّى دعا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنّهم هم، وقال أبو هريرة: لم تأت هذه الآية بعد).

(٤) كذا في المخطوط، ولعل الصواب أن يُقال: [وتُعرضوا].

(٥) وقع تصحيف في اسم الصحابي في كلا النسختين، فاسمه الصحيح: [خِراش] بن أبي أمية الخزاعي وليس الحارث. قال أبو عمر القرطبي في الاستيعاب (٢/٤٤٥): (خِراش بن أمية بن =

فبعث ﷺ عثمانَ بن عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحبسوه، فأُرْجِف بقتله، فدعا رسولُ الله ﷺ أصحابَه، وكانوا ألفاً وثلاثمائة، أو أربعمائة، أو خمسمائة، وبايعهم على أن يُقاتِلوا قريشاً ولا يفِرُّوا عنهم، وكان ﷺ جالساً تحت سَمُرَة / أو سِدْرَةٍ[1]، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِن الإخلاص، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الطمأنينةَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ببركة إخلاصهم، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. [٤٤٥/ب]

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهو فتحُ خيبر، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً يفعلُ ما يريد، ﴿حَكِيمًا﴾ لا يفعل إلا ما يقتضي الحكمة.

ولإخلاصكم ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وراء تلك المغانم، فأنتم ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانم، ﴿وَ﴾قد رحمكم في ذلكم الحين أيضاً حيث ﴿كَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ حيث صالحكم قريش، أو المراد: أنَّ أهل خيبر لم [يُقاتِلوا معكم][2]، وكذا حلفاؤهم مِن بني أسد[3] وغطفان[4] لم يقاتلوا

=

الفضل الخزاعي، مدني، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، وبعثه رسول الله ﷺ عام الحديبية إلى مكة، فآذته قريش، وعقرت جمله، فحينئذ بعث إليهم رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، وهو الذي حلق رأس رسول الله ﷺ يوم الحديبيّة. روى عن خراش هذا ابنُه عبد الله بن خراش. توفي خراش في آخر خلافة معاوية).

(١) أصل هذه القصة في صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٣) كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، ونقل الزمخشريُّ هذه القصةَ في تفسيره (٣٣٩/٤). وهي في تفسير ابن عطية (١٣٣/٥)، وتفسير النسفي (٣٣٩/٣) بألفاظ متقاربة.

(٢) كذا في المخطوط والصواب أن يُقال: [يتقاتلوا معكم].

(٣) بَنو أَسد: هم بنو أسد بن عبد الْعزى بن قصي مِنْهُم خَدِيجَة بنت خويلد بن أَسد زوج النَّبِي ﷺ وَالزُّبَيْر بن الْعَوام بن خويلد بن أَسد وَحَكِيم بن حزَام بن خويلد. انظر الإنباه على قبائل الرواة (ص:٤٧).

(٤) غَطَفان بن سعد: بطن من حرام ابن جذام، من كهلان، من القحطانية، وهم: بنو غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام. انظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٣/ ٨٨٩).

لأجلهم(١)، ﴿وَ﴾إنَّما فعل ذلكم بكم ﴿لِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيزداد يقينُهم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بذلكم ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ مِن التوكُّلِ على ربِّكم.

﴿وَ﴾مَغانِم ﴿أُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ لِما كان فيها مِن الهزيمةِ(٢) مِن مغانم هوازن وغيرها، ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ واستولى عليها فأظفركم بها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فإنَّ قدرته ذاتية [لا تختصُّ بشيء دون شيء](٣).

﴿وَ﴾قد جعل سبحانه رعبَكم في قلوب أعدائكم لإخلاصكم معه سبحانه فإنكم ﴿لَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن أهل مكة ولم يصَّالَحُوا معكم ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ وانهزموا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يجزيهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

فهم إنَّما صالحوا لرعبهم، وتلك ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلُ﴾ في أنبيائه وأحِبَّائه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

﴿وَ﴾لَم يكن ذلكم إلا بِمَحْضِ فضلِه عليكم؛ فإنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ فلم يقتلكم كفارُ مكة، ﴿وَ﴾كذا كف ﴿أَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخلها ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ﴾ أنه ﴿أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، وذلك أنَّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالدَ بن الوليد على جُندٍ، فهزموهم حتى أدخلهم حيطان مكة(٤)، ثم عادنا علمكم بذلكم أنَّ الأمر بيده سبحانه. وكان في الكف الثاني التعظيم لبيت ربكم، ﴿وَ﴾هو سبحانه سيجزيكم بكفكم فإنه ﴿كَانَ ٱللَّهُ

---

(١) قال ابن الجوزي في تفسيره (١٣٣/٤): (﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهم اليهود همُّوا أن يغتالوا عيال المسلمين الذين خلفوهم في المدينة، فكفهم الله عن ذلك، قاله قتادة. والثاني: أنهم أسد وغطفان جاءوا لينصروا أهل خيبر، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فانصرفوا عنهم، قاله مقاتل. والفراء. والثالث: أنهم أهل مكة كفهم الله بالصلح، حكاهما الثعلبي وغيره).

(٢) في هذه العبارة غرابة ولعل المؤلف يقصد الغنائم التي يغنمها المسلمون بعد هزيمة الكفار.

(٣) ما بين المعقوفتين سقطت من [ع]. والجملة غير واضحة. والأَولى أن يقال: (إنَّ قدرته نافذة في كل شيء).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٢٣٨/٢٢) بنحوٍ من هذه القصة.

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيعلم أنَّ كفَّكم لذلكم التعظيم.

معَ أنهم ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فكفرهم اقتضى أن لا يكف عنهم، ﴿وَ﴾مع ذلكم الكفر ﴿صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَ﴾ صدوا ﴿ٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الذي يُذبح فيه، أعني: الحرم. وقال الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: المراد: المكان المعهود الذي يذبحون الهدي فيه، وهو المنى، فإنَّه يذبح الْمُحْصَرُ الهديَ في مكان أحصر فيه[1]، وأما الحنفيون فيقولون: مكان الذبح هو الحرم، لا يجوز في غيره[2]. ﴿وَ﴾إنَّما كف الله أيديكم عنهم في ذلكم الحين رحمة عليكم وأن لا تقعوا في الإثم، فإنه ﴿لَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ ولا تعرفونَهم بأعيانِهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ وتُهلِكوهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم﴾ ولأجلهم ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ إثْمٌ بالتقصير عن

---

(١) إذا كان المؤلف يقصد بـ(المنى) مشعرَ (منى) فهي من الحرم، وهذا يخالف قول الشافعي المنقول عنه؛ حيث قال الشافعي في تفسيره (١٢٦٥/٣): (وإنَّما ذهبنا إلى أنَّه نحر في الحل، وبعضها في الحرم؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، والحرام كله محله عند أهل العلم، فحيثما أحصر الرجل قريباً كان أو بعيداً بعدوٍّ حائلٍ -مسلم أو كافر- وقد أحرم، ذبح شاة وحل، ولا قضاء عليه، إلا أن يكون حَجُّه حجة الإسلام فيحجها). وانظر: الأم للشافعي (١٧٤/٢).

(٢) انظر: تحفة الفقهاء (٤١٧/١)، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١٧٤/٢).

قال القرطبي في تفسيره (٣٧٩/٢): (قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ قيل: محبوساً إذا كان محصراً ممنوعاً مِن الوصول إلى البيت العتيق. وعند أبي حنيفة محل الهدي في الإحصار: الحرم، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]. وأجيب عن هذا بأنَّ المخاطب به الآمِن الذي يجد الوصول إلى البيت، فأما المحصر فخارج مِن قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ بدليل نحرِ النبيِّ ﷺ وأصحابه هديهم بالحديبية، وليست من الحرم. واحتجوا مِن السُّنَّة بحديث ناجية بن جندب صاحب النبي ﷺ أنَّه قال للنبي ﷺ: ابعث معي الهدي فأنحره بالحرم. قال: «فكيف تصنع به؟» قال: أخرجه في الأودية لا يقدرون عليه، فأنطلق به حتى أنحره في الحرم. وأجيب بأن هذا لا يصح، وإنما ينحر حيث حلَّ، اقتداءً بفعله عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بالحديبية، وهو الصحيح الذي رواه الأئمة، ولأنَّ الهدي تابع للمهدي، والمهدي حل بموضعه، فالمهدى أيضاً يحلُّ معه).

تفحُّص أحوالهم، / ومكروه كوجوب الدية، والتَّعيير على الكُفَّار، والتَّأسُّفِ عليه[1]، [٤٤٦/أ]
وإن كنتم تفعلون ذلكم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، إلا أنَّ المعرَّة لا تزول عنكم، وإنما فعل سبحانه ما فعل ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ وتوفيقه لزيادة الخير والإسلامِ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن المؤمنين والمشركين، وهؤلاء الذين كانوا مختلطين معهم مِن المسلمين ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ وتَفرَّقوا ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأَنَفَة ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمنع إذعان الحقِّ، فكان ذلك يقتضي أن يُعَذَّبوا سريعاً، ولا يُهملوا طرفة عين. فالظرف متعلق بقوله: ﴿عَذَابًا﴾[2]، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث لم يُقاتِلوا معهم، مع أنَّ تلك الحمية كانت تقتضي ذلك، فإنَّه روي: أنَّه ﷺ لَمَّا هَمَّ بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو[3]، وحويطب بن عبد العزى[4]، ومكرز بن حفص[5] ليسألوه أن يرجع مِن عامِه على أن يُخْلِيَ له قريشٌ مكةَ مِن القابلِ

---

(١) انظر تفسير البيضاوي (١٣٠/٥)، وقال الماوردي في تفسيره (٣٢٠/٥): (فيها ستة أقاويل: أحدها: الإثم، قاله ابن زيد. الثاني: غرم الدية، قاله ابن إسحاق. الثالث: كفارة قتل الخطأ، قاله الكلبي. الرابع: الشِّدَّة، قاله قطرب. الخامس: العيب. السادس: الغمُّ).

(٢) قال الزمخشري في الكشاف (٣٤٤/٤): (إذ يجوز أن يعمل فيه ما قبله، أي: لعذَّبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت، وأن ينتصب بإضمار: اذكر).

(٣) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي، يكنى: أبا يزيد، أحد أشراف قريش وعقلائهم وخطبائهم وساداتهم، وهو صاحب القضية يَوْم الحديبية مع رسول الله ﷺ حين اصطلح النبيُّ ﷺ مع قريش، وأسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه. قيل: استشهد باليرموك، وهو عَلَى كردوس، وقيل: بل استشهد يَوْم الصفر، وقيل: مات في طاعون عمواس، والله أعلم. انظر: أسد الغابة (٥٨٥/٢).

(٤) حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس القرشي، أسلم يوم الفتح، وهو أحد المؤلفة قلوبهم، أدركه الإسلام وهو ابن ستين سنة أو نحوها، وأعطي من غنائم حنين مائة بعير، وكان ممن دفن عثمان بن عفان، ومات حويطب بالمدينة آخر خلافة معاوية، وقيل: مات سنة أربع وخمسين، وهو ابن مائة وعشرين سنة. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣٩٩/١).

(٥) قال ابن حجر في الإصابة (١٦٣/٦): (مكرز بن حفص بن الأخيف القرشي، ذكره ابن حبّان في الصّحابة، وقال: يقال له صحبة، ولم أره لغيره. وله ذكر في المغازي عند ابن إسحاق =

ثلاثة أيام، فأجابهم، وكتبوا بينهم كتاباً، فقال ﷺ لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقالوا: ما نعرف هذا، اكتب: باسمك اللهم. ثم قال ﷺ: «اكتب، هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله بن عبد الله أهل مكة». فقالوا: لو كُنَّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، وما قاتلناك. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اكتب ما يريدون». فَهَمّ المؤمنون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا عليهم ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ عليهم، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهي كلمة الشهادةِ، أو بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله ﷺ، فإنه سبحانه اختارها لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد[(١)]، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ مِن غيرهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ ويستأهلون تلك الكلمة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فعلم استحقاقَهم لتلك الكلمة.

ومِن المؤمنين مَن يرتدد في رؤياك في فتحك المذكور، فإنَّهم لا يعلمون أنه ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ فإنَّه ﷺ رأى أنَّه وأصحابه دخلوا مكة آمنين، وقد حلّقوا وقَصَّروا، فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا، وحسبوا أن ذلك يكون في عامِهم، فلمَّا تأخر قال بعضُهم: والله ما حلّقنا ولا قصّرنا، ولا رأينا البيت. فنَزلت تلك الرؤيا[(٢)]

=

والواقدي أنه هو الّذي أقبل لافتداء سهيل بن عمرو يوم بدر. وذكره المرزبانيّ في «معجم الشعراء»، ووصفه بأنه جاهليّ، ومعناه: أنه لم يسلم، وإلا فقد ذكر هو أنه أدرك الإسلام، وقدم المدينة بعد الهجرة لما أُسر سهيل بن عمرو يوم بدر، فافتداه).

(١) قال ابن الجوزي في تفسيره (٤/١٣٦): (فيه خمسة أقوال: أحدها: لا إله إلا الله، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد. والثاني: لا إله إلا الله والله أكبر، قاله ابن عمر. والثالث: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، قاله عطاء بن أبي رباح. والرابع: لا إله إلا الله محمد رسول الله، قاله عطاء الخراساني. والخامس: بسم الله الرحمن الرحيم).

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٣/١٨٤) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لَمَّا صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية كتب عليُّ بن أبي طالب بينهم كتاباً، فكتب: محمد رسول الله، فقال المشركون: لا تكتب: محمد رسول الله، لو كنت رسولاً لم نقاتلك، فقال لعلي: «امحه»، فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح، فسألوه: ما جلبان السلاح؟ فقال:
=

﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ كائن البتةَ، إلا أنَّه مُؤَجَّل بأجلٍ مُعَيَّنٍ، فسيكون إذا جاء ذلك الأجلُ، فإنكم ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فتكونون ﴿ ءَامِنِينَ ﴾، وكما رأى رسولُكم حلقَكم [وقصركم][1] يكون كذلك[2] فإنكم ستكونون ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فأنتم ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ بعد ذلك، وإنَّما أَخَّر ذلك لأنَّه كان حكيماً، ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ ﴾ فعلِم ما لم تعلموا مِن الحكمة في تأخير ذلك، ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴾ هو فتحُ خيبر؛ فإنه فتح قبل مكة ليفرح به قلوب / المؤمنين. [٤٤٦/ب]

وكيف لا يكون الرسولُ في رؤياه صادقاً و﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ ملتبساً ﴿ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾، وبالكذب لا يحصل الهدى، ﴿ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ الذي هو دين الإسلام؛ ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾، ولا يكون إلا بغلبة المسلمين، ﴿ وَ ﴾إن طلبوا على ذلك شاهداً فإنه ﴿ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

فإنه سبحانه قد شهد على أنَّه ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ مِن المؤمنين ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ جمع شديد، ﴿ رُحَمَآءُ ﴾ جمع رحيم ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾، فهم يُغَلِّظون على مَن خالف دينهم، ويتراحمون فيما بينهم، ﴿ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا ﴾ مشتغلين بالصلاة في أكثر الأوقات، وبذلك ﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا ﴾ وهم يعرفون ولا يخافون، فإنَّه ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾، وهي السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر من وصفهم ﴿ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ ﴾ فإنه ذكر في الكتابين المذكورين[3] أنهم ﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ ﴾ فِراخه، يقال:

=

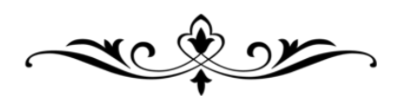
القراب بما فيه. ورواه أهل السنن بألفاظ مختلفة.

(١) كذا في المخطوط والصواب أن يُقال: [وتقصيركم].

(٢) قد روى أهلُ التفسير هذه الرؤيا، انظر: تفسير مقاتل (٧٦/٤)، وتفسير الطبري (٢٥٨/٢٢)، والتفسير الوسيط للواحدي (١٤٥/٤)، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (٤٩٤/١).

(٣) قال ابن الجوزي في تفسيره (١٣٩/٤): (والمعنى: أنَّ صفة محمد ﷺ وأصحابه في التوراة هذا. فأما قوله: ﴿ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ ﴾ ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّ هذا المثل المذكور أنَّه في التوراة هو مثلهم في الإنجيل. قال مجاهد: مثلهم في التوراة والإنجيل واحد. والثاني: أنَّ المتقدِّم
=

أشطأ الزرعُ إذا أفرخ، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه مِن المؤازرة، وهي المعاونة، ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ فصار مِن الدِّقَّة إلى الغِلَظ، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ واستقام على قصبه، جمع ساق، بحيث ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوته وغلظه وحسن منظره، فإنَّ المؤمنين كانوا قد قَلُّوا في بدء الإسلام، ثم كثُروا واستحكموا، فترقى أمرُهم بحيث أعجب الناس، وإنما فعل ذلك ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾، ولذا ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾ و(مِن) للبيان ﴿مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا﴾.



=

مثلهم في التوراة. فأما مثلهم في الإنجيل فهو قوله: كزرع، وهذا قول الضحاك وابن زيد. والثالث: أن مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع).

(سورة الحجرات)

سورة الحجرات مدنية[1].

وهي ثمان عشرة آية[2].

سُمِّيت بها[3] إذ مُنِع فيها النداء وراء الحجرات تعظيماً للرسول ﷺ، فكانت مسوقةً لذلك[4].

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقتضي إيمانكم ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أمراً وإن كان يهمكم، وحذف المفعول ليذهب الوهمُ إلى كلِّ ما يمكن، فيفيد التعميم، وذا أنسب بالمقام[5] ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ولا تحكموا كما لم يحكما به، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تقديمِكم، فإنَّه ربما يُوقِع في المخالفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمخالفتكم وتقديمكم القوالي، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالفعلي والقلبي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اهتموا فيما ذُكر لكم حتى ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ فإنَّ فيه نوعاً مِن التقديم، وذا يُخِلُّ بالتعظيم، ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ فإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم الحدَّ الذي يبلغه

---

(١) سورة الحجرات من السور المتفق على مدنيتها. انظر: المكي والمدني (ص٣٢٦).

(٢) قال الداني في البيان (ص٢٣٠): (وهي ثماني عشرة آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف).

(٣) سُميت بذلك في المصاحف وكتب التفسير والسنة واشتهرت به، ومِن أسمائها كذلك: سورة الأخلاق لما فيها من أخلاق عظيمة وآداب كريمة في التعامل مع الرسول ﷺ والمعاملة بين المؤمنين، سماها بذلك بعض المفسرين المتأخرين. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٤٤).

(٤) مرة يقول: (القرآن كله مسوق لذلك)، وهنا قال: (وهي مسوقة لذلك)، فكأنه يجعل للقرآن هدايات عامة وهدايات خاصة.

(٥) انظر: تفسير الزمخشري (٣٤٩/٤)، وتفسير البيضاوي (١٣٣/٥).

صوتُه، بل عليكم أن تَغُضُّوا منها. مُنِعوا أوَّلاً عن مجاوزة صوتِهم صوته، ثم مُنعوا عن المساواة أيضاً. وإنَّما أُمِرتم بما أُمرتم ونُهِيتُم عمَّا نُهيتم ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ فإنَّه رُبَّما يؤدي إلى الاستخفاف به / ﷺ، المؤدي إلى الكفر المحبط لجميع الحسنات. رُوِي: أنَّ [٤٤٧/أ] ثابت بن قيس[١] كان في أذنيه وقرٌ، وكان جهورياً، فلمَّا نزلت تخلَّف عن رسول الله ﷺ، فتفقَّده عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال: يا رسول الله، لقد أُنزلت إليك هذه الآية، وإنِّي رجلٌ جَهِيرُ الصوتِ، فأخاف أن يكون عملي قد حبط. فقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لست هناك، إنَّك تعيش بخيرٍ، وتموت بخير، وإنَّك مِن أهل الجنة»[٢]. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أنها مُحبِطة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ لا يرفعون بل ﴿يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تعظيماً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ وجرَّبَها له، يعني: أنَّه لا يحصل إلا لِمَن كان قوِيًّا في التقوى، واعتاد بذلك؛ إذ الرعايةُ إلى ذلك الحدِّ أمرٌ عَسِر، مِن قولك: امْتُحِنَ فلانٌ لأمرِ كذا، ودَرُبَ للنهوض به، فهو قويٌّ عليه. أو امْتَحَن بمعنى: عَرَف، فالمعنى: عرف اللهُ قلوبهم أنها خالصة لذلك؛ فيكون مِن باب المجاز؛ إذ الامتحان سببٌ للعرفان، فاللام إمَّا صلة لمحذوف، أو باعتبار الأصل، إذ الامتحان بالمعنى الحقيقي مُتَعَدٍّ بها، أو المعنى: أنَّ ذلك لا يحصل إلا لِمَن أوقعه اللهُ في الشدائد واصطبر عليها، فصار بذلك مُتَّقِياً، وظهر به تقواه؛ إذ التقوى لا تظهر إلا بالاصطبار على الشدائد، أو امتحن بمعنى: أخلص، مِن امتحن الذهب: إذا أذابه، ومَيَّز إبريزه من خبيثه[٣]. ﴿لَهُم

---

(١) قال ابن حجر في الإصابة (١/٥١١): (ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاريّ الخزرجي، خطيب الأنصار، وقال جعفر بن سليمان، عن ثابت عن أنس: كان ثابت بن قيس خطيب الأنصار، يكنى أبا محمد، وقيل: أبا عبد الرحمن، لم يذكره أصحاب المغازي في البدريّين، وقالوا: أول مشاهده أحد، وشهد ما بعدها، وبشّره النّبيّ ﷺ بالجنة في قصة شهيرة رواها موسى بن أنس عن أبيه، أخرج أصل الحديث مسلم).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/١١٠) عن أنس بن مالك بلفظ: «بل هو من أهل الجنة»، ورواه الإمام أحمد في المسند (١٩/٣٩١)، والنسائي في السنن الكبرى (٧/٣٤٠).

(٣) ذكر الزمخشريُّ هذه المعاني كلها في تفسيره لهذه الآية، انظر: الكشاف (٤/٣٥٥). وقال =

﴿ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم الماضية، ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ على غضِّهم، وببركة غضِّهم يُجْزَون على سائر طاعتهم جزاءً عظيماً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ﴾ يختارون أشنع مِن الجهر في القول، ورفع الصوت عند المكالمة، وهو أنهم ﴿ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ مِن خارجها؛ خلفها، أو قدامها، وفي زيادة لفظ: ﴿ وَرَآءِ ﴾ مع ﴿ مِن ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المنادَى داخل الحجرة، فإنَّ ﴿ مِن ﴾ لابتداء الغاية، ولا بُدَّ مِن الاختلاف بين المبدأ والمنتهى. قيل: إنَّ الذي ناداه عُيينة بن حصين[(١)]، والأقرع بن حابس[(٢)]؛ وَفِدَا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً مِن بني تميمٍ[(٣)] وقت الظهيرة وهو راقدٌ[(٤)]، فقال: أيا محمد، اخرج إلينا[(٥)]. وإنَّما أُسْنِد إلى

=

الماوردي في تفسيره (٥/٣٢٧): (فيه تأويلان: أحدهما: معناه: أخلصها للتقوى، قاله الفراء. الثاني: معناه اختصها للتقوى، قاله الأخفش. وقال السمعاني في تفسيره (٥/٢١٥): (أَي: أخْلص اللهُ قُلُوبهم للتقوى. ويُقال: امتحن الله قُلُوبهم فَوَجَدَها خالِصة. ويُقال: إنَّ المراد مِن القلوب أرْباب القُلُوب، يعني: امتحنهم الله تعالى وابتلاهم ليكونوا متقين، واللامُ لامُ الصيرورة، وهو مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨].

(١) عيينة بْن حصن بْن حذيفة بْن بدر الفزاري، يكنى: أَبا مالِك، أسلم بعد الفتحِ. وقيل: قبل الفتح، وشهد الفتح مسلماً، وهو مِن المؤلَّفة قلوبهم، وكان مِن الأعراب الجفاة، يُقال: كان اسمه حذيفة، فلُقِّب عيينة لأنه كان أصابته شجّة فجحظت عيناه. قال ابن السّكن: له صحبة، وكان من المؤلفة، ولم يصح له رواية، وشهد حنيناً، والطائف، وبعثه النبيّ ﷺ لبني تميم، فسبى بعض بني العنبر، ثم كان ممن ارتدّ في عهد أبي بكر، ومال إلى طلحة، فبايعه، ثم عاد إلى الإسلام. انظر: الاستيعاب (٣/١٢٤٩)، والإصابة (٤/٦٣٩).

(٢) قال ابن حجر في الإصابة (١/٢٥٢): (الأقرع بن حابس بن عقال التميمي المجاشعيّ الدرامي، قال ابن إسحاق: وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف، وهو من المؤلفة قلوبهم، وقد حسن إسلامه. وذكر ابن الكلبيّ أنه كان مجوسيّاً قبل أن يسلم. وقرأت بخط الرضيّ الشاطبي: قتل الأقرع بن حابس باليرموك في عشرة من بنيه. واللَّه أعلم).

(٣) بنو تميم بن مُرّ: قبيلة عظيمة من العدنانية تنتسب إلى تميم بن مرّ بن أدّ ابن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان. انظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (١/ ١٢٦).

(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/٩١)، وأسباب النُّزول للواحدي (ص٣٨٧).

(٥) قال الطبري في تفسيره (٢٢/٢٨٣): (وُذِكَر أنَّ هذه الآية والتي بعدها نزلت في قومٍ مِن

=

جميعهم لأنَّهم رضوا بذلك، أو أَمَرُوا به، أو لأنَّه وُجد فيما بينهم، ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وقوله: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ فيهم مَن كره ذلك، أو يكون الأكثر بمعنى الكل، فيكون فيه إيماءٌ إلى أنَّه كان ينبغي أن يكون فيهم مَن يكره ذلك؛ إذ قباحة ذلك أمرٌ ضروري[1].

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ﴾ ذلك الصبرُ ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ مِن استعجالهم، فإنَّ فيه تعظيمَ الرسولِ ﷺ الذي هو أهمُّ في الدين، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لأنَّهم فعلوا جاهلين، ﴿رَّحِيمٞ﴾ حيث اقتصر على النصح والتقريع، ولم يُؤمَروا / بما سوى ذلك، وإنما فعلوا ذلك تعجُّلاً، أو هو مذموم. [٤٤٧/ب]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إنَّ إيمانكم يقتضي أن تثبتوا في أموركم، ولا تتعجلوا حتى يتبين لكم الحق، فإنه ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وتفحَّصوا. رُوِي: أنَّه ﷺ بعث الوليد بن عقبة[2] مُصدقاً إلى بني المصطَلِق، وكان بينه وبينهم إحنةٌ، فلمَّا سمعوا به استقبلوه، فحسبهم مقاتليه، فرجع، وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتَدُّوا ومنعوا الزكاة. فهمَّ ﷺ بقتالهم، فنَزلت[3]. وقيل: بعث إليهم خالدَ بنَ الوليد، فوجدهم منادين بالصلاة،

=

الأعراب جاءوا ينادون رسولَ الله ﷺ مِن وراء حجراته: يا محمد، اخرج إلينا). وانظر: تفسير الثعلبي (٧٦/٩).

(١) انظر: تفسير الرازي (٩٦/٢٨).

(٢) قال ابن حجر في الإصابة (٤٨١/٦): (الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأمويّ، أخو عثمان بن عفان لأمه، يكنى: أبا وهب، قُتِل أبوه بعد الفراغ مِن غزوة بدر صبراً، وكان شديداً على المسلمين، كثير الأذى لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم، فكان مِمَّن أُسِر ببدر، وأسلم الوليد وأخوه عمارة يوم الفتح، وكانت ولاية الوليد الكوفة سنة خمس وعشرين، وكان في سنة ثمان وعشرين غزا أذربيجان، وهو أمير القوم، وعزل سنة تسع وعشرين، وقال أبو عروبة الحراني: مات في خلافة معاوية).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٠٣/٣٠) عن أبي ضرار الخزاعي في حديث طويل وحسّنه شعيب الأرناؤوط بشواهده في تحقيق المسند (٤٠٥/٣٠)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٩٣/٩) عن ابن عباس بألفاظ أخرى، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة
=

مُتَهَجِّدين، فسلَّموا إليه الصدقاتِ، فرجع[1]. وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ خبر العدلِ مقبول.

إنما مُنِعتم عن ذلكم ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ غير عالمين بحالهم ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ مُغْتَمِّين.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فأنتم لا تتعجَّلوا في أموركم بغير إذنه، ولا تقولوا له: افعل هكذا، إنَّ ذلك هو الرأي؛ لأنَّه ﷺ ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ ووقعتم في العَنَتِ والشِّدَّة، كما في الذي ذُكر، وفيه إشعارٌ بأنَّ بعضهم أشار بالإيقاع ببني المصطلِق، وفي قوله: ﴿كَثِيرٖ﴾ إشعارٌ بأنَّه ﷺ إن رأى مصلحةً يقبلُ رأيَهم، كما قبلَ رأيَ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في بعض الأمور، وأنتم معذورون فيما عنَّ لكم مِن أنَّ المصلحة الإيقاع ببني المصطلق؛ لأنكم تُطيعون له ﷺ في جميع أموركم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾، فلمَّا سمعتم ما سمعتم مِن شأنِ بني المصطلق[2] حملكم ذلكم على ما قُلتم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون زيّن في قلوبهم الإيمان، وكرّه إليهم العصيان ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، وإن كان فيهم مَن صَدَر منه ذلك الذي ذُكر، أو المراد: لكن منكم من لا يتعجل، ولا يُريد أن يتّبع الرسولُ رأيَه؛ إذ أنَّه حُبِّب إليه الإيمان، وكُرِّه إليه العصيان. فيكون معنى قوله: ﴿إِلَيۡكُمُ﴾ إلى بعضكم[3].

وكان ذلك الرشد ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده، ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما أمرهم ونهاهم.

﴿وَ﴾التأنِّي في المقاتلة محمود، حتى إنه ﴿إِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ فيما بينهم، ولم يقل: (بينهما) باعتبار المعنى، إذ كلُّ طائفةٍ جمعٌ. وفيه إيماءٌ إلى أنَّه كان

=

(٧/٢٣١). وذكر هذه القصةَ أهلُ التفسير، انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/٩٢)، ورواها الطبري في تفسيره (٢٢/٢٨٦) عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣/٢٢٠) عن قتادة، والطبري في تفسيره (٢٢/٢٨٨).

(٢) بنو المصْطَلِق بن سعد: بطن من خزاعة، من القحطانية، وهم: بنو المصطلق، واسمه جذيمة بن سعد بن عمرو ابن ربيعة. انظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٣/ ١١٠٤).

(٣) لَم أجد من ذكر هذا المعنى من المفسرين.

مقتضى إيمانهم أن يكونوا جماعةً واحدة، لا متفرقين، فإن هم تفرَّقوا ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ بالنُّصحِ والدعاءِ إلى حكمِ اللهِ سبحانه، ولا تقعوا على إحداهما، وإن كنتم عالمين بأنَّها قد [ظلمت على الأخرى][1] ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ بعد نصحكما ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ وتظلم ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ وترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ وحكمه، / ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ ورجعت إلى ما نصحتم لها ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، وإنما قُيّد بالعدل لأنَّه مظنة الحيف مِن حيث إنه بعد المقاتلة، ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ واعدلوا في جميع أموركم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ العادلين. والآيةُ نزلت في قتالٍ حدث بين الأوس والخزرج في عهده ﷺ بالسعف والنعال[2]. وهو يدُلُّ على أنَّ الباغي مؤمن، وأنَّه إذا قُبِض عن الحرب تُرِك، كما جاء في الحديث، وبعد الإصلاح عليكم أن تكونوا فيما بينكم إخواناً مُتحابِّين.

[٤٤٨/أ]

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ إذ هم مُنتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، ولم يزُل ذلك الإيمانُ بالمقاتلة، فإذا وقعت ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ فتبقى الأُخُوَّةُ كما كانت، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أن تخالفوا ما أمركم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ على ذلكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إنَّ إيمانكم الذي به صرتم إخواناً يقتضي أن ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾؛ فإنَّ جميعَكم مؤمنون، والفصلُ الذي بالإيمان والاعتقاد باطنيٌّ لا يطَّلع عليه

---

(١) والأَولى أن يُقال: [ظَلَمَت الأخرى].

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/١٨٣) في كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا: أن أنساً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبي، فانطلق إليه النبيُّ ﷺ، وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبيُّ ﷺ، فقال: إليك عني، واللهِ لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: واللهِ لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾. ورواه مسلم في صحيحه (٣/١٤٢٤)، وانظر: أسباب النُّزول ت الحميدان (ص٣٩٢)، وتفسير مجاهد (ص٦١١)، وتفسير الطبري (٢٢/٢٩٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٠٤).

سواه سبحانه، فإنه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أي: المسخورين ﴿خَيۡرٗا﴾ عند الله ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ مِن الساخرين، ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ ولا يعِب بعضُكم بعضاً؛ إذ أنتم أيها المؤمنون كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما به تلمزون فإنَّ مَن فعل ما استحق به اللمزَ فقد لَمَزَ نفسَه، يعني: إذا شرَّفكم الله بالإيمان فلا تفعلوا ما به يسخرُ عليكم أحدٌ، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ ولا يدْعُ بعضُكم بعضاً باللقبِ السوءِ؛ إذ النَّبزُ مختصٌّ عرفاً باللقب السوء؛ لئلا يقع التباغضُ فيما بينكم، وينقطع التحابُّ الذي كان مقتضى الإيمانِ، فتصيروا فاسقين، ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾، أو المعنى: لا تنسبوا المؤمنين إلى الفسق، ولا تُطلِقوا عليهم اسماً دالاً على الفسقِ؛ إذ بئس هذا الاسم أن يُطْلَق عليهم بعد اشتهارهم بالإيمان. إنَّما نزلت في صفية بنت حُيَيٍّ، أتت رسولَ الله ﷺ، فقالت: إنَّ النساءَ يَقُلْنَ: يا يهودية بنت يهوديين، أي الأب والأم. فقال لها: «هلا قُلتِ: إنَّ أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد» صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين[1]. ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ عمَّا نُهي عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إذا كنتم فيما بينكم إخواناً فأنتم ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، وهو الذي يحصل به التباغضُ فيما بينكم، فاجتنبوا عن كثيرٍ مِنه مِمَّا هي مظنة لذلك، أو المراد: يا أيها الذين آمنوا مبنيٌّ عن[2] اليقين، ولذا مُنِعتُم أن يسخر بعضُكم ظناً منه بأنه أفضل، وأيضاً مُنعتم عن أن يغتب بعضُكم بعضاً ونحوه مما هو مبنيٌّ على الظن، فاجتنبوا عن[3] كثيراً من الظنِّيَّات؛ إذ بعضُها إثمٌ فاجتنبوا عما هي مظنة له. وإنما قيل: ﴿كَثِيرٗا﴾ إذ بعض الظن واجبٌ كالعمليات، وبعضُها مباح كما في / [٤٤٨/ب]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أنس (٣٨٤/١٩)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والطبراني في المعجم الكبير عن صفية (٧٥/٢٤)، والترمذي عن صفية (١٩١/٦)، وقال: وفي الباب عن أنس. هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذاك. وليس في رواية الإمام أحمد والترمذي ما يدل على أنها سبب نزول الآية.

(٢) والصحيح أن يقال: (على اليقين).

(٣) والأولى أن يقال: (اجتنبوا كثيرا).

المعَاشِيّة[1]، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ليحصل لكم اليقينُ بها ويرتفع الظن. وفي الحديث: «مَن تَتَبَّع عوراتِ المسلمين تَتَبَّع اللهُ عورتَه حتى يفضحَه ولو في جوف بيته»[2]. ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ وإن علم يقيناً بذلك. سُئِل ﷺ عن ذلك، فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[3]. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ فالاغتيابُ تمزيقٌ لعِرضِه وإماتته، وفي ذلك إنبات العرض لنفسه، فكأنه أكل عرضهن وأماته، فهو أشدّ من أكل اللحم، ولكنه لَمَّا لم يكن له نظيرٌ أنسبَ مِن ذلك ذكره سبحانه، وإنكم إن أكلتموه ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فإنه لا يكون ذلك الأكل بلا كراهة، أو إن صحَّ أنكم تكرهون ذلكم فصحَّ أن تكرهوا الاغتياب، ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في ذلكم، وإن فَرُط منكم لجهلكم فتوبوا إلى بارئكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾. رُوِي أنَّ رجلين من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ يَبغي لهما إداماً، وكان أسامةُ على طعامه، فقال: ما عندي شيء،

---

(١) لعل المؤلف يقصد بذلك الأمور المعاشية، كما نقل ذلك عن البيضاوي حيث قال في تفسير الآية (١٣٦/٥): (﴿اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ فإنَّ مِن الظنِّ ما يجب اتِّباعه كالظنِّ حيث لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، وما يحرم كالظنِّ في الإلهيات والنبوات، وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين، وما يباح كالظن في الأمور المعاشية).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٤/ ٣٧٨) عن ابن عمر وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد، وروى إسحاق بن إبراهيم السمرقندي، عن حسين بن واقد، نحوه، وروي عن أبي برزة الأسلمي، عن النبي ﷺ نحو هذا)، ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن البراء بن عازب (١٢/ ١٦٠)، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٣٤٤/٣): (وهو سند صحيح؛ فإنَّ أوفى بن دلهم وثَّقهُ النسائيُّ وابنُ حبان، ولا يضره تفرُّد يحيى بن أكثم، فإنَّه مقرون بالجارود بن معاذ، وقد وثقه النسائي، وقد روى عنه جماعة الأئمة، وباقي رجاله رجال الصحيحين). وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٥٨٩): [صحيح لغيره].

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة (٢٠٠١/٤) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته» (٢٠٠١/٤)، وأبو داود (٢٦٩/٤)، والترمذي (٣٩٣/٣)، والنسائي في سننه الكبرى (٢٦٨/١٠)، والإمام أحمد (٥/٧). وابن حبان (٧١/١٣)، وغيرهم.

فأخبرهما سلمان، فقالا: لو بعثناه إلى بئر سُمَيْحَة[1] لَغارَ ماؤُها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «أما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحماً، فقال ﷺ: «إنكما قد اغتبتما». فنزلت[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لِمَ تغتابون فيما بينكم! ولِمَ تترفعوا على بني نوعكم! ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ مِن آدم وحوَّاء، وخلقنا كلَّ واحد منكم مِن أبٍ [وأب][3]، فكلُّكم مستوٍ في ذلكم، فلا وجه للتفاخر بالنسب، ولا وجه للترَّفُّع على آخر، ولا وجه للاغتياب، ﴿ وَ ﴾ إنما ﴿ جَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ لتِفاخروا[4]. الشّعْبُ: الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، وهو يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، فخزيمة شعبٌ، وكِنانة قبيلةٌ، وقريش عمارةٌ، وقُصيٌّ بطنٌ، وهاشم فخذٌ، وعباس فصيلةٌ[5]، واقصدوا التقوى ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ إذ التقوى بها تكمُل النفوس وتفاضل. قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَن سرَّهُ أن يكون أكرمَ الناسِ فليتَّقِ الله تعالى»[6]، وقال: «يا أيها

---

(١) سُمَيْحَة: بئر قديمة بالمدينة، غزيرة الماء، وقيل: بئر بناحية قديد، وقيل: عين معروفة. انظر: معجم البلدان (٣/٢٥٥).

(٢) رواه ضياء الدين المقدسي في المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٥/ ٧١) وقال: آخر إِسْنَاده صَحِيح. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٣٤٨): (غريب، وبمعناه ما رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب مِن حديث عفان).

(٣) لعل لفظ: [أب] سبق قلم من المؤلف والمقصود من أب [وأم].

(٤) هكذا ورد لفظ [لتفاخروا] في النسختين، ولعله سقط منهما حرف النفي [لا]، فيكون المعنى: وإنما جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، لا لتفاخروا. وبها يستقيم المعنى.

(٥) انظر الهداية إلى بلوغ النهاية للقرطبي (١١/٧٠١١).

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٣٠١) من حديث طويل وصححه، وابن شاهين في الترغيب (ص١٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢١٨) عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٥١): (ورواه العقيلي في كتابه بطوله، وأعلَّه =

الناس، إنما الناس رجلان: مؤمن تقيٌّ كريم على الله، وفاجر شقِيٌّ هَيِّنٌ على الله تعالى»[1]. ولا تخفى تقواكم عليه سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بظواهركم، ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم.

ولا تحصُل التقوى بمجرد القول كما ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ فلا يكونون متقين بذلك، فأنت ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إذ الإيمان فعلٌ قلبِيٌّ لا قوْلِيٌّ، فلا يحصل بمجرد القول، / ﴿وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ إذ الإسلام انقيادٌ، ودخول في السِّلم، ولم ينتهوا عن قولهم ذلك، فلم يقل: (لا تقولوا آمنّا) تنبيهاً على أنَّه لا ينبغي أن يَنهَ أحداً عمَّا يدل على صلاحه الباطني، بل يُقال: ليس في باطنك ذلك، فإنَّ الدلائل دالَّةٌ على فساد باطنِك، ﴿وَ﴾ذلك لأنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ﴾ ذا لا يدخل فيها إلا بالإخلاص وترك النفاق؛ فإنَّكم ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم﴾ لا يُنقصْكم ﴿مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ﴾ وأجورها ﴿شَيْـًٔا﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما فرط مِن المطيعين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم. نزلت في نفرٍ مِن بني أسدٍ قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأنفال والعقال، ولم نقاتلك كما قاتل بنو فلان. يريدون الصدقة ويمّنون[2].

[٤٤٩/أ]

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ مِن: ارتاب،

=

بهشام بن زياد، وقال: ليس لهذا الحديث طريق يثبت. انتهى، ورواه ابن عدي، وضعَّف هشام بن زياد عن البخاري والنسائي وأحمد بن حنبل وابن معين، ووافقهم، وقال: إنَّ الضعف على رواياته بيّن. انتهى).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة (١٤/ ٣٤٩) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن، هشام بن سعد -وإن كان من رجال مسلم- تنزل رتبته عن رتبة الصحيح، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

ورواه الترمذي في سننه (٥/ ٣٨٩)، وقال: (هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين وغيره، وهو: والد علي بن المديني. وفي الباب عن أبي هريرة، وابن عباس) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٠٠).

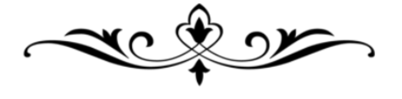
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النُّزول (ص٣٩٦) بنحوه.

مطاوِعُ رابَه[1]: إذا أوقعه في الشك مع التهمة، فالمعنى: ثُمَّ لم يقع في نفوسهم شكٌّ فيما آمنوا، ولا اتِّهام لِمَن صدقوا. وفي ﴿ثُمَّ﴾ إشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط، بل وفيما يُستقبل أيضاً، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذُكروا ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فيما ادّعوا من الإيمان.

﴿قُلۡ﴾ لهم: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ﴾ وتُخْبِرُونه ﴿بِدِينِكُمۡ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾ لا يخفى عليه ذلكم إذ هو ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وكيف يخفى عليه ﴿وَ﴾هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ ما كان ويكون ﴿عَلِيمٞ﴾. رُوِي: أنَّه لَمَّا نزلت الآيةُ المتقدمة جاءوا وحلفوا أنَّهم مؤمنون معتقدون، فنَزلت هذه الآية[2].

وهم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ ويعُدّون إسلامهم نعمةً عليك. ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾ إذ لا اعتداد بإسلامكم، ولو كان معتدًا به لكان لكم، لا لمن سواكم. فليس أحدٌ ممنوناً لكم، ﴿بَلِ﴾ أنتم ممنونون إذ ﴿ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ فإنه سبحانه بيّن لكم ذلكم، وإن كنتم ما اهتديتم فإنكم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيما ادّعيتم من الإيمان فلله المنة عليكم بالتوفيق لذلكم، وإلا فهو سبحانه قد دلّكم على ذلكم، فأنتم ظلمتم أنفسكم ولا ينفعكم دعواكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فكيف لا يعلم ما غاب فيكم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ في سرّكم وعلنكم، فلا يرُوج عنده دعواكم بحِيَلكم.



(١) مِن الريب، وهو: الشك.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي (٣/٣٣٠)، والتفسير الوسيط للواحدي (٤/١٦١)، وتفسير البغوي (٤/٢٦٩).

(سورة ق)

سورة ق خمسٌ وأربعون آية[1].

مكية[2].

سميت بذلك[3] إذ تتمة ذلك هو المقصود الذي سيق له الكلام.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قٓ﴾ الْمُؤَلَّف منه ومِن أمثاله هذه السورة، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ فإنَّه مَن عمِل بما فيه كان مجيداً؛ إنَّه لَقُرآنٌ مُعْجِزٌ لا ريب فيه.

وهم لا ينكرونه لذلك ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ ومن بني / نوعهم، وذا [٤٤٩/ب] ليس بموضعٍ لذاك، وهو لم ينذرْهم مِمَّا يُستبْعَدُ ويُنكَر، بل أنذرهم بما هو قريبٌ عند العقول الصافية، وتدلُّ عليه البراهينُ القطعيةُ، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لِخباثة كفرهم ولاسوداد قلوبهم بذلك: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ يتَعَجَّبُ [منه][4] كلُّ مَن سَمِع، ويُشيرون بذلك إلى البعث.

ويقولون استدلالاً على بُعْدِه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ فَنرجع ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾

---

(١) قال الداني في البيان (ص٢٣١): (وهي أربعون وخمس آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف).

(٢) سورة ق من السور المتفق على مكيتها، واختلف في الآية: ٣٨ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾، ونسب القولُ باستثناء هذه الآية إلى ابن عباس وقتادة والضحاك، ولا يصح، فالسورة مكية، وليس فيها من المدني شيء. انظر: المكي والمدني (ص٣٣٠).

(٣) واشتهرت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وتسمى أيضا سورة الباسقات. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٤٥).

(٤) كذا في النسختين ولعل السياق يقتضي إضافة [منه] ليستقيم المعنى، أي يتعجب منه كل من سمع.

عنِ العقول.

وهم كيف يَسْتَبْعِدون ذلك! فإنّا ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ من أَكْلِها مِن موتاهم، ﴿ وَ ﴾مع علمنا ﴿ عِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ يحفظ [لتفاصيل][1] الأشياء كلها، فليس ذلك ما به يستبعد.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي ثبت بالدلائل الواضحات مِن النُّبُوَّة التي ثبتت بالمعجزات، والقرآن الذي نفسُه يدلُّ على صدقه ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾، ولم يُكَذِّبوه لِشُبهَةٍ لاحت لهم[2]، فإذا كذبوه ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ مضطرب، لا يوردون عليه شبهةً يسْتَقِرُّون [عليها][3]، بل تارة يقولون: إنه شاعر، وتارة: إنه ساحر، وتارة: إنه كاهن، ولو كانت لهم شبهة قوية لاستقروا عليها[4].

﴿ أَ ﴾يتَعَجَّبُون مِن ذلك ﴿ فَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ ﴾ حين كفروا بالبعثِ ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ وفيها مِن آثار قُدرة الله سبحانه في العالم كله؛ ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ ورفعناها بلا عمد، ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بالكواكب، ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ فُتُوق، فإنها سماءٌ متلاصقة.

﴿ وَ ﴾ لم ينظروا ﴿ ٱلْأَرْضَ ﴾ كيف ﴿ مَدَدْنَٰهَا ﴾ وبسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا ﴾ جبالاً ﴿ رَوَٰسِىَ ﴾ ثوابت، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ ﴾ صنفٍ ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حَسَنٍ.

وكان ذلك ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربِّه، مُتَفَكِّرٍ في صُنْعِه.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ كثير المنافع ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ مِن الأشجار والثمار ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ الزَّرْعَ الذي يُحْصَد.

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ طِوالاً فتكون ثمارها كثيرة ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ منضودٌ بعضُه

---

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب أن يُقال: (يحفظ [تفاصيل] الأشياء).

(٢) يقصد المؤلف بهذه العبارة: أنَّ الكفار عرفوا الحق واستبان لهم، ولكن كذَّبوا به عِناداً واستكباراً، لا لعدم وضوح الحق، أو ضعفٍ في دلائل الإيمان.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من [ف].

(٤) ذكر هذه المعاني الواحدي، انظر: الوجيز (ص١٠٢٢)، وتفسير ابن الجوزي (١٥٧/٤).

فوقَ بعض.

وجعلنا فيها ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ جميعاً؛ الصالحين منهم والطالحين، ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ يابساً، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإخراج ﴿ٱلۡخُرُوجُ﴾ خروجُكم للبعث والنشور.

وتكذيب قومك ليس ببدْعٍ منهم ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾.

﴿وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ﴾ وقومُه، اكتفى بذكره لأنهم كانوا تابعين له، وكان تسلّطهم عليهم كثيراً، بخلاف الأقوام الآخرين، ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ﴾ منهم ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ وعيدي عليهم.

﴿أَ﴾أردنا أن نخلق ﴿فَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ فلم نقدر على ذلك فلا نقدر على الإعادة! فهم لا ينكرون قدرتنا ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ وشُبهة ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ لم يعتادوا.

﴿وَ﴾ليس لهم شبهة وراءَ ذلك، فإنا ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ / ولو كانت لهم شبهةٌ وراءَ ذلك لعلِمنا به، ﴿وَ﴾كيف لا نعلمُ ما في صدورهم، فإنَّا ﴿نَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ وهذا مَثَلٌ في غاية القُرْبِ. [٤٥٠/أ]

وقُرْبُنا ذلك القُرب ليس مخصوصاً بوقتٍ دون وقت، بل قُربنا دائمٌ، فَنَقْرُب ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يَتَلَقّى الحفيظانِ اللذان أحدُهما ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ قعيد، ﴿وَ﴾الآخر ﴿عَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾.

فهو ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ وما يرمي به مِن فِيْهِ ﴿إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ﴾ مَلَكٌ يحفظه ﴿عَتِيدٞ﴾ حاضر، فلم نوكّل به ذينك الملكين لعدم علمنا به، بل نحن أقرب إليه من ذينك الملكين، ولكن وُكّلا بذلك إلزاماً للحجة. وفي الحديث: «كاتبُ الحسنات أميرٌ على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنةً كتبها مَلَكُ اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحبُ اليمين: دعه سبع ساعات لعله يسبح ويستغفر»[1].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/٢٧١)، وخرجه ابن حجر بروايات عدة في تخريج أحاديث =

﴿وَ﴾هو لا يعلمُ ذلك إلا إذا ﴿جَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ فيعلم حينئذٍ ما علم من الخير والشر. والسَّكْرَةُ: الشِّدَّةُ الذَّاهِبَةُ بالعقل، فيُقال حينئذ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموت ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ وتَفِرُّ.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ بعد ذلك بزمانٍ للبعث، فيقال له: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ وإنجازه.

﴿وَ﴾حينئذٍ ﴿جَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ هُما مَلَكان: أحدهما يسوقه، والآخر يشهد لعمله، أو مَلَكٌ واحِدٌ جامع للوصفين، أو السائق كاتب السيئات، والآخر كاتب الحسنات، أو السائق نفسه، والشهيد جوارحه وأعمالُه[1].

فيُقال: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ غفلَتَك، وانهماكك في المحسوسات، والإِلْف بها، وحضور النظر عليها، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ نافِذٌ؛ لِزوال الحالِ المانِعِ للإبصارِ.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هو الملَك الْمُوَكَّل عليه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ حاضِرٌ لدي مِمَّا عَملته في الدنيا، أو الشيطان يقول: هذا العبدُ هو الذي كنتُ سُلِّطتُ عليه عتيدٌ حاضِرٌ لجهنم، هيأتُه لها بإغوائي له، وإضلالي إيَّاه[2].

=

الكشاف (٣/ ٣٥٨)، ولم يحكم عليه.

(١) قال ابن الجوزي في تفسيره (١٦١/٤): (﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ فيه قولان: أحدُهما: أنَّ السائق مَلَكٌ يسوقها إلى محشرها، قاله أبو هريرة. والثاني: أنه قرينها مِن الشياطين، سُمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يَحُثها. وفي (الشهيد) ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مَلَك يشهد عليها بعملها، قاله عثمان بن عفان والحسن. وقال مجاهد: الملكان سائق وشهيد. وقال ابن السائب: السائق الذي كان يكتب عليه السيئات، والشهيد الذي كان يكتب الحسنات. والثاني: أنه العمل يشهد على الإنسان، قاله أبو هريرة. والثالث: الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله، قاله الضحاك).

(٢) قال ابن عطية في تفسيره (١٦٣/٥): (قال جماعة من المفسرين: قرينه مِن زبانية جهنم، أي: قال هذا العذاب الذي لدى هذا الإنسان الكافر حاضر عتيد، ففي هذا تحريضٌ على الكافر واستعجال به. وقال قتادة وابن زيد: قرينه الملك الموكل بسوقه، فكأنه قال: هذا الكافر الذي
=

فيقول الله سبحانه للسائق والشهيد: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾، أو للمَلَكين مِن خَزَنَةِ النارِ، أو الواحدِ والمرادُ بالتثنية: تكرير الفعل، ﴿ عَنِيدٍ ﴾ مُعانِدٍ للحقِّ[1].

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ فلا يُؤَدِّي الزكاةَ المفروضةَ، أو المراد: الإسلام[2]؛ فإنَّه رُوِي: أنَّ الآيةَ نزلت في الوليدِ بنِ المغيرة لَمَّا مَنَع بني أخيه عنه[3]، ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ مُتَعَدٍّ ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ شاكٍّ في دين الله.

وهو ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ وأشرك به؛ ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ فإنَّ ذلك مُقتَضى شِرْكِه.

فيقول ذلك الكافر: إنَّما عَمِلتُ السيئاتِ لأنَّه أطغاني قريني الذي هو الشيطان. فحينئذ ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ ذلك الذي اتَّهَمَهُ: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ ﴾ بنفسه ﴿ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾، فأَعَنْتُهُ على ذلك، فإنِّي دعوته فاستجاب لي، ولم يكن مِنِّي إلا تلك الدعوة.

﴿ قَالَ ﴾ اللهُ سبحانه: [﴿ لَا تَخْتَصِمُواْ / لَدَىَّ ﴾ في هذا الموقف ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم [٤٥٠/ب]

=

جعل إلى سوقه، فهو لدي حاضر. وقال الزهراوي وقيل: قرينه شيطانه).

(١) قال ابن عطية في تفسيره (١٦٣/٥): (﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ معناه: يُقال: ألقيا في جهنم. واختلف الناس لِمَ يُقال ذلك؟ فقال جماعة من المفسرين: هو قول الملكين مِن ملائكة العذاب. وقال عبد الرحمن بن زيد في كتاب الزهراوي: هو قول للسائق والشهيد. وحكى الزهراوي أن المأمور بإلقاء الكافر في النار اثنان، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله: ﴿ أَلْقِيَا ﴾. وقال مجاهد وجماعة من المتأولين: هو قول للقرين: إما السائق، وإما الذي هو من الزبانية).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره (١٦٢/٤): (في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الزكاة المفروضة، قاله قتادة. والثاني: أنَّه الإسلام، يمنع الناس مِن الدخول فيه، قاله الضحاك، ومقاتل، وذكر أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، منع بني أخيه عن الإسلام. والثالث: أنه عامٌّ في كل خير من قول أو فعل، حكاه الماوردي).

(٣) الضمير في (عنه) يعود إلى الإسلام (أي منع الوليد بن المغيرة بني أخيه من الإسلام)، قاله مقاتل بن سليمان (١١٣/٤)، وقال الماتريدي في تفسيره تأويلات أهل السنة (٣٥٨/٩): (وقال بعضُ أهل التأويل: أرادَ به الوليد بن المغيرة المخزومي؛ لكن هذا عادة كل كافر؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ الآية [المعارج:١٩]، فلا معنى لتخصيص واحد به).

﴿بِٱلۡوَعِيدِ﴾ على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي؛ فلم تبق لأحدٍ حُجَّةٌ][1].

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ فلا أُبَدِّلُ وعيدي على الشركِ والعصيانِ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فكيف أُعَذِّبُ قرينك لأجلك بلا عذابِ كُلٍّ منكما.

وكان ذلك اليوم ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ هذا تصويرٌ وتَخْييلٌ لشدته بالعصاة[2]، حتى كأنَّها طالِبَةٌ لهم مع امتلائها بهم، أو هي إشارة إلى سعتها حتى أنها مع الطرح فيها مِن الجنة والناس فوجاً فوجاً يبقى فيها سعة، أو المراد أنها تُملأ بحيث تسأل عن امتلائِها لوعدها بالامتلاء[3] بقوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وقُرِّبت منهم، فتكون ﴿غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ منهم.

فيقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ مِن الثوابِ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاع إلى ربه

---

(١) ما بين المعقوفتين من [ف] ولا يوجد في [ع] وقد كتب في أعلى اللوح من [ع] بخط كبير ومغاير: [وقد قدمت ما يبدل القول وما أنا].

(٢) أمور الآخرة تحمل على الحقيقة، لا على المجاز. قال صاحب طرح التثريب في شرح التقريب (١٦٢/٢): (حكى ابن عبد البر وغيره خلافاً في قوله: «اشتكت النار إلى ربها»، فقال جماعة هو على الحقيقة، وأنها تنطق، ينطقها الذي ينطق الجلود وينطق كل شيء، ولها لسان كما شاء الله، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق:٣٠]، وبقوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان:١٢]، وهذا في القرآن والسنة كثير، وقال آخرون: هو على المجاز، كقوله:

شكا إلي جملي طُول السُّرَى

في أمثلة لذلك كثيرة. قال ابن عبد البر: ولكلا القولين وجهٌ، ورجح جماعة الأول، فقال القاضي عياض: إنه الأظهر، وقال القرطبي: إنه الأولى، وقال النووي: إنه الصواب؛ لأنه ظاهر الحديث، ولا مانع من حمله على حقيقته، فوجب الحكم بأنه على ظاهره).

(٣) قال الماوردي في تفسيره (٣٥٣/٥): (فيه ثلاثة أوجه: أحدها: هل يُزاد إلى مَن أُلْقِي غيرُهم؟ فالاستخبار عمَّن بقي، قاله زيد بن أسلم. الثاني: معناه: إنِّي قد امتلأتُ مِمَّن أُلْقِي في فهل أسع غيرهم؟ قاله مقاتل. الثالث: معناه: هل يُزاد في سعتي؟ لإلقاء غير مَن ألقي فيّ، قاله معاذ).

﴿ حَفِيظٍ ﴾ لحدوده.

وذلك الأوابُ الحفيظُ هو ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ مع رجاء الرحمة ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ غائبين عنه، يعني: لا يكون إيمانهم إيمان بأس[1]، أو لا يكون بالنفاق مع الإخلاص حتى يكون إيمانُهم غائبين عن الرسول والمؤمنين كإيمانهم في حضورهم.

﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ وكونوا ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ سالمين مِن العذاب ومِن الحزن والخوف وجميع الآفات؛ إذ ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ فمَن أُدْخِل في الجنة لا يخرج منها.

مع أنهم ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ فلا يكون لهم حزن ولا خوف، ﴿ وَ ﴾مع ذلك ﴿ لَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ مِمَّا لا يخطُرُ على بالِ أحدِهم.

﴿ وَ ﴾يُنكرون مع أنّهم ينظرون أنّا ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ قُوَّةً كعاد وثمود وفرعون، ﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾ وتصرَّفوا ﴿ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾، فإذا جاء بأسنا فانظر ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ وخلاصٍ لهم مِن عذاب الله سبحانه، أو المراد: فقومك ساروا في البلاد التي كانوا فيها، فاسألهم هل رأوا لهم مِن محيصٍ وخلاصٍ حتى يتوقعوا مثلَه لأنفسهم؟

وهم لم يتذكروا بذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ واعٍ يُفكر في الحقائق وإلى ذلك جِيء بتنكير القلب، ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ وأصغى إلى استماعِه ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضِرُ القلبِ، وإن لم يكن ذا قلبٍ وعى الحقائق، أو شاهد بصدق فيتَّعِظ.

﴿ وَ ﴾كيف لا نقدر على ذلك! فإنا ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ وتَعَبٍ وإعياءٍ كما زعمتِ اليهودُ مِن أنَّه بدأ خلق العالَمِ يومَ الأحد، وفرغ منه يومَ الجمعة، واستراحَ يومَ السبت، واستلقى على العرش.

---

[1] مقصود المؤلف بإيمان البأس: هو الإيمان وقت مشاهدة العذاب، مثل إيمان الكفار حين يقع ما وُعِدوا به مِن العذاب.

فأنت إذا علمت ذلك وتَحَقَّقتْ ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي: المشركون، فإنَّه سبحانه ينتقم منهم، ﴿وَسَبِّحۡ ﴾ ونَزِّهه عن العجزِ [عمّا يُمْكِن][1] والوصف بما يُوجب التشبيه بحمد ربك، واشكره في توفيقه لك على ذلك ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ بعضها / ﴿فَسَبِّحۡهُ ﴾ وإنما قيل: بِـ(من) التي للتبعيض إذ [٤٥١/أ] الليل وقت الاستراحة والنوم، فلا بُدَّ من ذلك، ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ وأعقاب الصلاة، أو المراد بالتسبيح: الصلاة، فقبل الطلوع: الصبح، وقبل الغروب: الظهر والعصر، ومن الليل: العشاءان والتهجد. وإنما قيل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ إذ الليل كله وقت الصلاة، ففي بعضه يصلي، والمراد بأدبار السجود: النوافل[2].

﴿ وَٱسۡتَمِعۡ ﴾ لِما أُخْبِرُك به، فإنّه سيظهرُ ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ ﴾ قيل: إسرافيل، وقيل: جبرائيل[3]، فيقول: أيّتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ بحيث يصل النداءُ إلى الكلِّ على السواء.

---

(١) الصحيح أن يحذف ما بين المعقوفتين لتستقيم العبارة، فالله منزّه عن العجز، وهو على كل شيء قدير.

(٢) قال الماوردي في تفسيره (٥/ ٣٥٧): (﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: أنه تسبيح الله تعالى قولاً في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل، قاله مجاهد. الثالث: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخرة، قاله ابن زيد). ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه التسبيح في أدبار الصلوات، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد. الثالث: أنها ركعتان بعد المغرب، قاله عليٌّ وأبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا. وروى ابن عباس قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ، فصلى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: (يا ابن عباس رَكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ أَدْبَارَ النُّجُومِ، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَ الْمِغْرِبِ أَدْبَارَ السُّجُودِ).

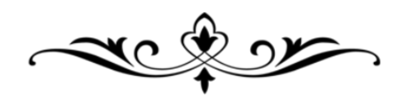
(٣) قال الزمخشري في الكشاف (٤/٣٩٣): (وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادى بالحشر مِن مكان قريب من صخرة بيت المقدس).

فيكون ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ من القبور.

﴿ إِنَّا ﴾ قادرون على جميع ذلك إذ ﴿ نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ في الدنيا، فمَن كان قادراً على ذلك يقدر على الإعادة، ﴿ وَ ﴾ حينئذٍ ﴿ إِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ للجزاء.

وذلك ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ مُسرعين، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التَّشَقُّق ﴿ حَشْرٌ ﴾ بعثٌ وجمعٌ، وهو ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هيّن، وهو [لا][1] يسير إلا علينا.

ولا تحزن على إنكارهم ما تقول لهم؛ إذ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فنجزيهم على قولهم، ﴿ وَ ﴾ ليس عليك إلا أن تبلغهم ما أُمِرت بتبليغه إليهم، إذ ﴿ مَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ بِمُسلَّطٍ تقسُرهم على الإيمان، وإذا أمرت بالتبليغ ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ الذي أُمرتَ بتبليغه ﴿ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فإنه لا ينتفع به غيرُه.



(١) والأولى أن يُقال: وهو [ليس يسيراً] إلا علينا.

(سورة الذاريات)

سورة الذاريات مكية[(١)].

وهي (وآيها) ستون[(٢)].

سميت بذلك[(٣)] لأنَّ تَتِمَّتَها -وهو الجواب- مقصودٌ بالإنزال، وبه تشمل جميع الأوامر والنواهي؛ فكانت هذه السورة -بل جميع القرآن- مسوقة لذلك.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [أي: الرياح التي تذرو الترابَ وغيرَه؛ فإنَّها مِن أوائل القيامة، أو النساء الولود فإنَّهُنَّ يذرين الأولاد، فإنهم كالقبور، فكما يخرج منهن الأولاد كذلك يخرج الناس][(٤)] مِن القبور، أو الأسباب التي تَذري الخلائقَ مِن الملائكة وغيرهم، فكما رتّب المسبباتِ بالأسباب في الإبداءِ فكذا يقدِرُ أن يُرَتِّب في تلك الدار[(٥)].

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي: الرياح الحاملة للسحب، أو السحب الحاملة للأمطار، أو النساء الحوامل، أو أسباب ذلك، فإنَّ جميع ما ذُكِر مثال لحمل الصور والأرواح[(٦)].

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ مِن السُّفُن الجارية، أو الرياح في مهابِّها، أو الكواكب في منازلها، فهي مثالٌ لِسَوق أهل المحشر إلى منازلهم، وسَوْق الروح إلى أجسادهم[(٧)].

---

(١) سورة الذاريات من السور المتفق على مكيتها. انظر: المكي والمدني (ص٣٣٦):

(٢) قال الداني في البيان (ص٢٣٢): (وهي ستون آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف).

(٣) وبهذا الاسم اشتهرت في المصاحف وكتب التفسير والسنة، كما تسمى سورة (والذاريات) بإثبات الواو. انظر: أسماء سور القرآن الكريم (ص١٤٧).

(٤) ما بين المعقوفتين من [ف]، وهو ساقط من [ع].

(٥) حكى ابنُ عطية في المحرر الوجيز (١٧١/٥) إجماعَ أهل التأويل على أنَّ معنى الذاريات هي الرياح. وذكر الماوردي في النكت والعيون (٣٦٠/٥) ثلاثة أقوال في معنى الذاريات: أحدها: الرياح. والثاني: ما تذروه الرياح، قاله الكلبي. والثالث: النساء الحوامل.

(٦) انظر: تفسير ابن عطية (١٧١/٥)، وتفسير الماوردي (٣٦١/٥).

(٧) انظر: المصدر السابق. ولم أجد من أهل التفسير من ذكر هذا المثال الذي عرضه المؤلف: وهو سَوق أهل المحشر إلى منازلهم، وسَوق الروح إلى أجسادهم.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تُقَسِّم الأمور، أو هم وغيرهم مِن أسباب القسمة، أو الرياح التي تُقسّم الأمطار بتقسيم السحب(1)، فإنَّها مثال لإدخال أهل الجنة فيها، وأهل النار فيها، وتنعيمهم وتعذيبهم على ما يليق بهم. والفاء لترتيب الأقسام بالأشياء المذكورة باعتبار ما بينهما من التفاوت بحسب / الدلالة على كمال [451/ب] القدرة والعلم، وبحسب الترتيب الخارجي؛ فإنَّ الريح تذرو الأبخرَةَ إلى الجوِّ حتى تنعقد سحاباً، فتحمله، فتجري به باسطةً له إلى حيث أُمِرَت به، فتقسم المطر. وأما الدلالة على كمال القدرة وكمال العلم فبحسب البُعدِ عن الطبيعة مع الانتظام، فإنَّ حملَ الريحِ -مع كونها هواءً خفيفاً- السحابَ الثقالَ بالماء مع ذلك الانتظام دالٌّ على كمال القدرة والعلم، وذا ظاهر، وكذا غيره مما ذكر.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ جواب للقسم، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الجزاءَ على حسب الأعمال ﴿لَوَٰقِعٌ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ جمع حبيكة، كطريقة وطُرُق، فالمراد: إمَّا الطرائق المحسوسات للكواكب، أو المعقولة هي للنُظَّار فيها، أو المراد: نفس الكواكب التي هي ذات الطرق(2)، ومجازاً باعتبار أنَّها تُزيّن السماء كما يُزيّن الموشي طرائق الوشي(3).

---

(1) قال الماوردي في النكت والعيون (5/361): (فيه قولان: أحدهما: أنَّه السحاب يقسم الله به الحظوظ بين الناس. الثاني: الملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه، قاله الكلبي. وهم: جبريل وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل وهو صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل وهو ملك الموت وقابض الأرواح، عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ).

(2) قال الماوردي في النكت والعيون (5/362): (وفي ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ سبعة أقاويل: أحدها: أنَّ الحبك الاستواء، وهو مروي عن ابن عباس على اختلاف. الثاني: أنها الشدة، وهو قول أبي صالح. الثالث: الصفاقة، قاله خصيف. الرابع: أنها الطرق، مأخوذ مِن حبك الحمام طرائق على جناحه، قاله الأخفش وأبو عبيدة. الخامس: أنه الحسن والزينة، قاله علي وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير. السادس: أنه مثل حبك الماء إذا ضربته الريح، قاله الضحاك. السابع: لأنها حبكت بالنجوم، قاله الحسن).

(3) قال ابن دريد في جمهرة اللغة (2/884): (والوَشْي: الثِّياب المعْرُوفَة، وَشَيْتُ الثوبَ ووشّيتُه، =

وليس فيه ما يُوجب الاختلاف، ولكن ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويُصْرَف ﴿عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ وصُرِف في علم الله وقضائه، فيُؤفك بلا سبب ظاهريٍّ، أو ذلك الصَّرف ليس بالنسبة إليه صرف آخر، أو المعنى: يُؤفك عن القول ويصدُر ذلك الإفك عن ذلك المختلف وبسببه[1].

فبذلك القول ﴿قُتِلَ﴾ لُعِن ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذَّابون مِن أصحاب ذلك القول.

وإنَّما يختلفون لأنهم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جَهْلٍ يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافِلُون عَمَّا أُمِروا به.

ولِغفلتهم ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ ولا يعلمون أنَّه إذا لم يُعلم وقتُه على التعيين لا يقضي أن لا يُقبَل.

وذلك اليوم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يُحْرَقون، وبُني ﴿يَوْمَ﴾ لإضافته إلى الجملة.

فيُقال لهم: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾، أعني: ﴿هَذَا﴾ العذاب ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، أو يُقال لهم ذاك وهذا، وكان عليهم أن يتّقوا ذلك العذابَ لا أن يستعجلوا ذلك.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

=

إذا رقمته، فهو مَوْشيّ ومُوَشًّى). وقال الأزهري في تهذيب اللغة (١١/٣٠٤): (وشى: قال الله تعالى: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة:٧١]. قال أبو إسحاق: أَي: ليس فيها لونٌ يُخالِف سائِرَ لونها).

(١) قال الماوردي في النكت والعيون (٥/٣٦٣): (فيه ستة تأويلات: أحدها: يضل عنه من ضل، قاله ابن عباس. الثاني: يصرف عنه مَن صرف، قاله الحسن. الثالث: يؤفن عنه مَن أُفِن، قاله مجاهد، والأَفْنُ: فساد العقل. الرابع: يُخْدَع عنه مَن خُدِع، قاله قطرب. الخامس: يكذب فيه مَن كذب، قاله مقاتل. السادس: يدفع عنه مَن دفع، قاله اليزيدي).

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ راضِين به، فإنَّ كُلَّ ما آتاهم ربُّهم في الجنة يكون حسناً مرضِيّاً، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾، فأحسنوا أعمالَهم، فاستحقُّوا تلك الجنات.

ومِن إحسانهم أنَّهم ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾، مع أنَّ الليل خُلق لسكونهم ونومهم، فإذا لم يسكنوا فيه فكيف يسكُنون في النهار، [والمجموع وهو القليل من النوم، / ففي ذكر القليل مع المجوع مبالغة][1]. [٤٥٢/أ]

﴿ وَ ﴾مَع ذلك ﴿ بِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ حينَ كأنَّهم أسلَفُوا في ليلهم الجرائم.

﴿ وَ ﴾هم كما يُبالِغُون في العبادة البدنية كذلك يُبالغون في المالية، حتى إنهم ﴿ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ الذي يُظَنُّ لِتَعفُّفِه أنَّه غَنِيٌّ فلا يُعطيه أحدٌ[2].

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ التي خُلِقَت لِئَن يُعبد فيها ويُتَذَلَّل له سبحانه فيها ﴿ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ الذين يتيَقَّنون، ولا يلتفتون إلى الشُّبهات الواهيةِ، فيعملون بتلك الأعمال الشاقة.

﴿ وَ ﴾كذلكم ﴿ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ آياتٌ أيضاً، ﴿ أَ ﴾عَمِيَت قلوبُكم ﴿ فَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ وتتركون التقوى والأعمال التي أُمِرتُم بها[3].

﴿ وَ ﴾من الآيات البينات ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾، وأسبابٌ لا دَخْل في ذلِكم لأحدٍ، فكان ذلِكم يقتضي أن تتيقَّنوا على ربِّكم يقيناً كاملاً، ﴿ وَ ﴾كذلكم ﴿ مَا

---

(١) كذا في المخطوط ولعل صوابها: [والهجوع هو القليل من النوم، ففي ذكر القليل مع الهجوع مبالغة].

(٢) وقيل في معنى المحروم أقوال كثيرة، بلغت تسعة أقوال، ومنها المتعفف. انظر: النكت والعيون (٣٦٦/٥).

(٣) جعل المؤلف الخطاب للكفار في قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾، ويمكن أن يكون عامّاً كما ذكر الرازي في تفسيره (١٧٢/٢٨) قائلاً: (فدليل الأنفس في قوله: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ عامٌّ، ويحتمل أن يكون مع المؤمنين، وإنما أتى بصيغة الخطاب لأنها أظهر؛ لكون علم الإنسان بما في نفسه أتم).

تُوعَدُونَ ﴾ مِن الثواب، والعذاب الدنيوي أسبابه سماوية.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ الَّذي تقتضي ربوبيتُه ما ذُكِر لكم مِن نَصْب الآياتِ لَهُم، وإعطائهم ما به بقاؤهم، والجزاء على أعمالهم، ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ مثل نطقكم، فأنتُم كما لا تَشُكُّون في نُطْقِكم أنَّه تحقق منكم، فكذا لا شك في أنَّ ما ذُكر لكم كلام ربكم.

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ عند الله. قيل: كانوا اثني عشر ملَكاً[1]، وقيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، سماهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الأضياف، فإنهم كانوا نازلين من السماء مبشرين ومنذرين، ويثبت بذلك أنَّ ما وعدهم سبحانه في السماء.

وذلك الحديثُ ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ ولم يعرِفهم، ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ تسليماً عليك، ﴿قَالَ سَلَٰمٞ ﴾ عليكُم أفضل مِن سلامكم علينا، فإنَّه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عدل إلى الرفع لقصد الثبات، فيكون تحيةً أحسن من تحيتهم[2]، ولكنكم ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾، وإنَّما أنكرهم لأنَّه ظن أنَّهم بنو آدم ولم يعرفهم.

فإذا سلموا عليه وعلم أنهم مسلمون ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ وذهب إليهم في خُفية حذراً مِن أن يكون الضيف أو يصير منتظراً، ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ إذ ذلك كان عامَّة ماله البقر.

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٤/٢): (وفي عددهم ستة أقوال: أحدها: أنهم كانوا ثلاثة، جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقال مقاتل: جبريل، وميكائيل، وملك الموت. والثاني: أنهم كانوا اثني عشر، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: ثمانية، قاله محمد بن كعب. والرابع: تسعة، قاله الضحاك. والخامس: أحد عشر، قاله السدي. والسادس: أربعة، حكاه الماوردي).

(٢) قال ابن القيم: (قوله: ﴿سَلَٰمٞ﴾ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل؛ فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالَّة على الثبوت، والمنصوب يدلُّ على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم. فإن قولهم: ﴿سَلَٰمٗا﴾ يدُلُّ على: سلمنا سلاماً. وقوله: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: سلام عليكم). انظر: تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص٤٨٧).

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ ووضعه بين أيديهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ حثّاً لهم على الأكل، وترك الواو للاستئناف، أو فلمَّا أعرضوا عن الأكل قال: ألا تأكلون.

فإذا أصرّوا على إعراضهم ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ ﴾ فأضمر منهم الخوفَ ظنّاً منه أنهم جاءوا لِشَرٍّ، فإنَّه في العادة أنَّ مَن يُريد الشرَّ لا يأكل طعامَ مَن يريد به ذلك، أو علم لعدم أكلهم مع التفرُّس فيهم أنه ملائكة، فخاف أنَّهم لأيِّ غرضٍ أُرْسِلوا، ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡ ﴾ لسنا نريد بك شراً، فإنّا أرسَلَنا ربُّك ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ هو إسحاق[1] عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، / فكانت البشارة بالولد وبقائه وعلمه. [٤٥٢/ب]

﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ سارةُ إذا سمعت تلك البشارة ﴿ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ ﴾ لطمت ﴿ وَجۡهَهَا ﴾ جبهتها كما هو عادةُ النسوان عند التعجب. وقيل: وجدت دم الحيض فلطمت حياءً[2]، ﴿ وَقَالَتۡ ﴾: أنا ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ فكيف أَلِدُ.

﴿ قَالُواْ ﴾: نحنُ لا نُبَشِّرُكِ مِن عند أنفسنا، بل ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الذي يكون فِعْلُه محكماً، أو ذا حكمة، ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ الذي يكون قوله حقّاً.

فلمّا علم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنَّهم لا يجتمعون للبشارة بل لأمر آخر ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ فأنتم لأيّ أَمْر أُرسلتم؟.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾ هم قوم لوط، فإنهم قد اشتهر جُرْمُهم في ذلك الزمان.

﴿ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴾ مُتَحَجِّرٍ.

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ مُرْسَلَة، أو مُعلّمةً[3] ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ الذين جاوزوا الحدَّ في الفجور.

---

(١) ليس هذا موضع اتفاق، بل الراجح أنه إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما سبقت الإشارة إليه، انظر (ص٨٧).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (١٤٩/٥).

(٣) انظر: إعراب القرآن للنحاس (١٦٣/٤)، وتفسير الرازي (١٨٠/٢٨)، وتفسير البيضاوي (١٤٩/٥).

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا ﴾ في قوم لوطٍ ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين آمنوا بلوطٍ.

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ الذين آمنوا بالتَّصديقِ والإقرارِ، ثم كانوا ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الذين عَملوا بما قال لهم لوطٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾ علامةً ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ فإنَّهم هم الذين يُعْتَبَرون، فإنَّ آثارَ ذلك العذابِ باقيةٌ.

﴿ وَ ﴾ كذلك تركنا ﴿ فِي مُوسَىٰٓ ﴾ الذي يُجادلك قومُه مع أنهم يعرفونك، وكان ذلك ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ هي مُعجزاته.

﴿ فَتَوَلَّىٰ ﴾ وأعرض ﴿ بِرُكْنِهِۦ ﴾ وقُوَّته معتمداً عليها، ﴿ وَ ﴾ لَم يُعارض ذلك السلطان المبين، بل ﴿ قَالَ ﴾: إنَّه ﴿ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ فإنَّ ما يَظهر عليه من الْمُعجزات إما لسحره، أو من الجن.

فإذا أصرَّ على ذلك ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ بلا سببٍ ظاهريٍّ بل سماويٍّ[1]، فثبت أنَّ ما وعد ربُّهم في السماء، ﴿ وَ ﴾ إنَّما فعلنا ذلك به إذ ﴿ هُوَ مُلِيمٌ ﴾ آتٍ بما يُلام عليه مِن الكفر والعصيان.

﴿ وَ ﴾ كذلك تركنا الآية ﴿ فِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ الذين أهلكتهم، وقطعت دابرهم، وتلك مِن الأمور السماوية. وقدّم موسى مع تأخره زماناً لأنَّ قومه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانوا يختلطون معَ قومه ﷺ.

وكانت تلك الريح ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ ومرَّت به ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ كالرَّماد.

﴿ وَ ﴾ كذلك تركنا ﴿ فِي ثَمُودَ ﴾ آيةً ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وذلك ثلاثةُ أيام، كما قال سبحانه: ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود:٦٥].

---

(١) قد تقدمت الإشارة إلى معنى قول المؤلف (بلا سبب ظاهري، بل سماوي)، وهو أنه بسبب خارج عن عُرف البشر وقدرتهم. انظر (ص١٧٩).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ العذابُ بعدَ ذلك الأجل ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها إذ جاءتهم بالنهار.

فإذا جاءتهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ لأنهم صاروا في ديارهم جاثمين، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ مُمتنعين عن ذلك العذاب.

﴿وَ﴾أهلكنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، فإنّكم إن لم تروا آثارَهم، لكنكم سمعتم أخبارَهم، / فإنها قد اشتهرت في كتب الأولين، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [٤٥٣/أ] فأُهلِكوا بفسقهم، ولم يكن لإهلاكهم سبب ظاهريٌّ، بل سماويٌّ، وأنتم لا تحتاجون في استدلالكم إلى أن تفحصوا الكتبَ لتسمعوا أخبارَ الأقوام الذين قد مضوا مِن قبل، ولا أن تسيروا وتنظروا آثارَهم، فإنّا لو لَمْ نهلكْهم بفسقِهم لكان عليكُم أن تُؤمِنوا وتعبدوا.

﴿وَ﴾أنتم لا تنظرون إلى أنَّ ﴿ٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ بِقُوَّة[1] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون، مِن الوسع بمعنى الطاقة[2].

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ لكم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ نحن.

---

(١) وينبغي التنبه هنا إلى الفرق بين لفظ ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ التي معناها القوة وبين لفظ أيدي والتي هي جمع (يد)، وقد أشار إلى هذا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣٤٢/٣) حيث قال: (وقد اعتل معتلٌّ بقول الله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ قال: الأيدي القوة، فوجب أن يكون معنى قوله: ﴿بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] أي: بقدرتي، قيل لهم: هذا التأويل فاسد من وجوه، أحدها: أنّ الأيد ليس بجمع اليد؛ لأن جمع يد أيدي، وجمع اليد التي هي نعمة أيادي، والله عز وجل لم يقل: بأيدي، ولا قال: بأيادي، وإنما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فبطل أن يكون معنى قوله: ﴿بِيَدَىَّ﴾ معنى قوله: ﴿بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾).
وقال ابن دريد في جمهرة اللغة (١٠٦٢/٢): (والأَيْد: القوّة، وَكَذَلِكَ الأَوْد. وَرجل ذُو آدٍ وَذُو أَيْدٍ، أَي: قُوَّة. وَمِنْه قَوْله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أَي: بقوّة، وَالله أعلم).

(٢) قال الماوردي في النكت والعيون (٣٧٣/٥): (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه خمسة أوجه: أحدها: لموسعون في الرزق بالمطر، قاله الحسن. الثاني: لموسعون السماء، قاله ابن زيد. الثالث: لقادرون على الاتساع بأكثر من اتساع السماء. الرابع: لموسعون بخلق سماء مثلها، قاله مجاهد. الخامس: لذوو سعة لا يضيق علينا شيء نريده).

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مِن الأنواع ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾، وإنما جعلنا ذلكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فإنّ في ذلكم آيات بيناتٍ لقوم يعقلون، فإنّهم يعلمون أنه لا بُدَّ مِن قادر مختار أنعم بهذه النِّعم الجِسَام، فهو يطلب الشكر عليها.

فإذا علمتم أنَّه سبحانه خالقكم ومنعمكم ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ واتركوا جميع مَن سواه، ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإنَّكم إن لم تشكروا نِعَمه التي إنّما أنعمكم بها لِئَن تشكروه فهو يُعذبكم لا محالة.

﴿ وَ ﴾أنتم إذا هو خلقكم ورزقكم وأنعمكم فأنتم ﴿ لَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إنَّ الشرك ظلم عظيم، ففروا منه أشد فراراً، ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

الأمرُ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾، ولكنّهم لا ينظرون ولا يتفكرون في ذلك، فينكرون ويقولون ما لا يليق، وتلك سُنَّةٌ قد مضت، فإنّه ﴿ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾.

﴿ أَ ﴾تّفقوا على ذلك القول بأجمعهم! لأنّهم ﴿ تَوَاصَوْاْ بِهِۦ ﴾ فيما بينهم، فإنَّ الأولين [أوصى](١) الآخرين منهم حتى قالوا جميعاً! ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ بطبائعهم، فإنَّ أيّامهم قد بعُدت، لا يكون معَ ذلك التباعد التواصي، فإنَّ ذلك يقتضي الإجماع(٢).

فإذا أعرضوا عنك ﴿ فَتَوَلَّ ﴾ وأعرض ﴿ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ على إعراضك عنهم؛ إذ قد بلَّغْتَ كما أُمِرْت.

﴿ وَ ﴾لا تَدَعِ التذكيرَ بالكلمةِ، بل ﴿ ذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين أرادهم الله أن يؤمنوا.

﴿ وَ ﴾لَم يصح لهم الإعراض لأنّي ﴿ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

---

(١) كذا في المخطوط والصواب أن يقال: [أَوْصوا].

(٢) يقصد المؤلف بالإجماع اتفاق الأمم المكذبةِ لرسلها، حيث لم يُدرك بعضهم بعضا فيتواصوا على التكذيب؛ ولكن لطغيانهم وكفرهم.

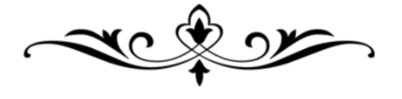
ويُوَحِّدون، فإنّا خلقناهم على صورة يتأتى منهم العبادة. وفيه إشارةٌ إلى المبالغة في طلب العبادة منهم حتى كأنهم[1] خُلقوا لأجلها.

فإنّي ﴿مَآ﴾ خلقتُهم لأنّي ﴿أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٍ﴾ وأستعينُ بهم في تحصيلِه كشأنِ السّادة مع عبيدهم، ﴿وَمَآ﴾ خلقتهم لأنّي ﴿أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ ويهيؤون لي ذلك، أو قُل لهم: لِمَ تعرضون عنّي؟ فإنّي ما أسألكم مِن رزق وطعام حتى أكون كلّاً عليكم.

فأصل الكلام كان بالخطاب، ثم حوّل إلى الغَيْبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ للجميع لأنه ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾.

ولا يُهمَلون على ما يفعلون، بل ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ نصيباً مِن العذاب / [٤٥٣/ب] ﴿مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ الذين مضوا قبلَهم، وفعلوا مثل أفعالهم، والذَّنُوب: هو الدّلو العظيم[2]، فهو مأخوذ من مقاسمة الماء بالدِّلاء، ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ فإنّ الذي آن كأنّه قد أَتى.

وإذا أَتى ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فإنّ النّدم حينئذ لا ينفعُهم.



---

(١) بل هم خلقوا لأجلها.

(٢) قال الراغب الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن (ص٣٣١): (والذَّنُوبُ: الفرس الطويل الذنب، والدّلو التي لها ذنب، واستعير للنّصيب، كما استعير له السّجل. قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾، والذَّنْبُ في الأصل: الأخذ بذنب الشيء، يقال: ذَنَبْتُهُ: أصبت ذنبه، ويستعمل في كلِّ فعل يستوخم عقباه اعتباراً بذنب الشيء، ولهذا يسمّى الذَّنْبُ تبعة، اعتباراً لِما يحصل من عاقبته).

الخاتمة

الحمد لله على أن يسّر لي إكمال هذا البحث والوصول إلى نهايته، وقد كان عنوانه: (التفسير المحمدي دراسةً وتحققاً) والذي كتبه مؤلفه الشيخ محمد بن أحمد بن نصير رحمه الله تعالى. وقد قسّمته إلى مقدمة وقسمين، والقسم الأول جعلته في فصلين، فصلٌ تكلمت فيه عن المؤلف، وفصلٌ تكلمت فيه عن الكتاب. وأما القسم الثاني فهو القسم المحقق من المخطوط من بداية تفسير سورة يس إلى نهاية تفسير سورة الذاريات.

ويمكن تلخيص هذا الكتاب القيم فيما يلي:

١- التفسير المحمدي هو تفسير إجماليٌّ لمعاني القرآن الكريم، متوسط الحجم، ليس بالطويل الْمُمل ولا بالقصير الْمُخل.

٢- اجتهد فيه مؤلفه ابن نصير في ربط معاني الآيات بعضها ببعض؛ لبيان معانيه، وإظهار حسن ترابطه، ليسهُل تدبره.

٣- جمع هذا التفسير مزايا كثيرة من علوم القرآن والتفسير، ومنها:

أ- يذكر المكي والمدني من السور والآيات.

ب- يُبين عدد آيات كل سورة.

ج- يذكر أحياناً الأسماء الأخرى لبعض السور.

د- يذكر سبب تسمية السورة، ويجتهد في ربط سبب التسمية بمقاصد القرآن العامة، وموضوعاته، وهداياته.

هـ- يذكر أسباب نزول الآيات.

و- يبين معاني ألفاظ القرآن مِن أقوال المفسرين دون تصريح لأسمائهم.

ز- يذكر بعض أوجه الإعراب في بعض ألفاظ الآية.

ح- يذكر بعض الأحاديث النبوية أثناء تفسيره، دون عزوها لأيٍّ من كتب السنة، ولا حكم على صحتها.

ط- يذكر بعض الخلاف في المسائل الفقهية بين المذاهب، ولا يختار الراجح.

ي- يذكر بعض الفوائد والاستنباطات الفريدة والنواحي البلاغية أثناء تفسيره.

٤- يوافق ابن نصير في عقيدته مجمل اعتقاد أهل السنة الجماعة في أركان الإيمان، ويُعَظِّم قدر الأنبياء عليهم الصلاة السلام، ويترضى عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

٥- وفي باب الأسماء والصفات يوافق بعض أصول المذهب الأشعري في تأويل صفات الله عَزَّ وَجَلَّ.

٦- له اجتهادات وتفسيرات عقلية في الآيات الكونية شبيهة بتفسيرات الفلاسفة وأهل الكلام.

٧- يظهر لي مِن خلال عزو الأقوال والرجوع إلى كتب التفسير أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كان له عناية كبيرة بتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير أنوار التنْزيل للبيضاوي.

وأستطيع القول في ختام هذا البحث بأنَّ التفسير الإجمالي للقرآن الكريم على نحو ما سار عليه ابن نصير رَحِمَهُ اللَّهُ مهمٌّ جداً؛ خاصةً في هذا الزمن الذي تزداد فيه الحاجة إلى تعليم القرآن وتفسيره، وتقريبه لكافة الناس باختلاف اهتماماتهم ومشاربهم، إذ يتحقق فيه بيان معاني القرآن، وربط معاني الآيات ببعضها، وتوثيق صلة القرآن بالسنة النبوية، وتوضيح الأحكام والمسائل التي ذكرها الله في كتابه، وإبراز النواحي البلاغية والأوجه الإعرابية.

أسأل الله أن يجعلني وقارئ هذا البحث مِمَّن يُسهم في تعلّم وتعليم القرآن، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهارس

وتشمل:

فهرس الآيات القرآنية المستشهد بها

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القصص		
﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾	٢٢	٨٦
سورة الأحزاب		
﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾	٦٧	١٣٦
سورة الصافات		
﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ ﴾	٣٠	١٣٦
سورة الزمر		
﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾	٥٣	١٢٥
سورة غافر		
﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ ﴾	٢٨	١٥٠، ١٨٩
﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾	٥٥	٢٠١
سورة الزخرف		
﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾	٤٥	٢٠٧
سورة الليل		
﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾	٣	١٣٠

فهرس الأحاديث النبوية

نزلت في يهود قالوا: لستَ صاحبَنا، بل هو المسيح بن داود، يريدون الدجال، قالوا: يبلغ سلطانه البرَّ والبحرَ، وتسير معه الأنهار (يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾)	١٦٦
هذا وقومه (يعني سلمان الفارسي، في المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾)	٢٦٣
هذه صلاة الإشراق (يعني الضحى)	١٠٧
هلا قُلتِ: إنَّ أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد	٢٨٣
هي شجرة أخي يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (يعني القرع)	٩٤
يا أيها الناس، إنما الناس رجلان: مؤمن تقيٌّ كريم على الله، وفاجر شقِيٌّ هَيِّنٌ على الله تعالى	٢٨٦



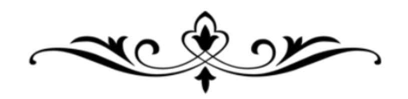
فهرس الآثار

الأثر	القائل	الصفحة
إنَّ المؤمن لَيبكي عليه مُصلاه، ومحل عبادته، ومصعد عمله، ومهبط رزقه	علي بن أبي طالب	٢٣٠
أنَّه هرب مِنه (يعني الكبش هرب من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) عند الجمرة، فرماه بسبع حصياتٍ، حتى أخذ، فصارت منه	ابن عباس	٨٩
أنَّهم كانوا عبدةَ أصنامٍ (يعني أصحاب القرية)، فأرسل إليهم عيسى اثنين، فلمَّا قدِما إلى المدينة رأيا حبيباً النجار يرعى غنماً، فسألهما، فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض، ونُبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولدٌ مريضٌ، فمسحاه، فبرئ، فآمن بهم حبيبٌ...	وهب بن منبه	٥٩
إنَّهم لَمَّا همُّوا بقتله (يعني: حبيبًا النجار) قيل له ذلك (أي: ادخل الجنة)، فرفعه الله سبحانه إلى الجنة حيّاً	الحسن البصري	٥٨
جعل (يعني سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) يمسح بيده سوقها وأعناقها (يعني الخيل) ليزيل الغبار عنها حُبّاً لها	ابن عباس	١١٣
ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية (يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾)	ابن عباس	١٠٧
مَن حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدته مائة وستين	علي بن أبي طالب	١١٠



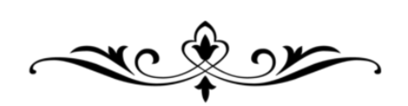
فهرس الأشعار

لا توجد أشعار في النصّ المحقق.



فهرس الأعلام المترجم لهم

العَلم	الصفحة



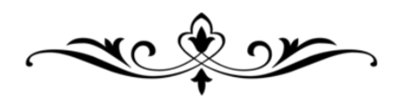
فهرس الكلمات الغريبة

الكلمة	الصفحة



فهرس الأماكن والبلدان

الموضع	الصفحة



فهرس المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٢. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، للفاكهي أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي (ت٢٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤. أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٥. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٦. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري عز الدين ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٧. أسماء سور القرآن الكريم، للدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع عضو هيئة

التدريس بكلية أصول الدين بالرياض، ضمن سلسلة البحوث العلمية المحكمة، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان).

٨. الأسماء والصفات، للبيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبي بكر (ت٤٥٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٩. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٠. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١١. إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت١٤٠٣هـ)، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص –سورية، دار اليمامة، دمشق – بيروت، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ.

١٢. إعراب القرآن، للأصبهاني إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي أبي القاسم الملقب بقوام السنة (ت٥٣٥هـ)، قدمت له ووثقت نصوصه: د. فائزة بنت عمر المؤيد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٣. إعراب القرآن، للنحاس أبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٤. الإعراب المحيط من تفسير البحر المحيط، للدكتور ياسين جاسم المحيميد، دار إحياء التراث.

١٥. الأعلام، للزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي (ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، أيار/مايو، ٢٠٠٢م.

١٦. الإكليل في استنباط التنْزيل، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٧. الأم، للشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (ت٢٠٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٨. الإنباه على قبائل الرواة، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النَّمَري القرطبي (المتوفى سنة ٤٦٣هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

١٩. الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، لأبي الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي (ت٥٥٨هـ)، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢٠. الأنساب (أنساب العرب – تاريخ العوتبي)، للصحاري أبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي العماني الإباضي (ت٥١١هـ).

٢١. أنوار التنْزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٢. بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي،

تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

٢٣. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٤. البدء والتاريخ، للمقدسي المطهر بن طاهر (ت نحو ٣٥٥هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

٢٥. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (ت٥٨٧هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٦. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٧. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار الفكر، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

٢٨. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٢٩. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٣٠. البيان في عد آي القرآن، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت،

الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٣١. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبي الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٣٢. تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبي جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك.

٣٣. تأويلات أهل السنة، لمحمد بن محمد بن محمود أبي منصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٤. التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٥. التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٣٦. تحفة الفقهاء، لمحمد بن أحمد بن أبي أحمد أبي بكر علاء الدين السمرقندي (ت نحو ٥٤٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٣٧. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، لصالح بن الحسين الجعفري أبي البقاء الهاشمي (ت٦٦٨هـ)، تحقيق: محمود عبد الرحمن قدح، مكتبة العبيكان، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- تخريج أحاديث الكشاف = تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري.

٣٨. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (ت٧٦٢هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٩. التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة السادسة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٤٠. التسهيل لعلوم التنْزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت٧٤١هـ)، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٤١. تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية، لابن كثير، موقع الإسلام.

- تفسير ابن أبي حاتم = تفسير القرآن العظيم.
- تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل.
- تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.
- تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم.
- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.
- تفسير الألوسي = روح المعاني.

٤٢. تفسير الإمام الشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (ت٢٠٤هـ)، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (أصلها: رسالة دكتوراه)، دار التدمرية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

- تفسير الإيجي = جامع البيان في تفسير القرآن.

- تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن.
- تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل
- تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن.

٤٣. تفسير الثوري، لأبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (ت١٦١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل.
- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب.
- تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل.
- تفسير السمرقندي = بحر العلوم.
- تفسير السمعاني = تفسير القرآن.
- تفسير الطبري = جامع البيان.
- تفسير الطنطاوي = التفسير الوسيط للقرآن الكريم.

٤٤. تفسير الفاتحة والبقرة، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

- تفسير القاسمي = محاسن التأويل.

٤٥. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٤٦. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٤٧. تفسير القرآن العظيم، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

٤٨. تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن.
- التفسير الكبير = مفاتيح الغيب.
- تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة.
- تفسير الماوردي = النكت والعيون.
- تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل.
- تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان.

٤٩. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٥٠. تفسير عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت٢١١هـ)، دار الكتب العلمية، د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٩هـ.

٥١. تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت١٠٤هـ)، تحقيق: د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

٥٢. تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٥٣. تفسير يحيى بن سلام، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي بالولاء من تيم ربيعة البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت٢٠٠هـ)، تقديم وتحقيق: د. هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٥٤. تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبي منصور (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٥٥. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم (شرح الكافية الشافية نونية ابن القيم)، لأحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى (ت١٣٢٧هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.

٥٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبي جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٥٧. جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبي جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٥٨. جامع البيان في تفسير القرآن، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعي (ت٩٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٥٩. الجامع الصحيح المختصر، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق:

د. مصطفى ديب البغا، أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة جامعة دمشق، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- الجامع الكبير = سنن الترمذي.

٦٠. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

٦١. جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٦٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٦٣. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

٦٤. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت.

٦٥. درء تعارض العقل والنقل، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٦٦. الدعاء، للطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبي القاسم (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٦٧. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للبيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبي بكر (ت٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٦٨. الرحلة الشامية، للأمير محمد علي بن محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (ت١٣٧٤هـ)، حرّرها وقدم لها: علي أحمد كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٦٩. روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي المولى أبي الفداء (ت١١٢٧هـ)، دار الفكر، بيروت.

٧٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٧١. الروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (ت٩٠٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، مطابع دار السراج، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

٧٢. زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٧٣. الزهد والرقائق، لابن المبارك أبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التركي ثم المروزي (ت١٨١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٤. الزهد، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت٢٧٥هـ)، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد أبي

بلال غنيم بن عباس بن غنيم، وقدم له وراجعه: فضيلة الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٧٥. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٧٦. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني (ت١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٤٢٢هـ/١٩٩٥م-٢٠٠٢م.

٧٧. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني (ت١٤٢٠هـ)، دار المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٧٨. سنن ابن ماجه، لابن ماجه أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي).

٧٩. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

٨٠. سنن الترمذي (الجامع الكبير)، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي أبي عيسى (ت٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

٨١. سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي أبي عيسى (ت٢٧٩ هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٨٢. السنن الكبرى، للبيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبي بكر (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٨٣. السنن الكبرى، للنسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي (ت٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٨٤. سنن النسائي الصغرى (المجتبى من السنن)، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٨٥. السير والمغازي، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى سنة ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م، الطبعة الأولى.

- شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

٨٦. شرح مشكل الآثار، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٨٧. شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبي بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د. عبد العلي

عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٨٨. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت٥٧٣هـ)، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، ومظهر بن علي الإرياني، ود. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت — لبنان، ودار الفكر، دمشق — سورية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٨٩. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٩١. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد التميمي أبي حاتم الدارمي البُستي (ت٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

- صحيح البخاري = الجامع الصحيح المختصر.

٩٢. صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، الطبعة الأولى.

٩٣. صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر.

٩٤. الصحيح المسند من أسباب النُّزول، لمقبل بن هادي بن مقبل بن قائدة الهمداني الوادعي (ت١٤٢٢هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الرابعة،

١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٩٥. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٩٦. ضعيف الترغيب والترهيب، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٩٧. ضعيف سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢٠هـ)، أشرف على طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٩٨. طرح التثريب في شرح التقريب، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (ت٨٠٦هـ)، وأكمله ابنه أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري أبي زرعة ولي الدين ابن العراقي (ت٨٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي.

٩٩. عمل اليوم والليلة: سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد، لابن السني أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن إبراهيم بن بُدَيْح الدينوري (ت٣٦٤هـ)، تحقيق: كوثر البرني، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن، جدة/ بيروت.

١٠٠. العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميمي الفراهيدي البصري (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٠١. غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر أبي القاسم برهان الدين الكرماني، المعروف بتاج القراء (توفي نحو سنة ٥٠٥هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

١٠٢. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي

النيسابوري (ت٨٥٠هـ)، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٠٣. غريب القرآن في شعر العرب، مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس (ت٦٨هـ).

- غريب القرآن للسجستاني = نزهة القلوب.

١٠٤. غريب القرآن، لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٠٥. الفتاوى الكبرى، لابن تيمية تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

١٠٦. فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي - قسم العقيدة، لعبد الرزاق عفيفي (ت١٤١٥هـ).

١٠٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٠٨. فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٠٩. فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١١٠. القاموس المحيط، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي

(ت٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١١١. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١هـ)، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، الطبعة الثانية.

١١٢. القيامة الكبرى، لعمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١١٣. الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، دار عالم المعرفة، بيروت «مطبوع بذيل الكشاف».

١١٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنْزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

١١٥. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبي إسحاق (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

١١٦. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي أبي البقاء الحنفي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١١٧. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيخي أبي الحسن المعروف بالخازن (ت٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١١٨. اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- لطائف الإشارات = تفسير القشيري.
- المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي.

١١٩. المجتبى من مشكل إعراب القرآن، للأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الخراط أبي بلال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ.

١٢٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٢١. مجمل اللغة، لابن فارس أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبي الحسين (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٢٢. مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة لمصحف الشريف، المدينة النبوية – المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

١٢٣. المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، دار الفكر.

١٢٤. مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٢٠هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

١٢٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام

عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٢٦. مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٢٧. مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، لأبي محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (ت١٤٢٢هـ)، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

● مختصر المنهاج للذهبي = المنتقى من منهاج الاعتدال.

١٢٨. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٢٩. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لعبد المؤمن بن عبد الحق ابن شمائل القطيعي البغدادي الحنبلي صفي الدين (ت٧٣٩هـ)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

● مسائل نافع بن الأزرق = غريب القرآن في شعر العرب.

١٣٠. المستدرك على الصحيحين، للحاكم أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النسيابوري المعروف بابن البيِّع (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

١٣١. المستخرج من الأحاديث المختارة، ضياء الدين المقدسي، (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ)، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، ٢٠٠٠ م، الطبعة الثالثة.

١٣٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

١٣٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٣٤. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٥. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، لمحمد بن محمد حسن شُرَّاب، دار القلم، الدار الشامية، دمشق — بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٣٦. معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٣٧. معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٣٨. معالم مكة التأريخية والأثرية، لعاتق بن غيث بن زوير بن زاير بن حمود بن عطية بن صالح البلادي الحربي (ت١٤٣١هـ)، دار مكة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

- معاني الأخبار = بحر الفوائد.

١٣٩. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج إبراهيم بن السري بن سهل أبي إسحاق (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٤٠. معانى القرآن، للأخفش الأوسط أبي الحسن المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري (ت٢١٥هـ)، تحقق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

١٤١. معاني القرآن، للفراء أبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى.

١٤٢. معاني القرآن، للنحاس أبي جعفر أحمد بن محمد (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٤٣. المعجم الأوسط، للطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبي القاسم (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.

١٤٤. معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

١٤٥. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق (المتوفى سنة ١٤٠٨هـ)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، الطبعة السابعة.

١٤٦. المعجم الكبير، للطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبي القاسم (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

١٤٧. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، لعاتق بن غيث بن زوير بن زاير بن

حمود بن عطية بن صالح البلادي الحربي (ت١٤٣١هـ)، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٤٨. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة.

١٤٩. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبي الحسين (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٥٠. المغني لابن قدامة أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

١٥١. مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الرّيّ (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٥٢. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

- مقاييس اللغة = معجم مقاييس اللغة.

١٥٣. المكي والمدني من السور والآيات من الكهف إلى الناس، لمحمد بن عبد العزيز بن عبد الله الفالح، دار التدمرية، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

١٥٤. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٥٥. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢م.

١٥٦. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، من ١٤٠٤هـ-١٤٢٧هـ، الطبعة الثانية دار السلاسل الكويت، والطبعة الأولى مطابع دار الصفوة مصر.

١٥٧. الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، لحسين بن عودة العوايشة، المكتبة الإسلامية/ عمان- الأردن، ودار ابن حزم/ بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-١٤٢٩هـ.

١٥٨. الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن (موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي)، لمجموعة من المؤلفين.

١٥٩. الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، للقاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي أبي عبيد (ت٢٢٤هـ)، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر (رسالة جامعية)، مكتبة الرشد، شركة الرياض، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٦٠. الناسخ والمنسوخ، للمقري أبي القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي (ت٤١٠هـ)، تحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٦١. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر المسمى بـ(الإعلام بما في الهند من الأعلام)، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (المتوفى: ١٣٤١هـ)، دار ابن حزم - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م.

١٦٢. النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه)، لعلي بن فَضَّال بن علي بن غالب المجَاشِعِي القيرواني أبي الحسن (ت٤٧٩هـ)، دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

١٦٣. النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري

البغدادي الشهير بالماوردي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٦٤. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت٤٣٧هـ)، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف: الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٦٥. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٦٦. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، والدكتور أحمد محمد صيرة، والدكتور أحمد عبد الغني الجمل، والدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.



فهرس الموضوعات

